SALIM BARAKAT

NOVEL

سليم بركات

سبايا سنجار



سبايا سنجار

سبايا سنجار / رواية
سليم بركات / مؤلف من سوريّة
الطبعة الأولى، 2016



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
سيسي ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: (**الكابوس**)، **هنري فوسيلي** / سويسرا
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-694-6



سليم بركات

سبايا سنجار



شخصيات ومعالم

* شَاهِيْكا : ١٧ سنة ، من سبايا سنجار .
* أَنِيْشا : ١٤ سنة ، من سبايا سنجار .
* نِيْناس : ١١ سنة ، من سبايا سنجار .
* كِيْدِيما : ١٣ سنة ، من سبايا سنجار .
* يَادا : ١٥ سنة ، من سبايا سنجار .
* سَارات : ٤٠ سنة . رسام من سوريا ، مقيم في السويد .
* عدنان : ٢١ سنة ، من مدينة الرمادي . مقاتل في تنظيم الدولة الإسلامية .
* إحسان :٤٢ سنة . داعية من تنظيم الدولة الإسلامية . من مدينة أبو كمال .
* علي : ٣١ سنة . شيشاني . من تنظيم الدولة الإسلامية .
* سعدون : ٢٩ سنة . من تنظيم الدولة الإسلامية . غير معروف الجنسية .
* عبد الله : ٢٣ سنة . انتحاري من تنظيم الدولة الإسلامية . ليبي .
* ناتالي : ٤٨ سنة . سويدية . زوجة سارات سابقاً . صاحبة غاليري .
* خاتْشيك : رسام أرمني ، سوري ، من أصدقاء سارات . مقيم في فنلندا .
* ويسْتروم : ٤٨ سنة . صديق ناتالي . سويدي .
* جبل سنجار : جبل في العراق .
* وادي لالِش : موضع في كردستان . فيه مرقد شيخ الأيزيديين عادي بن مسافر .

* بحيرة أوْدِن : بحيرة في ضاحية من عاصمة السويد .
* غوستاف العاشر : واحد من رواد الحانة .
* رجل وامرأة : صاحبا هرَّةٍ مفقودة .
* رجل صيَّاد : قاتل الهرة المفقودة .
* كلاب : يقودها عدنان متجوِّلاً .
* عاملة سويدية ، بدينة ، في متجر للأطعمة .
* «مُصحفْ رَشْ» : مصحف الأيزيديين .
* «خانَهْ صُوْرْ» : قرية الفتيات السبايا في سنجار .

الفصل الأول

(Henry Fuseli: The Nightmare)

خرجتُ من فراشي إلى المرآة الطويلة في الممر داخل البيت ، هذا الصباح ، بجذعي الأعلى عارياً ، والأسفل في بنطال المنامة الزرقاء القطن .

عاديٌّ أن أتفقد نفسي ، كل صباح ، في المرآة الطويلة ذات الإطار المعدن ، معلَّقةً إلى الحائط بعقفات حديدٍ تحتمل ثقلها ، في الممر الضيق قليلاً ، الممتد من بابا البيت إلى ردهته . عاديٌّ أن ألقي نظرة من صباح عينيَّ إلى صباح جسدي لأستعرض الظهورَ المتوقَّع للرسوم على جلد صدري ، وكتفيَّ ، وأجزاء من ظهري أيضاً ، على جهتيِّ الترقوتين .

أعرف مسبقاً ماذا سأرى . أعرف منذ الليل ماذا سأرى في الصباح على جلدي موشَّىً بأجزاء من رسم هو الأكثر جلاءً بنحته على لوح خيالي ممَّا أستعرض ، في الليل ، على بصري من لوحاتِ أساطين قنصِ اللونِ ، وترويض المعاني رسوماً .

كل ليلة ، قبل النوم ، ألتقط المجلدَ المُسْنَد إلى الحائط واقفاً ، إلى الجهة اليسرى من سريري . طوله ثمانون سنتيمتراً ، وعرضه خمسة وأربعون ، يحوي ثلاثمائة رسم من تلك الموصوفةِ الأمَّهاتِ في الأعمال

الكبار . لم أفهم هذا الميل المتساهل في قطْع الطريق على إلقاء نفسي في الفراش بلا مقدمات ، وإطفاء نور المصَباح للرحيل إلى منابت اليقين الأُوَلِ للكائنات : أعْني الغيبوبةَ ؛ أعْني الانحلالَ فراغاً في فراغ آخر ، والعودةَ إلى ما لم يكن قَبْلَهْ قَبْلٌ ، وليس بَعْدَه إلاَّ هو انحلالاً لن تؤرِّخَه يقظةٌ قط .

أستعرض لوحات الرسامين عشر دقائق ربما ، قبل أن أغلق المجلد فأركُنه إلى الحائط واقفاً ، وأنسلَّ إلى نفْسي بحلم في رسم ينجو من الوقت كرسومهم . غير أن خيالي يُؤْثِر ، بعد إغماضَ عينيَّ ، أن يفتح عينيه على الرسم الأكثر ضراوةً رأيتُه تلك الليلة من مجلد الرسوم : ما هو قاسٍ ، مزعجٌ ، دمويٌّ ، مُقلق ، عنيف ، يستحوذ عادةً على آخر برهة من نزهةِ بصري بين الصفحات الكبائر . رسمٌ واحد ، تلك الليلة ، سيرافقني إلى الصباح . رسمٌ فيه لمسُ الرعب ، أو نَفَسُ القسوة ، سيظهر ببعض تفاصيله ، لا بكلِّها ، على صدري ، وكتفيَّ ، وظهري ، في الصباح . وأنا سأتفقَّده ظاهراً بألوانه في المرآة على جلدي ، بتوقُّع عاديٍّ لا مفاجأةَ فيه ، ولا مباغتةَ تصدمُ أو تُجفل ، عارفاً أن الرسم سيتلاشى رويداً رويداً ، فينطفئ ويـمّحي في أول المساء .

لوحة الرسام هنري فوسيلي «الكابوس» هي التي استحوذت على حصص الرسوم الأخريات من خزْنة خيالي في ليلتي الماضية . كانت تفاصيلُ منها تنحدر من عنقي حتى ثديي الأيسر ، وتصعد تفاصيل أخرى من ثديي الأيمن حتى كتفي اليمنى وبعض عَضُدي .

رأس الحسناء ، المتمددة على سريرها في الرسم ، بشعره المتماوج على شُقرةٍ ، كان من نصيب الجهة اليسرى من صدري . هي نائمة بارتخاءٍ منزلِقٍ من رأسها وكتفيها إلى أسفل . مستغرقة في النوم على

نحو غير مفهوم ، مستريحة كما لا ينبغي قط ، وعلى بطنها ، تحديداً ، يجثمُ مسخٌ من مخلوقات العوالم الأسافل ـ عوالم المرايا في المقايضات اللامتكافئة بين الخير والشر ، والملائكة ، والغيلان ، والمسوخ والحِسان ، والسَّحرة المسخَّرِيْنَ دوابَّ الظلام ، والقديسين الصالحين ، البَرَرة ، جلاَّبي حِفْظِ العافية للمُبتلَيْن .

وجه المسخ وحده ظهر جليًا ، منفصلاً عن جسده ، على عنقي . ذراع الحسناء المتراخية من حافة فراشها حتى الأرض ظهرت على الجهة اليمنى من صدري ، وظهر شعرها على عضد ذراعي اليمنى .

ثمة تحويرٌ صغير ، لكنه غير مهم ، في سياق الأجزاء مبعثَرَةً من لوحة «الكابوس» على جسدي . أنا أتخيل الأجزاء الناقصة تستكملُ الظاهرةَ في جلد صدري . أستحضرُ الرسمَ كاملاً بالتفصيل المخيف الآخر فيه ، قريباً من جسد المسخ : رأس حصان من الجحيم .

لا أعرف أحصنة الجحيم كيف تكون . لكن الذي في الرسم واحد منها على الأرجح : فمٌ حيوانيٌّ مبتسم أو يكاد . عينان جاحظتان ببياضٍ موحشٍ في القياس إلى مراتب البياض العَشر مقسومةً ، ككل لونٍ ، خَمْساً للشر وخمساً للخير . مظهر اللون ، في أي رسم ، يكشف عن واحد من طباعه المتدرِّجة بخصائصها كطباع الإنسان : طَبْعٌ رائق . طبعٌ غاضب . طبعٌ موحش . طبعٌ حائرٌ . طبعٌ متبلِّد . طبعٌ جريء . طبعٌ حَذِر . طبعٌ منافق . طبعٌ متسامح . طبعٌ متكتِّمٌ . والبياض الذي اختاره الرسام السويسري لعيني الحصان ، الممحوَّتيِّ الحدقتين ، بياضٌ موحش كالرسم الموحش لائقاً بعنوانه : «الكابوس» .

جِلْدي ، هذا الصباح ، في عهدة الرسم الكابوس عليه ، إذاً . تأملته في المرآة بإحساسٍ بارد . مضيت ، من ثم ، إلى المطبخ الصغير .

شربت قدحاً من عصير البرتقال مع كعكة حشْوُها رب المندرين . استحممتُ برَشاشٍ دافئ . ارتديتُ ثيابي ذاتها : البنطال الجنز الأزرق الكالح ، والسترة البنية الداكنة ، المشمَّعة القماش ، الطويلة حتى منتصفَيْ فخذي .

هي ثياب الخريف في مطلعه ناعمَ الملمس كفصلٍ إن لمستُه بأنامل بصري . صيفٌ رطب ، مغلوب على أمره ، وضيعٌ بلا ولاءٍ ، مَرَّ كغيره من أصياف الأرض هنا ، التي يستقر عليها بيتي الخشبي ذو السطح القرميد ، المنعزل مواجهاً بحيرة أوْدِنْ المترامية كبحرٍ صغير لم يُنجَز ، تماماً كالرسم الناقص التفاصيل ، الذي سيرافق جِلْدي حتى مغيب هذا اليوم .

بيتي بيتُ اصطياف في الأصل على شاطئ البحيرة . مالكوه كانوا يرتادونه في أيام العطل الصيفية ، وفي الشتاء أحياناً لاختبار عُزلةٍ لطيفة أمام نار الحطب في الموقد يوماً أو يومين . بيتُ منعزل ، لا تجاوره بيوت إلاَّ من نوعه المحسوب للنزهات ، بعيدةٌ مئات الأمتار بعضها عن بعض . مكوَّن من غرفة نوم عادية ، وردهة عادية بأريكة واحدة ، ومنضدة تتوزع من حولها مقاعدُ صغارٌ قصارُ القوائم ، ومطبخ صغير لصقه حمام ضيق للاغتسال وقوفاً تحت رشاش الماء . وللبيت حديقة مستطيلة ، ممتدة في اتجاه صخور الشاطئ . وقد غُمرت أرضُ الحديقة الحجرُ بالتراب ، واستُنْبِتَ فوقها العشب ، مفتوحةً بلا سياج أو شجر من حولها .

استأجرتُ البيت من مالكيه منذ أربع سنين . زوَّدتُه بمدفأتين كهربيتين تُنقلان على عجالٍ من موضع إلى آخر ، مُذ لا تدفئة مشتَركة له كالتي للمجمَّعات البيوت المتلاصقة تتشارك في أقساط التدفئة

تصلها بالمياه الساخنة في المواسير . لكن للبيت مدفأة وقودها الحطب يجلبه لي ، كل مطلع خريفٍ ، بائع بعربته ، فاخزنه في صندوق كبير خارج البيت .

غير أن الأهم ، بالنسبة لي ، كان الكوخ المتصل بجدار البيت الجنوبي ببابٍ صغير في جدار المطبخ . وقد استخدمتُ الكوخ كمَشْغَل تتحاشد على رفوفه علبُ الدُهان ، وتتراشق الألوان فيه بتحميل اللون للون تبعات الفشل في انتصار ، وتبعات النجاح في الخروج بالأشكال من متاهة الهيولى إلى الوجود الفاتك ، أو الفاتن .

ينتابني إحساسٌ ، أبداً ، أنني أستطيع لمس شاطئ البحيرة ، إن مددت ذراعي إليه من نافذة الكوخ المَشْغل ، المطلَّة على الجهة الشرق . مقعدي للرسم ، أعني الكرسيَّ ذاَ السيقان الثلاث العالية ، هو إلى جوار النافذة ، قبالة رافعة ألواح الرسوم التي تتهيَّأ لي ، وقتاً بعد وقت ، ببياض القماش المشدود عليها ، وأتهيأ لها بخيالي مشدوداً .

بحيرة أوْدِنْ الساكنة ، في أيام الخريف الأُوَل ، مستقرَّةٌ على رسم واحد في مشهدها ، تتناوب عليه تفاصيلُ لاتلبث أن تُلْجَم ، أو تُزاحَ لتفاصيلَ تالية حظُّها الزوال من عبور قوارب بمجاذيف ، أو تماوج إن لهثت الريحُ في الركض بمائها . قصب كثير يحيط بضفافها المرئيةٍ من نوافذ البيت المقبلة على الجهةِ الشرق ، إلاَّ في الفسحة المتصلة من شاطئها ، برباط الصخور السود ، بنهايات الصخور تحت تراب الحديقة ، على بعد خمسين متراً ربما : الشاطئ مفتوح هنا ، بلا قصبٍ يحدُّه أو يكتنف استعراضَ الماء لِمَا يختلس من الضفة ، أو ماتختلس الضَفةُ من الماء . شاطئ مكشوف على الإوز ، والبط ، والزماميج تتآلف فصائلَ في الظهور بانساقِ طبائعها ، وتنفصل على تدبير الفصول لتشريع الإقامة

والهجرة . لكنَّ الجهة الشمالية من الضفة يتراكب قصبُها ، على بعد مائتي متر من بيتي ، مع مطالع الأجمة الكبرى من أشجار التَّنوب ، والصنوبر ، والبتولا ، التي تتخلَّلها مسالك للمشاة حتى نهايات الأجمة ، المتداخلة مع صفوف البيوت القرميد مشرفةً على المعابر الواسعة صوب العمارات ، بطبقاتها المتراكبة ، المحيطة بمركز التَّسوُّق في منطقة سْكُوغوس الضاحيةِ من ضواحي عاصمة السويد .

تهيأتُ لمغادرة البيت إلى مركز التسوُّق لجلب القليل الذي يكفيني من مواد للطهو وشراب . وضعتُ لفافتَيْ تبغ ، لا غير ، في جيب سترتي . سأدخن واحدة أولَ دخولي المسالك بين الأجمة نحو السوق ، وأدخن الأخرى في دخولي الأجمةَ عائداً من السوق .

كُثُرٌ ، أكثر مما أعرف ، أولئك الذين يفضلون التدخين مع رشفة القهوة . أنا لا أفعل ذلك . أفضِّل نكهةَ الدخان عاريةً في العبور من قصبة التنفس إلى رئتي . أحب الدخان جريحاً في فمي ـ هكذا أحسُّه منتشراً حين أنفثه بين الشجر ، الذي يمرِّغ كل أفق بَعْدَه في الظلال .

طعمُ دُخان التبغ هو الذي يجدِّد عهدي بالصباح ثقيلاً علي منذ سنين . أحسُّ طعم دخان التبغ لا غير مُذ استحال داخلي إلى حفرة : لا كبد لي ، لا معدة ، لا أمعاء ، لا قلب . جسدي كلهُ رئةٌ لاستنشاق الدخان ونفْثِه . أنا هواءٌ حيٌّ بالدخان الذي فيه .

كنتُ عنيداً جداً في اعتقادي ، سابقاً ، أن للإنسان قلباً واحداً تخيَّرْته النشأةُ له مركزاً لتوزيع الحقائق سائلاً أحمر على شرايين الجسد وعروقه . قلب واحد . طاغية واحدٌ يجمع سلطات الجسد في إرادته . أعضاء الجسد رهائنة . الجسد دولتُه ـ الرعايا ، والإدارات ، والشؤون الموقوفة بتمامها عليه في التصريف . مستبدٌ أحْكَمَ ضمَّ دولة الجسد ،

بكل مناحيها ، إلى مشيئته في التصريف حكْراً عليه ، فإن انهار انهارت الدولة .

كنتُ عنيداً في إيماني بوحدانية القلب ، وأحديته ، في الجسد الواحد للإنسان . إيمانٌ تسليمٌ لا يحتاج إلى برهان ، كإيمان الرسل ، والأحبار ، لا يحوجه جدالٌ كالجدال في أصول الملح ، وأصول الكون . لكل واحد منا قلبٌ واحد ، في الوسط المائل الكفَّة قليلاً إلى الجهة اليسرى من صدره القفص ، ذي القضبان العظام ، حاوياً ، في كل فصل من فصول طباع الإنسان ، طيراً مختلفاً ، منه الصامتُ ، ومنه المتكلم ، ومنه المرفرف ، ومنه الجاثم على بَيْضِ المجهول الحائر في تسوية نَسَبه .

لكن ، منذ أنجز المهندسون ، بأيدي صُنَّاعهم اللَّهبيين تشييدَ الجحيم كاتدرائيات من نَسَبِ العمارة المذهلة في سوريا ـ بلدي ، أدركتُ أن لي قلوباً كُثراً على عدد الموت حين يستقر الموتُ بمبشِّريه ، وبمعابده ، وبمراكز إعاناته الطافحة المخازن بالمؤن ، على أرض كأرض بلدي .

كاعتقادي الأول ، باستنادٍ إلى معجزة التشريح ، أن للإنسان قلباً واحداً ، بات لي اعتقادٌ ، باستنادٍ إلى عِلْمِ اللوعة ، أن للإنسان المنكوب مثلي قلوباً لا تُحصى . والأمر لا يحوجه برهان : لقد صرتُ ، كلما رأيت بيتاً منهاراً في الصور الناطقة بلسان الخراب ، سمعتُ واحداً من قلوبي ينفصل عن عنقوده في شجرة صدري ، ويهوي بصدىً معدنيٍّ في ارتطامه بغور أعماقي السحيقة . كل عمارة انهارت انهار معها قلبٌ من عنقود قلوبي . كل قاربٍ غرق بالهاربين إلى آلهة البحر أغرق معه قلباً من عنقود قلوبي . كل قافلة نازحة بالأطفال يجرُّون لحُفاً معهم ،

وبالآباء زائغي الأبصار ، وبالأمهات مفتوحات الأفواه هلعاً مما لا يفهمن ، سحلت خلفها قلباً من عنقود قلوبي .

- خبراً بعد خبر من تلك المرئية بالألوان التسعة للمرئيات ، تعرَّى العنقودُ الحامل قلوبي التي لا تُحصى . تَجرَّد العنقود . انتهت قلوبي الكثر بتمامها ، عن بِكْرتها . كانت قلوبي كُثراً لم يخطر ببالي أن تنتهي منهارة بصدىً صفيح في الفراغ المتقن حَفْراً في أعماقي بمعاولِ الولي الإيراني ، المبشر بالخرابِ حتى عودة مهندسه الإلهي من غيبته لترتيب حقائق العمران تخططياً على ورق مذهبه ؛ وبمعاول الأمريكي الشؤم ، المشؤوم ، حسين أوباما ، الذي لن تتجرَّأ المصادفات ثانيةً على ابتداع شخص مثله على كمالٍ مذهلٍ في اللا أخلاق ، منذ أخرى الحروب الكبريات للبشر ذوي الطباعِ الحروب يستلهمونها للخروج من مأزقٍ غرام فاشل . حسين أوباما سيحفظ له التاريخ مأثرةً بلا مثيل : هو الأول أجازَ وضع الأخلاق جانباً في فُرْجة قلبه ـ الخائف من أن يسيء الأمريكي الأبيض فهمَ رئيس أسود ـ على شعب هشَّمه غزاة من خارج ، وغزاة من داخل . سَجَّل حسين أوباما لنفسه ، بلسانه ، أنه لم يتسبب في جرح أمريكيٍّ كما تسبب رؤوساء بِيْضٌ من قبله ، مذعوراً من أن يوبَّخ كأسودِ أولَ في حُكم بلد لم يحكمه إلاَّ الأبيض ، لكنه ترك ملايينَ بشراً غارقين في يأس التاريخ من حُكْمه على اللاأخلاق ، منذ مقتل أطفال في مدينة درعا .

فراغٌ متقنٌ حَفْراً في أعماقي بمعاول عائلة سارق بلدي ، الذي قايض بقاءه حاكماً بتسليم البلد إلى من يشاء من الغزاة ، وبمعاول قيصر روسيا الأخير ، لقيط راسبوتين ، وبمعاول رجب أردوغان ، الذي قَلَب ، بفطرة العجرفة القاصرة ، حدودَ بلدي على رؤوس السوريين

بفتحها لوحوش الجهاد ، بلا حصافة في تقدير الحاصل ، بالحسابات الخطأ لأشباح العثمانيين ، والامبراطورية المفقودة في حسابات اللعب بالنار تحت وسائد الأقدار متجرِّعةً سمّاً قبل النوم ؛ وبمعاول كُفْر الشريك بشريكه في بلدي .

كُثُرٌ جلبوا إلى بلدي بوّاباتٍ ذهبية للجحيم لا نظير لها منذ آخر حرب كبرى من حروب الأمم المحفوظة . كُثُرٌ أولئك الذين بعثروا عنقود قلوبي سمعتُ سقوطها ، واحداً واحداً ، بصدىً معدنيٍّ يصعد من أعماقي إلى لساني المرتجف . وها أنا لاشيء فيَّ الآن . أقرعُ صدري على فراغٍ لافراغ مثله . حُفْرةٌ في داخلي . أعضائي حُفَرٌ . لقد كنتُ على يقينٍ أنْ ما من عِلْم يقنعني أن للإنسان أعضاء أكثر مما يراها بعينيه من جسده ، أو يراها في المرآة . محنةُ بلدي أدارت يقيني هذا على نفْسه ، وقلَّبت كرسيَّهُ عليه .

لقد آمنتُ ، كل يوم من أيام العضِّ بالصورِ المِحْنةِ على كياني ، أن أعضائي بلا حَصْرٍ أيضاً ، كقلوبي التي ظننتُها بلا حصر . من كان يفقد ذراعاً ، في قصفٍ ، كنتُ أهديه ذراعاً من أذرعي الكُثر على صحن من اللوعة ، ومن يفقد رِجْلاً أهديه رجلاً من أرجلي الكثر ، ومن يفقد عيناً أهديه عيناً من أعيني الكثيرة ، ومن يفقد عظاماً أهديه عظاماً ، ومن يفقد رأساً أهديه واحداً من رؤوسي الكثر .

انتهت أعضائي أيضاً كقلوبي تجرَّد منها عنقودها اللا موصوف . لا أعضاء لي ؛ بل لي أعضاء هواءٌ .

يميل بي ، في محنتي الغامضة هذه ، أعني أن أكون بلا قلب أو أعضاء ، تقديرٌ غريب إلى البحث عن قلبي وأعضائي في الطمي البرزخ بين حجارة الشاطئ ومياه البحيرة ؛ أن أبحث عنها في الزبد إنْ

هدهدتِ الريحُ الماءَ . وقد أمضي أبعدَ في هذا البحث المُخْفِق عن قلبي وأعضائي ، فلا أستثني صياحَ الإوز أيضاً ، مذ آمنتُ أن الصوتَ نفْسَه خزْنةٌ أو مَخْبأ .

ربما هذا هو أول برهان أن الكائنات قد تحيا بقلوبٍ خارج أجسادها . لكنَّ برهاني خافتٌ كأسئلتي الخافتة بعد صخب هائل انتزع مني كلَّ عضلة ، بل جففني . لقد انتهيت . لا . لقد انتهى تاريخ الأخلاق : منذ الحرب الثانية الكبرى في كون البشر المهازل لم يحدثْ تمهيدٌ مبشِّر بنهاية الأخلاق إلاَّ في أيامنا هذه . ربما هو الألم يستوجب قساوةَ حُكْمٍ في ترتيب النهايات ، والآخِريَّات ، كحُكْمي . لن أتراجع عن ذلك .

إحساسي بالأشياء خافتٌ بعد إعصار من الحزن المتبادَل ، واستحقاقات الحزن المتبادَل . نحن كائنات الحزن قبل أن نكون كائنات الحساب في المُعْضلة الكليَّة : يموت قَبْلنا مَنْ نحبهم فنتمزَّق حزناً . نموت قبل بعض مَنْ يحبوننا فيتمزقون حزناً . تخطيطات محزنة للحياة . مقايضاتُ الحزن بالحزن . خرائط لاكتشاف الحزن . مقاطَعاتُ الحزن . مدن الحزن . شعوب الحزن . كشوف مدهشة لآثار الحزن في الطبقات الأعمق من أرض الإنسان . خططٌ كبرياتٌ للعثور على مناجم الحزن ، ومعادن الحزن النفيسة ، والرخيصة . الحزن هو انفجارُ الهيولى الأعظمُ الذي صَنَع الكون . كلُّ البقية أملٌ في حزنٍ أقل .

لكنني لستُ حزيناً ، مُذ لم يَعُدْ في الفراغ الذي صِرْتُهُ موضعٌ لحزن أكثر . ربما سيذكِّرني دخانُ لِفافتي ، التي سأشعلها على مدخل المعبر إلى الأجمة ، بالدخان في بلدي ؛ بالأبنية الدخان ، والقتلى الدخان ، والسجناء الدخان ، والنازحين الدخان ، والطوائف الدخان ، والأعراق الدخان ، والجغرافيا الأكثر خفَّةً في تمزُّقها من الدخان

ستشتِّته النسائم في خروجه نفْثاً من أنفي ، وفمي ، معاً .

هل ينذر صباحُ يومي هذا برذاذ مَّا؟ تشمَّمتُ الغيومَ متلاصقةً بلا منافذ . تشممتُ الهواءَ ذا الأسواق الأثير مفتوحةَ الحوانيت على مياه البحيرة : توابلُ الهواء رَطْبةُ الفوح . لم أنتظر بلوغي مدخلَ الممرات المتشعبة بين الأجمة . أشعلتُ لفافتي الأولى . تنشَّقتُ الدخانَ العفيفَ ، المتبتل ، الأمين لقواعده وشرعه ، منسلاً من فوره إلى دمي ، جارياً في العروق الصغار للدماغ . تماوجت صورٌ قلَّبْتُها بيدَيْ خيالي ، في تصميمي ، منذ أيام ، أن أرسم جبلاً حزيناً ، لكنني لن أهتدي ، في الأرجح ، إلى اللَّمسة التي تجعل جبلاً ، بقدرة اللون ، حزيناً .

أسأستحصل حزناً للجبل إن رسمتُه أجردَ بلا شجر ، أو نبت؟ كثرةٌ هي الجبال الجُرْدُ ، لكن لا حزنَ في سمات صخورها . أمْ تُرى إن رسمتُه بغيوم تتناهش قمتَه من أعلى ببراثنها ، وتصبُ البروقُ عليه وعيدَها الهاذي؟ سيبدو مذعوراً ، ربما ، لا حزيناً .

ماذا عن ثلج فوق قُلَّته ، وعلى منعطفاته ، وأعراف مهاويه العنيفة الانحدار؟ ماذا عن شجر محترق على سفوحه ، وصدوعٍ طوال تنكِّل بضخامته؟ هل يقيِّض ذلك لي مَدْخلاً إلى حزنٍ جبليٍّ؟

لماذا عليَّ أن أرسم جبلاً أصلاً؟ لامحيد في فكرتي عن ذلك . منذ نكبة الأيزيديين الكُرد في جبل سنجار ، جمعتُ خيالي على تسديد الضرورةِ عنيفةً إلى رسم ذلك الجبل . لقد أنجزتُ ، قبلاً ، سبعة رسوم من وحي الجروح الضارية فيَّ أسىً على بلدي . كلُّ شيء كان عنيفاً فيها ، قاسياً ، صارخاً ، ملتاعاً : أجساد ممزقَة . شوارع ممزقة . أبنية ممزقة . حدائق ممزقة . سماء ممزقة . قوافلُ بشرٍ ممزَّقين بصُرر على الأكتاف ، منتهكين ، يائسين . ربما ذلك العنف المتمادي في رسومي

أساء إليها . بعتُها ، لكن في شكٍّ من جودتها .

قبل تلك الرسوم بوقت باشرتُ نُتفاً من أفكار اللون عن «سبي بابل» ، ثم أجّلتُ الرسم . ولي ثقةٌ أنني لو أنجزته لكان أفضل من مجازر الوحي ألهمني رسومي منكوبةً بالصراخ فيها من حناجر اللون وقلوبه . لكنني أعذر نفسي في انحدارها من الرؤيا الدموية للحقائق إلى خيالي ، منذ استحدث حاكمُ بلدي العلويُّ ، في خمسة عقود من إذلالِ البلد ، قاعدةً تُضاف إلى قواعد الكشوف الكبرى ، مثل كون الكوكب الأرضي كرةً تدور حول نفسها وحول الشمس ، ومنطق الجاذبية . وهذه القاعدة الفذَّةُ حاصلُها ، باختصارٍ ، أن أقصر الطرق إلى حُكم بلا نهاية هو تدمير البلد .

عَلى نفْثِ دخان لفافتي لفَّقتُ تقاطعاتٍ موهومة ، وتضاريس موهومة لجبل سنجار على الهواء المختلطِ بهمس الشجر ، وبنداءات بعض الطيورِ القُرْقُف ، والشحارير ، أو بزعيق العقاعيق . تخيلتُ الجبل عالياً مرةً ، واطئاً مترامياً مرةً في مجثمه غرب العراق ، ولم يغفل خيالي عن تصُّوره مقلوباً ، غائصَ الكتلة في الأرض إلى الأسفل ، بقاعدة متجهة إلى السماء مثل حفرة لا حدود لها ، من أرمينيا إلى بحر الصومال .

لا شيء ، في توهُّمي المتخيَّل للجبل ، يشبهه في واقعه الموثَّق بقواعد التضاريس : هو كتلة صخرية ، موحشة ، في الإقليم الذي أعلنه إمبراطور روماني مستعمرةً ، ثم احتله الفُرس فسبوا أهله ، وأنزحوهم إلى أرض فارس ، قبل أن يستعيده إمبراطور روماني آخر .

لا أظن أن واقعية جبل سنجار هي المُلحَّة على خيالي في تفصيل جبلٍ اسمه سنجار ، بمقصَّات اللون ، بعد نكبة الأيزيديين . حزنُ أرضٍ

صخرٍ ـ مرتفعة عن المُنْبَسط من حولها بدفْع من يَدي الجوف المصهور لكوكبنا ـ هو الذي يهمني توثيقه ، بلا اهتداء إلى آلةٍ لتوثيق الحزن ظاهراً على صخور الجبل .

كنتُ ، بعْدُ ، في مدخل المسالك المتشعبة إلى أجمة الشجر حين لمحت ، على معبرٍ موازٍ ، عن بُعْدِ أمتار ، فتاةً ليس للذي ترتديه من الثياب شبهٌ بما أراه على فتيات هذه الضاحية ، أو غيرها . كانت تغطي رأسها بخمار أحمر فيه خطوطٌ بياضٌ ، ونقاط بياض ، وعليها سترة طويلة حتى ربلتَيْ ساقيها ، بالوان متمازجة من بُني وحمرة ، ولها حول العنق بَنِيْقةٌ بيضاء . فيما تتماوج تحت حواشي السترة أطرافُ ثوب واسع ، بُني داكن .

توقفت الفتاة بدورها إذْ لمحتني . ألقت عليَّ من بُعدها ذاك نظرةً لم أخمن وزنها بميزانٍ بصريْ ، ثم تابعت مشيها المعاكس لاتجاهي .

لم أقاوم فضولي ، فالتفتُّ إليها بعنقي أرصدها مبتعدةً ، مذْ لم أرَ ، من قبل ، من يشبهها في الثياب قادماً إلى أنحاء بيوتنا الخشب ، المتناثرة بُعْداً على ضفاف البحيرة . كنتُ أستطيع ، من مدخل المعبر الذي لم أتوغل فيه أبعد من خمسين خطوة ربما ، أن أتبيَّن كيانها خارجاً من الأجمةِ الشجر إلى الأرض الخلاء المتداخلة صخوراً سوداً ، وأعشاباً فسحاتٍ ، على تخوم القصب العالي .

توقفتُ . استدرت بجسمي كله متقصياً ، في فضول ، تلك الفتاة متجهة إلى الجنوب . إحساسٌ مَّا رقيقٌ ، أو مشتت قليلاً ، أنبأني أنها تتجه إلى بيتي . إحساسٌ مَّا!! لي أحاسيسُ بعدُ ـ أنا الذي بلا قلب ، أو جوارح . أحاسيسُ فارغةٌ إنِ استقصيتُ النَّفَسَ الأخير في يقظتها الغامضة لم أعثر إلاَّ على كراهية موجعة . كراهيةٌ توجعني وحدي . لا

مبالاة المقتدرين في أم الأرض بمحنة بلدي أرغمتني على كراهية الكون : خُذِلَ السوريون في رغبةٍ أبدوها ، بعد عشرات السنين من نهب الوحش الحاكم أحلامهم ، أن يكونوا سوريين بلا خوف . كراهيتي بلا حدود للدول ، وللمذاهب ، وللحاكمين ، ولم أستثن من كراهيتي الكثيرَ من أهل بلدي أيضاً هبَّ بعضهم حرساً لحماية حصن العبودية ، وانبرى بعضٌ مبشِّرين للجحيم في الأرض باسم الربِّ .

ربما سأستعيد أحاسيسي أقلَّ فداحةً إنْ رميتُ بثقل الحياة فيَّ على رسم الجبل ، لكنْ بضراعة إلى اللون أنْ يدلَّني على ما يجعل جبلاً مَّا حزيناً .

عدتُ أدراجي خطواتٍ أتمحَّص ، بتأنٍّ ، أين تتجه الفتاة . نسيتُ لفافة التبغ برهةً بين الإصبع السبَّابة والإصبع الوسطى في يدي اليسرى . رفعتها إلى فمي استنشقها ، فوجدتها مطفأة . أعدتُ إشعالها بقداح الغاز الصغير على وقع خطواتي القصار ، المتمهلة كعينيَّ في التحديق .

إنها تتجه صوبَ بيتي في عبورٍ قوسيٍّ من مخارج الأجمة إلى الشاطئ ، ثم تنعطف إلى مدخل الحديقة العشبِ المكشوفة .

عجَّلتُ خطواتي . بلغتُ الحديقة بدوري متطلعاً إليها تقرع باب البيت بيدها قرعاً خفيفاً . التفتت بوجهها إليَّ مذ أحسَّت بي قادماً . تراجعت عن الباب خطوتين . ابتسمت متكلمة بصوت رفيع قليلاً ، منخفضِ النبر . قالت بلغة كردية :

– أنت سَارَاتْ . لمحتُك بين الشجر لكن لم أحسم أنك أنت .

«بِمَ أستطيع خدمتك؟» ، سألتها . استدركتُ : «كيف تعرفين اسمي؟» .

لم تردَّ مباشرةً على سؤالي . لاقتني متقدمةً في المعبر وسط الحديقة إلى منتصفه .

«أنا شَاهِيْكا» ، قالت من غير تسليم باليد مصافحةً .

«شاهيكا؟!» ، تساءلتُ مستغرباً نَبْرَ الإسم في فمها .

«نعم . أنا شاهيكا» أكَّدت إسمَها .

«ما معنى هذا الإسم؟» ، سألتُها .

«لا أعرف» ، ردت مبتسمة . «إنه اسمي المستعار» .

«اسم مستعار؟!» ، تساءلتُ مستغرباً .

«نعم» ، ردت .

«لماذا تقدمين نفْسك إليَّ باسمٍ مستعار؟» ، سألتها .

«ذلك أفضل» ، ردت .

«ما عمرك؟» ، سألتها مستقرئاً بعينيَّ السنينَ ممعوسةً قليلاً في مرآها الفتيِّ ، الشاحب .

«سبع عشرة سنة» ، ردت .

تكشَّف الجلدُ حول عينيها عن غضون لا تليق بعمرها حين ابتسمت من وجهها المتطاول بالَغَ الخمارُ ، الذي غطت به رأسها ، في إضافة طول إليه ، بالعينين الصغيرتين فيه ، والأنف المحدَّب .

قصيرةً ، ونحيلةً ، وقفت الفتاة قبالتي على نحوٍ كأنها تتوقع أن أبادرها بالترحيب كشخص أعرفه . ثيابها ـ السترةُ الخشنة ، الطويلة حتى ربلتَيْ ساقيها ، فوق الثوب البني ـ واسعة عليها كاسمها الغريب اختارتُه مستعاراً . سألتها :

- ألست صغيرة على اتخاذ اسم مستعار؟ .

نقلت بصرَ عينيها الصغيرتين تمازجت خضرة وصُفرة فيهما إلى

مياه البحيرة ساكنةً . ردت من غير أن تنظر إليَّ :

- نحن اللواتي هنا نفضل أسماء مستعارة .

نقلتُ بصري مثلها إلى الأفق مكتنزاً بالرماديِّ فوق المياه ، كأنما نلاحق ، معاً ، أشباحاً في زوارق تجري بالمجاذيف :

- من أنتنَّ؟

التزمت الفتاةُ الصمتَ برهةً ، فانحرفتُ عن سؤالي ذاك إلى سؤال آخر مزدوج :

- بِمَ أَستطيع أن أخدمك؟ كيف عرفت اسمي؟ .

«أنت سارات» ، ردَّت على نحو لم أفهم أهي تؤكد لنفسها مَنْ أنا ، أم تسألني؟ أضافت : «أنا شاهيكا» .

«حسناً ، ياشاهيكا . ممَّن أنت خائفة لتتخذي اسماً مستعاراً؟» ، سألتها ، ثم استدركتُ : «أمْ تفضلين اسماً فنيًّا على اسمك الحقيقي؟» .

«أنا لا أخاف . أنا ميتة» ، ردت .

بدا لي الموقف ساخراً بلا طرافة . غمغمتُ لاأدري أأجاريها أمْ أختصر اللقاء الباهت ، قبل أن تستقر على لساني كلمات انزلقت في خِفَّهِ البداهة :

- إن كنتِ ميتة فلماذا تقدِّمين نفسك باسمٍ مستعار؟ .

«ذلك أفضل» ، ردت .

«أهذا جوابك المحفوظ ، الحاسم؟» ، سألتها ببعض البَرَم ، ثم أضفت :

- ليكُنْ . ماذا تريدين مني؟ .

«أنا هنا» ، ردت بقناعة في ملامحها أنني ، ربما ، أنتظر لقاءها في

هذه الساعة من صباح يومي ، المتلاحم الغيوم بلا فواصل .

«أنت هنا . نعم . أراكِ» ، قلت . أردفتُ : «هذه أول مرة أكلم أحدَ الموتى وجهاً لوجه» .

ابتسمت شاهيكا ابتسامة ليس فيها أثر من تذوُّق الطرافة في ما قلت . أدارت وجهها ، من جديد ، صوب المياه المترامية رماديةً :

- هذه بحيرة لالِشْ .

«ماذا؟» ، تساءلتُ مستغرباً .

«بحيرة لالش» ، كررت الفتاة ، التي نفرت خصلٌ متماوجة من شعرها البني الفاتح من تحت خمارها .

لم أفهم الوقْعَ الجامعَ لخطف بحيرة أوْدِن إلى وادٍ في جبال كردستان ، مقتَطَع من أودية السماء في إيمان الكُرد الأيزيديين قبل خَلْقِ الأرض . الأمكِنةُ الحسْمُ في إِملاءِ القدسيِّ شَرطَ مقاليده على الوجود هي أمكنةٌ تسبق الوجود ، محفوظَةٌ على شجرة العِلْم الأول والآخر الأزليين ، الأبديين ، محيطيْنِ بكل محيط في استبطان الله لمكنون ما يَعرِف . صورُ الأمكنة القدسية ، قبل حدوثها أمكنةً بخلْقِ الأرضِ ، كانت موزَّعة على أقاليم الغيهب الكليِّ ، في العماء المتصرِّف بخزائن اللا موصوف من إرادة الله مُغْلقاً نَفْسه على العماء قبل نشرها معلومةً بآياتها في خلائق الظاهر .

كل دِين استحصل لخياله مكاناً من المحجوبات الأُوَل أحلَّت مشيئةُ الله فيه بُعداً من أبعاده . أمكنةُ الله هي قبل أن تصير ، بعد الخلق ، أمكنةً معارة للإنسان يستنهض فيها حُجَّةَ التسليم للمُعتَقَد . لؤلؤة لآلئ المسلم ، قِبلتَه ، هي من أحجار المكان الأول السابقة لصدور الموجودات عن فَعل «كُنْ» . ألواح موسى من صخرةٍ في كنف إلهه

مُرْضعة للآيات نقشاً بأنفاس إلهه للآيات عليها . كلُّ ماحَفَّ من المكان بيسوعَ الوليد تحصيلٌ من غبطة المكان الأول ، في علاءِ ماقبل الخَلْق ، أن الله خصَّه ، بالعِلْم الأسبق للعِلم ، بكلمته تبليغاً يتجسد جسماً هو جسم ابنه . لالِش ، الوادي ، حظٌّ من الموقوفاتِ الأمكنة على قُدسيٍّ قِدَمها أصلاً تنزَّل به يقينُ التخصيص على أرض الأيزيدي قبل خلق الأيزيدي .

واضحٌ ، راجحٌ ، أن الموصوفات الأمكنةَ قبل الخلق ، والحدوث ، والشهود ، على قياسٍ موافق ، في معتقدات مِلَل الأرض ، بكثير التفصيل أو بقليله ، لما بعد الخلق ، والحدوث ، والشهود . وواضحٌ ، راجح ، أن الأمكنة القدسية كانت في باطن عِلْم الله بها ، وفي ظاهر علمه ؛ وكانت هناك ، في السماء قبل ظهورها على الأرض مقدَّسةً .

وادي لالش ليس استثناءً . فيه جداول قليلة ، وخضرة متواضعة ، ومرقد من مراقد أئمة الأرض الأركان الشيخ عادي بن مسافر ، أمير أمراء عقل الأيزيدي في نشأة مُعْتَقَده مُعْتَقَداً مختاراً .

لِمَ سكبتْ هذه الفتاة ، أمامي ، وجودَ بحيرة أودِنْ ، في هذا الجزء من شمال الأرض ، تحت الطبقةِ الغمام من إسم وادي لالش هناك ، في منبع العمران الأقدم لسلالات التاريخ؟ .

«لالش؟!» ، تساءلتُ .

«يستطيع وادٍ مقدس أن يحلَّ في جسم بحيرة كهذه» ، قالت شاهيكا .

الأشخاص يتناسخون في اعتقاد بعض المِلَل . أرواح موتى تحلُّ في أحياءٍ ، وقد تتعدى ذلك فتحل في حيوانات أيضاً . والفتاة شاهيكا تبتدع تعميماً أوسع : تستطيع الأمكنة ، بدورها ، أن تحلَّ في أمكنة

أخرى ، وتتلبَّسها حلولاً . معانٍ من خنادق الريح ومتاريسها في حروب المعاني على جبهات اليقين .

شاهيكا أمامي ، وأنا أرى إلى مايدور في كُرة خيالها بعينَيْ كلماتها من تفصيل أم الأرض علومَ إيمانها مطابقةً لحضور اللا موجودات على قياس الموجودات : هي الصورُ مُنْجَزة قبل الخَلْق لتستقرَّ بعد الخلق على منهَج الوجود الظاهر ذي الأبعاد . إضافة الجلال إليها مستحصَلاً بالتأويل يبوِّبُها صوراً قدسية . وادي لالش هو بحيرة أودِنْ الآن ؛ بحيرة الإله الضاري أودِن ، سيد الآلهة .

«حسناً» ، قلت للفتاة . «اسمكِ مستعار ، وها تقترحين اسماً مستعاراً لبحيرة أودِن . ثم ماذا؟» .

«لم أقترح اسماً مستعاراً لهذه البحيرة . إنها ، الآن ، وادي لالش» ، قالت .

أدرت وجهي صوب الأجمة ، التي ينبغي علي عبورها إلى مركز التسوُّق هذا الصباح . تمتمتُ : «اسمي يبدو مستعاراً أكثر من اسمك ، ياشاهيكا» . حدَّقتُ إليها : «أنا منشغل» ، أشرت بيدي اليسرى ، الحاملة عقبَ لفافة التبغ المحترقة ، إلى لفيف الشجر ، علامةً على إنهاء المحاورة . «سألتُك بمَ أستطيع أن اخدمكِ فلم تردِّي . اعذريني . سأغادر» .

«ألن ترسمني؟» ، باغتتني شاهيكا .

«ماذا؟» ، تساءلتُ بنبرٍ خفيض .

«ألم تبدأ رسمَ لوحتك بعدُ؟» ، سألتني .

«أية لوحة؟» ، غمغمتُ باستغراب .

«سبايا سنجار» ، ردت شاهيكا .

أتوهَّمتُ تلك الفتاة ، أم هي خيالي منسوخاً على شكلِ طيفٍ؟

«من أنتِ؟» ، عدت إلى سؤالي الباهت .

«شاهيكا» ردت بصوت خافت .

«لم أبدأ أيَّ رسم عن سنجار» ، قلت . حدقتُ إليها صامتاً أستقصي غرابةَ الموقف في عينيها الهادئتين . «كيف خمَّنتِ أنني سأرسم جبل سنجار؟» .

«لم أُخمِّن . أنا في اللوحة» ، ردت في سكينة .

«لم أرسم شيئاً . كيف تكونين في لوحة لم أرسمها بعد؟» ، سألتها .

«أنا فيها قبل أن ترسمها» ، ردت . «أنا من سبايا سنجار» . أثبتت بصرَها على عنقي تتحرَّى النُّتف الظاهرة من ألوان رسم «الكابوس» للسويسري فوسيلي . لا شكل يبدو واضحاً من تلك الزوائد النافرة حول طوق قميصي ، لكنْ لَفَتَها مارأت . سألتني :

- أهذا وشم على عنقك؟ .

«لا . ليس وشماً ، بل مجزوء من رسم» ، أجبتها .

«أرسمت شيئاً على جلد عنقك؟» ، تساءلت مستغربة .

«حلَّت لوحة أحد الرسامين على جلدي . نسختْ نفْسَها من رسم على قماش إلى رسم على جلد . كل شيء يتناسخ ، وتحلُّ الأرواح ، والأمكنة ، والغيوم ، بعضها في بعض» ، قلتُ تعقيباً مزاحاً على زعمها الفَكِه أن بحيرة أودن مُسخت فغدت ، في كيانها الجديد ، وادياً هو وادي لالِش المستقرِّ مركزاً للأرض ، يسند السماء بالقبابِ المخروطية لمراقد أولياء الأيزيدي . قباب مخروطية من وحي الولوج بالأشكال المسنونة في الجسوم . قبابٌ نصالٌ هي بلوغاً إلى الخَرْق : كل شيء قدسيٍّ هو خَرْقٌ . كل معجزة خرقٌ . القباب المراقد المخروطية ، بما تحتها

من عظام الفريدين الأنوار ، هي الشكل التقويم لمذاهب العمارة في الإبلاغ عن الخرْق ظاهراً للناظر . تسند السماء بنصال مخروطها ، وتسند المعنى اللا أرضيَّ أيضاً .

شيخُ بصيرة الأيزيدي ، وفطرته ، عادي بن مسافر ، يرقد تحت بناء عليه القبةُ المخروطُ هناك ، في لالش . شيخٌ خَرْقٌ ، آدمي في صورة العاديين من مخلوقات نوعه ، صيَّره التكليف من صوت المشيئة الأزلية معجزةً نورانيةَ النطق ، وخَرْقاً للعاديِّ .

لالشْ كان وادياً ، في الأرجح ، قبل أن يتحصَّل للأرضيِّ معنى ظهور الأودية في الأرض ككشوف من عمرها . كان وادياً يتهيأ في السماء ، ككل الأمكنة القدسية أُنزلت إلى الأرض في برهة نشوئها أرضاً للمعتقَدات ، وأُوقِفت ، بعد نزولها ، على المختارِيْنِ الآباء ليستنبتوا فيها ، ببزورِ الاصطفاء ، شعوبَهم المختارة .

لكن لماذا تخيَّرت شاهيكا إحلالَ وادي لالش في كيان بحيرة أودِن ، وليس جبل سنجار ، الذي هي من ساكني ضِياعه؟ لا فرق ، ربما ، بين استواءِ وادٍ في كَنَفِ جبل ، وبين جبلٍ متسامقٍ في كنفِ مياه . مولدُ كياناتٍ في كياناتٍ ، أو تناسخُها كياناتٍ في كياناتٍ ، أو حلولُها كياناتٍ في كياناتٍ ، مُذ هي على إيمان الأصلِ الأول بعناصره الأربعة لاتحيدُ عنها جواهرُ المعقول ذوات الثقة بالماء ، وبالنار ، وبالهواء ، وبالتراب .

«لماذا حلَّ وادي لالش في بحيرة أودن ، وليس جبل سنجار في بحيرة أودِن؟» ، سألتُ شاهيكا ، فردت :

– سبق وادي لالش جبلَ سنجار في الظهور . هيأه اللهُ للشيخ عادي .

على علومي أن تتأهب لاستثمارات في اقتصاد المصارف مُذ بدأتُ، من طرافات اليقين في محاورتي للفتاة شاهيكا، عَرْضَ ثبْتٍ على خيالي بمراحل تكوُّن الأرواح، وإدارة ريعها، والترويج لأسهُم بيعها وشرائها. كل يقين، أو إيمان، هو من اقتصاد السوق، كإقتصاد المعاني في نظام الشعر. لكنْ ماهي الأرواح؟

لايجيزُ بعضُ الأديان سؤالاً صفيقاً كهذا. الروح على قائمة اللاَّأدريات المباركة. قد تكون بحيرة أودن روحاً. قد يكون وادي لالِشْ روحَاً. قد يكون الغيمُ نفسه روحاً بمزاجٍ رِمادي في مخاطبة السماء.

لا أعرف لِمَ اختلط، في خياليً، وصفٌ للموقف الصغير بيني وبين شاهيكا على وحي اقتصاديٍّ في التعبير ببعض التلفيق. ربما لأنني، حين استطلعت في المرآة ظهور تفاصيل من لوحة «الكابوس» على جلدي صباحاً، كنتُ على قلقٍ بعضَ الشيء من بيان الضريبة الذي وصلني في البريد، بلا تفصيلٍ لما يجب عليَّ دفعه أكثر، أو استرداد قليل من المال من مصلحة الضرائب بناءً على دَخْلٍ يبدو أقل من المتوسط.

هزرتُ رأسي من شيء لا يخص وقوف شاهيكا أمامي، فتلقَّفتِ الحركةَ على أنها بَرَمٌ مَّا. مدت يدها فأمسكت بكُمِّ سترتي الأيمن:

- ارسمْني كما تشاء، لكن بلا خمار.

«عليَّ الذهاب لبعض التسوُّق، ياشاهيكا. لقد اخَّرْتِني»، قلت لها، فاقترحتْ:

- سأرافقك.

«إلى السوق؟»، سألتها.

ظلت تتأملني بلا ردٍّ، فأدرت وجهي صوب البحيرة متجنِّباً تلك

النظرةَ من عينَيْ صمتها إليَّ :

- كيف اهتديت إلى بيتي ، ياشاهيكا؟ من دلَّكِ؟

«لوحة سبايا سنجار» ، ردت بنبْرٍ لا تكلُّفَ فيه .

«كيف يبدو جبل سنجار؟» ، سألتها تمهيداً للسير خروجاً من الحديقة إلى الخلاء الشمالي ، فأفلتت كُم سترتي وجاورتني مشياً .

«جبل يتنفس» ، ردت .

تطلَّعْتُ إليها من عليائي وقد بدوتُ لنفسي طويلاً ، أنا المعتدل طولاً ، بسبب قِصرها ، مستغرقاً بالبصر الخفيِّ فيَّ تحديقاً إلى جبلٍ ذي رئتين تتنفسان .

الكرد الأيزيديون يُقْسِمون بالجبل ؛ يُقْسِمون بسنجارَ ـ المرفأ الأولِ لسفينة نوح في الطوفان لامست صخره ، قبل إكمال جريها في المياهِ إلى جبل الجودي لترسوَ عليه رسوَّها الأبدي . الأيزيديون يقسمون بجبل الجودي أيضاً . مراعي المياهِ القدسيةُ بين الجبلين مشغولة بالرعاة الملائك منذ سبعة آلاف عام . كل عام يهبط إله من آلهة الأيزيدي السبعة بمعجزة ثم يرجع . آلهة ناطقة بالكردية ـ لغةِ السماء الأولى ؛ لغة مساكن الفردوس ، وأهلها ، وبساتينها ، وثمار شجرِ أدواحها أيضاً .

في آخر الألْفِ السنين ، بعد الطوفان ، نزل طاووس مَلَك إلى الأرض . هبط في وادي لالش . ثبَّت ولايةَ الأولياء ، وإمامةَ الأئمة . نظَّم الشرائع . رتَّب الأمكنة تبويباً على مراتب قدسيَّتها التي لن تُنْسَخ ، أو تُعَطَّل .

«أيتنفس جبل سنجار ، طوال الوقت كالإنسان؟» ، سألتُ شاهيكا متمهلاً في المشي ، فردت :

- يتنفس بحسب ما تريد أن تسمع من أنفاسه . وله صوت أيضاً .

مازحتُها :

– إن كان له صوت فهو يغني في الأرجح .

«له صوت كصوت صياح الديك» ، عقَّبت شاهيكا على مزاحي .

إن كان لجبل سنجار ، الذي يُقسِم به الأيزيدي ، حظوةُ الجلال الأولى من لمس سفينة نوح لصخره ، قبل انزلاقها إلى قمة جبل الجودي ، فلماذا لا يكون له صياح يسمعه الأيزيدي نَبْراً من نبر صياح الديك؟ طاووس ملك ، العمدةُ القطبُ ، القَيْلُ في مراتب الملائكة الكروبيين اليازات ، دهاقنة السماء ، يرسمه الأيزيدي على صورة ديك ، لا على صورة طاووس الطائر ، ذي المنبت نوعاً في أرض الهند حملته القوافل إلى أرض الرافدين . ربما ضمَّ النحتُ الأيزيديُّ جمعاً من خصائص الطائر الزاهي ، سيِّدِ النقوش على ريشه ، وأخرى من خصائص طير العرش الديك الذي أوجده الله في السُّكنى العماء قبل أيام الخلق السبعة في وثائق الخيال الأيزيدي ، التي تصدَّر اليومَ الأول منها خَلْقاً طاووس ملك نفسه ، فقاد آدمَ ، بعد إنشائه ، إلى الفردوس .

لَّما طُرد آدم منفياً إلى الأرض ، اشتكى إلى الله أنه لا يعرف تقويمَ الأوقات ، التي يسرق بعضُها من بعض حظوظ منازلها : فجرٌ يَنتتف من الصباح ، وصباحٌ يَنتتف من الظهر ، وظهر ينتتف من العصر ، وهكذا دواليك فتتداخل نِسَب المواعيد والمواقيت .

أوقاتُ آدم ، على الأرض ، باتت ماءً في ماء ، فتوسَّل اللهَ تقسيمَها جداولَ تُعرف وتسمَّى ، فأمَّده الله بديك أبيض ، له شعشعةٌ من نور السِّلم ، كان إذا سمعَ تسبيح الملائك في السماء سبَّحَ مثلها في الأرض على أوقات معلومةٍ بأسمائها كالفجر ، والظهر ، والعصر ، والعشاء .

طائران ، ليس في معهودهما أن يطيرا ، تبادلا مَزْجَ هيئتيهما ، نزوعاً من الجمال في ريش الطاووس إلى لقاء القدسيٍّ في أصل النوعِ الديك . بهاءٌ مَظْهَرٌ ، وصياحٌ تسبيحٌ حتى في الرسوم ألواناً ، أو في الحجر نحْتاً . وجبلُ سنجار استوفى الزهو الأرضيَّ للريش ، والصياحَ التسبيحَ الذي سمعته شاهيكا في صخر جبلها .

بقيتُ على صمت في عبور الممر بين الشجر ترافقني الفتاة ، وقد انحسرَ خمارها حتى منتصف رأسها فلم تُعِد تثبيتَه . وكنتُ ، باختلاس اللَّحْظ إليها ، من غير التفات بوجهي ، أحسها تحدِّق إليَّ مراراً ، ثم تُطرِق إلى الأرض ، متوقعةً تعقيباً مني على اقتحامها صباحي بما ينبغي أن يثير ويستنفر ، فلم أبادلها إلاَّ بعض المداعبات في التعليق ، وفي استيضاحها المختزَل من وجودها أمام بيتي .

أنا ، أيضاً ، توقعتُ مني شراراً أسئلةً تُقْلق ، وتُربك ، وتُحيِّر . كيف اهتدت شاهيكا إليَّ؟ من دلَّها؟ كيف عرفتْ غيبَ خاطري العارض عليَّ رسماً عن سبي الأيزيديات في سنجار؟ أأنا فارغ إلى هذا الحدِّ منّي؟ .

توقفتُ إذ أحسستُها توقفتْ ، كأنني سمعتها شهقت شهيقاً خفيضاً ، أو هكذا خُيِّلَ لي . أدرت وجهي إلى حيث تنظر بإمعان ، من خلل جذوع الشجر ، إلى ممر بعيد عنا يسلكه شاب لم أستوضح ملامحه ، لكنني تلقَّفت منه شتائم باللغة العربية ، منتهراً ستة كلاب في مقاوِدها موصولةً كل ثلاثة منها إلى يد من يديه . كان يعنِّفها ربما كي تكفَّ عن استنشاق الأرض ، التي وطدت عليها كلابٌ قبلها سطوةَ المُلْكية بإجراء من البول .

«كأنني سمعتُ قبلاً نبرَ هذا الصوت» ، قالت شاهيكا ، موسعةً

بين أجفان عينيها الصغيرتين ، قبل أن تقلِّص الأجفانَ حتى كادت تغمض عينيها ، في محاولة للقبض بنظرها على شيءٍ مسَّ خيالَها فأجفلها .

لم أُبْدِ تعقيباً على ماهجسَ به خاطرُها ، بل استخففت بالشاب البعيد في سترةٍ جلد صفراء فاتحة ، وبنطال جنز أزرق : «أستة كلاب دفعة واحدة ، أيها الانتحاري؟» . أعدت بصري إلى وجه شاهيكا ، التي استرعتها الصفةُ الصقتُها بالشاب .

«انتحاري؟» ، تمتمتْ . «لماذا خطرتْ هذه الكلمة لك؟» .

«ألا يبدو انتحاريًا بستة كلاب تجره ، وتجرُّ شتائمه معه؟» ، تساءلتُ . عدتُ إلى المشي ملقياً إليها دعابة باهتة في الأرجح :

- واضح أنك تحبين الكلاب .

«أيبدو ذلك عليَّ؟» ، تساءلت وهي تجاريني مشياً .

«رأيتُ كيف تحدقين إليها» ، قلت مجيباً .

«كنتُ أستجلي صورةَ الشاب» ،ردت .

«مالفرق؟» ، عقَّبتُ .

لم تفهم تساؤلي الملتبس ، الذي ارتجلتُه في خِفَّة لامعنى لها ، وقد عَرَاني انقباضٌ من مواكبة الفتاة لي إلى السوق مسترسليْنِ في محادثةٍ لاأعرف مذاقَها .

نفثتُ الهواءَ من فمي على قدْرٍ مسموع فيه نبْرُ البَرَم ، فنفثتْ شاهيكا الهواء من فمها مثلي . تطلعتً إليها فابتسمتْ . نفثتُ الهواءَ ، من جديد ، بنبرٍ أقوى سماعاً فقلَّدتني .

لاهِييْنِ ، أو أقربٍ إلى ذلك ، أعدنا نفْثَ الهواء بقوَّة مرات ، كما يفعل الضجران أو المتأزم ، أو المصدوم . ثم اكتفينا بالنظر أحدنا إلى

الآخر حتى بلوغنا نهاية الأجمة ، التي ينفتحُ العراءُ بعدها على روضة للأطفال بسطح قرميد ، تليها صفوفٌ قِصار من بيوت قرميد بدورها ، ذوات طبقة واحدة ، متجاورات الحدائق .

توقفت شاهيكا . هززتُ رأسي متسائلاً ، في صمت ، عن سبب وقوفها ، فأشارت بيدها إلى المعبر :

- سأنتظر عودتك هنا .

«أجد أمواتاً يتسوَّقون من الحوانيت إلى جواري . لن تكوني الأولى» ، قلت ممازحاً .

«ماذا يتسوق الموتى؟» ، سألتني وقد قلَّصتْ بين جفني عينيها اليسرى فتغضن الجلد على زاويتها .

«يتسوَّقون بضائع نفدت من حوانيت السماء ، أو مالايجدونه فيها» ، أجبتُها .

«مثل ماذا؟» ، تساءلت شاهيكا ، فاجبتُها :

- جِعة بلا كحول .

«بلا كحول؟» ، تساءلتْ مشوَّشةً في الفهم ، فأكَّدتُ :

- بعض الموتى حذرون من شرب الخمور القوية الكحول في السماء .

تمتمتْ شاهيكا كلمات ناقصةَ الحروف ، في تعبير عن استظرافها مختلطاً باستهوالٍ مالفَّقتُه . ابتسمتُ لها :

- خمِّني ماذا يتبضَّع الموتى من سوق الضاحية هنا؟ .

تحركت شفتاها الرقيقتان في همس :

- ماذا أيضاً؟ .

«الحشيش» ، أجبتُها .

قلَّصتْ شاهيكا ، ثانيةً ، جفنَيْ عينها اليسرى في استغراب :

- الحشيش؟ .

«بات الحشيش مرخَّصَ البيع في سوق ضاحيتنا ، لكن لم يُرَخَّص بتدخينه في السماء بعدُ» ، قلتُ توضيحاً . قرَّبتُ نفسي منها موشوشاً :

- الموتى الذين التقيهم متسوِّقيْنَ هم محترفون في التهريب .

حدَّقتْ شاهيكا إليَّ متمعنة كأنها لم تعد تفهم ما أقول . غمغمتْ :

- موتى مهرِّبون؟ .

«مهرِّبون من كل صنف واختصاص» ، أجبتها مجيلاً بصري على غصون عالية في شجرة بتولا تشاجر فوقها شحروران يطرد أحدهما الآخر . أضفتُ : «طبقة جديدة من الموتى باتت تتعهَّد تهريبَ الموتى المهاجرين ، في زوارق إلى السماء» .

رمقتني شاهيكا بنظرة غريبة ، صامتةً ، مفتوحةَ الشفتين .

«أنتِ من سنجار» ، قلتُ كأنما أذكِّرها ، فردت في تلقاءٍ :

- أنا من سنجار .

«وأنت ميتة» ، قلت ، فوافقتْني :

- نعم .

«مَنِ الموتى المهربون ، الذين تولَّوا المجيء بك إلى السويد؟» ، سألْتُها .

«أوصلني طاووس ملك» ، ردت بتأكيدٍ ، ثم ترددتْ : «بل واحد من خُدَّامه» .

«ملاكٌ مهرِّب؟» ، سالتُها مبتسماً ، فابتسمت بدورها لاتجد

تعليقاً ، أو رداً ، أو تفضِّل عدمَ الخوض في ذلك ، فاسترسلتُ :

- أهو الذي دلَّكِ عليَّ؟ .

«لا» ، ردَّت شاهيكا . «لو لم تضعني في الرسم لما حضرتُ إلى السويد» .

نظرتُ إليها ممعناً في نبش المحيِّر من استراقها النظرَ ، بعينَيِّ الغيب ، إلى خطَّتي عن رسمٍ لسنجار . قلَّصتُ بين جفنَيْ عيني اليسرى أقلِّدها :

- أستنتظرينني هنا ريثما أعود من التسوُّق؟ .

«نعم . هنا» ، ردت .

«ما الذي ستنتظرينني من أجله ، ياشاهيكا؟» ، سألتُها بنبرٍ مستهجن ، فردَّت :

- أريد التأكد من بعض التفاصيل في الرسم .

«لم أرسم شيئاً بعد ، ياشاهيكا» ، قلتُ في همسِ المستسلم .

«ألستَ في صدد رسم عن سبايا سنجار ، ياسارات؟ أنا من سنجار . من سبايا سنجار . وأنا هنا لأحادثك في بعض تفاصيل موضعي ، وهيأتي ، في لوحتك» ، قالت .

كدتُ أستخرج لفافة التبغ الثانية من جيب سترتي ، لكنني قاومت . سأستمتع بتدخينها بين الشجرِ الأجمة حين عودتي من التسوُّق . غمغمتُ بنبرٍ متوعِّد بلا سبب :

- انتظريني . قد لا أعود .

لم تعلِّق شاهيكا على نبر صوتي . ألقيتُ عليها نظرةً فارغةً نزلتُ بها من وجهها إلى قدميها ، متأملاً حذاءها الأسود السميك الجلد ، مقطَّعَ السيور . شهقتُ شهقة خفيفة وأنا أغادر آخر الشجر إلى العراء

المتصل المعابر بين صفوف البيوت القرميد .

عدتُ ، بعد نصف ساعة ربما ، من التسوُّق بكيس فيه عصير برتقال ، وبيض ، وشرائح مدخَّنة من لحم السلمون ، ورغيف طويل من خبز الباغيت . لا أحس جوعاً ، في أيامي هذه ، لكن عليَّ أن آكل فداءً للتدخين . لو متُّ لن أدخن ، في الأرجح ، بعد ذلك ، بالرغم من أنني أحلم بفردوس لا حدود لأصناف التبغ فيه : تبغ أحمر ، وذهبي ، وفضي ، وأصفر ، وأزرق ، وبني . أقواس قزح من التبغ . أشجار من التبغ . ثمار من التبغ . طرق من التبغ في غابات الفردوس التبغ . ضباب من دخان التبغ . غيوم من دخان التبغ . وسائد ، وأسرَّة من التبغ . تبغٌ مضيء ، متشكل على أجساد أسماك سابحة في هواء الفردوس . لغاتٌ من دخان التبغ في مخاطبات أهل الفردوس . والحوريات ، في فردوسي هذا ، لهن مذاقُ أول لفافة تبغ بعد إفطارٍ دسم في الصباح .

تلمستُ لفافةَ التبغِ الثانية في جيب سترتي . أخرجتها . وضعتها بين شفتيَّ ، وتمهلتُ في إشعالها ريثما أسلكُ المعبرَ بين الشجر . ولمَّا بلغتُ الموضع الذي توقفتْ فيه شاهيكا عن مرافقتي ، وجدتها مقرفصة تحت شجرة تنوُّب متهدلة الأغصان في حنوٍّ على الظلال المختبئة كفراغٍ تحتها ، في يوم بلا ظلال من حَجْب الغيم لشمس الشمال .

بدت شاهيكا كالمختبئة بدورها ، ملتصقةَ الثياب بالأُشنة الخضر كاسيةً سطوحَ الصخور المستوية ، ومن حولها بعض ورق البتولا ذي الأشكالِ القلوب متطاولةً ، وكثير من الورق الإبر للصنوبر والتَّنوب .

نهضتْ . نفضت حاشية سترتها الطويلة ، التي لم يلتصق بها ورق ، مُحْكِمةً تسديدَ بصرها إليَّ .

جاورتُها . أشعلتُ لِفافة التبغ وأنا أنظر إلى عينيها الصغيرتين من

خللِ أول نفثَة للدخان من منخريَّ . بادرتُها :

- من أية جهة تشرق الشمس على جبل سنجار؟ .

همَّتْ بالرد ثم استدركتْ أنه ليس سؤالاً .

مددتُ يدي بلفافة التبغ المشتعلة إليها :

- ليس معي غيرها . أتدخنين؟ .

«لا أدخن» ، ردت . مشت إلى جواري إذْ مشيت . تمتمت مطرِقةً :

- ألن تسألني كيف قُتلتُ؟ .

«قُتلت؟» ، تساءلتُ بنبر لا مبالاة فيه بالخبر . أردفتُ : «قلت إنكِ ميتة ، لا أنكِ قُتلت» .

«أنا ميتة لأنني قُتلت» ، عقَّبتْ على كلماتي البليدة قليلاً .

«ذلك يفسِّر كلَّ شيء ، ياشاهيكا» ، قلت بصوت يحتمل استخفافاً خفيفاً . «عرفتُ سبب موتك الآن . لقد قُتلتِ» .

«ألن تسألني كيفَ قُتلتُ؟» ، تساءلت وهي ترمقني بنظرةِ رجاءٍ أن تستثير فضولي . أشارت بيديها معاً إلى حذائها المقطَّع السيور .

أكان عليَّ فهمُ سبب مقتلها من إشارتها إلى سيور الحذاء معلَّقة نُتَفاً بالثقوب المتقابلة على ظاهريِّ الفردتين؟ لا ، بالطبع . لكن التفاصيل ستتراكم طبقاتٍ أكثر ثقلاً من غيوم الصباح . رماديةً ستتراكم ، متدرِّجةً إلى سوادِ فظلامٍ يتفجر شظايا غيظاً من نكبة الدورة المتعاقبة بينه وبين النور .

سَلِمَ حذاءُ شاهيكا من انفجار الأرض تحتها ، ولم تَسْلم السيورُ السود في حذائها . مصادفةٌ لا تترتَّب هكذا لقتلى ينفجرون . شاهيكا محظوظة . لم ينجُ من جسدها إلاَّ الحذاء .

كانت كلماتها ، في العشرين الدقائق من مدخل الأَجَمة حتى

مشارف بيتي ، كافيةً أن تستعرض أعضاءها أمامي جارحةً جارحةً : أصابع منفصلة عن راحتي يديها . جمجمةٌ خمسةُ فصوص ممزقة ، ببياض هو مخُّها موزعاً على تجاويف القحف الممزَّق . عظام كتف متعرية ، وأضلاع متعرية ، وقدمان طارتا أربعة أمتار في الهواء ثم سقطتا على بُعْدٍ متساوٍ من مركز أشلائها .

داستْ شاهيكا على لغم في هروبها إلى جهة التخوم الشمال من مدينة الحسكة في سوريا . تناثرت شاهيكا .

لن تسرد الفتاة الأيزيدية تفاصيلَ كُثراً عن ظهيرة ذلك اليوم العادي في قرية غربَ سنجار . كانت الأخبار تصل عن تحركات لمقاتلي «دولة الخلافة الإسلامية» ، إنما لاتنذر بقلق عاصف . عصراً ، بعد رشقات من أسلحة بعيدة ، وبضع انفجارات ، أُسِرتْ حجارة الجبل بالسواد في أعلام أهل المذهبِ الذبح . قليلون هربوا في اتجاهات شتى بلا تقدير لما جرى . جثم الآخرون ، مذعوريْنَ تجمَّدوا ، على بَيْض حيرتهم . بُهِتوا . نبتَ القلق فُطراً من الدم . ذُبح خلْقٌ كثير في التهليل لسقوط معقل من معاقل الشيطان على أيدي ملَّة ملذات الجنة المحاربين .

«سبايا الخلافة» ـ كانت تلك من مسكوكات الترديد متجاورةً مع التكبير والحمد .

سريعاً فُصِلت الإناث بأعمارهن من التاسعة إلى الثلاثين عن المنهوبيْنَ المنكوبين . دُفِعن بعيداً ، نزولاً بهنَّ مهابطَ الجبل إلى حيث تجمعت شاحنات صغار .

إطلاق نار في الهواء ابتهاجاً لاقى المسبيات . عمَّ الهتاف على اقتصاد في الكلمات لايعدو وصفَ الغزو تحصَّل لهُ الوعدُ القدسيُّ : «سبايا الخلافة» .

أولُ خمش، أبعدُ من الذعر، على قلب شاهيكا كانت صرخة رجل منحسر الغطاء الأسود عن رأسه الأصلع، كثّ اللحية الطليقة: «احْجبي شعرك المنفلت تحت الخمار، ياكافرة».

عدَّلت شاهيا، من فورها، فوضى الخمار، بيدين مرتعشتين أعادتا شعرها مستوراً تحت الخمار طوَّقت به وجهها، من فوق حاجبيها حتى ذقنها.

في مدرسة مَّا لن تخمِّن شاهيكا موقعها في الحدود من حول الجبل، جُمعت السبايا. قد تكون مدرسة آشورية. شاهيكا نسيت الجهات، واستغلقت عليها الطرق في مهابط الجبل إلى الأعراء الموحشة يتمرَّغ الغبارُ فيها على الغبار.

جرى تبويب السبايا على حروف الهجاء في الملذات، أيْ مقادير الأعمار، والأبكار، ولون الشعر والعيون، وكثافة اللحم وعِجَافته، ثم الحُسْن حاصلاً من ضرْب أرقام اللهفة، في أجساد أبناء الخلافة، ضرباً حسابيًّا: كلما رَغَتْ قلوبُ المحققين ـ ذوي اللحى المُكرَّمة عصْفاً من الشَعر على صدورهم ـ غلمةً في استعراض السبايا لتقدير أثمانهن هتفوا: «زُهِقَ الباطل».

خبراءُ مصادر «الدولة الإسلامية»، في الإنفاق على جنودها، أضافوا إلى اقتصادهم رَيْعاً لا تهوِّن منه آبار نفطهم التي تخلى عنها حاكمو بغداد الشيعة، ذوو الولاء للحرس الثوري في طهران، بلا حرب، واستدرجَ مقاتلي «دولة الخلافة» إلى امتلاكها حاكمُ دمشق العلويُّ بمقارعات يليها فرارُ جنوده عن سابق قصدٍ في الخطط.

لقد ابتُدعَ في «بيت مال الخلافة» فرعُ السبيِ رافداً إلى مبادلات التجارة معلَنَةً بالذهب الأسود مع حاكم دمشق، أنجَدَهُ للبقاء حاكماً

غزاةٌ من بعض شيعة إيران ، ومن بعض شيعة لبنان ، ومن بعض الشيعة الأفغان ، ومن بعض شيعة العراق . رافدُ السبي مضافٌ إلى تهريب المخدرات ، وتهريب النفط في صهاريج إلى أسواق تركيا بإشراف غير معلن من بطانة سلطانها الحديث .

بيعت الأيزيديات في أسواق الأقاليم المطوقة بعمامة الخليفة ، ذي الساعة اليد الأكثر كلفةً أظهرها في معصمه يوم أول خطبة ، على منبر ، لإعلانِ الحقِّ في الذبح من الوريد إلى الوريد ، محاطاً بعتاد هائل أهداه إليه جيش عراقي بأوامر من إيران ، مُذ ارتضى حاكمو بغداد أن تغدو عاصمةُ العراق محافظة إيرانية ، تُدار منها ، ومن دمشق ، ومن طهران ، خططٌ لإرباك التاريخ بزعْم الوحشية في مِللِ أهل السُّنَّة ، وخَلْطِ مطالب الحقِّ عند معذَّبي سوريا بـ «جهاد قطْع الأعناق» .

«أسواق سبايا الخلافة» أخرجَتْ ، من صميم القرون ، ماجاهدت القرون أن تخفيه من ماضي الفتْكِ الأقسى بالوجود إهانةً ، وأفاقت الطرقُ ، من ضواحي سنجار ، على عبور الأقدار ملثَّمةً بمدائح للغزوات الشرهة أين منها مدائحُ القوافل لمصادفات الحظوظ الكبرى على طرق الحرير ، وطرق التوابل ، في الشرق المُسْتَحْصَلِ أقداراً ملعونة لاتتسع لها القرون .

توزعت الطرق من ضواحي جبل سنجار على أرض السبي ، التي مُحيَت الحدودُ فيها بالبول . قوافل السبايا سَبحتْ بها الشاحنات في الغبار بزعانفها الحديد ، على اتجاهات من مجرى نهر الفرات غرباً ، وفروع الفرات شرقاً . عاصمة السبي في سوريا ، مدينةُ الرقة ، افتتحتِ الأسواقَ الكبريات ترويجاً لِمَا كاد يُحْسَب من صرَعِ الزمن في غابرِه

«نيقيفوريون» كان اسمَ الرقة على ألسنة الأوائل الإغريق ، بظلالِ أساساتِ عمرانها متداخلةً في ظلٍّ أبيها الإسكندر المقدوني . تبادلها

نوريثاً خلفاء قبل آخرهم البغدادي ، ذي الساعة اليدِ النفيسةِ ، وانتهبها المغول هتْكاً وهداً قبل الهتك الحديث لدعاة «الخلافة» ممسكين بالكلمات على شفرات السكاكين في أيد ، وبهواتفهم المحمولة على طُرُزٍ من نِعَمِ فراديس الآلات في الأيدي الأُخريات .

تفرَّعت طرقُ القوافل ، ذوات الزعيقِ الناريِّ في محركات شاحناتها ، على محافظة الأنبار ، باللحوم الحية للبيع مُضَارَبَةً بنقودٍ أمريكية لا بسواها . كانت الأنبار ، في عصرٍ مَّا من منابع الأسماء في الخلافة ، عاصمة لأبي العباس السفاح ، قبل رسوِّ العِصْمة على بغداد أمًّا لمدن العراق . وقد رفَدَتِ المحافظةَ ، بحقٍّ ، فروعٌ جددٌ من سِفَاح الوجود على صخب الخلافة الجديدة في سَفْح الحياة ، وسَفْكِ الحقائق .

في سوق من مدينة الرمادي ، المجلَّلة بنسائم من بحيرة الحبَّانية ، بيعت شاهيكا بأربعمائة دولار إلى عراقي من المدينة نَزَح بها ، في مبادَلات مقاتلي «الدولة الإسلامية» للأمكنة وقد غَدَت صِرْفةً للمشاع الإيمانيِّ ، إلى جهة أخضعها خليفة القرن الحادي والعشرين لعصمته من نواحي مدينة الحسكة ، في سوريا ، بعد شهر من تبليغها الإسمَ الأكثر نقاءً من إسم لم تعترف به لوليٍّ جسدها ومالكه : «أنتِ سَعْدَة . اسمك سعدة . ستسعدين بي أعدتُك من حظيرة الشيطان مسلمةً» ، قال لها مالكها الملقب بـ «أبي دِحْيَة» .

انتقلت شاهيكا إلى أرض من المجابَهات الناقصة حَسْماً في الكرِّ والفر ، بين مقاتلين من «دولة الخلافة» ، وخصوم أخلاط من كرد ، وعرب ، وسريان . مناوَشات القذائف ، والقنص ، كانَت تسبيحَ الصوت في المستَقَرِّ الذي سكنته شاهيكا ومولاها ـ المنزل المهجور أخْلاه سليلُ

أحد العشائر العربية هَرَباً للنجاة .

في الشهر الرابع من وجود شاهيكا على أطراف الحسكة ، أسقطت حملَها الذي تلقَّفته رحمُها نقيًا من صلب مالكها ، على هسهسات ثوبه الأفغاني الطراز في الصلاة ركوعاً ، وسجوداً ، قبل كلِّ جِماع معها ، وبعده ، شكراً للمولى على مذاق يُدَرِّب جسدَه عليه في الأرض ريثما يدخل السماءَ ، ذات يوم ، ، عاصفاً بالجسد ذاته على مقاصير الأبكار الكواعب .

في الشهر السابع الذي أعقبَ إسقاط جنينها ، خلعت مناوشات القذائف قفازاتها عن مخالبَ نار . استعرت الجهة الشمال من الحسكة بالنوافير الحديد متشظياً ، وبالدَّويِّ مزلزلاً : لقد فتح مقاتلو فصائلَ متحالفة ضد «الدولة الإسلامية» ثغوراً في تحصيناتها ، فانسحب مقاتلو «الدولة الإسلامية» من الخطوط الشمال إلى الشرق ، بعد أن ملأوا منافذ الطرق ، ومداخل البيوت ، بألغام فِخاخ .

صحب «أبو دحية» مملوكته شاهيكاً هرباً بها من البيت على عجل . أودعها جمعاً من نساء رفاقه تهيَّأن للمغادرة في شاحنات إلى الشرق ، وعاد هو إلى خطوط المجابهات .

تسللت شاهيكا خلسةً من الأخريات ، عبر بعض الأنقاض ، وانطلقت بين المنازل متجهة شمالاً ، قصدَ أن تُعيْنها قدماها على اجتياز الكمائن المهجورة من مقاتلي « الدولة الإسلامية» إلى أعدائهم . في نهاية ممرٍّ ضيق بين صفين قصيرين من البيوت تبعثرت شاهيكا . وطأتْ لغماً وزَّع أعضاءها على مركز انفجاره بميزانِ الصوتِ المعدنِ ورعده . بعض الغبار المقذوف ، المنفوش عالياً ، هبط في رفقٍ راقداً على اللحم والدم .

«هربتُ من أجناد الحوريات في الحسكة فأوصلني لغمٌ إلى بحيرة لالش» ، قالت شاهيكا آخر كلماتها في مطلع خروجنا من الأجمَة إلى العراء المشرف على بيتي . أشارت بيدها اليسرى إلى المياه مترامية في معقلها الرمادي بين الضفاف :

- ارسم البحيرةَ ، ياسارات ، وعلى ضفتها شرقاً جبل سنجار .

«ماذا لو رسمتكِ بطةً في مياه البحيرة ، ياشاهيكا؟» ، سألتها ممازحاً .

«لا أعتقد أنني سأحلُّ في جسم بطة» ، ردت شاهيكا .

«أستختارين أنتِ هيئةَ الكائن الذي ستحليْنَ فيه بعد الموت؟» ، سألتها . رفعتُ يدي في استدراكٍ ، مشيراً عليها أن لا تردَّ . أضفتُ : «أنت ميتة . لماذا لم تتخذي ، بعْدُ ، هيئة جديدة في الحلول؟» .

«قَدَري الآن أنني عالقة في الرسم الذي لم تضعه بعدُ . انجزِ الرسمَ لأتحرر» ، قالت .

«كيف أنجز رسماً لم أبدأه ، ياشاهيكا؟ ماذا لو تخلَّيْتُ عن فكرتي في رسم جبل سنجار؟» ، سألتها .

«لماذا ستفعل هذا بي؟ هناك أخرياتٌ سيقعن في محنةٍ إن فعلتَ» ، ردت شاهيكا .

«أُخريات؟ ماذا تعنين؟» ، سألتها .

«فتيات من سبايا سنجار . سترسمهن» ، ردت شاهيكا بنبرٍ منكسر ، مقلِّصة بين جفني عينها اليسرى كأنما تحميها من سطوعٍ ضياءٍ مُغشٍ .

«منذ متى أنتنَّ في السويد؟» ، سألتها .

«منذ تصميمك على رسمٍ عن نكبة سنجار» ، ردَّت .

«كم من الوقت مرَّ على سبيكن؟ أأكثر من سنة؟» ، سألتها .

«لا يهم» ، ردت . «لقد عزمتَ على رسم ، وهانحن هنا» .

«أأوصلكِ انفجارُ لغم بكِ إليَّ؟» ، سألتها ، وأضفتُ قبل أن تُجيب : «أقُتلتِ اليوم؟» .

«لا . قُتلت منذ وقتٍ مضى» ، ردت شاهيكا .

«أين كنتِ قبل وصولكِ إليَّ؟» ، سألتُها .

«لا أعرف» ، ردت .

«لماذا ظهرتِ الآن؟» ، سألتها ، فردت بجواب هو ذاته :

– عزمتَ على رسمٍ عن سبايا سنجار . ها أنا هنا .

«أخبرتك أنني فكرت في رسمٍ عن نكبة سنجار منذ شهور . لماذا لم تظهري إلاَّ الآن؟» ، سألتها .

«كنتَ تفكر في ذلك . لكنك صمَّمتَ الآن» ، ردت شاهيكا .

«سبايا» ، تمتمتُ كأنني أستعيد من الكلمة على خيالي أحكامَ صناعة الأمم في مَطْهَر الوحشيات الكبرى : شعوبٌ سَبَتْ شعوباً . شعوبٌ سبت عمرانَ شعوب ؛ سبتِ الآثارَ النقوشَ ، والرسومَ ، والتماثيل ، والأعمدة .

شعوبٌ سَبَتْ أرصفةً بحجارتها من شعوب .

شعوبٌ سَبَتْ أسماءَ أعياد شعوب ، ومواعيدَ الأعياد ، وهندسةَ الخيال .

شعوبٌ سَبَتْ طُرُزَ ثيابِ شعوبٍ ، وأساطيرها الشمسية ، والقمرية ، وأقاصيصها في خرافات النشأة والخَلْق .

شعوبٌ سَبَتْ زينةَ نساءِ شعوبٍ ، ومهاراتهنَّ في التبرُّج بالأصباغ ، وترويض الوشوم .

شعوبٌ سَبَتْ أسرارَ شعوبٍ في طِبِّها، وطهوها، وتراكيب السموم، والترياقات.

شعوبٌ سَبَتْ شعوباً تعاليمَ آبائها، وإداراتها لنُظُم القتل، وتوليد الأرقام، وتسمية الشهور، وتبويب المواقيت.

شعوبٌ سَبَتْ أديانَ شعوب فانتحلتْها، أو أنقصتْها، أو أزادتها، أو صحَّفتْها، أو نقَّحتها، أو مرَّغتْها في تلفيق جديد.

شعوبٌ سَبَت آلهةَ شعوبٍ فغيَّرت أسماءها، وطبائعها، وأنسابها، وغضبها، ورضاها، ووعيدَها، ووعودها، ومقاييسَ فراديسها، ومسالكَ الوصول إليها انتحاراً أو قتلاً.

يلزمنا الكثير، ياشاهيكا، لنرتِّقَ الكونَ الممزَّق في تصميمه بخيوط من جلودنا المسلوخة. لن أقول هذا للفتاة القادمة بتصميم الإقناع، وعزمه، إليَّ أنها من السبايا الأيزيديات، وقد قُتلتْ منفجرةً. ربما عليَّ أن أكفَّ عن امتحان هذا الجانب من خيالها. إنما إلى أين سيمضي الموقف؟.

«وماذا الآن؟»، سألتُ شاهيكا، وأنا أُخرج مفتاح الباب من جيب بنطالي. أضفتُ: «ما خطَّتك؟ تفضلي إلى الداخل إن شئتِ».

«سأبقى هنا»، ردت شاهيكا.

«أين؟ في الحديقة؟»، سألتها، فردَّت:

- حول البحيرة.

«أين تقيمين؟»، سألتها، فردت:

- حول البحيرة.

«أنتِ في بلدك»، قلتُ ممازحاً. أشرتُ إلى البحيرة: «هذا جبل سنجار».

«بحيرة لالِشْ» ، صحَّحتْ لي شاهيكا مزاحي .

تجاهلتُ ذلك الإستطراد من إلحاح خيالها على نقل الأمكنة ، وتبذيلها ، وإحلالها أسماءً ليست لها . سألتُها :

- أين الأُخريات؟ .

«حول البحيرة» ، ردت شاهيكا .

أدرتُ المفتاح في قفل باب منزلي ، مستديراً بظهري إليها :

- لم أعُدْ واثقاً أأنا أخترع هذا الموقف ، أم يحدثُ مايحدث؟ .

«ماذا تعني؟» ، تساءلت الفتاة .

«لاشيء» ، أجبتها ، وأنا أسحب الباب لينكشف الممرُّ إلى ردهة البيت مضاءً بما أسقطتْه السماءُ الرمادية من نورها الرمادي على المطبخ ، من نافذته ، فتدحرج بعضُه إلى الممر . دلفتُ داخلاً . استدرت إليها ويدي على دفة الباب متهيِّئاً لإطباقه من خلفي :

- ألديكم إوز ، وبط ، وبجع ، ونوارس في جبل سنجار؟ .

«عندنا كل شيء» ، ردت .

ابتسمتُ . أضفتُ سؤالاً آخر إلى نهاية المحاورة ، متطلعاً إلى المياه لاح في عمقها مركبٌ بشراع :

- ألديكم زوارق بمجاذيف في جبل سنجار؟

«عندنا كل شيء» ، ردت .

«أعندكم رسامون؟» ، سألتها ، فردت بنبر ثقة :

- لا يلزمنا رسامون في سنجار . السبعةُ الآلهة أنجزتْ كلَّ شيءٍ خَلْقاً ، ورسماً ، ونحتاً ، وألهمتنا أيضاً طرائقَ الطهو كلها .

«يعني ذلك أنها أنجزتْ لك أيضاً رسماً ، ياشاهيكا ، في موضع

من لوحة عن سبي سنجار قبل سبعة آلاف عام» ، قلتُ معلِّقاً على تقدير يقينها .

«في حياتي الثانية ، هذه ، يلزمني رسام من البشر» ، عقَّبتْ شاهيكا على تعليقي .

أومأتُ لها برأسي مودِّعاً . أطبقتُ الباب ومضيتُ بكيس التسوُّق إلى منضدة المطبخ . ألقيتُ من النافذة نظرة على شاهيكا ماضيةً إلى سور القصب على ضفة البحيرة . استدرتُ إلى البراد . وضعتُ فيه بعضَ ماتسوَّقتهُ . استدرتُ إلى النافذة ثانيةً فلم أرَ الفتاة .

لا يكفي القارة العجوز مهاجرون أحياء على الأرجح . مهاجرون موتى يقصدونها أيضاً : كانت تلك خاطرةً من تعليق خيالي على ظهور الفتاة الأيزيدية من غيب خيالها بعد الموت شبحاً حيًا . أذهبتْ بي مخيِّلتي بعيداً هكذا مُذ أزمعتُ على رسم عن نكبة الكرديات الأيزيديات ، أم هو خاطرٌ انبثق ، بلا تمهيد ، من وصف أوروبا بالقارة العجوز؟ قاراتٌ من الشرق ، ومن الجنوب ، تفرغ في القارة العجوز شبابَها العتيق محمولاً على أكتاف المهاجرين ، أو في أحذيتهم الدائخة بحثاً عن طرق . قارة عجوز؟ إن كانت عجوزاً فالشرق مومياء مدفونة في زبلٍ أسيدٍ منذ مليون عام ، والجنوب مومياء مدفونةٌ في زبلٍ أسيدٍ منذ مليونِ عامٍ . وماحيواتُ أهلهما اليوم إلاّ ما تظنُّه المومياء أنها كانت تحيا قبل موتها . ومانخالُها حياةً ، إن تراجعنا عن التوصيف القاسي ، فهي حياةٌ لعبُ بقنبلة .

سأتمدد على الأريكة في الردهة . هذا ما خطر لي من غير تعب ، فتمددتُ ارتجالاً . أغمضتُ عيني . أغمضتُ على نفْسي الساعاتِ التاليةَ ، المرتجلةَ في البيت بعد ذلك ، بأعمالٍ صغار ، ومُدارساتٍ مرتجلة

للتصاوير تتطاير من خيالي عشواءَ مُذِ احترفتُ الرسمَ قبل عشرينَ عاماً من سنواتي الأربعين .

مساءً ، بل قبل المساء الذي يحلُّ ، في الخريف ، كتيماً معتماً على شمال هذا العالم ، ثبَّتُّ بالمطرقة الصغيرة ، والمسامير السودِ القصار ، المفلطحة الأعقاب ، قماشاً أبيض على إطار من خشب الجوز يكرهه سوسُ الخشب وأَرَضَتُه ، بعرض متر ، وطول متر ونصف المتر . وضعتُ اللوح على ركائز الآلةِ حمَّالةِ الرسم على قوائم أربع ، إلى جوار نافذة المَشْغَل ، المطلة على ظلام البحيرة انتصب على بعض جهاتها أعمدةُ إنارة ترويحاً عن خاطر المياه ، المنقبض من محو الظلام لحدود المياه .

أعدتُ نظامَ البياض على القُماشة البيضاء ، الخشنة ، بالطلاء أملسَ رائقاً . تأملتُ مقاديرَ البياض الجديد واقفاً ، في يمناي فرشاةٌ عريضة الضفيرة الشَّعر ، وفي يسراي علبة الدهان . وازنتُ الأبعادَ المتخيلة وعمقَها بعينيَّ . سرحتُ في الغيبِ البياضِ الحاكم مشرِّعاً للمصائر ، والخطوط في الأشكال المقيَّدة بعْدُ باللاتعيين .

تراجعتُ عن اللوحةِ السديم . تململَ سؤالي الأول الذي جرَّ من خلفه ، منذ فكرتُ في رسم عن سنجار ، صخرةَ حيرته : ما لمسةُ اللون القادرةُ على اجتذاب الصخر إلى الاعتراف بحزنه؟ كيف يمكنني أن أرسم الجبل حزيناً؟ .

قلبٌ صخريٌّ؟ أأرسم الجبل بغمام على شكل قلبٍ نازف؟ تلك فكرة ركيكة . أأتحايل على شكل الجبل فألفِّق له جروحاً كالصدوع في هيكله؟ الجروح ألم وليست حزناً .

تلفتتُ إلى مرآة صغيرة معلقة إلى يمين النافذة . وضعتُ الفرشاة على قماشة فوق عارضةٍ خشب في المشغل ، وأرحتُ يدي الأخرى

من علبة الدهان . تفحَّصتُ يديَّ : لا صبغ على أصابعهما . اقتربت من المرآة . أزحت طوق قميصي أولاً لنظرة عابرة إلى جلد عنقي . فتحت أزرار القميص كاشفاً عن كتفي اليمنى : التفاصيل الصغار من رسم «الكابوس» تتلاشى ؛ آثار باهتة لن تُلحظ بعد ساعة على الأرجح .

استدرت . أعدتُ التحديق إلى البياض العميق على قماشة اللوحة الفارغة إلاَّ من مجهولها .

«دُلَّني على شيء ، أيها البياض» ، قلتُ للبياض أمامي ، فردَّ بلسان اللون الأخرس :

– على مَ تريدني أن أدُلَّك ، ياسارات؟ .

«على لمسة من الرسم يبدو بها الجبل حزيناً» ، قلتُ .

«ذلك سهل» ، ردَّ بياضُ الدهان على قماش اللوحة .

«أذلك سهل؟! منذ أيام أترصَّد في الوقت ثغرةً تنفذ منها خطتي إلى لمسة قادرة على نزع اعتراف الجبل بحزنه . ضعتُ في فكرتي ، أيها البياض» ، قلت .

«كنتَ في غنى عن هذا المأزق» ، خاطبني البياض .

«ماذا تعني؟ أأوقعتُ نفسي في مازق مذ فكرتُ برسم للجبل حزيناً؟» ، تساءلتُ ، فردَّ البياض :

– ذلك تحديداً هو مأزقك .

«أنت على صواب . أنا أخاطبك ، أيها البياض ، لأنني في مأزق . دُلَّني على مَخرج» ، قلت .

«ذلك سهل» ، ردَّ البياض .

«سمعتُ هذا منك قبل قليل . أوضِحْ لي» ، قلت .

«لا ترغم نفسك على رسم الجبل حزيناً» ، ردَّ البياض .

«سأقوِّض فكرتي ، إذاً» ، قلت .

«لا تحتاجها» ، ردَّ البياض .

«ما الذي لا أحتاجه؟» ، تساءلتُ ، فردَّ البياض :

- فكرتك .

«محنةٌ عصفت بالكُرد الأيزيديين في سنجار ، وأنا أريد المحنةَ ظاهرة في صخرهِ على شكل حزن» ، قلت .

«ما المشكلة؟» ، تساءل البياض .

«تريدني أن أتخلى عن فكرتي . لن أتنازل» ، أجبت .

«لا تتنازل» ، قال البياض .

«إلى أين تأخذني بردودك الملتبسة؟» ، سألتُ البياض ، فردَّ :

- إليك .

«إليَّ؟ ربما يتوجب أن أطلي القماشةَ بلون آخر غير البياض . هذه المحاورة بلا معنى» ، قلت .

«أأنا مشكلتك ، أم فكرتك ، ياسارات؟» ، سألني البياض ، فأجبت ممتعضاً :

- فكرتي ليست مشكلة . تنفيذها مشكلة .

«الأمر سهل» ، رد البياض .

«نعم . الأمر سهل كطلي القماشة بالدهان الأبيض الذي هو أنت ، أيها البياض . لكن ماذا عمَّا تبقَّى؟» ، سألته .

«إبدإِ التنفيذَ» ، أجابني البياض .

«ليس لديك ماتمنحني غير الخيبة ، أيها البياض» ، قلت مستسلماً .

«الخيبة؟! أين الخيبة في ما اقترحتُ عليك؟» ، سألني البياض .

«لم تقترح شيئاً ، أيها البياض . تريدني أن أتخلى عن فكرتي ، وتريدني أن أذهب بها إلى التنفيذ . وتسألني ألاّ أتنازل عنها . أنت مشوّش مثلي» ، قلت .

«ذلك ما أردتك أن تتخلى عنه» ، قال البياض .

«عمَّ أتخلى؟» ، تساءلت .

«عن تشوُّشك» ، أجابني البياض .

«لن أستمر في هذه المحاورة» ، قلت متأفِّفاً . تنشّقتُ الهواء بقوة ، ملتفتاً من حولي بحثاً عن علبة التبغ . وجدتها قرب فرشاة الرسم . أشعلتُ لفافة . تقدمت من النافذة محدِّقاً إلى السواد السحيق للأفقِ السوادِ فوق البحيرة . ألصقتُ جبهتي بالزجاج البارد . تأمَّلتُ ، ببصر أعماقي أطيافَ خيام رمادية سارحة على الغَمْر ، وأشباحَ بواخر متمايلةً تتصادم .

تراجعتُ خطوتين لأواجه ، من جديد ، بياض اللوحة الفارغة إلاَّ من مجهولها المترقِّب . غمغمتُ مقهوراً :

«ماذا أفعل؟ أين مقترحك ، أيها البياض؟» ، تساءلتُ ، فردَّ البياض :

- ارسمْ جبلَ سنجار كما هو ، ياسارات . سنجار جبل حزين .

الفصل الثاني

(William Blake: The Great Red Dragon and the Beast from the Sea)

«كيف أنت اليوم؟» ، سألتني المرأة السويدية ، الصغيرة البدينة ، على جمال سمْح ، رائق ، هادئ ، في وجهها .

«لاتسألِيني الآن؟» ، أجبتها متصنِّعاً ، بتقطيب بين حاجبيَّ ، برمي من أعرف كيف حالي ذلك الصباح .

هو سؤال عاملة المَتْجر ، الأمِّ حديثاً ، في ثوب العمل ، وهي لاتنتظر مني غير جوابي المعهود ، الذي أكرره كالببغاء : «اسأليني كيف أنا بعد الساعة الثانية عشرة ظهراً . اسأليني حين أتجرَّع قدحَ الجعة الأول» . فإن حدث أن أجبتها بإيماءة خرساء على سؤالها عن حالي ، عمدتْ بنفسها إلى استدراكٍ : «لا بأس . سأسألك ، ياسارات ، عن حالك بعد الساعة الثانية عشرة إن عُدتَ إلى المتجر» .

لا أزور المتجر إلاَّ صباحاً . بقية يومي تفصيلات بمسطرة الوقت وأرقام ميزانه المتقابلة في عمقِ روحيَ . لا أزور أحداً ، ولا أُزار . قليلون جداً من ألتقيهم ، في شهور متباعدة ، حول مائدة في مطعم ، أو في ركن من حانة . وهُمْ ، بعامةٍ ، سويديون صرفوا همومَ مخيلاتهم إلى

مهنة الرسم وأسواقه ، والدعاوة له ترويجاً ، أو نقده .

لن أصف عزلتي بالعزلة . لن أكون منصفاً مذ أنا في حيرة من تحديد المقادير التي تجعل العزلةَ عزلةً ، تماماً كحيرة المشرِّعين في أيامنا وهم يمتحنون منطقَ علومهم في حصر مصطلح «الإرهاب» ، الذي بات كأمر الكيلو غرام المتوجب على التاجر شايلوك أن يقتطعه من لحم مَدِيْنِه ، بلا نقصانِ غْرام أو زيادة غْرام . خشيةٌ مصطنعة تتملكهم من أن يقطَعوا عظماً ، أو غضروفاً ، من جسد المصطلح ، بالسكاكين الرهيفة للسياسات ، وتوافُقِ مقاصدها ، أو تَعَارُضِها .

مصطلحٌ في «العزلة» إلى جوار مصطلح في «الإرهاب» : أأنا في عزلة ، حقّاً؟ عشتُ سنين الهجرة ، في اللون رساماً ، إلى محيطات الأشكال ، وبحيراتها ، وفروع أنهارها ، ومصبَّاتها ، كأوسع ما تكون هجرةٌ إلى الكشوف من خيال السَّحرة في ممكنات القُوى ، ومن خيال الرَّحَّالة في المجاهل .

عشتُ وسط حشود من الشخوص في رسومي ، مقهورِيْنَ ، أو لا مبالين ؛ عراةً ، أو مكتسين بثياب من خزائن العصور ؛ باطنيين ، أو ظاهريين بوشوم اللون على سحناتهم الناطقة بأحوالهم .

شخوصٌ ذاهبون إلى ما لا يعرفون ، وعائدون مما لا يعرفون ، في مواقف ملتبسة من المحاورات ، والحركات .

شخوصٌ مرتعشو القلوبِ في العمق الدفين من الرسم لا يُرى ؛ ميَّالون إلى مفاجآتٍ من سلكوهم ، أو يضمرون ما يحسُّ الناظر إليهم أنهم تخلوا عن إضماره .

شخوصٌ لو التفتوا إلى الوراء لَبَانَ لهم أيُّ مأزقٍ تدبَّرتُ لهم في الرسم ، من خلفياتٍ غمامٍ تتهيأ فيها وحوش المعاني لوثباتها .

شخوصٌ لم يكتملوا ، بأَنصاف في سديم خياليَ ، وأَنصاف على اللوحات ، لأنهم اختاروا جمْعَ النقصان ، في أشكالهم ، إلى الكمال المحيِّر .

أشخاصٌ مجروحون جروحاً ظاهرة في أعضائهم ، أوْ لَهُم عيونٌ تذرف الجروحَ ، وأصواتٌ متدرِّجة النطق على سُلَّم الرمادي في أبعاد الرسم .

أشخاصٌ عابرون ، بوجوه خالية من معنى عبورهم ، لكنهم صُنَّاعُ المشهد الأقسى بسكونه من مجزرة .

شخوصٌ متفرجون على أنفسهم في أعيُن الآخرين ، وعلى وجودهم في الأشياء مُقْحَمَةً إقْحاماً في مَشاهد لا يستدعي الرسمُ حضورَها .

عشتُ وسط حشود من الأمكنة أيضاً ، على عدد الشخوص استحضرتْها الفرشاةُ من مدافنها العريقة في البياض : أنهار . سهول . مغاور . أعراء فارغة . هضاب . صخور . طرق . غابات . وكذلك الحدائق الشُّعْث ، والحدائق الهندسية ، المفرطة في هندستها ، وهو ما يغيظني .

لماذا نَحْتُ الشجر تشذيباً ، وقَصّاً ، وبَتْراً ، على أشكالِ مخروطات ، أو كُرات ، أو أسوار بنِسَبٍ متساوية ارتفاعاً وعمقاً ، أو حيوانات حتى؟ لماذا إهانةُ ذاكرة الشجرة التي لم تعرف إلاَّ أنها شجرة ، وليست كُرة ، أو مخروطاً ، أو حائطاً ، أو حيواناً؟ .

عشتُ العزلةَ ـ أو ما أسميها العزلةَ تجاوزاً لمناسكها الفائضة عن التقدير ـ طوْعاً . ليست بي رغبة في المحادثاتِ متماسكةً ، مستقيمةً وواضحة . عقلي يتلعثم في المشافهات الطويلة . لذلك تراجعتُ بنفسي ، يوماً بعد يوم ، لأغدوَ خطوطاً من لون في لوحاتي ؛ خطوطاً

أَفْضَلَ إحكاماً في منطقها من مشافهات مرتجلة مع الآخرين . لكن أهي عزلة حقًا وأنا واقف وسط ذلك القدْر مما في لوحاتي من أمكنة ، وبشر؟ بشرٌ حاورتُهم حتى الإعياء . كلمتُهم صامتاً ، وناطقاً . تجوَّلتُ معهم . رتَّبتُ لهم أقداراً ، ورتَّبوا لي أقداراً .

نعم . أنا مُحاط بخَلْقٍ كثير ، لكنَّ لكل واحد منهم عزلته على الأرجح ، داخل رسومي . الجبل في عزلة . السحاب في عزلة . النهر في عزلة . كثرةٌ مدهشة من العُزلات في عزلتي . أنا مقيم في عزلة الكَثرة . هذه مسألة لن يحققها شرحٌ قط ، كالقُبلة المشتهاة غُلْمةً لن يشرحها أحد في ألف مجلد من الشروح . الأمرُ إحساسٌ لا يُشرح كالكثير غيره .

كل ما لا يُشرح هو إحساسٌ بالعزلة .

لستُ مضطراً إلى مغادرة المنزل كثيراً . لي معونة من اتحاد الفنانين سنوياً ، تتدرَّج ارتفاعاً وانخفاضاً بحسب مَداخيل الاتحاد من اشتراكات أعضائه ، والهبات الحكومية . دَخلي متواضع ، بإضافة ما أتحصَّله من معرضين في السنة منفرداً ومشتركاً . لكنه دَخْلٌ أكبر من عدد محاوراتي مع الآخرين إن أحصيتُها بالأرقام . ومن هذه المحاورات الصغيرة ، القصيرة عموماً ، حديثي الصباحي مع عاملة المتجر السويدية ، الواسعة اللُّطف مجاملةً ودودةً كسعة اللحم على عظامها ، وكسعة السماحة في وجهها النضر حسناً ، على امتلائه ، من فتوة عمرها ـ عمر الأم الصغيرة بعْدُ في مطالع عشرينها .

«كيف أنت اليوم؟» ، ذلك سؤالها ، وجوابي هو ذاته :

– سأعرف بعد قدح الجعة الأول في منتصف النهار . اسأليني حينئذ .

هأهأت العاملة وهي ترتب صحفاً، ومجلات، على مسطبة مائلة ذات قوائم معدن، قرب مدخل المتجر. بادرتني بسؤال آخر، من نوع الأول ببعض التحوير:

- كيف تحسُّ اليوم؟.

«كيف أحس اليوم؟!»، كررتُ سؤالها على نفسي. «ماذا تعنين؟».

أدارت العاملة ذراعيها على جنْبَيْ جسدها، الفائض امتلاءٍ، كمروحتين، كأنما تشمل المتجر، والضاحية، والكونَ ربما. ردت:

- أعني ما أعنيه.

«إحساسي؟»، تساءلتُ مستوضحاً.

«نعم. ألا تحس بشيءٍ اليوم؟»، تساءلتْ بدورها.

«بلى»، غمغمتُ. «أعندكِ وقت لأشرح لك ما أحس به؟».

توقفتِ العاملة عن نشر الصحف، والمجلات، على المسطبة المائلة وقوفاً على قوائم. ردت مبتسمة:

- أنا جاهزة.

«أُحسُّ أنني مظلَّة»، قلت.

ضحكت العاملة على سَعةٍ زرقاءَ من عينيها الزرقاوين. «مظلة؟!!»، تمتمت مستظرفةً.

«نعم. مظلة»، أكَّدتُ.

«ما نوعها؟»، تساءلت.

«مظلة. لا فرق»، أجبتها.

«مظلة على شاطئ بحر، أم مظلة لاتِّقاء المطر، أم مظلة مقفلة معلَّقة؟»، تساءلت وهي تشير إلى ركن من المتجر تجاورت فيه مماسح

تنظيف أرض المنازل ، وسطول ، ومظلات للمطر صغارٌ ، سود ، ومرقطة .

«لم أكمل بعد» ، قلت ملمِّحاً إلى استطراد .

«ماذا أكثر؟» ، تساءلت مُهَنْهِئَةً . «مظلتان؟» .

«أُحس أنني مظلة يحملها شخص في يوم صحو . يمضي بها إلى شاطئ البحيرة . يجلس على مقعد . يركن المظلة إلى جواره . يراقب طيور الماء وقتاً ، ثم يغادر ، وينساها» ، قلت .

«ينسى ماذا؟» ، تساءلت العاملة مستوضحةً . فأجبتُ :

- ينسى المظلة .

قهقهت العاملة . اقتربت مني عن كثب :

- يبدو أنك استبقتَ الظهيرة ، فشربتَ جعتك صباحاً .

«سألتِني عن إحساسي ، فأجبتكِ» ، قلت .

«أهذا إحساس؟» ، تساءلتْ وهي تنحني فتقطع خيطاً عن رِزمة من المجلات بمقص صغير .

«هذا إحساسي» ، أجبتها بنبرٍ هادئ التأكيد .

حملتِ العاملة الرزمة الملونة تغطي غلافها صورةُ لحسناء تدبَّرتْ لنفسها فضيحةً عن قصدٍ تُريحها في الترويج للأسماء . تمتمتْ :

- إحساسك غريب .

«إنه إحساسي كل يوم ، منذُ صرتُ رساماً» ، أكَّدتُ لعينيها المحدِّقتين من سيل ابتسامتها الجارفة .

أشعلتُ لفافة التبغ في عودتي من المتجر إلى مدخل الأجمة بأشجارها المرتوية في الشمال العائم على المياه . نفثتُ الدخان مع الصور قلقةً في خيالي عمَّا يجب أن تكون عليه لو أتممتُ لوحة «سبي بابل» .

لقد وضعت خطوط الجهةِ الشرقِ من المدينة ، ودهنتُ قسماً من

السماء فوقها بلون أصفر ، ثم توقفتُ . ذلك كل شيء . أكنتُ متردداً في حسم زمن السبي ، الذي وزَّعه التاريخ على المدينة الآفلة ، الدارسة ، على قسطيْنِ : سبيٌ أول ، وسبيٌ ثان؟ ما الفرق بين سبييْن إن اختلسهما رسامٌ من يديِّ التاريخ ، فأنجزهما رسماً؟ ماهذه «البابل» ، المُخْتَلَفُ على صناعتها مدينةً؟ أهي زمن ، أم مدينة؟ أهي فكرة ، أم لعنة؟ أهي قيامة متقدِّمة على القيامة المؤجَّلة إلى أزمنة النهايات في الأديان؟ أهي اختراع لتدبير العقاب؟ أهي تاريخ ، أمْ خَمْشُ الأساطير على صَفَن التاريخ؟ .

لكل تاريخ بابلُه . لكل شخص بابله . لكل أكذوبة بابلُها . لكل مدهش بابله . لكل عبثٍ بابله . لكل هزيمة بابلها . لكل رماد بابله . لكل نيرانٍ بابلها . لكل يأسٍ بابله . لكل حكمة بابلها . لكل حماقة بابلها . لكل بابلٍ بابلها في التشبُّث بثوب إلهٍ غريق .

بابل هي الموت ، ورسْمي الناقص لا يستكمل العثورَ عليها ، في ترددي من حسم زمن السبي . لكنْ ، ما الفرق؟ الخراب في أيِّ مكان يشبه الخرابَ في كل مكان . الحرائق في تاريخ مَّا تشبه الحرائق في كل تاريخ . الأنقاض تجرُّ نفسها ، على الصورة ذاتها ، في الأزمنة الأقرب والأبعد ، والراهنة . المعارك متطابقةٌ كوقوع الحافر على الحافر ، بالنِّسبِ ذاتها من مراتب الخوف ، والألم ، والفَقْد ، والبطش ، والخسارة ، والجبن ، والخداع . وللبكاءِ بَعْدَها صوتٌ واحد .

الهزائم هي ذاتها متطابقة . الانتصارات هي ذاتها متطابقة . ربما الموت ، وحده ، في المعارك لايتطابق مع موتٍ سابق ، أو موتٍ لاحق . لاموت يشبه موتاً آخر حتى لو كانت طرائق حدوثه متوافقةً بحذافيرها .

قطْعُ رأسٍ في معارك بابل يشبه قطْع رأسٍ في سنجار اليوم . لكن الموت هناك لا يشبه الموت هنا . ليس في الأمر مفاضَلة في فداحة الموت قاسياً ، أو ليِّناً ، وحشياً أو رؤوفاً ، بل مفارقة في الموت ذاته أنه لا يشبه في هذه المعركة موتاً في معركة أخرى .

لم أوضح الفكرةَ كفايةً لنفسي بالمنزلقات التي فيها من تقسيم الموت هكذا ، لكنني أحسه على نحوٍ سيُتَمم شرحَهُ رسام آخر ربما ، أو شحاذ لشحاذ أمام بوابات المتاجر بعد اكتساح الشحاذين أوروبا بطاساتهم الورقية .

حين بدأتُ وضعَ خطوط أولى للوحتي «سبي بابل» ، اجتاحني ذلك الإحساس الضاري من الرغبة في تصوير الموت كما لا يشبه موتاً آخر . فكرتُ في قتلى كُثر على أسوارٍ طبقات فوق طبقات ، أو في أعراء لا تعود تتسع فأملأ سماء الرسم بالقتلى أيضاً . غير أن ذلك لم يُرضِ طمعي في المفارقات .

فكرتُ في رسم طيورٍ كواسرَ عُقبانٍ ، ونسور ، وحدءات ، محلِّقة أسراباً تشمَّمتْ رائحةَ الموتى قبل موتهم . زفير المقاتلين وشهيقهم ، صاعديْنِ في الهواء ، تتلقَّفهما الكواسرُ الطيورُ مقدِّماتٍ لولائمها . لكنْ ، من أيِّ كميْنٍ أستطيع القبض على شهيق ، أو زفيرٍ أعرضه واضحاً في الرسم يُسْمِعُ شهيقاً ، وزفيراً؟ أذلك ما أردتُ الإمساك به في «سبي بابل» فتحيَّرتُ ، وعييتُ ، فأجَّلتُ الرسم؟ ربما كان عليَّ حسم الأمر نهائياً ، على نحو بسيطٍ جداً : أن أرسم موتى ، وأنصاف موتى ، وخرائبَ ، وخيولاً تمزق خيولاً بأسنانها ، وحدائقَ تتعارك أشجارها ، وكتباً منفجرة ، فأُنجزَ صورةً للموت لاتشبه صورة موت آخر .

لا . عثوري على حلٍّ في تدبير الحزن لجبلٍ برسمه كما هو ، أعني

منجار ، لن يشبهه تبسيطُ الحل في رسمِ الموت كما هو .

ما «الموت كما هو؟» ، وضعتُ رسَوماً كُثراً عن نكبة بلدي ، قاسيةَ ، دمويةً ، صادمة ، مفزعة ، مروِّعة ، لكنْ لم أعثر فيها على «الموت كما هو» . ربما الحياة نفسها هي «الموت كما هو» . أأمضي ، إذاً ، إلى رسوم من المفارقات ، كأن أجاور ، في لوحة واحدة ، بين جثث على رصيف ، وحوانيت على رصيف مقابل بزُبُنٍ داخلين إليها ، أو خارجين منها ، أو متفرجين على الواجهات ، مرفَّهين بابتساماتهم الحية كالحياة نفسهم؟ مفارقة رخيصة على الأرجح ، لن أعثر فيها على شيء من «الموت كما هو» .

على نحوٍ نَهم كأفكاري الشبيهة بالقوارض ، أنهيتُ لفافةَ التبغ مرْقاً باستنشاق دُخانها ، كالصباح استنشقني إذ أفقتُ ، ونفشَني رسماً أمام المرآة .

بنصف جذع عارٍ ، من الأعلى ، تأملتُ جلدَ صدري انطبعَ عليه الرسمُ من لوحة «التنينِ الأحمر العظيم ووحش البحر» ، للشاعر والرسام الانكليزي وليام بليك . تلك اللوحة استوقفتني ، في تقليب مجلد الأعمال اللونية لعظماء التصاوير ، ليلتي الفائتة : آدميُّ الأساطير ، الفحل ، المتناسق العضل بقدميه على المياه ، وبرأسه مجلَّلاً بقرني كبش . رؤوس ستة ، صغار ، انبثقت بقرونها نابتة على كتفيه ، تَرقبُ مثله ، برصدٍ من عيونها ، مخابئ المجازر القادمة بظهور الوحش من المياه .

ليس فحوى لوحة وليام على هذا النحو ، بالطبع . العملاق ، ذو الرؤوس السبعة ، لايستطلع المجازر في غيبها ، مستنفَراً من ظهور الوحش ذي الرؤوس السبعة من غيهب المياه ، بشعلة في يد ، وبسيف في

الأخرى . إنه مسيطرٌ ، في وقفته المستحوذة ـ الوقفةِ الجبروت . ويهمُّ بإعلان الغلبة .

نفيرٌ مًّا قد يُسمع لو أصغى الناظر إلى خيال اللون منتشراً في الأشكال ، وراء الجسد العملاق ، كجناحين غشائيين ، مثل جناحي خفاش ، لكنهما على ضخامة تليق بتنين من غابر الإشراق النبيل للأساطير على كائناتها الإنسية ، كاتبةِ أسفار النبوءات ، وتاريخ عُمران الجن .

وجه العملاق الآدمي ـ التنين على وسامة ، ليس كوجوه الرؤوس الستة الصغار ، النابتة على كتفيه ، أو كالوجوه السبعة للوحش العائم بنصفه على الماء ، بين فخذي العملاق المنتصبتين . وجهه هادئ ، رزين ، متناوِم بإغماضٍ من عينيه ، أو هو في غفوة واقفاً بهيئته المتأهبة المتهيئة كيقظان .

لن أتتبع ، في استعراض الرسم المنبثق على جلد صدري ، خيوطَ المتاهة إلى خيال التاريخ استدانه وليام بليك من مجازات العصور ، وكناياتها : إمبراطورية الرومان ، والمرايا المتقابلة من صعود الجلال في أمم ، وأفول الجلال في أمم .

عينا الشاعر على تنِّين الرومان ، وأباطرة روما ، ومُقارعيْهم الأُخَر من ملوك الإغريق ، والآشوريين ، والبابليين ، وأكاسرة فارس . تداخُلاتٌ ، وتَماسَّاتٌ في المعاني . اقتباساتٌ من مؤرخي الممالك ، وتلاخيصُ للخواتيم الكبريات اجتمعت تحت يدي الرسام ، في لوحته الحلقة من سلسلة رسوم «التنين» . وقد ظهرت هذه الإقتباسات ، والتلاخيص ، برسومها على جلد صدري .

تأملتُ الرسمَ في المرآة على تجرُّع قدحين من عصير البرتقال

البارد ، قبل مجيئي إلى المَتْجر . وها أنا عائد من المتجر مُنصرفَ الخيال ، كدخان لفافة التبغ ، على شتاتٍ : أأعودُ إلى إتمام لوحتي «سبي بابل» ، بعموم تاريخ بابل في سَبْيَيْنِ ، أو في ألف سبي ، أم أرمي بنفسي في بِرْكة اللون سابحاً إلى جبل سنجار ، لأستنطق سباياه معنى الوحش طائراً بأجنحته العشرةِ الزعانفِ فوق بحر الكون؟ .

جذبني من متعة الدخان في فمي غزالٌ انبرى وحيداً في رَعْيه ، تحت شجرات التَّنُّوب العريقة . رفع رأسه ، من بُعد ، على حذر ، ساكناً يزنُ مقاديرَ العدل في اختلافه عني هيئةً ، أو حكمةَ أن لا أكون حذِراً منه كحذره مني .

تحرك الغزال الرماديُّ على بُنيٍّ بعد إنجاز قلبه مشاغلَ الرَّصْد ، والقياس ، مكملاً سيره غرباً ، برأسٍ لايني ملتفتاً إليَّ كي لا يُباغَت ، فأكملتُ سيري ، بعد إبطاء ، في المعبر تتكسر عليه شعاعات الشمس في صحو الصباح ، الذي لم تلتزم غيومُ البارحة بإقراضه شيئاً من لونها الرمادي .

حين صرتُ على أول العراء الصخر مكتسياً أُشنةً نقيةَ الخضرة ، لمحتُ من خلل سور القصب تماوجاً خفيفاً لسطح البحيرة : إوز يعلو ، ويَسْفل ، وبط يغوص برؤوسه . ثم انتبهتُ إلى نُباح لم أرَ من أطلقه ، قبل أن تظهر كلاب في مَقاوِدها ، من فسحة الشاطئ المواجهة لحديقة بيتي ، حيث العراء الممتد كلسانٍ صخر يترامى حتى الماء ، بلا حاجز من قصبٍ أو نبت .

بان خلف الكلاب ذلك الشاب ، الذي توقفتْ شاهيكا لبرهة تأمل نبْرَ صوته ، في الصباح السابق ، من غير جزم في مقارنته بنبرٍ تعرفه . رفع يده اليمنى بالتحية من بُعْدِه ، ممسكاً باليسرى مَقاودَ الستةِ

الكلاب ، المرحةِ متلامسةً ، متصادمةً من لهوٍ ملجوم بصوت سيدها الآدميِّ المُنتهِر .

كنتُ في ما مضى من سنين سُكناي قرب البحيرة ، لا أرى غير شيخ يعرج قليلاً من تعب في وركه ، يصحب كلبه الأسود ، الصغير ، المُسدل الشعر على عينيه ، مُنتزهاً به للترويح عن خاطر الحيوان ، أو نزوع الحيوان الكلب إلى تأكيد ملكيته للأمكنة وَسْماً بالبول .

لكنَّ مالكي الكلاب تكاثروا كقصب البحيرة في أيامي هذه . كُثُرٌ فرادى رأيتُهم جوَّابين الأنْحاءَ بكلاب من كل عِرْق ، وكُثُرٌ مثنى مثنى يتبادلون علومَهم في طبائع حيواناتهم ، مستوحيْنَ دخائلَها من دخائل طباعهم هم ، وكذلك تتخاطبُ الكلابُ التي معهم ، وتتخاطر ، وتتجاذبِ سنَنَ المنطق في كونها تستحوذ على شغف مالكيها بتملُّق يعرفه الكلبُ سليلاً عن سليل ، وتصطنع الإمتثالَ الذي يعرفه الكلب خلفاً عن سلف . وتؤدي ما هيَّأتها المهمةُ له ـ هي الكلاب التي بلا عمل غير الترفيه عن المالكين بتقليدهم ، وتعويضهم سُلطةً لن يجدوها إلاَّ في إخضاع الكلب ، وإرضاخه العارميْنِ .

كثرت الكلاب في الضاحية التي أسكنها على مسير من جنوب العاصمة ، مذ باتت الناس لا تعرف السيرَ إلاَّ إنْ سار الكلْب معهم ، ولا تعرف من هي إلاَّ إذا ذكَّرتْهم كلابُهم . فتيات صغيرات يصحبن ، كالشاب الذي لوَّح لي بذراعه ، كلاباً عدة مجتمعةَ المقاود في راحاتهن ، يتجولن بها ترويحاً عنها نيابةً عن مالكيها ، إن شَغَلهم شاغلٌ عن التجوال بالكلاب ، لقاءَ أجرٍ يُمتِّعن به أنفسهن في عطلة نهاية الأسبوع . لكن لم أرَ قبلاً عربياً ، في أنحاء ضاحيتي ، يسير بكلب . وها هو واحد سمعتُ شتائمه قبل يوم ، بلكنة عراقية أعرفها

.. شرق عالَمِيَ ـ شرقِ المدن الممالك ، والقرى الإمبراطوريات ، والمذابح المنذرة من غربال الأقدار كالنُّخالة .

تمهّلتُ في المشي مستجلياً ، بصرامة النظر المدقِّق ، هذا التطفُّل على صباحي بتحية من غريبٍ ، واضحِ القصد في أنه يخصُّني بها . وإذ اقتربتُ أكثر ، لنصير معاً على قربٍ مِن مدخل الحديقة ، فاجأني :

- أنا واضح لك ، ياأستاذ سارات . أليس كذلك؟ .

لا أعرف ما الذي عناه من أنه واضح لي . هو واضح لي بالطبع ، بلون بشرته ، وهيئته ، وكلابه . توقفتُ مستغرباً إسمي على لسانه ، بصوته الخشن ، الذي فيه عَرْعَرة .

توقف الشاب بدوره . شدَّ مقاودَ الكلاب الستة الضئالِ الحجوم مراها فضولٌ ، فنقَّلت أبصارها بيني وبينه .

هو على سُمرةٍ ترابية ، بطول يتجاوز المتوسط ، معتدل الوزن . شعر أسود قصير . لحيةٌ غير طويلة . يرتدي سترة جلدية ، صفراء فاتحة ، طويلة حتى منتصفيْ فخذيه ، فوق بنطال جنز كبنطالي .

ابتسم من وجهه المستطيل ، ثم تقدم مني أكثر ، حَذِراً أن تمسَّني الكلاب بدافع فضولها العادي . أثبت عينيه البنيتين ، الواسعتين ، عليَّ متكلماً :

– أُعدمتُ بطلقة من الخلف .

لم أتتبع بعقلي ذلك المسيلَ الغامض في مبادرته إيايَ بألغاز تبدو على سخفٍ . لكنه اقتحمني ، من جديد ، بحركة عجولة مستديراً بظهره إليَّ :

- هنا ، يا أستاذ سارات . أترى أثر الطلقة؟ .

أحنى رأسَه ليمكِّنني من التحديق إلى إصبعه وضعها على نُقرة

قَذَاله ، أسفلَ القَمَحْدوَة : «هنا» ، كرر الكلمة . «أرأيت الأثر؟» .

«لاأرى شيئاً» ، أجبته منتزعاً كلماتٍ خفيضةَ النبر من حنجرتي ، بتحديقٍ إلى رأسه من الخلف ، وتحديقٍ إلى الكلاب باتت تتشمم قدميَّ ، وساقيَّ .

أدار الشاب وجهه إليَّ . تساءل :

- ألم ترَ أثر الطلقة؟ تحسَّستُ بإصبعي موضع النَّدْبة .

«لم أرَ نَدْبة» ، قلت .

«هات يدك» ، قال ، وهو يمد يده إلى معصمي .

أبعدتُ يدي ، فتوقف متريثاً . شرحَ حركتَه :

- أردتُك أن تتحسس الندبة بإصبعك .

ظللت محدقاً إليه في صمت . تنفَّسَ مستدركاً ، بعد وقتٍ من مخاطَباته ، أنه اقتحم فضولي بأحمال تثير الريبة . شدَّ مقاود الكلاب يردعُها عن التمادي في لمس بنطالي . «فهمتُ» ، قال . «أنت لم ترَ الندبة ، وربما لن تحس بها لو لمستَها أيضاً . أفهم ذلك» . قرَّب رأسه مني ، متمتماً في تمهُّل :

- نحن الشهداء جروحُنا لا تُرى .

تسلل نبرُ صوته إلى بالي منكشفاً عن عتهٍ ، أو حَمَق . هززتُ ذراعي بكيس التسوُّق الذي أحمله كتمهيد لإفهامه أن لا معنى لإصغائي إليه ، ووقوفي قربه تتشمَّمني كلابٌ قد تعلن ، في برهة من خاطر الجشع فيها ، عن ضمِّي إلى مُلكيتها ، بالتبول على حذائي ، ربما ، كفعلها قرب ساق كل شجرة ، أو سياج بيت ، أو صخرة ناتئة ، أو عمود إنارة .

«أنا هنا» ، قال الشاب ، وفي ظنه أن ينتشلني مما بدا غزواً .

«ماذا أفهم من أنك هنا؟» ، سألته ، وأنا عازم على التملُّص منه لحدة ارتيابي .

«أنا في محنة» ، قال بصوتٍ متذللٍ قليلاً . أردف : «لكنني على الطريق الصواب» .

«على الطريق الصواب إلى أين؟» ، تساءلتُ محدِّقاً إلى عينيه الواسعتين ، الواثقتين ، فردَّ :

إلى الجنة .

صعدت ابتسامة متكسرة إلى شفتيَّ ، من غير أن يصعد أثرُها إلى حسي . تحرَّكتُ إيذاناً بابتعادي عنه ، متمتماً :

رافقتْكَ السلامة ، إذاً .

«ماذا عنِّي؟» ، تساءل كالمستغرب أن أُفارقه .

«ماذا عنك؟» ، تساءلتُ بدوري متوجساً منه .

«أنا أبو دِحْيَة» ، قال معرِّفاً عن نفسه .

«أأعرفك؟» ، سألته ، من غير أن يعنيني تعريفه بنفسه .

«أنا عدنان حمزة ، الملقب بأبي دحية» ، كرر الشاب عزمَه في التعريف .

«لم ألتقِك قبلاً» ، عقَّبتُ على ماقال .

«لم تلتقِني قبلاً ، لكنك تعرفني» ، قال الشاب ذو السُّمرة الترابية .

«لا أعرفُكَ» ، قلت بصبر نافذ . «نَحِّ كلابك ، رجاءً . عندي ما أعمله» .

«بل تعرفني» ، قال بتأكيد من لسانه ، ويدِه الحرةِ لمس بها صدرَه ممسوح الأصابع . «أنا هنا لأصحِّح تفصيلاً لاينبغي أن تغفله» .

«تفصيل؟ ماذا تعني؟» ، تساءلتُ .

«أن تضع في الخلفيَّة البعيدة للوحتك رسماً لمولانا الخليفة أبي بكر البغدادي على حصان» ، رد الشاب ذو الأنف العريض الخُنَّابتين .

أحسستُ بدفع من الهواء في قلبي كدفع الهواء ورق القصب ، وسيقانه ، على ضفة البحيرة . لقد خاطبتُ القصبَ ، في أوقات من شكوكي بجدوى الرسم ، جالساً على الصخر المشرف ، بعلوٍّ أشبار قليلة ، على الغمرِ الماء مترامياً تلوح البيوت البعيدة ، في الضفة المقابلة لي ، صغيرة كحلزونات ، يسقوف قرميدٍ بني ورمادي .

«أيها القصب» ، أخاطبُه بذِكر نوعه كنبات . «لماذا تتمايل كثيراً ، أيها القصب؟» .

«أتمايل من الريح» ، يرد القصبُ ، ويماحكني أيضاً :

- مَّ تتمايل أنت ، ياسَارات؟ .

- ماذا تعني أيها القصب؟ أتتذاكى؟ .

- لا ، ياسارات . أنا أتمايل مما أعرف . أمَّا أنت فتتمايل مما تعرف ومَّما لا تعرف .

- أوضِحْ ، أيها القصب .

- أتمايل ، ياسارات ، إن هبت ريح ، أو اشتدَّ هواءٌ . أنت تتمايل ساكناً . تتراجع ساكناً . تتكسر ساكناً .

- لن أجاريك ، أيها القصب . أنت تتمادى . لكنْ دعني أسألك : بِمَ تحلم؟ .

- لا أحلم بشيء ، ياسارات . حلمتُ بي قصباً قبل نشوء المياه ، وقبل الخَلْق ، فخُلِقتُ قصباً . أنا حلمي الذي لاأحلم بَعده .

محاوَرات كهذه كانت تجري بيني وبين القصب ، والشجر ،

والبحيرة ، والحديقة ، والطيور في الأَجمة ، والظلال . كلٌّ ما أراه حولي يُخاطب ويُخاطَب . حتى الكلاب ـ التي بات قاطنو هذا المكان لا يُحسنون خروجاً من بيوتهم إلا برفقتها ، خوفاً من أن يضيعوا ، أو أن لا يدركوا مَنْ هُم ـ خاطبتُها .

قلت لكلب مرة :

أيها الكلب ، لماذا تتملّق مالكيك إلى هذا الحد؟ .

« لا أتملَّقهم» ، رد الكلب . «بل أحثهم على الإسراع في نسيان نظراتهم إليَّ» .

«لماذا ذلك؟ ألا تستسيغ نظرتهم إليك؟» ، سألته ، فرد الكلب :

يريدون أن يجدوا فيَّ مالم أجده فيَّ .

«أي شيء فيك لم يجدوه ، أيها الكلب؟» ، سألته ، فردَّ :

الحنين .

«الحنين إلى ماذا؟» ، فردَّ الكلب :

إلى ما لم يعرفه إلاَّ الكلب عن الإنسان .

تزايدَ دفْعُ الهواء في قلبي من صمت الشاب ساكناً أمامي ، بعد ... الخليفة الجديد في هذا العالم . تمايلتُ ، أو خال لي أنني تمايلت . أنزلتُ بصري من وجهه المتطاول في لحيته إلى الستة الكلاب يثب بعضها على بعض وثباً ناعماً في لهوها . تمتمتُ من غير أن أرفع بصري ...ها :

من أنت؟

«أنا أبو دحية» رد الشاب ، ثم انتهرَ الكلابَ بجذْبِ مقاودها .

ها هو شخص متنكر في إسم صحابي من بطانة نبي المسلمين ، ...ذبني إلى حيرةٍ من الحُفَر الكُثر في وقت الإنسان . صحابيٌّ أوردتْهُ

السِّيَرُ على مباهاة بالحُسن الذي وَسَم وجهَه . مفرط في وسامته . لاتتردَّد التراجم كلها في الإخبار عن نزول جبريل الملاك على الرسول العربي في هيئة دِحية نفسه ، يُملي عليه ما أوكله اللهُ به من إملائه .

إثنان حظيا بهذا التلبُّس من وحي الله نزولاً : دِحية الكلبيُّ ، وأبو بكر الخليفة الأول في الإسلام ، الذي طابقَ خليفةُ العصر الحادي والعشرين ، أبو بكر البغدادي ، اسمَه على حروف لقبه .

قد تردُ في أحاديث الأوَّلين من عصر النبي أنه أشار إلى غرباء عابرين ، حدَّثوه مُسارَرَةً ثم غابوا ، أنهم كانوا جبريلَ الوحيَ في هيئاتٍ إنسية . لم تُذكر أسماء الغرباء العابرين ، الذين حظيتْ صورُ هيئاتهم بجلالِ النطقِ كلماتٍ من رب السماء . دِحية الكلبي ، والخليفة الأول أبو بكر ، حظيا بالتعريف في الأخبار عنهما ـ هما ثَرِيًّا عصريهما التاجران . نزل الوحيُ في صورتيهما ، مراراً ، على النبي العربي . اختارتهما الكلماتُ لينطقاها على بكورة الرسم الأول ، الطاهر في المعاني إلهيَّةً تُملى قرآناً ، أو أحاديثَ قدسيةً .

لماذا اختارَ جبريل الملاك هيئات بشرية للتبليغ؟ ذلك ليس من عِلْمِ السِّيَر . ولن يكون من عِلْمِ السِّيَر انتحالُ الخليفة الدموي الحديث ، ذي ساعة اليد الفخمة ، اسمَ الخليفة الأول في الإسلام ، أو انتحالُ محدِّثي الشاب ، بالستة الكلاب معه في مقاودها ، اسمَ صحابي ألهب حُسنُ صورته مؤرِّخي الأحوال ، والأقوال ، والأفعال .

إنه أمامي ، لكنه ليس على وسامة قط ، ويجتاحني اجتياحاً بخبر إعدامه بطلقة في قَذاله ، وباقتراحه أن أرسم خليفته الحديث على جواد ، في خلفية لوحة لم أخْطُ خطوةً على خطوط لونها .

«بِمَ أستطيع أن أخدمك ، ياسيد عدنان؟» ، سألتُه علَّني أختصر

وقوفي تتلمسني الكلاب، وتتشممني، وتهرُّ كالقطط.

لم يُجب على سؤالي المحدد. بادرني باستفسار عن شاهيكا:

- مَنْ الفتاةُ معك البارحة؟.

«أرأيتنا؟»، تساءلتُ.

«نعم»، ردَّ. «كنتُ قادماً لأزورك. فأجلتُ زيارتي إلى اليوم»، أضاف.

«اسمها شاهيكا»، قلت.

«شاهيكا؟ أهو اسمٌ هندي؟»، علَّق الشاب عدنان حمزة.

«اسمٌ مُنتحَل كلقبك»، قلت.

«خالَ لي أنني رأيتُها قبلاً، في مكانٍ مّا. لكنكما كنتما بعيدين عني، والكلاب القذرة هذه تُلهيني»، قال عدنان.

«خالَ لها أيضاً أن لنَبرِ شتائمك العالية نبرُ صوتٍ عرفتْه قبلاً»، قلتُ.

«أسمعتما الشتائم؟»، تساءل، فأجبتُ:

- نعم.

«أكان صوتي عالياً إلى ذلك الحد؟»، تساءل.

«نعم»، قلتُ.

«جيدٌ أن هذه الكلاب لاتفهم العربية»، عقَّب عدنان. أضاف: «سأذبحها ذات يوم، حين أجتاز محنتي».

«مامحْنتك؟»، تساءلتُ بالرغم من رغبتي في إنهاء المحاورة المثقلة بالتكلُّف.

«انتظاري على الطريق الصواب»، ردَّ، فسألته:

- ماذا تنتظر؟.

«دخول الجنة»، ردَّ.

أدركتُ ، تلك البرهة ، أنَّ علي حسم وقوفي المتخم عبثاً . استدرتُ لأنصرف ، قائلاً :

- رافقتك السلامة إلى الجنة . لكن لا تترك الكلاب هنا .

«إلى أين؟» ، ساءلني عدنان . كرر كلماته السابقة : «ماذا عنّي؟» .

أكملتُ المشي على معبر الحديقة صوب باب البيت ، صامتاً .

ناداني الشاب بنبرٍ فيه توسُّل :

- أنا عالقٌ ، ياسارات .

نطق الشاب اسمي بلا تكلُّف . لم ألتفت إليه بوجهي ، بل بصوتي :

- دعِ الكلاب تُخرجك ممَّا أنت فيه .

«ارسَمْني» ، صاح بصوته الخشن ، ذي العَرْعَرة .

التفتت إليه وأنا على عتبة الباب أتحسَّس المفتاح في جيب سترتي . تساءلتُ :

- لماذا عليَّ أن أرسمك؟ .

«لأتحرَّر» ، ردَّ عدنان .

«تتحرر من ماذا؟» ، تساءلتُ ، فأجابني :

- من هذا الموقف .

ابتسمتُ بلا رغبة في ذلك . سألته :

- من الإنتظار؟ .

«نعم» ، ردَّ

«أإنْ رسمتُك دخلتَ الجنة؟» ، سألته ، فرد بنبْرٍ لم يُحسم اليقينُ فيه :

وجودي في رسمٍ، كواحد من جنود دولة الخلافة، إنصافٌ لي
ما لحق بي من حَيْف.
«وماذا عن الكلاب؟»، سألته في لَمْزٍ مستخفٍّ.
«لاكلاب. لابنطال جنز. لاسُترة كهذه. ارسمني في ثياب
ثياب خليفتنا رضي الله عنه حيًا، أو شهيداً»، قال.
«أأنت مؤمن، ياعدنان؟»، سألته، فانتفضَ بصوتٍ قَلِقٍ،
مفاجئاً:
- مؤمن؟ والله لو استدعى البرهان على إيماني أن أنهش كل بيت
في الغرب، بأسناني، لفعلتُ.
«وماذا عن البيوت في الشرق؟»، سألته، فردَّ:
- نحن ننهشها. سنملأ جهنم بالرؤوس اللاهية عن ذِكر الله.
«سمعتُك تُهدد هذه الكلاب بالذبح. أهي لاهية عن ذِكر الله
أيضاً؟»، سألته، فردَّ:
- هي وأصحابها.
«خذْ معك واحداً»، قلتُ وأنا أرمق الكلاب بنظرة تهديد لن
تفهمه.
«إلى أين؟»، تساءل عدنان، فأجبتُ:
- إلى حيث أنت ذاهب.
«لا متَّسع لكلبٍ نجِس. كلب أهل الكهف، الوفيُّ لإيمان
أصحابه، وحده ينعُم بسعادته في الفردوس»، ردَّ عدنان.
«ألا يحس بالوحدة؟»، سألته، فرد عدنان واثقاً:
- هو في صحبة حيوانات كريمة، الآن، في النعيم.
«حيواناتٌ في النعيم؟»، تساءلتُ، فردَّ عدنان مُحصياً بإطباق

أصابع يده اليسرى :

- كلب أهل الكهف . ناقة النبي صالح . كبش النبي إبراهيم . عِجْل بني إسرائيل . نملة النبي سليمان . حمار النبي عُزَير . ذئب النبي يعقوب . هدهد بلقيس .

«أبلقيس نبيَّة؟» ، تساءلت مستغرباً ، فرد عدنان :

- لا أعتقد . لا نبوَّة لامرأة .

«الهدهد طائر كريم» ، عقَّبْتُ ، ثم حثثْتُه على إضافات :

- أمن حيوانات أُخَرَ في النعيم ، ياعدنان؟ .

«دُلْدل سيد الأنبياء محمد . حمامة النبي نوح . حيَّةُ النبي موسى التي التهمت أفاعي السَّحرة . حوتُ النبي يونس» ، قال ، فقاطعتُه متسائلاً :

- حوت؟

«ما الغريب في ذلك؟» ، تساءل عدنان .

«يلزمه بحر» ، قلت .

«إنه في بحره الآن» ، رد ، ثم استطرد كَمَن يستكمل إفهامي : «أكثير على الله عزَّ وجلَّ أن يجعل للحوت بحراً ، ويخصَّ حيوانات الجنة بحوريات أيضاً؟» .

«لا» ، أجبتُ قبل أن أتساءل :

- أكلها حيواناتٌ ذكور؟ .

تأملني عدنان صامتاً لبرهة . غيَّر المحاورة في اتجاه آخر :

- في عينيك حيرةٌ مَّا . أأنا مخطئ؟ .

«حيرةٌ مِمَّ؟» ، تساءلتُ .

«أنت أدرى» ، رد عدنان .

«لا أظن» ، قلت .

«أهو تفكيرك في لوحة عن سنجار يحيِّرك؟» ، سألني ، فلدغني سؤالُه .

«أتعرف ، أنت أيضاً ، بمَ أفكر؟» ، تساءلتُ ملتفتاً من حولي . «أأنا مكشوفٌ على نحوٍ لم أتخيله؟ أأفكاري مكشوفة كثيابي؟» .

هدّأني عدنان بالتخفيف عني من شكوك اعتصرتْ لساني :

– أنا ميت ، ياسارات . الموتى يعرفون بمَ تفكر .

«هذه هي الجحيم ، إذاً» ، قلت . تمالكتُ نفْسي :

– كيف قُتلتَ؟ .

«أخبرتُك . قُتلت بطلقة في رأسي من الخلف» ، رد . استدار كأنما يهمُّ أن يريني الندبة فاستدركَ : «لا تُرى جروحُ الشهداء» .

«متى قُتلتَ؟» ، سألته .

زفر عدنان زفرة بليغة . نظر إلى الكلاب يستعرضها قبل أن يسألني :

– هل لنا أن نسير معاً على ضفة البحيرة؟ .

«سأوْدع متاعيَ البيتَ ، وأعود» ، قلت ، رافعاً الكيس أمام بصره بما فيه . غادرتُه إلى المنزل . وضعت كل قطعة من المشتريات في مقام يستلزمها . دسستُ علبة تبغ كاملة في جيب سترتي ـ أنا الذي أخرج صباحاً بلفافتين فقط في الطريق إلى المتجر ، والعودة منه . رجعت إلى عدنان .

لأول مرة في حياتي أتجول بكلاب من حولي ، تتقدَّمني وتتأخر عني بحسب نوازعها في تبديل الخطط من مجرى سيرها ، وعدنان يضبط التوجهات المنحرفة عن قصده هو في مجرى سيرنا ، متجاورَيْن

على ضفة البحيرة ، قريباً من مائها ، على تماسٍ مع القصب أحياناً .

«أُعدمتُ» ، قال عدنان ، واصلاً ما انقطع من حديثه عن طلقة في الرأس قتلتْه .

صرفتُ وجهي عنه إلى المياه متماوجةً قليلاً ، تحت شمس بانت منزلقةَ المسار في اتجاه الجنوب ، كحال مسارها كلَّ خريف من شمال العالم . لم يكن لقوله «أُعدِمتُ» وقعٌ علي : ميتٌ . حي . طلقة في الرأس . كلاب . إعدام . باتت باهتةً مكاشَفاته كمزاح مكرور ، إلاَّ معرفته أنني مزمع على رسم جبل سنجار . ذلك حصارٌ بليًغ ، واقتحامٌ بليغٌ ، وأَسْرٌ بليغ .

بضع إوزات ترنَّحت متمايلة فوق المياه . زورقان بعيدان . كان بصري على طُرق رمال ، وطين ، معلَّقة بين السماء والماء ، مصغياً إلى صخبٍ قَلِقٍ ، وزفيرٍ مذعورٍ في حناجر كائنات كالأثير خفيَّةً على تلك الطرق ، قبل أن يعيدني عدنان إليه بشدٍّ كُمٍّ سترتي :

- أصارحك ، ياسارات . لم أُقتل قتلاً عاديًا ، بل أُعدِمتُ .

نظرتُ إليه نظرة فارغة أَحسَّها بقياس بصره . تمتم :

- أسمعتَني؟ .

«سمعتُك» ، أجبته .

«أُعدمتُ» ، قال بنبر منكسر .

«أُعدمتَ» ، كررتُ الكلمة فارغةً كنظرتي الفارغة إلى وجه عدنان المتطاول في لحيته .

«ألن تسألني : مَنْ أعدمك؟» ، تساءل ، فأجبتُه :

- خُذ سؤالك من حسابي ، إذاً .

«مِنْ حسابك؟ لم أفهم» ، قال الشاب بصوته الخشن تتحاكُّ

الحروف في باطن حنجرته .

«سألتني أن أسألك مَنْ أعدمك ، فاعتبرتُ سؤالك سُلفةً» ، قلت .

«لم أفهم» كرر عدنان كلماته .

«خُذِ السُّلْفة منِّي هاكَها : مَن أعدمك؟» ، سألته وأنا أُبعِد كلباً عن قدمي دَفْعاً رقيقاً .

أبقى الشاب بصره عليَّ في تحديقٍ مسرف ، يتقرى جدوى السلوك بسؤالٍ عمَّن أعدمه كلَّ تلك المُنعرَجاتٍ من حسابٍ ، وسُلفة ، وتسديد السُّلفة . تمتم :

- تبدو متذمراً من رفقتي .

توقفتُ . استدرتُ إليه :

- لقد اجتحتَ صباحي غازياً ، ياعدنان . واجتاحتني كلاب لم أتجول مع كائن من نوعها قبلاً . قُلْ كُلَّ ما تعرف ، وما لا تعرف ، دفعة واحدة كي استيقظ من إغفاءتي . لا تستوقِفْني باستطرادات من أسئلتك .

«لم أسألك ، ياسارات . سألتك لِمَ لا تسألني» ، قال عدنان بصوت خفيض .

«لا تسألني حتى هذا . اسألْ نفْسك وأجبْ أنت . أنا سأصغي لاغير» ، قلت .

«هذا ما أفعله» ، عقَّب عدنان . شدَّ مقاود الكلاب في خشونة . تهدَّدَها :

- لا تزعجي الأستاذ سارات ، أو ذبحتكِ فوق حذائه .

«لاتذبحها فوق حذائي ، رجاءً» ، قلت في نبرٍ خافت الامتعاض .

«أين تريدني أن أذبحها؟» ، تساءل عدنان متفحِّصاً أرجاءَ الضفة ببصره . «بي رغبة في ذبحها الآن» .

زفرتُ زفيراً خافتاً مع الكلمات التي نطقتُها :

- إن كنتَ ميتاً ، فما هذه الكلاب معك؟ .

نظر عدنان إلى الكلاب وقد أدركتْ ، بفطرة التقاطِها الأصوات مذاقاً على ألسنتها ، أنها في مهبٍّ من رغبات البطش . ردَّ :

- أنا أيضاً لا أعرف لِمَ هذه الكلاب معي .

«بل تعرف» ، قلت . «تتكسَّب منها مالاً تشتري به بنطالك الجنز ، وسترتك ، وغزوَكَ صباحي أيضاً» . أخرجتُ علبة التبغ من جيبي . «أتريد لفافةً؟» ، سألته ، فهز رأسه نفياً .

أشعلتُ لفافة تبغ ملأتُ بدخانها اللحمَ تحت جلد صدري ، ذي الرسم متنفِّساً من رؤوس التنين الآدمية السبعة :

- أُعدمتَ بطلقة في الرأس . مَنْ أعدمك؟ .

«شرطة الحِسْبة في جيش دولتنا» ، رد عدنان .

«أأعدمك جيش خليفتك؟» ، سألته ، فرد :

ـ منفِّذُ إعدام من جيش دولة الخلافة .

«أكفرتَ بدِينكَ؟» ، سألته ، فرد عدنان بنبرٍ مستاء :

- حاشَ الله أن أفعل .

«أشتمتَ صحابة النبي؟» ، سألته ، فرد :

- لا .

«أمزقتَ القرآن؟» ، سألته ، فانتفض :

- أعوذ بالله من فِعْل ذلك .

«شتمتَ أمَّ خليفتك» ، قلتُ بنبرٍ ساخر .

زفر عدنان كأنني ضبطته بجريرته . قسَّم مقاود الكلاب على يديه **معاً** ، ثلاثةً في كل واحدة . تكلم بصوت أملس تراجعت خشونته :

- صرَّحتُ بأمر لا أدري مدى توفيقي في التصريح به .

«بِمَ صرحتَ؟» ، سألته ، فرد :

- قلتُ أنا مغرم بالخليفة أدامهُ الله .

«ما الجُرمُ في ذلك؟» ، تساءلتُ ، فرد :

- تماديتُ .

«تماديتَ؟ أتماديت في غرامك بالخليفة؟ لا سلطان في الشرق يحبُّ أقلَّ من ذلك» ، قلت .

«تماديتُ» ، كرر عدنان . أضاف : «قلتُ لو أحبَّ الخليفة أن يتزوجني لتزوجته» .

ابتسمت له ابتسامة ناقصة :

- تستطيع أن تتزوج في أوروبا من تشاء ، ياعدنان . تستطيع أن تتزوج الخليفة نفسه . أنت في أوروبا .

«لقد انتهت هذه الخرافة» ، تمتم عدنان ، فتساءلتُ :

- أية خرافة؟ .

«الحدود» ، ردَّ عدنان . «لا آسيا . لا أفريقيا . لا أميريكا . لا أستراليا . لا أوروبا . لا عراق» .

«متى صار العراق قارة؟» ، سألته ، فرد تلقاءً :

- منذ أُعلن العراقُ مولداً للخلافة بعد كفر العالم .

-«هكذا ، إذاً» . عقَّبتُ .

«هكذا هي مشيئة الله عز وجل» ، رد عدنان .

«وماذا عن غرامك؟» ، سألته .

هز رأسه في أسف ثقيل :

- إبن خالتي نقلَ عني ما قلت إلى شرطة الحِسْبة .

- «تستطيع أن تتزوج من تشاء الآن . أنت في أوروبا» ، عقَّبت على نبرة الأسف في صوته مظلوماً .

«بل أنا في البرزخ ، على الطريق الصواب إلى عتبة الجنة» ، رد عدنان بصوتٍ لم يزل أثر الحسرة عليه . غمغم مقهوراً : «ابن خالتي . من لحمي ودمي . تفرَّج عليَّ في المحاكمة لم تَطُل أكثر من أربع دقائق» .

«بم جابهت القُضاة حين اتُّهمتَ؟» ، سألته ، فرد :

- قلتُ أنا مغرم بالخليفة مثلكم جميعاً . أما زلَّةُ قولي إنني أتزوجه لو أراد فكانت مبالغةً في القصد لا أعنيها بحرفها .

«بالطبع لو قُبِلَ دفاعك عن نفسك لما كنتَ معي هنا» ، قلت ببعض السخرية .

صُلب عدنان على عمودٍ إلى جوار اثنين آخريْنِ اتُّهما باللواط ، في ساحة من مدينة الرقة . لُفَّ من وسطه بأسلاك شائكة . لم يستجب له أحد إذ طلب الصلاة ركعتين . ومن بُعْدِ شبرين ، أو أكثر قليلاً ، اخترقتْ قَذالَه طلقةٌ من عيار ٧ ملم خرجتْ من شفته العليا ، ناثرةً لثَّته وسِنَّيْنِ من أسنانه تطايرتا صاخبتين كهتاف الشهود بالبقاء لله .

استعرض عدنان على نفْسه صوراً محفوظة في خَزْنة عينيه ، وهو يطلق حشرجة خافتة مع الدم ساخناً سال على سَبَلَةِ لحيته : لقد رأى أطفالاً في الساحة ذاتها ، أياماً قبل إعدامه ، يلهون برأسين مقطوعين ، قبل أن يختطف رجلٌ واحداً منهما ، ممسكاً به من شعره ، ويضعه في يد ابنه ذي الأربع السنين ، ملتقطاً صورة له بهاتفه .

رأى عدنان ، ببصر الموت ساحباً منه يقينَ جسده كالخيط ، يدَ الطفل يَتدلى منها الرأسُ المقطوع ، ذو اللحية الكثة الطويلة . يدٌ صغيرة لم تقوَ على الإمساك بشعر الرأس المقطوع إلاَّ ثوانٍ كانت كافية لالتقاط الأب صورة لابنه ، قبل سقوط الرأس أرضاً ، معفَّرَ الوجه بترابٍ ، شاحباً ، يبس الدمُ على موضع البتر ، وعلى نهايات الشعر تلاصقت بصمغ الدم تَقَادَمَ فاسوداً من ثلاثة أيام على قَطعه ، ولهوٍ به ركْلاً ، ودحرجةً بين سيقان الأطفال السود الثياب في دولة الخلافة .

رأى عدنان ، ببصر الموت ساحباً منه يقينَ جسده ، ذلك الطفل يلتهم شطيرةَ خبزٍ بجبنة بعد إسقاط الرأس المقطوع من يده . ابتسم له عدنان آنذاك . لكنّه ، يومَ نفاذ الطلقة في قَذاله إعداماً ، لم يستطع ، ببصر روحه ، تخمين صورة للساحة غصَّت بالمتفرجين . لم تسمع روحه تهليلَ المهلِّلين . لم ترَ روحُه ضربةَ الخيزرانة من صبي في الثانية عشرة على قحفه . لم تتمكن روحه من قياس الوحشة ، بمسطرتها ، حين خلت الساحةُ مساءً إلاَّ من بعض آليات جنود الخليفة عجولةً في عبورها .

روحُ عدنانَ الصرخةُ من هول الوحشة أُقفلتْ خرساءَ بمفتاح الوحشة ، مرميةً قرب الجثة أربعة أيام بتمامها ، قبل الدفن في «مقبرة الكفار» استحدثها مشرِّعو دولة الخلافة ، في المدينة ، للأرواح المغضوب عليها محرومةً من أملٍ في الرحمة بعد الموت .

«أدُفنتْ جثتك في الرقة؟» ، سألته ، فرد عدنان :

– في الرقة .

«أأنت من الرقة؟» ، سألته بنبر الصوت العارف أنه ليس من المدينة السورية ، فردَّ :

- من مدينة الرمادي .

«جسدٌ من العراق ، وقبر من سوريا» ، عقَّبتُ ، فانتفض لسانه من غير احتداد :

- لا عراق . لا سوريا . لا حدود ، بل دولة الإسلام .

«أئمتك سمَّوها دولة العراق والشام» ، قلت تعقيباً .

«كان خطأً» ، رد عدنان . «تحرَّر اسم الدولة من ذلك الحصْر . إنها الدولة الإسلامية ـ دولة كل أرض الله» .

عدنان ، ذو الحادية والعشرين عمراً ، من مدينة الرمادي إذاً . «إنغماسيٌّ» كما يقول ، وفق مصطلحات ترتيب المحاربين تحت راية الخليفة الجديد . بعض الحبوب المخدرة ، الصغيرة يتناولها ، بحسب لسانه ، قبل المعارك تفتح المعاركَ خضراءَ سُندساً ، بساتينَ ، سُرادِقاتٍ من ريش النعام وأسلاك الماس . تغدو المعارك ، بعد تلك الحبوب ، بواباتٍ بمقابضَ ذهب . أزيزُ الطلقات نداءٌ من حناجر الحور العين ، ودويُّ القنابل تسبيحٌ ، وانهيارُ الأبنية كشفٌ عن مخبوء من عسلٍ جارٍ جداولَ .

هو لا يسمي الأنتحاريَّ انتحارياً ، بل الشهيدَ الحي : «لثمتُ أكتاف أربعة من جنودنا ، في أربعة مواقع ، وهم يصعدون مَرْكباتهم لتفجيرها على حواجز الكَفرة الكرد في الهجوم على نواحي أربيل . لثيابهم روائح الجنة ، ياسارات . وتستطيع ، إنْ أمعنتَ النظر إليهم بقلبِ مؤمن ، أن ترى أذرع الحوريات ممدودة لعناقهم . يا للنعيم . أأنت مؤمن ، ياسارات؟» .

«ماذا تحسَبي؟» ، سألته ، فردَّ :

- لا أقرأ القلوب . لكنك ستُنْصِفْني في الرسم ، وذلك يطمئنني إلى أثر من الهداية في قلبك .

«سأنصِفك؟» ، تمتمتُ متسائلاً : «أأبدو حَكَماً يُنْصِف ، أو لا يُنصف؟» .

«ألستَ حَكَماً حين ترسم؟ لك القدرة على الإنصاف إذاً» ، عقَّب عدنان .

أشعلتُ لفافة تبغ جديدة . نفختُ الدخان قويًا من فمي ومنخريَّ معاً :

– الحُكْم للون حين أرسم ، ياعدنان . لا أتَّخذ قراراً نيابة عن اللون ، ولا أَهدي خطوط الرسوم إلى دِين .

توقف عدنان . شدَّ مقاودَ الكلاب في قسوة ، فارتدَّت أعناقها إليه كأنما تعتذر عن خطأ لم ترتكبه .

«أتنقادُ لمشيئة اللون والخطوط حين ترسم؟» ، سألني .

«لكل شيء مشيئة ، يا عدنان» ، قلت ، فاستنكر :

– لا مشيئة إلا مشيئة الله .

صرفتُ بصري إلى جهة المياه ، فبادرني عدنان كأنه استشعر خذلاناً :

– ماذا عنِّي في هذه الحال؟ .

«أية حال؟» ، تساءلت ، فرد ببعض القلق :

– إن كنتَ تنقاد لمشيئة اللون فربما لن ينصِفني رسمُك إيايَ .

«لم أقرر رسمك بعد» ، قلت .

«فكرتَ بالأمر» ، قال في ثقة العارف .

«نعم . لكن لم أقرر» ، عقَّبتُ .

«أحضرتني ، ياسارات ، مذ فكرت برسم عن سنجار . وها أنت لم تقرر بعد ماذا ستفعل بي؟» ، قال بصوت جافٍّ .

«قل لي ، ياعدنان ، أأنت نادم على لحاقك بسيدك الخليفة؟» ، سألته منعطفاً بالمحاورة إلى صوبٍ آخر .

«لا قَطعاً . أأسأتَ فهمي؟» ، رد عدنان .

«لا أظنني أسأتُ فهمَك ، سألتك لأتفهَّم» ، قلت .

«لا . لا» ، كرَّر النفي . «سألحق به لو عدتُ بعد الإعدام حيًا» .

«أعدمتْك شرطته» ، قلت مذكِّراً ، فردَّ من فوره :

- سامحهم الله .

«أنت متسامح» ، عقَّبت ، فألهمتْه كلماتي تبريراً :

- كنتُ تمنيتُ ، ياسارات ، لو سمعني الخليفة أعزَّه الله . لم يكن ليقبل ما حلَّ بي .

«لو سمع منك؟» ، تساءلت ، فرد :

- نعم . بَوْحي بحبه .

«تعني قولك إنك ستتزوجه لو أراد؟» ، تساءلتُ ، فردَّ :

- سامحني الله .

«أنتَ نادم على ما قلتَ» ، عقَّبت على رده ، فاحتدَّ مستدرِكاً :

- بل أتزوجه إن أراد .

«لقد فشل الموت في إقناعك» ، قلتُ تعقيباً .

«ليس الموت مضطراً إلى إقناعي بشيء . هو خادم لا أكثر ويقودني إلى الجنة» ، قال عدنان .

رميتُ عقبَ لفافة التبغ أرضاً . وطُأتُها . نظرت إلى المياه :

- أظنك قلتَ لي كل شيء ، ياعدنان . هذا القَدْر يكفيني .

«لم أقُلْ كل شيء بعد» ، عقَّب عدنان .

«عندي أشغال أقضيها» ، قلت تمهيداً لانصرافي عنه ، فأمسك

بيده اليسرى جانباً من سترتي إمساكاً ليِّناً :

- ماذا عن الرسم؟ لم تشرح لي الموقف الذي سترسمني عليه .

«لم أتصور تفاصيل الرسم بعد ، يا عدنان» ، أجبتُ .

«أنا في لوحتك» ، قال عدنان بنبرٍ ثقة . «لا خيار لك . لا خيار لي . لكنْ دعني أقترح الوضع الذي أتمنى أن ترسمني عليه» .

«كيف تريد نفْسَك مرسوماً؟» ، سألته ، فرد :

- مطوق الرأس بعلم دولة الإسلام ، وفي يدي اليمنى راية مثلها ، واقفاً على صخرة شاهقة من جبل ، ألوِّح لسيل جارف من جنودنا في الأرجاء كلها ، وفي البعيد ، ورائي ، خليفتنا ، أدامه الله ، على حصان .

«ما نوع الحصان؟» ، سألته ، فرد :

- حصان .

«حصان ، لا بغل» ، عقَّبتُ على رده .

«تماماً . حصان» ، أكَّد لي .

«ما لونه؟» ، سألته ، فرد :

- أسود ، بصهيل يُسمع حتى السماء . أتمنى عليك رسمَ الصهيل مخيفاً تصطَكُّ منه رِكاب الكَفرة ، من أرض ياجوج وماجوج حتى أعالي أرض الجليد .

«ما لون صهيله؟» ، سألته ، فرد بنبرٍ ملجوم :

- ماذا؟ .

«تريد صهيلاً يُسمع . حدِّدْ لي اللونَ الصالح لصهيل يُسمع من داخل الرسم» ، قلت .

أرخى عدنان يده الممسكة بمقاود الكلاب ، فتراخت أعناقها المشدودة . بدا متلمِّساً جواباً مَّا ، فبادرتُه :

- تريد رسماً لك على صخرة شاهقة ، ووراءك الخليفة في البعيد . ستبدو أنت السيد على جموع الجنود بلا منازع .

«لاتُسئْ فهمي» ، رد عدنان دفعاً لنبرة التهمة في كلماتي . أردف : «لم أتوخَّ إلاّ مَظْهراً لي في الرسم ينصِفني مما لحق بي» .

«ستكون في مأزق من جديد ، ياعدنان . ستُعدم مرة أخرى برغبتك هذه في وضع تبدو السيدَ مُطْلَقاً» ، قلت بنبْرٍ يثير الترددَ فيه ، والحذَرَ من رغبته .

«ماذا تقترح؟» ، سألني عدنان ، فأجبته :

- لم أقرر الرسم بعد . كم مرة كررتُ قولي هذا؟ .

«لكنك فكرتَ في رسم» ، قال بنبرٍ فيه استعطافٌ مُسْتبطَن .

«نعم . إنما إنْ بدأتُ التنفيذ فستكونُ المشيئة للون» ، أجبته .

زفر عدنان من صعود لوعةٍ خافتةٍ إلى لسانه :

- تتكلم ، ياسارات ، كتلك الجارية التي اشتريتُها من سوق في مدينتي .

«مدينة الرمادي؟» ، سألته ، فرد :

- هي مدينتي . قلت ذلك قبْلاً .

«جارية؟!» ، تساءلتُ . «اشتَريتها؟» .

«بأربعمائة دولار ، ياسارات . اقترضتُ من ابن خالتي الخنزير ، الذي وشى بي إلى الشرطة ، مائة وعشرين دولاراً أعدتُها إليه مائتين . طلب رباً على دَيْنه» ، قال عدنان في وجع .

«أشتريتَ واحدة من أيزيديات سنجار؟» ، سألته .

استطرد عدنان في إعلاء شأن «سبي الخلافة» متوجِّباً على ملَّة من عبدة الشيطان لا يصلُّون ؛ لا يذكرون الله . لفَّق من خياله ما يجيز

له ذبحَ أطفال ، وبَقْر بطون يُجهض أجنَّتها ، وقَطْع رؤوس ، وتحليل فُروج بجهاد الخُصى . ذكرَ النارَ مراراً في عرضه الإيمانَ الأيزيديَّ مُفصَّلاً على ركالة الإباحة له أن يخسف الله جبلَ سنجار خسفاً يمحقُه ، ويخفيه حياءً من صخره أن أيزيديين عاشوا عليه ، يعبدون النار ، والمراقد ، والطيور ، ويستنكفون عن التلميح إلى أي شيء فيه إشارةٌ إلى إبليس ، أو كنايةٌ من إشارة إليه . زَعَم أنه قرأ لهذه المِلَّة كتباً فيها حضٌّ على نصرة كل من يغزو أرض المسلمين ، ويهدم أركان دِينهم ، ويبتليهم بالمحنة ؛ وأنَّ لهم تعازيم ، ورُقىً ، وتعاويذَ ، وتصاويرَ رموزاً لاستحضار الطاعون ، والبَرَص ، والجدريِّ ، والزُّحار ، والسل ، والسرطان ، والبلهارسيا ، والكوليرا ، والصَّرع ، وداءِ الشقيقة ، والجذام ، والجَرَب ، لكل مسلم .

تمادى عدنان في استطراد خياله على التلفيق . زَعَم أن اليزيديين كلما مروا ببئر في أرض مُسلمة ، طوالَ التاريخ غير الموجز في قدْرٍ معلوم من معلوماته ، رموا في مائها حصاةً عليها اسم أرضهم المقدسة «لالشْ» ، بالحروف العربية ، والهندية ، واليونانية ، والمسمارية ، اعتقاداً منهم أن للحصاة تلك قدرة على إفراز السم . وأكد لي احتفاظه ، في الرمادي ، بحصاة من مرقد وليٍّ لهم تحصَّلها في غزوة جنود الدولة الإسلامية لسنجار .

لم أستوقف عدنانَ في جنوح خياله المستعرض تاريخَ يقين الأيزيدي على هدىً من وحي خرافة يقينه عليه ، إلاَّ مرتين مختصَرتين . مرةً حين عدَّد الأوبئة التي يستدرجها الأيزيدي بتعاويذه ، ورقاه ، إلى أرض الإسلام ، فاضفتُ إلى القائمة وباءً نسيه :

- ماذا عن الأيدز ، ياعدنان؟ .

وافقني عدنان :

- لِمَ لا؟ إنه من أمراض الكَفَرة .

في المرة الثانية من استيقافي له استطرادَه المُسهبَ ، أبديتُ استغراباً :

- أتتحدث عن المِلة الأيزيدية الصغيرة ، أمْ عن نسل ياجوج وماجوج وراء سور الصين؟

«عن الأيزيديين ، ياسارات» ، رد عدنان واثقاً . «الذين بيننا منهم ، في المدن والقرى ، من جبل سنجار إلى جبل هكّاري ، هم المِلّة المُعلَنة ، الظاهرة . لكن الفروع المستورة ، المتموِّهة برياءٍ من إشهار إسلامها نقياً كأهل السُّنَّة والجماعة ، هي الكُثر ، تنتظرُ علامة من أرض لالش» . رفع إصبعه كمَن عثر على تعبير بليغ : «خلايا نائمة» ، قال مستعيراً مصطلح أهل زماننا في توصيف موالين لمعتَقَدات ، وسياسات ، يكمنون محتجبين ، ثم يظهرون بغتةً في هجومٍ قاتل ، أو خُدعة مدوِّخة تُبَلبِل وتُشتت .

«خلايا نائمة؟!!» ، تساءلتُ ، فأكد بإسرافٍ من الخلط :

- كل الأيزيديين خلايا نائمة .

«حتى مَنْ هُم معلَنون ، ولهم مراقد أوليائهم ، وبيوتهم ، وشعائرهم؟» ، تساءلتُ ، فردَّ مستفيضاً :

- مراقد أوليائهم خلايا نائمة .

«حسناً ، ياعدنان . قلتَ لي قبل قليل إنني أتكلم مثل زوجتك التي اشتريتها» ، قلت ، فاستوقفني :

- مثلُ جاريتي .

«كما تريد ، ياعدنان» ، قلتُ بنبرٍ تسويةٍ .

«بل كما تحدِّدهُ مقاصد شراء سبايا في أرض الدولة الإسلامية» ، عقّب عدنان .

«صرتَ فقيهاً في تصنيف المقاصد من صحبتكَ الخليفةَ» ، قلت . فاعترض :

- من صحبة المجاهدين المجتهدين .

«كيف كانت تتكلم جاريتُك؟ أنقذْني» ، قلتُ في بَرَم .

رتَّب عدنان سردَه . أخبرَني :

قال للفتاة السَّبيَّة :

- ستخدمينني في الجنة .

ردت الفتاة :

- بمَ أخدمك في الجنة؟ خادماتك من الحوريات لن يمنحنني فرصةً لكثرتهن ، وكثرة انشغالهن بك .

قال المكنَّى بأبي دِحية رداً :

- سأجد لكِ عملاً يناسبك ، بالتأكيد .

ردت الفتاة :

- أأصنع القهوة للحوريات؟ .

«لا تشغلي بالك منذ الآن . الأعمال كُثُر هناك» ، قال لها عدنان ، فردت المسبيَّة :

- لايناسبني إلاَّ العودة إلى سنجار .

«لن تتذكري سنجار وأنتِ تخدمينني في الجنة» ، قال لها ، فردت :

- سأعود من الجنة إلى سنجار .

في هذا المنتهى من سَرْدِ عدنان لمحاورته مع الفتاة السَّبيَّة ، استوقفتُه :

- ما الشبه بين ما أحدثك به وبين ما حدَّثْتك به المسكينة؟ .

«ليست مسكينة ، يا سارات . كانت في عصمة واحد من جُند الله - في عصمتي» ، رد عدنان .

«أينها الآن؟» ، سألته ، فرد كَمَن يضرب رقماً في رقم ويخطئ في حاصله :

- لا أعرف . بوغِتْنا بهجوم من الكَفَرة ، في نواحي الحسكة . لم أعثر عليها منذئذ .

«أهربتَ يومها؟» ، فاجأتُه بسؤالي ، فاربدَّ وجهه بالسُّمرة الترابية في بشرته :

- لم أهرب . نحن لا نهرب .

«يحدُث ذلك في المعارك أحياناً ، ياعدنان . تواضَعْ» ، قلت ، فرد :

- ليس في معاركنا ، نحن جنود الله .

«في الكثير من المعارك خسرتم مواقعكم . أأُعدِّدها لك ، يا عدنان؟» ، سألته ، فرد :

- هذا خلْطٌ من رغبات الكَفرة ، ورغبات إعلام الكفرة .

«ماذا يجري تحديداً ، إذاً؟ ماذا تسمي تخليكم عن مواقع ، وقرى ، وبلدات ، وانتقال حشودكم من جهة إلى جهة؟» ، سألتُه . «هات توضيحاً ، يا عدنان» .

«أتريد توضيحاً مني أمْ من أحكام الشرع؟» ، رد عدنان بلسان الحزْم في تحديد المقاصد .

«دعني من فقهائك» ، قلتُ بغيةَ توفير شرْح من عقل عدنان . اختصرتُ سؤالي :

- ما تسميةُ تراجُعاتكم أحياناً ، وتخلِّياتكم أحياناً؟ .

«نسميها استمهالَ الوقت» ، رد عدنان .

«لم أفهم» ، قلت .

«نستمهل الوقت . ما تُسميه تراجعاً من موقع ، أو تخلّياً عنه ، هو مسحة نستمهل فيها الوقت» ، رد عدنان مُبسِّطاً عليَّ شرحَه .

«كيف تستمهلون الوقت؟» ، سألتُه ، فرد : «يرى فقهاؤنا أنَّ الوقت إذا تصلَّب ، واشتدَّ ، فعلينا استمهاله حتى يعتصره اللهُ فيلين» ، رد عدنان . رفع إصبعين من يده اليسرى أمام عينيَّ يزوِّد لسانَه بإضافةٍ : «لا وقت ينجو من الرضوخ صاغراً لفتح جديد» .

«أعود إلى سؤال لم تجبني عليه ، ياعدنان . ما وجه الشبه بين ما أحدثك به ، وحدَّثْتَكَ به سبيَّةُ سنجار؟» ، سألتُه .

نقل عدنان بصره إلى الكلاب مغمغماً : «سبيَّةُ الخلافة . ماذا قلت لي مما يشبه أقوال سارات ، ياجاريتي؟» ، قال مخاطباً شبحاً من صروفِ خياله . أعاد عينيه إليَّ محدِّقاً : «لا أتذكر على التحديد . لكنْ لمت ما استشعرتُه مُشتَرَكاً بين لسانيكُما» .

تنابحتِ الكلابُ فجاءةً . صدم بعضها بعضاً من غير خشونة .

تراجعتُ خطوتين كي لا تمسَّني الحيواناتُ الستة باغتَ أعماقَها ...اءٌ مبهم فتنابحتْ مُطَمْئِنَةً ، محذِّرة ، مواسية ، متشاتمة ، متضجِّرة ، متخابثة ، متلاوِمة ، مُستغيبة ، متوعِّدة ، أو تتبادل صِيَغاً للتسويات في علوم الحيوان . مقاصدُ أصواتها في النباح المنتظم ، غير القوي ، لم تكن واضحة ، لكنها استدرجتني إلى سؤالٍ :

- لماذا تتجول بستة كلاب معاً؟ .

«ستة أفضل من واحد . أنال أجوراً عن ستة في تجوال واحد . يعمل أصحابها بي إن كانوا مشغولين فأخدمهم» ، رد عدنان .

«أهكذا تكسب معيشتك؟» ، سألته ، فتأملني عدنان بنظرة فارغة ، صامتة .

نقلتُ سؤالي إلى موضع آخر :

- ما مهنتك في هذا البلد ، ياعدنان؟ .

«أتسألني حقًا عن مهنتي؟» ، رد عدنان

«أفي ذلك عيب ، أو إهانة؟» ، تساءلتُ ، فرد عدنان :

- ستعرف بعد إنجاز الرسم .

ابتسمتُ . وضعتُ يديَّ في جيبَيْ بنطالي . حثثتُ خاطري على تعقيب بين التهكم والممازحة :

- أخطأتُ في سؤالك عن مهنتك هنا ، يا عدنان . لقد أُعدِمتَ ، وها أنت في البرزخ قبل العبور إلى الجنة .

«نعم» ، أكَّد عدنان في ثقة ، أو تصنَّع ثقةً .

«وأعرف مهنتك» ، قلت ، فقلَّص بين أجفان عينيه متمعِّناً . تمتم كَمَن يختبر :

- ما مهنتي في هذا البلد؟ .

«عنيتُ مهنتك هناك» ، قلت مشيراً بوجهي إلى السماء . «لديك الكثير لتفعله» . غمزتُه مضيفاً : «تعرف ما أعنيه» .

ابتسم عدنان فاهماً إشارتي الواضحة مَقْصَداً . عاد إلى سؤاله المعلق الجواب :

- متى ستبدأ الرسم؟ .

«حيت تتأكد أنك حصلت على تأشيرة سفر إلى هناك» ، أجبتُه مشيراً ، من جديد ، إلى السماء بوجهي .

شدَّ عدنان مقاود الكلاب فألوى أعناقها في اتجاه الأجمة الكثيفة

الشجر شمالاً . قال بنبر لا يخفى حقدُه :

– عليَّ أن أعيد هذه الخنازير إلى حظائر أصحابها الخنازير .

«كيف يتصلون بك؟ أمعك هاتف؟» ، سألته ، فتمعَّنَ فيَّ تحديقاً :

– هاتف؟! أين تعيش ، يا سارات؟ .

ردُّه المبهم لم يشغلني عن تهكُّم عابر عَرَض لخيالي :

– اسمعْ ، يا عدنان . غيرتُ رأيي في شرط البدء بالرسم .

عاد متلفِّتاً إليَّ بعد خطوتين من انصرافه بالكلاب :

– أتخلَّيتَ عن شرط حصولي على تأشيرة سفر إلى الجنة؟ .

«نعم» ، أجبته .

«ماذا الآن؟ أتريد أن أَحْلق لحيتي؟» ، تساءل عدنان بنبرٍ من صوت المداعبة .

«بل جِئْني بحصان أسود» ، قلت .

هز عدنان رأسه في أسف مُلَطَّف ، كأنما تبلَّغ ما في كلماتي من معابثة . صفَّر للكلاب يحثها علَى المشي . كلمني من غير نظر إليَّ :

– سأعود ، يا سارات .

أخرجتُ يديَّ من جَيْبَي بنطالي . تحركتُ منصرفاً بدوري عبر الفسحة الحجر بأُشناتها الخضر ، الممتدة لساناً من ضفة البحيرة إلى حدود حديقة بيتي . أطلقتُ صوتي مرتفعاً من غير أن أنظر إلى عدنان مغادراً بكلابه :

– يا أبا دِحية : لا تنسَ أن تُحضر الخليفة أيضاً .

الفصل الثالث

(Titian: Punishment of Marsyas)

رفعت العنزتان رأسيهما تحت شجرة التين الوارفة ، وهما تمضغان عشباً يابساً ، فقيرَ المنبت في الأرض القاحلة ، أو تكاد ، إلاَّ من أشجار تين متباعدة ، شُعثِ الغصون ، خشنةِ الأوراق السميكة يُريحُ ظلُّها الغصونَ من نَفَس الشمس في شهر آب .

الفتاة الصغيرة الراعية ، المنسلتة الخمار الأبيض عن شعرها الأسود ، المتماوج ، ذات الأحد عشر عاماً ، أصغت كعنزتيها إلى رشق عميق من الطلقات عن بُعدٍ خَمَد بعد برهة ، وأعقبَ الرشقَ دويٌّ قذيفتين مختنقتيٍّ الصدى .

هشَّت الفتاة الصغيرة بعصاها القصيرة على عنزتيها تحثهما على مغادرة السفح المسوَّى مساطبَ لزرع الشجر ، غرب جبل سنجار . مشت هرولةً خلفهما ، متوجِّسةً من الصمت ثقيلاً علَّقَ المكانَ الصخر إلى حلقته العالية .

تقافزت العنزتان ، برشاقة الطبع الجبلي في نسلهما أتَّخذت أمُّ الأساطير ذَكَرها التيس مراجعَ للإيمان بالفحولة بلا نقصان ، قويةً لاتُدحَض . استعارت قرنيٍّ التيس للرأس الآدميٍّ كبلاغة من بلاغات الجسد كشفاً عن غريزة الحيوان الجليلة فيه ، الطليقة بسلوك إلى

اللذائذ ، واستعارت أحياناً نصفه الأسفل مضافاً إلى جذع الإنسان العلوي ، كتشريع للشكل شهوانيّاً عربيداً في الشهوة وتحصيلها . وقد أبقت أمُّ الأساطير للتيس ، الذي اقترضَ خيالُها بعضَ جوارحه مُضافةً إلى جوارح الإنسان ، منزلةً بين الاستعارتين على مضمون للغواية أُطلِق تعريفاً على الإنحرافات الكبائر عن المذاهب الأصول لدى البشر ، فوُصِمَ متَّخذو رمزه وساطةً في اليقين بأتباع الشيطان ، ووُصِمت كنائسهم بـ «كنائس الشيطان» .

قَطْعاً لم يَعرض لخاطر تلك الفتاة الراعية الصغيرة ، العائدة بعنزتيها قفزاً في المسالك بين الصخور ، شيءٌ من كشوف الخيال الحيواني ملتزقةَ الظلال بخيال الإنسان . العنزة عنزة . تُحلب ، ويُتَّخذ شعرها نسيجاً ، ويُباهى بها رشاقةَ البهلوان صعوداً ، ونزولاً في المنحدرات ، ووقوفاً على قائمتيها لبلوغ الغصون العالية . وذَكَرُ العنزة ، السيدُ التيس ، هو للسِّفاد إنتاجاً للنسل ، وإنتاجاً للشَّعر . يُؤكل لحمه ، ويُنتَفع بجلده ، لاأكثر .

ليس في مُلكية أهل الفتاة ، ذات الأحد عشر عاماً ، تيسٌ . يستأجرون جهدَ تيس جيرانهم لِسفاد عَنْزهم ، مقابل كُبَّتين من شعر الحيوان الخشن لصُنع لُبُودٍ يجلسون عليه . ومِلَّةُ الفتاة الأيزيديون لا يُقرُّون في أعرافهم التيسَ مرجعاً من مراجع الفحولة ، ولا يُدرجونه رمزا قطُّ في شعائر يقينهم . ولم يسمعوا ، في الأرجح ، بمناهج مِلَلٍ من أوروبا العصور الوسطى أقرَّتِ الشكل الآدمي ذا الرأس التيس ، والساقين الحيوانيتين بظلفيهما ، مُقتدىً في تضرُّعهم إلى الغيب ، وتَقرُّبهم زُلفى من القوى الخوارق والخارقِيْنَ .

نُسِب التيس البشري الهيئة إلى باطنية في المعتَقَد تَمَثّلها فرسان

المعبد في القرن الرابع عشر، وأُوجِدَ رسماً، بعد قرون من ذلك، عن يد راهبٍ باطني. يُدعى ذلك البشريُّ الحيوان بـ «التيس السَّبتي» - تيسِ يوم الراحة في مجريات تقاسُم الأديان ليوم الراحة: هو سبتٌ، أو أحد، أو جمعة. لكن التيس البشريَّ حظي بانتسابه إلى السبت. وحظي الجامعيون البحَّاثة براحتهم من مصطلح «السَّبتية»، أي الإجازة التي تُمنح لهم في سابع سنة من عملهم، لينصرفوا إلى الترويح عن أنفسهم، أو إكمال بحوثهم حيث شاؤوا.

لِلَّة الفتاة الصغيرة، المسرعة بعنزتيها عودةً إلى البيت بعد سماع رشق ودويٍّ، انجذابُ تاريخها إلى هويةٍ باطنية هي وَسْمُ معتقَداتٍ في الممالكِ الكبريات، وعصور العمران الأكمل على ضفاف أنهار الشَّرق الوسطى. لم تمسح القرون حروف النحت النافر لتلك المعتقدات عن حجر يقين الأيزيدي المتوارث إيماناً ترفده اقتباساتٌ من أديان القرون، وأفكار مبتدعي رموزها المتكتِّمة، ورموزها الصريحة.

المِلَّة الأيزيدية، التي تتوقَّى من شعائرها القوى الواهبةَ، والقوى الناهبةَ، أدرجت رموزاً أشكالاً في التصاوير ليس بينها تيسُ أوروبا السبتيُّ، المؤكَّد في أحكام الكنائس المرجعيات أنه هو الشيطان، ومن يتخذون صورته رمزاً هم عَبَدة الشيطان، ومن يجعلون له نقشاً على كتب عباداتهم في الكنائس يحيلونها كنائس للشيطان.

بادلتِ المِللُ، في تاريخ العقل، معتقَداتٍ بمعتقَدات: ذهبت جماعاتٌ، خوفاً من اقتدار الشيطان على الضرر، وطمعاً في سَنَد من قواه، إلى تبجيله. جماعات أخريات ذهبت إلى اتِّقائه بعدم ذِكره على إهانة، أو تحقير، أو لَعْن. لقد فضَّلت، وهي ماشية على جهةٍ من رصيف الوجود، ألاَّ تنظر إلى الجهةِ الأخرى من الرصيف ذاته يمشي عليه الشيطان.

«كنائس الشيطان» ، التي أُدْرِجت على لقب التكفير من آباء الكنائس المرجعيات ، ووُسِمَ مريدو الشكل الآدمي التيس بمارقيْنَ ، لم ير فيها أتباعُها منازل كفر ، أو مروق . آثروا اعتبار تيسهم الجسور في العصيان ، منذ مطالع الخَلْق ، كفَّةً في ميزان الثُّنائيات الخوارق التي تُرتجى ، وتُعظَّم ، وتتَّقى ، وتُمَالأُ . لا شيء من هذا مذكوراً في صحائفهم ، لكنه انكشافُ الغايات على المتمحِّصيْنَ ، والدارسين في أصول التكافؤ بين الآلهة ونقائضهم المعارضيْنَ .

ملَّةُ الفتاة الصغيرة ، راعية العنزتين ، الراسية اليقين على ثنائياتها المتكافئة إيماناً ، أوجبت على نفسها حياداً في صراع الجبابرة الأَعْلَيْنَ ، منذ خُلقَ الإنسانُ خَلْقاً متطابقاً في سِيَر العصيان الأول في السماء ، وحتى نصب الميزان بكفَّتين ، جحيم إحداهما ، والأخرى نعيم على قياس ما يشاء المنعَّمون نهباً من الشهوات ، ولحوم الشهوات ، وعظام الشهوات ، ونخاعها .

المنعَّمون ، الملتذُّون ثواباً بعد القيامة ، لايحوجهم مرموز من الرسوم على تمازج من الهيئات الحيوانية ، والإنسية ، طمعاً في فحولة مذ هُم الفحولةُ ، أو طمعاً في حمايةٍ من جبابرة الوجود والخلود مذ هُم خلودٌ .

لقد تبادل جبابرة النعيم وحاصدو محاصيله ، وجبابرة الجحيم وزُرَّاع حقولها وسهولها ، مزروعاتِهم ، ومحاصيلَهم ، في الحياة الأرضية أدْرَجوا كلَّ شيء متاجراتٍ بالبيع والشراء بين الزارعيْنَ والحاصدين .

الذاهبون ، بعد نصب الميزان النهائي ، إلى النعيم ، قد يشترون الكثير من متاجر الذاهبين إلى الجحيم - أيْ صورَ لذائذهم التي غنموها في الوجود الأرضيِّ ، والذاهبون إلى الجحيم يشترون ، في الحياة ، الكثيرَ من متاجر النعيم الأرضيِّ ، أي اللذائذَ محسوسةً ، على وسْع

بهوق حلم شقيٍّ بالسعادات .

«التيس السَّبتي» ـ الشيطان في جسد خَلْطٍ من الآدمي والحيوان ، رمزاً قاهراً للذائذ بإخضاعها إمتاعاً ، أو رمزاً لوقايةٍ ، أو تبجيلاً للجبروت ـ لا يجلس بين رموز مِلَّة الفتاة الصغيرة ، راعية العنزتين . على مراقد أوليائها رقائقُ رسومٌ لاتعدو شكل طاووس ملك على قائمة دالشمعدان ، أو كأس الطاووس ملك ، أو الأواني القليلة ، والسناجقِ البيارق .

مَراقد ، ومزاراتٌ مخروطية القباب ، نُهبت مراراً ، أو نُكِّلَ بحجرها وقدرها . نكباتٌ لم تستدعِ وثبةً من ملة الفتاة الصغيرة إلى «جهاد المراقد» حشداً لعصبية الكراهية .

ثمَّت ، في التاريخ ، مراقدُ رموزٌ من معتقَدات شعوب موجودة في أراضي شعوب أُخَر ، فتحفظُ لها مواثيق الحُرْمة والاحترام أن يقوم أفراد ينتسبون إلى المرقد بخدمته ، أو حراسته ، على نحوٍ رمزي . لكنْ لم ينكشف لعقل ، في القرون الأخيرة ، ما تكشَّف من التبرير المبتذل ، الدموي ، المذهل في قذارته ، على عقول أئمة إيران ، وأولياء فقه مذهبها ، من صياغة عقد جديد بين الشيعيِّ وأرض الآخرين بإعلان مراقد أوليائه ، ومزاراته ، مستعمراتٍ تخصُّه ، وحَصْر الحقِّ المذهبي بالشيعة للتدخل حرباً حيث يشاؤون ، بعُذرٍ من نجدة المزارات ، والمقامات ، وحماية القبور والأضرحة .

مَسٌّ من إحياء النزعة الصليبية في القرون الخوالي أيقظَ الخطط الركيكة الإيرانية ، الباهظة الأكلاف من لحمِ شعبٍ ودمه : استُنْهِضَ «جهاد المراقد» لحماية أولياء الشيعة الموتى في بلدي غزواً بالنار والدمار . مراقدُ لم يخطر ببال أحد أن يأثمَ في إهانتها ، أو تحقيرها ، أو

العبث بها، مُذ هي، في أعراف أهل السُّنَّة، رفعةٌ وجلالٌ لا يُمسَّان.

هبَّ شيعةٌ من لبنان، وفارس، وباكستان، والعراق، وأفغانستان، ملبِّيْنَ «جهاد المراقد». تبريرٌ خنزيريٌّ في منطقه، شيطانيٌّ في التنفيذ. أهدر الوليُّ الفقيه الإيراني أموال إيران على ابتكار النعرات، والحروب، وتمزيق روابط الجماعات. خيالٌ كراهيةٌ أهدر شرق المتوسط، وخلجان محيطه، لاستحصال رِباً عن فائض قوة إيران في محاصيل الخرافة.

هُشِّمتْ سوريا. لا مكان، في الأذى الإيراني، لمعقولٍ يُعْتَمَدُ بعد الآن. لن يعود شيء إلى طبعه الذي كان قبل التهشيم. أقفل الشرّ الإيراني بابَ امتداح سوريا بلداً، كما أقفل تابعُه الحاكم العلوي باب امتداح سوريا كمكانٍ كرامةٍ قبل الإيراني الحليف في غايات المذهب المنتقم.

الفتاة الصغيرة، راعية العنزتين، كادت تبلغ بعض المنازل المتناثرة من قرية «خَانَهْ صُور»، لكنها توقفت، ثم التفتت إليَّ ـ أنا سَارات باكِيْنْ.

انصباب الأخبار على العالم عن سبي حديث المولد، كالخليفة الحديث المولد لقباً، لنساء الأيزيديين، وفتياتهم اللواتي في التاسعة من أعمارهن فما فوق، أنزل على خيال فكرتي عن رسمٍ للسبي صورة الراعية الصغيرة هبَّت عائدة بعنزتيها إلى القرية، بعد قلقٍ من سماعها ما يُقْلِق. لكنني لم أعرف إلى أين أقودها بعنزتيها. أوقفتُ فكرتي هناك، عند الممرات نزولاً من السفح إلى القرية. لم أتجرأ على دفع خطواتها، وخطوات عنزتيها إلى قَدَرٍ أعرفه. شددْتُ رسنَ الصور فألْوَيْتُها كي لا تكتمل بمشهد لجند دولة الخلافة يقسِّمون جموعَ النساء «قطعاناً» بحسب الأعمار، وحُسْنِ الوجوه.

كيف يمكن إلغاءُ شيء ، وحجبه ، بالتحديق إليه؟ يحتاج المرء إلى مران من عِلْم «التبديل» ، أيْ إحلال صورة غائبة في صورة حاضرة ، كأن يرى الناظرُ الشجرةَ مدخنةً ، والكتابَ باباً .

قد يمضي عِلم «التبديل» في مهارته إلى حجب المنظر المرئيّ تماماً ، وإفراغه من شكله ، لكنه ليس مذهباً لترويض الخيال ، والبصر ، بتقييدهما في عَطالة كالغيبوبة . نُسَّاك الشرق السحيق ، القديم ، العريق ، يمتلكون ، من مِرَان النفْس على تصعيدها ، وعزلها عن المحسوسات ، تعطيلَ الخيال بانكفائه إلى سديم فراغ ، وتعطيل النظر عماءً حتى لو حدّقوا إلى المرئيات عن كثب . وأنا ، في استرسال فكرتي عن الفتاة الصغيرة ، عمدتُ إلى بَتْرِ المشهد : لن أصل بها وبعنزتيها إلى القرية .

أرى الفتاة ، وأرى عنزتيها ، على السفح الأجرد الصخري ، ولا شيئَ آخر حولهن ؛ لا ممرات نزولاً إلى مكان . لقد فكرتُ في رسم عن سبي أيزيديات صغيرات ، لكنني لن أوصل هذه الراعية الصغيرة إلى موضع السبي . لن أُقحمها في مشهد السبي . سأعطّل بعضاً من مقام الصورة . سأوبِّخ اللونَ ، أو سأجرح اللون .

في منتصف نهاري ذاك ـ نهارِ عبور يقظتي إلى سنجار فارغاً إلاّ من فتاة صغيرة ، وعنزتين ، سقط من بين أصابعي المبتلة ببعض زيت الطهو قدحُ الجعة ، على المسطبة الرخام على امتداد أسفل نافذة المطبخ . لم يكن مليئاً ، لكن السائل الذهبي تناثر على بساط صغير على الأرض ، من غير أن يتناثر القدح مهشماً . لا أعرف لماذا حملتُ القدح بأصابع مبتلة زيتاً . أهي رغبة من محجوب الرغائب أن يسقط القدح؟ خطةٌ غيبية ربما .

غسلتُ يدي . أعدتُ القدح مليئاً بالشراب عَلَتْه رغوةٌ من انبساط مذاقه . أشعلتُ لفافة تبغ نفختُ دخانها على زجاج النافذة ، فتحرك القصب البعيد على ضفة البحيرة .

كيف اخترقَ نفخُ الدخان من فمي زجاجَ النافذة ، وعَبَر الحديقة ، ثمَّ مسَّ الورق الطويل للقصب المائل بصفرته الخفيفة إلى وداع شبابه الصيفي؟ لا . لم تكن حركة القصب مِنْ نفخ رئتي عليه ، في ذلك الرذاذ البطيء ، الأقرب إلى بخار هابط من قِدْر السماء الرمادية المقلوبة : خرجت شاهيكا من بين سيقان القصب كأنما كانت محتجبة في المياه ، ثم تبعتْها فتاة صغيرة في ثوب أصفر فاتح ، طويل ، فوق سروال أبيض ، وفوقهما سترة رمادية ، مقصَّبة ربَّما ، مُذْ لمحتُ لمعةً على السترة في النهار الذي بلا لَمْع .

لا تشبه الفتاة الصغيرة ، الخارجة من سور القصب وراء شاهيكا ، ما تصوَّرتُه من راعية العنزتين على سفح سنجار . لكنهما في عمر واحد على الأرجح ، ولخماريهما اللونُ البياضُ ذاته .

كانت شاهيكا تكلم الفتاة من غير نظر إليها ، ثم تشير إلى منزلي مرة ، وتمدُّ ذراعها صوب البحيرة مرة . ولمَّا بلغتا قُرْباً من حديقة منزلي توقفتا متجاورتين بتحديقٍ منهما ، معاً ، إلى نافذة المطبخ .

أكانتا تريانني في حجاب الزجاج المزدوج للنافذة؟ لم أُضئِ المطبخ في النهار الكامد ، لذا قد يتعسر على الناظر من خارج تبيانُ مَنْ في الداخل . لكن شاهيكا تستطيع أن تراني ولو كنتُ وراء جدار . أليس اقتدارُها هذا ما أثبتَ بصرَ قلبها على فكرتي عن رسم لسنجار؟ لا يحوجها بصرٌ لترى . هي ترى ، إذاً ، حين تشاء أن ترى .

ربما كان عليها في لقائنا قبل يومين ، أن تذكِّرني بيوم مولدي

الاربعين . رأت فكرتي عن رسم ، والأرجح أنهـا رأت سنينَ عـمـري أيضاً ، مكتملةً ذلك اليوم على رقًم من أمهات الأرقام في نقوش خيال الإنسان على حجر انجذاباته ، الغامضة ، إلى الأرقام كتاريخ معجزةٍ ، أو تاريخ خُطوةٍ ، أو تاريخ خرافة ، أو تاريخ فراغ لا فراغَ قبله أو بعًده .

من معتقدات ملًّةً شاهيكا أن الإلهً قضًى أربعين ألف سنة في صنع دُرّة بيضاء ، ولمَّا أنجزها سَكَنَها أربعين ألف عام ، على ضرورةٍ أوجبتِ المعتقداتِ لغاتٍ كونيةً ، تتشارك جملةً في إنشاء خيالها للسِّيَر .

غضب إله شاهيكا ، بعد ذلك ، ضَجَراً ـ ربما ـ من سكنه درَّةً ، أو ربما من بياض الدرة ، ففَلَقها كاشفاً عن البزرةِ الأرض فيها وما على الأرض .

لخيال أهل زماننا ، من علماء البواطن الأرضية في نشوء مادتها ، والأعالي السماوية من نشوء الكون وخواص أصله ، شيءٌ من انجذابهم إلى درة إله شاهيكا . درة تنفجر ، أو تنفلق ، عن بزورٍ أجرام . لن نعرف حجم دُرة إله شاهيكا بمقاييس العقل ، كما لن نعرفَ حجم الذَّرَّة التي شقَّت عن صغرها اللامتناهي غلافَها ، لتتناثر بزور الجبروت الكوني أجراماً ، ومجموعاتٍ ، ومدارات ، ومجرات ؛ كلُّ نجم أو كوكب كُرة كالدُّرة ، إنما بلا بياض صِرْفٍ كما في درة إله شاهيكا .

بياضٌ سديم هو الأًصل . بياضٌ مثير للغضب من بين سائر اللون . لن يَقْدِر أحد على دحض هذا الزعم طالما لم يُصرَّح ، في معتَقد الأيزيدي ، عن سبب غضب إلهٍ من درة أنجزها في أربعين ألف عام .

أكانت الدرة على صِغَر في جِرْمها اقتضت الدقَّةُ أمداً يُخيف عقل الإنسان في عَدِّه ، أم على كِبْرٍ هائل اقتضت الإحاطة بصنعه أمداً باهظاً من نثر الأرقام وشِعرها؟ .

إله شاهيكا متأنٍّ أناةَ العارف أن الزمن لا يعنيه كالأرقام السبعة عَنَتْ غيره في إنجاز الوجود . إله متساهل في استخدام مشيئته . كان في مستطاعه لفظُ حرف من حروف الأمر والنداء فتنبثق الدرةُ مُنْجرة من عماء اللاوجود ، مترعةً شوقاً إلى لقاء خالقها ، لكنه لم يفعل نَحَتَ الدرةَ بيديه ، وبيدَيْ مشيئته ، وبيدَيْ خياله في اختيار دُرة وليس ذرَّة كالتي يعتقد عِلْمُ النشوء ، عند حطَّابي العِلْم في غابة علوم أيامنا ، أنها أمٌّ الكون . ولم يكن لإله شاهيكا سكنٌ قبلاً إلاّ نفْسه يسكنها منزلاً ، فسكن الدرةَ في صميمها ، وصميم بياضها بياضِ اللؤلؤة أربعين ألف عام .

لن أتساءل عما كان مقصده من سُكنى الدرة ، أو عمله وهو فيها سأتغافل عن ذلك تماماً كغفلتي قبل يومين أن الزمن انفلق ، بلا غضب ، عن الرقم الربعين بلَغْتُه بسنين عمري . غفلتُ عن ذلك لولا استعراض بعض شؤون الحياة على الإنترنت مساءً ، فالفيتُ رسالة موجزة من بضع كلمات لا تتعدى أنملتين طولاً ، من زوجتي السابقة ناتالي السويدية الأصل : «رسمٌ سعيدٌ بلا عُمْر» .

ترددتُ ، وأنا أنظر إلى شاهيكا والفتاة الصغيرة معها ، في رذاذ الخريف الخافت ، واقفتين قرب مدخل الحديقة ، أأناديهما ، أم أكتفي بالنظر منهما إلى نافذتي كما أنظر من النافذة إليهما؟ لم تكن بي رغبة ، ظهيرةَ النهار ، في مخاطبة أحد ، مستمتعاً بقدح الجعة وبعض الفستق المدخن بنكهة الشواء . فتاتان في الرذاذ هناك ، لا يبدو عليهما استعجال لعبور الحديقة إلى الباب ، ولا تبدو على وجهيهما رغبة غير الوقوف هناك : الكبرى تتكلم مصحوبةَ الكلمات بإشارات إلى حجومٍ ، والصغرى تصغي بفم مفتوح .

إنهمـا سليلتـا آدم الذي يخصُّ معتقَدهمـا ، ويخصُّ سِيَرَ الخيـال المصنَّف شـؤونَ النشـأة على اختـلاف عن الأصـول ، أو تنقـيح على الأصول ، أو زيادةٍ فيها تصحيفاً من جماليات سابقة على مصطلحات أهل زماننا في جماليات الأشياء والطبائع .

لقـد قـادَ طاووس مَلَك ، بعـد انبـثـاق الوجـود من الدُّرة البـيضـاء المنفجرة ، آدمَ وحواءَ إلى مسكنهما في الجنة ، بكلمات كردية ترحيباً . ولما سكناها مسرورين ، سعيدين ، محظوظين بكرامة خَلْقهما أوَّلَ سانحيْنِ في النعيم ، استنفرهما طبعُ الأَثَرة ، والشغف بالاستئثار ، إلى خلاف على النسل : من الأوْلى منهما بإنجاب ذُرِّيَّة؟

احتكم آدم وحواء إلى قضاء الحظوظ :

وضع كل منهما شهوتَه في جرَّة .

أغلقا الجرتين الفخَّارتين .

انتظرا تسعة شهور .

نزَعا غطاءَيِّ الجرتين . فما الذي وجداه من أَعطيات الحظوظ ؟ :

استـحـالت شـهـوةُ حـواء في جـرتهـا حـشـراتٍ ، ولواسعَ طائرةً أو زاحفة .

استحالت شهوة آدم وليديْنِ ذكراً وأنثى .

حـواء لم تسـتطع إرضـاع الوليـدين . هي لـم تلدهمـا ، فظلَّ ثدياها فارغين لا حليب فيهما لرِضاع .

كـانت تلك مـعـضلة أولًى في سِيَـرِ ملَّة شـاهيكا من تصـانيف المعضلات . لكنْ ما أهونَها على الإله الأيزيدي :

وُهِبَ آدمُ ثديين طافحين حليباً .

أرضعَ آدم طفليه حتى الفطام .

كان ذلك تخنيثَ الضرورة كي يستقيم العبور بالخَلْق إلى محتوم من النشأة .

مِلَّة شاهيكا هي نسلُ وَلَدَيْ آدم من رحم جرَّته الفخار ، لا رحم حواء .

كَبَر الولدان .

تحابَّا .

تزوَّجا .

أنجبا الأيزيديين .

وفي المقابل من سطور وجود الأم ، في الخيال الأيزيدي ، أنَّ آدم وحواء تصافيا ، وتَوَادَّا ، وتقاربا ، وتراحما ، وترفَّقا ، فأبعدا عنهما مسَّ الخلاف الأول على مَنْ تكون له حظوةُ إنجاب الذرية . لقد تشاركا ، أخيراً ، في إتمام ما صُنِعتْ له رحمُ الأنثى حواء ، فحبلتْ ، وأنجبت أعراق العالم .

فَرْقُ الأيزيدي على الإنسان الآخر أنه نسلُ الجَرَّة الفخار ، لا نسل رحم حواء . هكذا اختيرتْ مِلَّةً متفرِّدة عن مُشْتَرَكات نوعها ، بزعم يخصُّها كزعم الأمم الأخريات أنها اختيارٌ من تكليف السماء بسيادة الأعْلِيْنَ المكلَّفين . وها هما اثنتان من فرع نسل الجرة تصوِّبان بصريهما إلى نافذتي ـ أنا المنزلق بقدمَيْ عمري إلى حُفرته الأربعين .

أنا على تجاور ، إذاً ، في الحدود الكبار للمعضلات ، والمعجزات ، مع المحنة ذاهبةً ، أو قادمة .

أربعين ألف عام كان مبتدأُ الخَلْق ، أو ما يقاربه ؛ بدءٌ سار بالمعضلة ولم ينجزها بعدُ ، دائمةً على صرير طحْن ، أو هدنة طحْن .

أربعين عاماً كان تيه بني إسرائيلَ . تيهٌ لمْ يُنْجَزْ باهتداءٍ إلى

المكان ، مُذ آثرت المعضلةُ أن تظلَّ زمنيةً .

أربعين عاماً كانت كتابةُ التوراة ، بصفحات من حروب الرياح ، وغزوات الغيوم ، وثارات الرمال من الرمال : المعضلةُ وجودٌ إذاً .

في الأربعين من سنين التهيئة ، والتخصيص ، والاختيار النهائي ، الآخِريِّ بلا بَعْد ، بلَّغ الوحيُ نبيَ الإسلام بالتكليف . لا معضلةَ جَرَت في القرون بعده إلاَّ حصْرُ المذاهب حقَّ الثواب ، والعقاب ، حَكْراً على أحكامها .

بعد أربعين يوماً من قطع رأس الحسين ، أُعيد الرأس من دمشق إلى العراق ، ملفوفاً في بيرق ممزق ، بل يُقال مُحرقة من ثوب القتيل . لا معضلة : خيطُ الدم بين الأرضيْنِ سيُنبت خلافةً أخرى بعد قرون .

أربعون الموتى يومٌ موسومٌ بالتفريج عن الموتى ذِكْراً ، وحنيناً ، ومواساةً . أين المعضلة؟ مذعرٌ أن يكون الموتُ حذاءً يناسب كل قدم ، فيما أحذيةُ الحياة غيرُ مريحة .

أنا في الأربعين . لستُ مرتاحاً مع جسدي في اليوم الثاني بعد الأربعين الأعوام . لستُ متعَباً ، لكنني لا أفهم : أيسير بي جسدي في برازخ التحول إلى شبح؟ شاهيكا ، القادمة إليَّ من موتها كما تزعم ، تراني . شبح يرى شبحاً ، أم ماذا؟ العاملون في المتجر ، الذي أتسوَّق منه ، كل صباح متأخر ، كعادتي ، يرونني . يسلمون علي . والعاملة البدينة ، البهية الوجه تسألني ، كعادتها ، كيف أكون ، أو تستفسر أكثر إن كنت لم أزل أحسُّ نفسي مظلةً ينساها حاملها قرب مقعد يواجه المياه .

لم أغير حكاية إحساسٍ مرسوم صوراً لمظلة ، وشخص جالس ، ومقعد ، ومياه . العاملةُ لم تضجر من سماع ذلك ، ولم أضجر من

ترديد ذلك . غير أنني حين رجعتُ صباحاً من التسوُّق فاجأني بابُ المنزل مفتوحاً .

هذه حكاية ينبغي أن أضيفها ، ربما ، إلى تصوير أحاسيسي للعاملة البدينة في زيارتي المتجرَ غداً : «لم أعُدْ مظلةً . صرتُ باباً بلا قفل» .

تشتت خيالي من رؤية الباب مفتوحاً . أنا لا أنسى إغلاقَه ، والقَفْلَ عليه بالمفتاح حين أغادر . تبادر إليَّ ، كبداهة ، أن أحداً مَّا لديه نسخة من مفتاحي ، مُذْ لم ألحظ خَلْعاً ، أو أن سارقاً يتمتع بمهارة فتح الأبواب بلا خلْع .

ترددتُ في الدخول من بلبلتي . استطلعتُ الأنحاء على مدى بصري : إمرأتان ، في البعيد ، تتجولان بكلبيهما ، على مهل لا يُريب .

بعد برهة من ذلك التردد دخلت البيت بكيس التسوُّق في يدي حذِراً : لا أثر لعبث باشياء الممر . لا أثر لعبث بأي شيء حين تفحَّصتُ كلَّ ركن ، وكل خزانة ، وكل دُرْج .

لا تفسير آخر سوى أنني نسيت إغلاق الباب . لكنني ، وأنا أرصد الفتاتين من نافذة المطبخ ، خطر لي خاطرٌ مرتَجَل : ماذا أن تكون شاهيكا هي التي دخلت مسكني؟ شبحها يستطيع ، في الأرجح ، أن يفتح باباً ، ويتسلل من المطبخ إلى المشْغَل ، متلصصاً على مقدار ما أنجزتُ من رسم لسنجار .

القماش المؤطَّر ، الذي صبغتُه بياضاً ، لا يزال على بياضه . زمنٌ متراكم في البياض ، والزمن ليس جليلاً ، بل قمامة تتراكم فوقها أخطاء الإنسان . الزمن عيادةً مكتظَّة بمرضى التاريخ وأمراضهم . والتاريخ صِنو الحمَّامات : مواسير الماء الساخن مفتوحة في حوض لا يستحم فيه إلاَّ الموتى .

هل قرر خيالي تثبيت صورة شاهيكا على حبل من حبال البياض المترامي بُعْداً في إطاره؟ الزمن يُسارِرُ البياضَ، وأنا متمهِّلٌ لأعرف إلى ماذا يستدرجانني. غير أن مشهد الفتاتين معاً، على قرب من حدود الحديقة، بَدَا مُلهِماً، أو كاد؛ وربما تسلل منه نداءٌ خافت إلى فكرتي.

نظرتُ إلى أكياس الملوخية الثلاثة المجلَّدة على مسطبة مغسلة المطبخ، وإلى قطع لحم الدجاج منقوعة في زيت وثوم. أصابعي ابتلَّت بالزيت قبلاً فأسقطت قدحَ الجعة. أما الآن فينبغي ترتيب خطة الطهو المعهودة أكررها من وقت إلى وقت.

ماذا لو دعوتُ الفتاتين إلى مائدتي؟ تمهَّلتُ في الخروج من المطبخ إلى الممر متجهاً صوب الباب. مررتُ بالمرآة الطويلة، التي أستجلي فيها كل صباح، متأخراً في النهوض، جلدَ صدري، وكتفيَّ، وظهري أيضاً. لقد ثبت عليه، من تقليبيَ الليلةَ الماضية لمجلد الرسوم، تفاصيل من لوحة الإيطالي تيتيان: «عِقاب مارسياس».

لمحتُ أسفلَ حرقدتي، في عبوري بالمرآة، نهايات قدمي مارسياس الظِّلْفيْنِ من خلل طوق قميصي المفتوح الأزرار. تراجعتُ لأستعرض الرسمَ أكثر مما استعرضتُه صباحاً. خلعت قميصي عن نصفي الأعلى العاري. مارسياس، المخلوق السَّاتيْرْ، ذو الجذع الأعلى البشري، والأسفل التيس، معلق من قدميه المنتهيتين بظلفين إلى شجرة، وقد انكبَّ رجل وامرأة بسكِّينيهما عليه سلخاً.

أغاظ مارسياس ـ المخلوقُ الساتير الربَّةَ أثينا، أُم الحكمة، والإلهام، والعمران، والقانون، والعدل. عزف على الناي المزدوج القصبة، المحظور في رقابة السماء على الآلات.

كسرتْ أثينا مرآتها غضباً إذ سمِعت عزفَ مارسياس.

شقَّت ثوبها الرقيقَ ، في زعمي أنا لا في السرد الأسطورة .

رمت بحـذائهـا ، الذي من جلد الثـعلب الذهبي ، من نافـذة مقصورتِها السحابةِ فوقَ جبل الآلهة .

استنزلتْ على الساتير مارسياس لعنة الأولمب .

لن أتتبع طرقَ الجبروت في حكايات آلهة الإغريق ، والرومان . ربما لأثينا سببٌ يخصها في حظر العزف على الناي ذي القصبتين ، لكنه ليس السبب ذاته الذي استجلب غضب أبولو على مارسياس . مبهمٌ ، بعض الشيء ، أن تستهول ربةُ الحكمة عزفَ مخلوق على ناي . مبهمٌ أن تنقلب ربة العدل ، والقانون ، إلى حقدٍ على العزف بالناي . والأكثر إبهامـاً ، وهي ربة الإلهـام ، أن تهبَّ إلى تجريد مـارسـيـاس من إلهـام الموسيقى .

لأثينا أن تغضب حين تشاء ، وترضى حين تشاء ، لكن أن تُنزِل ذلك العـقـابَ المهـول بالسـاتير مـارسـيـاس ، فـهـو تمادٍ منهـا في عـرض الجبروت .

تذهب طرقٌ في أساطير الإغريق إلى ملعب آخر لحكاية قِصاص مارسياس سلخاً لجلده ، وقطعاً لرأسه :

لقـد تحـدَّى المخلوقُ النصف البـشـري ، والنصف التـيس ، الإلهَ أبولو أن ينازله في مبارزة بالموسيقى عزفاً على الناي .

تحدَّاه مجابهةً بالموسيقى .

تحدَّاه بنزالٍ بالموسيقى .

تحداه بمقارعةٍ بالموسيقى .

تحداه بتراشق بالموسيقى .

تحداه باقتحامٍ بالموسيقى .

إله الفنون أبولو استكثر على المخلوق السَّاتير منازلةَ جبار مثله ـ هو العارفُ الأُحْكومةُ ، العالِم بأصول الأوزان ، وشوارد المعاني وارداتها في الأشعار ، والمتقلِّد صولجان الموسيقى ، والمتوكل برعي الشمس في مرعى مشيئته ، والحافظ بعنايته لمذاهب الطب جميعاً .

ربما أراد أبولو إضافةَ اختصاص آخر إلى منظومته في الطب : اختصاص الجراحة ، وهو ما يُرى في لوحة تيتيان على جلدي من سَلْخ جلد مارسياس ، أما الإختصاص غير المرئي في اللوحة ، فهو قطع الرأس ، الذي حدَّد جزَّارو «دولة الخلافة» ، في أيامنا ، لبترهِ عن الجسد ، مراحلَ ثمانيَ ينبغي لشفرة السكين أن تتوكَّلها : شقُّ الجلد ، ثم الحنجرة ، ثم اللحم الرقيق تحت الغدَّتين ، ثم العروق الصغار ، فالأوداج ، فالغضروف الرقيق بين فَقَار العظم ، ثم جز القَصَرة ، وهو الأصل المغروز في الكاهل .

إنها مراحل في العِلْم النظري لقطع العنق لاتَبيْنُ واضحةً على «صفحات الجهاد» ، المرئية في الإنترنت : السكين ، في يد الجزَّار ، الملثم عادةً ، تمضي خطْفاً في الذبح بشفرتها الرهيفة ، ثم يتوقف التصوير . يُرمى الرأس لتُلتقط له برهةُ التوثيق ، ليس تأكيداً لاقتصاص «دولة الخلافة» من مذنب في عُرفها ، بل نشراً للهلع ، والوعيد بقصاص مماثل ، محتَمَل ، لكل أمم الأرض إن لم تبايع الخليفة الجديد في عصرنا الذهبي .

تيتيان ، الرسام الإيطالي ، الذي تسللت تفاصيل من لوحته إلى جِلدي ، وقف في توثيق برهة اقتصاص إله ، وإلهةٍ ، من المخلوق مارسياس ، عند تعليقه من قدميه إلى شجرة ، ووضْعِ امرأة ورجل سكينيهما على جلده تمهيداً للسلخ ، والذبح فيما بعد .

ثمتَ كلبٌ كبير يراقب مارسياس ، وإلى جواره طفل ينظر في اتجاهنا ـ نحن الذين ننظر إلى اللوحة ، والأرجح إلى الرسام نفسه ، وليس إلى الجسد المعلق نصفِ الإنسان ونصفِ التيس . إنه في الزاوية اليمنى السفلية ، تُقابله في الزاوية اليسرى العُلوية امرأة أوقفتْ ، تواً ، عزفها على الكمان ، خلف ظهر الرجل الذي يسلخ رجْلَيْ مارسياس الحيوانيتين ، الكثيفتي الشعر كالذي لعنزتيْ الفتاة الصغيرة تخيَّلتُها عائدة من سفح سنجار إلى البيت .

في الرسم تفاصيل أُخَرُ لم يظهر إلاَّ بعضُ شذراتُها على جلدي ، أعني ذلك الرجل الثاني ، الجالس متأملاً ، في هدوء المفكِّر ، مجريات السلخ ، وإلى جواره واحد آخر من مخلوق الساتير الشبيه بالضحية مارسياس ، حاملاً سطلاً خشبياً ، لا أعرف أجاءَ بشيء فيه ، أم سيملؤه دماً آناءَ الذبح فقطْع الرأس ، لأن كلباً آخر ، صغيراً ، قريباً من رأس مارسياس ، يَلغُ في الدمَ الذي بلغ الأرض .

عقابٌ يجري سلخاً ، ثم ذَبْحاً ، ثم قطْعاً للرأس ، بشهودٍ يرقبون إنجاز العقاب مُصاحَباً بعزفٍ هو بهجة ، في الأرجح ، من أوتار الكمان بعدلِ القصاص ، وانتصار الآلهة ، كالتهليل بعدل القصاص عند الذبح في «دولة الخلافة» . والطفل المُكلَّف حضوراً ، في الرسم ، بين الذابحين ، والمراقبين الشهود ، مُعادلُ ماضٍ من تاريخ اللون لأطفال من أبناء جنود «دولة الخلافة» ، يصوِّرهم آباؤهم شهوداً على جبروت قلوبهم من تربية «الجهاد بالذبح» ، تماماً كمشهدٍ مصوَّرٍ دقائقَ لطفل من هؤلاء يرفع إصبعه مشيراً بها إلى بريطانيا ، بين جثثٍ خمسة شبان أُعدموا بطلقات في الرأس ، وهو يهتف : «نحن قادمون أيها الكفار» ، باللغة الإنكليزية .

وجه الطفل في لوحة تيتيان متوجه إلينا ـ إلى الرسام ، ووجه الولد في «لوحة الجهاد» من تصوير أبيه ، أو صديق أبيه ، متوجه إلى المصوِّر بدوره . الذبح في لوحة تيتيان محدد في إطارها ، والإعدام محدَّد بإطار مايُعرض من المشهد المصوَّر بآلة ، لكن الطفلين ، في التصويريْن ، ينظران إلى خارج ؛ إلى أبعد من الذي يرسم الطفل الأول ، ويصوِّر الطفل الثاني . عيونهما الأربع مصوَّبة إلى الشاسع الممتدِّ هوْلاً يخلط المدنَ بالأكباد الآدمية ، والرؤوسَ المهشمة بالسهول والحقول ، ليستحصِل من الحطام والأشلاء ، معبَّأةً في الجلود ، مقانقَ التاريخ على مائدة أبي المستعمرات المُبتكَرةِ ـ المراقدِ والمزاراتِ الشيعيةِ خامنائي ، والحاكم العلوي مُراقِصِ الأنقاض والجثث ، وسليل راسبوتين ، القيصر الروسي المتحصِّن بفنون الجودو ، والكاراتيه .

أوقفتني المرآة مذ لمحتُ بعضاً من لوحة تيتيان ظاهرة من طوق عنق قميصي . أوقفتِ المرآةُ رغبتي في دعوة الفتاتين إلى وجبة من الملوخية لم أهيئها بعد .

عدت إلى المطبخ مكتفياً بالنظر إليهما من النافذة ، حيث ظلَّتا على حالهما الأُوليَيْنِ واقفتين على قُرب من الحديقة ، شاهيكا تتكلم بلا توقف ، مفتوحة الذراعين ، والأخرى الصغيرة تصغي مفتوحة الفم .

حاولتُ ، على نحو مَّا ، رسمَ الفتاة الصغيرة بفرشاة بصري على لوح المياه في عُرْض البحيرة . لا أتبيَّن ملامحها جليَّةً تماماً من البعد ذاك ، لكنها سمراء ، متوسطة الطول ، أقرب إلى امتلاء تحت ثيابها الواسعة . وهي تبدو ملائمة ، إنْ أحكم رسامٌ نقلها إلى ألوان ، لمشهد تكون فيه واقفة أمام باب مغلق ، إنما تسمع صوتاً من خلفه . ربما يسألها أحدُ من الداخل مَنْ تكون ، أو يطلب منها أن تنتظر .

مثول الفتاة الصغيرة أمام شاهيكا صامتة تصغي ، بفم مفتوح ، وذراعين متراخيتين تمسك يدٌ منهما بمعصم الأخرى ، أشبه بمن طرق باباً وينتظر الرد . إمالتُها رأسَها أشبه بمن يتنصَّت على خطوات قادمة .

غير أنني لا أعرف ماذا يعني وضعٌ كهذا في رسم عن سبي الأيزيديات في سنجار إنْ رسمتُ . أأرسم باباً لكهف في منحدر صخريٍّ وهي واقفة أمامه؟ ربما الأجدى أن أرسمها راكعة أمام الباب الموصَد ، على قصدٍ واضح المعنى ، مبسَّط ، عن أنها تتضرع لمن يفتح لها . لا .

لم يستقر خيالي ، في تقليب الخيارات لرسم محتَمَل ، سوى على لون الباب : ليكنْ أزرقَ . باب أزرق في الصخر المنحدر ، وفتاة صغيرة في ثياب زرق . أيحب الأيزيديون اللون الأزرق؟ ألتفَّتُ إلى أكياس الملوخية وقد ذاب عنها بعض جليدها ، خُضراً داكنةَ الخضرة ، تحوي ورق النبات ذي الصمغ الخفيف مفروماً ناعماً ، محفوظاً فيها .

هل الأخضر لونٌ؟ ماذا اجتذب خيالي إلى سؤال كهذا؟ فلأُعدّ وجبة الملوخية ، لأنصرف بعد الشبع إلى مجازفات لا نهائية في تقدير ماهية اللون ، لا بحسب التمازجات الكيميائية لإنتاجه لوناً ، بل بحسب انبثاق الوجود فيه محسوساً ، مبوَّباً ، مرتَّباً ، مصنَّفاً ، مشهوداً .

ليس ورق الملوخية من أعراف طهو الكردي ، كورق السِّلق مثلاً ، أو ورق الملفوف ، أو ورق دالية العنب . لكنني على مسافة متوسطة من جلبه إلى أعرافِ طهوي أنا .

أشتهي الملوخية كل بضعة شهور ، وهو ما صممتُ عليه في يومي .

اشتريتُ من المتجر في سوق الضاحية ، المسقوف قبَّةً زجاجاً ،

أفخاذ دجاج ، وبعض المتاع الآخر ، وسط ثرثرة رافقتني فيها العاملة البدينة ، السويدية . لقد تشاركنا ، معاً ، في استغابة عاملة أخرى ، تركية ، فقيرة الحُسن جداً ، سريعة الحركة ، نشيطة كعنزة .

لن يعرف أحد ماذا ألهم العاملة التركية ، وهي في ثلاثينات عمرها ، أن تُجري تجميلاً لشفتيها الرقيقتين فنفختهما بمنفاخ الجرَّاحين المتخصصين في تنقيح الأصول . أيُّ تجميل أخرجها من شكلها العادي ، بالرغم من فقر حُسنها ، إلى براثن الفكاهة الصاعقة؟ بات وجهها يُفاجئ باللاتناسق الغريب فيه ، وإذ تزول صدمةُ الفجاءة يحلُّ محلها إحساس بفكاهة شفتيها النافرتين ، كأنما أُلصقتا بصمغ فوق شفتيها القديمتين ، المغدورتين .

«إنه انتحار الشفاه» ، قلت للعاملة السويدية البدينة ، في مغادرتي المتجرَ ذاك من جملة متاجر أُخر في السوق المسقوف بقبةٍ زجاج . ثم عرَّجتُ على دكان عند مدخله ، من خارج ، متخصص في الأطعمة الشرقية ، فاشتريت ثلاثة أكياس من الملوخية المجلدة .

أحبُّ هذه الوجبة ، حين أطهوها ، بدجاج مقلي بزيت الزيتون ، وقليل من عصير الليمون ، وإذ تنضج أضيفُ إليها ثوماً مقلياً مع كزبرة خضراء ، وقطرات من خلٍّ التفاح ، إلى جانب رزٍّ مفلفل عادةً .

لطهو الملوخية مذاهب ، منها بلحم الضأن ، والأرانب ؛ مَرِقَةً كالحساء ، أو كثيفة . وقد أكتفيتُ منها بالذي أصنعه . لكنني مصعوق من غفلتي التي هدمت طهوي ذاك اليوم : لقد نسيت الكزبرة الخضراء . أدركت الأمر حين فتحتُ كيس التسوُّق في البيت عمَّا اشتريت . ربما الثرثرة عن «انتحار الشفاه» مع العاملة السويدية زلقتْ بي إلى تلك الغفلة . وجْبتي ستكون فقيرة كفقر الحُسن في وجه المرأة التركية ، التي

غدرت بشفتيها فاغتالتهما .

تبـاع الكزبرة الخـضـراء ، النضـرةُ الرَّيًا ، في أصص صـغـار من البلاستك يمكن رعايتها سقياً ، واقتطاف بعض عروقها عند الحاجة ، فيما تظل العروق الأخرى نامية تتكاثر .

الكزبرة نبتة ليست من تقاليد الأعشاب العطرية في طهو الكرد ، أو سَلطة خضارهم . يكتفون بالبقدونس ، وبالرشاد ، أما الحبق فهو للترويح زينةً ، وفوحاً ، لا أكثر .

يا للكزبرة الخضراء . سأكتفي ببعض بزور الكزبرة الجافة ، إذاً ، وبمذاق ناقص لن أحاول إنقاذه بالعودة إلى المتجر . خذلني الأخضر . خذلني اللون الأخضر الذي نسيته . فهل ألوم الكزبرة على نسياني لها ، أم ألوم عاملة المتجر ، أم شفتي المرأة التركية المغتالتين ، أم ألوم شاهيكا والفتاة الصغيرة التي معها ، أم ماذا؟ شاهيكا تناديني . أراها من النافذة . لا . توهَّمتُ ذلك . هي تكلم صاحبتها مصوِّبةً بصرها إلي . فهل أقرر ، من جديد ، دعوتَهما إلى مائدتي؟

تعوَّدتُ ، طوال عزلتي ، أن آكل وحدي .

أستمتع بذلك .

لا شيء يلهيني عن شرحي الغامض لنفسي مذاقَ الطعام في فمي وخيالي معاً .

مذاق كل طعام مذاقٌ غامض ، لايمكن شرحه إلاَّ بتفاسير ناقصة تتعلق بملح زائد ، أو ناقص ، أو طعم حرِّيف ، أو الاكتفاء بكلمة متخمة بعموم الإطلاق :

- إنه رائع . طيِّب .

أطهو لأنني أستحسن القيافة الصامتة من ذوق لسانيَ على طُرُق

الطعام . أحب وحدتي في تناوله كي لا يقاطع خيالي كلامُ المحدِّثِيْنَ بين المضغ ، وتجرُّع الشراب . هم يتكلمون ، ويتابعون بأبصارهم ، في الان ذاته ، الملاعقَ ذاهبة إلى الأفواه ، وراجعة منها إلى الصحون . أين مذاق الطعام في مجزرة كهذه؟ .

مضغٌ . ازدرادٌ . ابتلاع . كرْعٌ ، ومَدحٌ من قِبَل المجاملة!!! كيف نتذوق طعاماً ونحن شاردون عنه بالتخاطب مصحوباً بطقطقة الملاعق ، وكركرة الشرب ، وأنين الصحون؟

آكل وحدي لأعرف أنني أنا ، ولستُ سواي ؛ لأعرف أنني آكل ، وليس أرتكب حماقة اجتماعية .

أأدعو الفتاتين إلى مائدتي؟ أراهما تجلسان على مدخل الحديقة ، في الرذاذ الخافت مبتلتين بلا تذمر . أيجلس الأيزيديون ، في سنجار ، تحت الرذاذ مستمتعيْنَ إنْ جادتِ السماءُ على مدارج الجبل الأجرد بغيث خافت ، أو منهمر؟ شعبٌ من مفتَّتَحات الإيمان الأقدم بالحقائق ، في بساتين شرقِ الأديان الأوائل ـ أديانِ تلاعُبِ الآلهة بمقادير النور والظلام ، والشر والخير ، في تركيب عقاقيرها .

ربما يحب الأيزيديون الجلوس تحت رذاذ مبتلِّين . ذلك سيبدِّد قليلاً عن ذاكرة المحنة في أيامٍ من تاريخهم جفافَ الغبار الحارق ، وسحلَ الأحصنة للأجساد تحتً شمس صحارى العراق .

الكرد كتابعين للمذهب الشافعي في ولاية الموصل ، أيام حكم الأتابكة ، لم يستسيغوا ممالأَة الوالي بدر الدين لؤلؤ للأئمة الشيعة ، وهو التابع مثلهم للمذهب الشافعي . لكن الرجل الطموح ، الأرمني الأصل ، المتدرِّج من مملوك للأتابكة إلى حاكم لولاية ، كان يعيد ترتيب المجازفات في صناعة السلطة على الأرض ، بعينين حذرتين على

الأيزيديين ، الذين قسَّم التاريخ عليهم وعلى الشيعة الروافض ثارات متبادَلةً ضد المقامات والمراقد .

الأيزيديون هم الأزداهيون ، أي شعب الله ، كما وصفوا أنفسهم لَقَباً في أرجاء الأرض التابعة لولاية الموصل ، الممتدة من سنجار إلى جزيرة ابن عمر ، إلى جبال هكّاري . أعانوا يزيد بن معاوية ضد جيش الحسين بن علي ، مقابل الحرية الدينية ، فانتصر بهم يزيد .

تودُّدُ حاكم ولاية الموصل بدر الدين إلى شيعة فارس أوجب اتِّساعاً منه في كراهية الكرد السنُّة ، وأبقت عينَه حذرةً عليهم ، متوجساً أن ينهضوا إلى الدعوة للأمويين ، منذ استقلّ بالحُكم لنفسه إفناءً لآخر ملوك الأتابكة ، وإعلان شخصه مَلكاً اعترف به الخليفة العباسي المستنصر ، فخلع عليه لقب «الملك الرحيم» .

قرَّب بدر الدين شيعة الموصل منه ، وخصَّهم بالعناية والحظوة .

وطَّدَ للشيعة حوزاتهم .

انتدب مجالس العزاء في عاشوراء .

حوَّل مدارس النِّحَلِ السُّنِّية إلى مراقد ، وأضرحة لآلِ علي .

كانت منطقة جبل هكاري ، في مذاهب المؤرخين ، ونقْلاً عن تصانيفهم ، تابعة لنفوذ ولاية الموصل ، لكنَّ أكرادها امتلكوا قدْراً من الاستقلال في تعيين شيوخ الزوايا . وجاهد حاكمُ أربيل الشيخ مظفّر الدين في إبقاء ذلك الاستقلال واقعاً لا ينبغي التصرُّف فيه أو انتقاصه ، لكنْ بعينٍ حذرة على بدر الدين لؤلؤ . وحذره ذاك أفضى إلى دعمه العدويين الأيزيديين في نواحي الموصل ، إذْ هبُّوا متمردين على المملكة الجديدة ، وحرثوا الأرضَ ثأراً فوق مقامات الشيعة بعد خنْق الملك بدر الدين هذا لشيخهم حسن شمس الدين ـ شيخ الطريقة

العدوية ـ بوتَرٍ طوَّق به عنقه في قلعة الموصل .

توسَّعَ تمرُّدُ الأيزيديين . جمعوا صفوفهم جيشاً في المجابهات .

خسر الأيزيديون تمرُّدهم .

نكَّل بدر الدين بهم ذبحاً ، وصَلباً .

قطع أعضاء شيخهم حسن ، الذي خنقه قبلاً بوتر في القلعة ، ونشرها على حبال لتجف كاللحم القديد .

نبشَ قبرَ شيخ اليقين الأيزيدي عادي بن مسافر . أخرج عظامه من ضريحة . أحرقها .

سوَّى بدر الدين ، المملوك السابق للأتابكة ، الجهاتِ من حول مملكته بالأرض إخضاعاً قاسياً ، وإذلالاً . وكي يصون مامَلَك من غدره بالأتابكة ، وبنهبه لأقاليم الكرد ، مالأَ المغولَ في اجتاياحهم الدولةَ الخوارزمية .

زوَّج ابنه من أميرة مغولية .

أمدَّ المغول بألف فارس في حصار بغداد .

أسهمَ مع المغول في أسْر الخليفة المعتصم .

خنقَ المغولُ الخليفةَ ببساطٍ زَرْبيَّةٍ لفُّوها عليه ، وأوثقوها وثاقاً مُحْكَماً حتى آخر نفس في رئتيه .

لم يريقوا دمه : المغول لا يريقون دماً مَلَكياً . ذلك شأنٌ من تقدير خيالهم للعواقب إن فعلوا ، خشيةَ أن تدبر الأقدارُ لهم مصائرَ مفجعة وهم أحياء ، أو لأرواحهم بعد الموت .

مات بدر الدين لؤلؤ في زمن لا يعنيني تاريخه . لا يعنيني هل بدر الدين لؤلؤ ، المملوك الخصيُّ ، واضحٌ في السرد الخاص بعقل المحنة ، وتواريخها الجليَّة والغامضة؟ كُثُرٌ بُدُوْرُ الدين ، وأقماره ، وأهلَّته ، ولآلئه ،

من دمشق إلى مملكة الموصل .

أكان إقليم الموصل مملكةً قط؟ لكل واحد حقٌّ في خَلْطِ التاريخ بمقاديرَ ناقصة ، أو زائدة ، لصناعة أي طعام هنديٍّ ما دام فيه زنجبيل كثير ، ومسَّالا ، وكاري ، وتندوري ، وعُصفر ؛ أو أي طعام صينيٍّ فيه آلهةٌ من عجين مقلي ، أو مسلوق .

مات بدر الدين لؤلؤ . وقد كسبَ الأيزيديُّ ، منذ النكبة في نواحي الموصل ، مهديَّه الخاص به : إنه الشيخ حسن شمس الدين ، الذي خُنق بوترٍ في القلعة ، وقُطِّعت أعضاؤه فوزِّعتْ معلقةً على الرياح .

أنا في الأربعين ، لكنني لستُ قريباً ، بلا جزم كبير ، من نهاية العالم . بعد أربعين سنة من ظهور المسيح الحقِّ ، وإقامة العدل صارما بلا هتْك ، أو ثَلْم ، ستُعلن نهايةُ العالم بخطابِ وداع ، في الأرجح ، للكوكبً الأرضيِّ ، تمهيداً للعودة إلى الكوكب الأصًل في ما وراء الكواكب .

مِلَلٌ كُثرٌ تنتظر مسيحها الخاص بها ـ المهديَّ المحتجب .

لكلِّ منْسكٍ في الإيمان اعتقادٌ بحقِّ مِلَّته الذي لايُدحض في العودة بالبشرية التائهة إلى الكوكب الأصل .

مهديُّون كُثرٌ منتظَرون .

لشاهيكا ، والفتاة الصغيرة التي معها ، مهديُّهما الشيخ حسن .

هل سيظهر الشيخ حسن على ضفاف بحيرة أودن؟ ذلك احتمالٌ أيضاً .

أربعون عاماً ، بسنين زماننا هذا ، كافية لاستبدال كواكب بكواكب . في كل عام مُخْتَرَعٌ جديد مدهش ، أو إضافات قوية إلى

مُختَرَع جديد . الحياةُ مضاعفة . وقتٌ متورِّم بشدة سرعته . ورمٌ سرعةً . ماذا سنكون عليه بعد أربعين عاماً؟ قد تنعدم النقود ، وتختفي نهائياً من سيرة الإنسان في تداول النقود . قد نقرأ الصحف والكتب ونرى أفلاماً ماشين ، أو جالسين ، أينما كنا ، بلمسة من ألسنتنا للهواء كلمس مفاتيح الإنترنت بأناملنا . قد نسافر من دواخل منازلنا في آلات صغيرة كالمايكرويف ، إلى أي بلد نشاء .

أربعون عاماً كافية لاغتيال كوكب ، أو هَجْرِه ، أو تأجيره لمخلوقات أخر ، بعد المغادرة إلى كواكب أبعد من سماء الإنسان ، وراء المهديِّ الدليل في مسالك السماء .

لشاهيكا الأيزيدية مهديُّها ، الذي سيسير بملَّتها ، بعد نصبه ميزان النور العادل ، إلى أرض لالش الأخرى غير الأرضية .

لكنَّ انتظار ملَّتها لظهور مهديِّها لا يشبه انتظارَ وليِّ الخراب الفقيه الإيراني . لا يشبه مهديَّ المحافظين في إيران ، والإصلاحيين في إيران ، والرماديين في العمائم السود في إيران . كلهم متساوون خيالاً في الأمل بخرابٍ يُوزِّع على البشرية أقواسَ قزح ، من وراء وليِّ الخراب الفقيه في إيران ، ذي اليقين الصارم ، العَرِم ، القاطع أنَّ عليه إبرام التعجيل في ظهور المهدي ، بجهادٍ لا يكل ولا يمل من نشر الفِتَن بين الجماعات ، وتمزيق الجماعات ، وتأليب الجماعات على الجماعات حتى تنفجر الأرض اختناقاً بالخصومات والمكائد ، وهَتْكاً للمواثيق ، ونحراً للأعراف ، وسلباً للحقائق ، فتهرع راكعةً إلى الوليِّ الإيراني بصرختها : «وامهديَّاه» .

قلوبٌ زوايا قائمة .

قلوبٌ زوايا منفرجة .

قلوبٌ زوايا منعدمة .

قلوبٌ زوايا متوافقة .

قلوبٌ زوايا متنافرة .

قلوبٌ زوايا متكاملة .

قلوبٌ زوايا ثنائية .

قلوبٌ زوايا مجسَّمة مُحدَّبة .

قلوبٌ زوايا مجسَّمة مقعَّرة .

قلوبٌ زوايا مستقيمة .

قلوبٌ زوايا حادة .

قلوبٌ موزَّعة ، بتمام اختراع العقل الهندسيِّ لمقاييسه في البناء ، على صدرٍ واحد في إيران هو صدر وليِّ الخراب الفقيه ، المُنكبِّ على تصاميم للرؤيا الخراب تعجيلاً لظهور مهديِّه . وهي تصاميم تجري في مواضع محصَّنة من عقل «جهاد الخراب» أكثر حصانة من مباني المفاعلات النووية ، حيث لا اقتدار لأحد على اختلاس النظر إلى ما يجري من تخطيط الأئمة بحبر عمائمهم للحياة .

«الـ CIAتبحث بحثاً محموماً عن مواضع محتملة لظهور المهدي كي تؤجِّل ظهورَه» ـ هذا ، بمفردات من الترجمة ، ما صرَّح به واحد من رؤساء إيران ، وهو في كامل يقظة يقينه ، وكامل وعي السياسة فيه . إنه المطَّلع ، بقدرة منصبه العالي ، على خفايا الدولة ، ومجريات عمل الدولة المتعجِّلة في ترتيب المقدِّمات لظهور المهدي ، وحسم مواعيد النهايات الأرضية . وقد لحق به ، في بلاغة لا مثيل لها ، أحد المقرَّبين الأئمة إلى وليِّ إيران الفقيه ، داعياً من منبر المعتَقَد إلى مظاهرات حاشدة للتعجيل بظهور المهدي!! .

ليس لمَّة شاهيكا قلوبٌ على ذلك القدْر من الزوايا الهندسية لوضع تصميم للنهايات ، تعجيلاً لظهور مهديِّها . أستطيع رؤية قلوبهم الرذاذِ خفيفاً من النافذة لا تتلافاه الفتاتان في جلوسهما مبتلَّتين ، ازدادتا بللاً ، على مدخل الحديقة .

عليَّ أن افعل شيئاً . لن أتركهما هناك ، بالرغم من ثقتي أنهما غير عابئتين ببللهما ، بل مستغرقتان في التحام خياليهما بخيوط من أحاديث شاهيكا ، وخيوط من إصغاء الفتاة الصغيرة مفتوحةَ الفم ، التصق خمارها بجانب وجهها البادي لي .

وضعتُ لحمَ الدجاج المقطَّع في الطنجرة المغلية الزيت ، وهممتُ بمغادرة المطبخ لأدعو الفتاتين ، فإذا بمطلَّقتي ناتالي قادمة بمظلَّتها الصغيرة ، البيضاء ، المرقَّطة دوائرَ زرقاً .

لم أسمع محرِّك سيارتها ، التي تلازمها في تنقلاتها . لقد أوقفتها ، بالتأكيد ، في المرآب الصغير ، لصق الجدار الشمال للمنزل ، المتصل بممر طويل غرباً يربطه بالشارع الرئيس ، الممتد بين العاصمة والضواحي ، والذي تتفرع منه طرقٌ صغار إلى المساكن ، في كل الاتجاهات ، تسلكها عربة البريد ، وسيارات سكان المساكن . لكنني لم أسلك أيًا من تلك الفروع الطرق إلى مركز التسوُّق . أحب عبور الغابة وممراتها .

من غير اتصال وصلت ناتالي . أتحمل لي ما تفاجئني به؟ .

هي تكبرني بثماني سنين . دام زواجنا سنتين لا أكثر ، ثم حدث ما توجَّب أن يحدث من عودتي إلى العزلة ، قبل ست سنين .

شعرها أشقر ، سبلُ ، حتى الكتفين ، تصبغه أسود ، إذ ترى في شقرته زلَّةً من زلاَّت اللون على بشرتها البيضاء ، التي تكثر فيها

شامات صغار ، لطيفة بلا شغب ، وبخاصة على عنقها .

عينان زرقاوان ، غائرتان قليلاً ، تظللهما بطلاء من لونهما فاتح وهي ترتدي عباءة سوداء قصيرة ، فوق قميص صوف أزرق ، سميك ، طويل ، حتى ركبتيها ، ولا تحيد مرةً عن الأحذية السود ، الواطئة الأعقاب .

لقد جاء من يشاركني مائدتي . هكذا خمَّنتُ . وخمَّنت الأحاديث التي ستجري . إنها صاحبة دار لعروض الرسوم ورثتْها عن أبيها ، الذي غادر نهائياً بزوجته الجديدة ، الثالثة ، إلى ريف إسبانيا لِحاقاً بالشمس القوية على الحافة بين منتصف العالم . ولأعمالي حضور دائم في صالة العروض ، إما باشتراك مع آخرين ، أو بمعارض منفردة من سنة لأخرى .

تعرفت إليها من أبيها في عَرْض أقامه لرسومي قبل سنتين من زواجنا . واستمرت عروض أعمالي ، من ثمَّ ، في صالتها أثناء الزواج وبعده حتى أيامنا هذه .

وديعة ناتالي . عنيدة في هدوءٍ . صارمة في اختيارها . لم يكن لطلاقنا معنى ، لكن كان ينبغي أن يحدث على نحوٍ لن أعرف شرحه إلاَّ بالتواء قد لا يُقنع .

كانت ناتالي منتشيةً ذات مساء شراباً ، فتلاعب لسانها بالكلمات في حضور ناقد لا أستسيغه .

«أنت لم تلتقط الظلَّ التابع للظل الأصل في لوحتك» ، قالت لي بصوتها الرنين الخافت .

ما الذي سلك بلسانها إلى تقدير غامض لمراتب الظلال في لوحة لي منقولة عن لوحة لروسُّو؟ ظلٌّ تابع؟ بدا الأمر كسخرية . وأنا واثق

أنها لم تعْنِ ذلك، لكن نظرة الناقد إليَّ بدت كمن قبض على جانٍ متلبّساً بفعله، فسألتُ ناتالي بحنق ملجوم:

- ما الظلُّ التابع؟.

«لا أعرف»، ردت ضاحكة.

«ماذا أفعل لأُظهِرَ لكِ ما لا تعرفين؟»، سألتها، فتعجَّل الناقد في الرد يسبقها:

- ابذلْ جهداً. قد تعثر عليه.

«هذا ليس شأنك، يا إبن الظلِّ التابع»، قلت للناقد ذي الشعر الرمادي الطويل محتداً.

كنتُ أنجزتُ رسماً مقسَّماً على أربعة أجزاء منفصلة بإطاراتها الخشب وأقمشتها، مزمعاً أن أتمم العمل في تسعة أجزاء نقلاً عن تفصيل صغير واحد من لوحة الرسام الفرنسي هنري روسو «فاتنة الأفاعي».

رسامون كثر سبقوني، في تاريخ قيامة اللون فنّاً، إلى استعارة رسوم لآخرين يتخذونها نماذج للرسم نقْلاً، مثلما يفعلون باستئجارهم لأجساد حية، عارية، أو مكتسية، يستنسخونها رسوماً. رسامون يقتبسون صوراً ملتقطة بآلات التصوير فيعيدون صوغَها بألوانهم. الاستعارة أمرٌ مشروع. رسمٌ منقول عن رسم أمرٌ مشروع، وليس سرقة إلا إن حدث تحوير، واختلاس بدافع السرقة تقليداً. لا أحد يُعِدُّ إنتاجَ صورة مارلين مونرو كما هي على الورق، بتلوينها، سرقةً. لا أحد يُعدُّ نسْخَ الرسام مارسيل دو شامب لموناليزا دافِنشي، مضيفاً إليها شاربين، سرقةً، بل تُدْرج اللوحة المُستنسخَة في عداد الروائع.

استنسختُ تفصيلاً صغيراً، على نحوٍ متعدد الظِلال، عن لوحة

روسو التي جمعت حواءَ ناصعة السواد بالأفاعي في بستان من بساتي
الفـردوس . هي تعـزف على ناي ، والأفاعي منجـذبة إلى نداء الصو
لحناً يغويها .

موضوعٌ معهود من تصاميم حكايات الخَلْق ، فالنعيم ، فالغواية
فالقصـاص . إلاَّ أن حـواء ، الناصعـة السـواد خـالصـاً ، والمطوَّقـة العنـ
بأفعوان ، هي التي تستدرج الأفاعي بفتنتها ـ فتنة الصوت المستحوذ .

في الجهة اليسرى من اللوحة ، قرب الأفاعي المنتصبة إصغاءً إلى
أمِّ الغـواية الأولى ، طائرٌ مـائي : منقـار مـفلطح كـالألبـاتروس ، وجسم
أقرب إلى إوزة ، في الأرجح .

لماذا طائر مائي؟ للفنان روسـو مـبرره . مـا من فـردوس تسـتحصل
صفةَ الفردوسيةِ من غير أنهار ، وبِرَك ، وينابيع ، وغُدران ، وجداول .

المياه هناك ، في اللوحة . الحدود الشمالية للوحة مياه مترامية ،
أفقَها النهائيَّ غابةٌ من أرخبيل جزائر الفردوس .

انكـبـبتُ على رسم الطائر المائي ، والأعـشـاب العـريضـة الأوراق
خلفه ، على أربعة أجزاء ، مُمعناً في الظلال تغييراً .

مـا «الظل التـابع» الذي لم تجـده ناتالي في الأجـزاء الأربعـة؟
مجيء اليوم التالي على ذلك السؤال الباهت ـ الذي لا ينبـغي أخذ
على محملٍ أبعد من نشوة ناتالي ، في برهة تجرُّعِها القدح السادس من
النبيـذ ـ طليتُ قماشاً جديداً إعداداً لرسم جزء خامس . جئتُ بمنشارية
منشارية ، أحدثتُ ثلماً طويلاً في البياض ، ثم كتبتُ إلى جانب الثلم
بقلم سميك :

– هنا ينام الظلُّ التابع ، يا ناتالي . لا توقظيه .

«مـاهذا؟» ، سـألتني ناتالي حين وجـدتِ القمـاشَ المؤطَّر ، المثلوم

مساءً في غرفة النوم ، إلى جوار الجهة التي تنام عليها من سريرنا العريض .

لم أرد . بقيتُ صامتاً أربعة أيام أعددتُ فيها خطة استئجار بيت .

غادرتُ زوجتي إلى منزلي هذا ، لتلحق بي شاحنة صغيرة ، فيما بعد ، بأصباغي ، وأقمشتي ، وفَراشِيَّ ، ولوازم جلوسي للرسم ، وبعض الكتب ، ومتاع آخر قليل .

ظلت ناتالي على ذهول شهرين ، قبل أن تتصل بي على الإنترنت ، برسالة مختَزَلة ، غريبة ربما :

- ألن تحارب قليلاً من أجل استعادتي؟ .

«لن أحارب . لن أخوض جدالاً حتى» ، أجبتها .

زارتني ناتالي مراراً في منزلي هذا ، للخوض في شؤون الرسم وتجارته . وهي تتصل بي ، عادةً ، على هاتفي الأرضي الذي لم أقتن سواه ، لتحديد موعد لزيارتها ، أو لإعلان مجيئها بلا موعد ، لكنها فاجأتني ، هذه المرة ، بلا تمهيد .

«ماذا ، يا ناتالي؟» ، سألتها بصوت فيه نبرٌ المتفاجئ ، وأنا أفتح الباب قبل أن تقرعه .

«لا شيء» ، ردت من فورها مبتسمة . أضافت وهي تغلق المظلة تحت السقيفة الصغيرة فوق الباب : «أنا جائعة» .

«أمعك كزبرة خضراء؟» ، سألتها ممازحاً ، فاستغربتْ :

- كزبرة خضراء؟ .

عانقتُها عناقَ التوادِّ بيننا . انعطفتُ عن سؤال الكزبرة إلى واحد آخر :

- أأدعو هاتين الفتاتين إلى المائدة؟ .

حدَّقت ناتالي إليَّ لحظة قصيرة ، متفحِّصة ، وهي تخلع حذاءها

- أتبحث عن نماذج بشرية للرسم؟

«لا» ، أجبتُ . «عنيتُ الفتاتين هناك» ، مشيراً برأسي إلى ما وراء الباب الذي أغلقتهُ خلفها .

«تبحث عن فتيات ، إذاً ، أيها العجوز» ، تمتمت . تشمَّمتِ الهواء . «ماذا تطهو؟» .

«ملوخية بلا كزبرة خضراء» ، أجبتها .

«أنضجتْ؟» ، سألتني ، فأجبت :

- ليس بعد . لكنني متأكد أنها ستنضج اليوم .

«بي رغبة في شرب زجاجة من النبيذ» ، تمتمت ناتالي .

«عندي نبيذ» ، قلت ، فهزت رأسها أسفاً :

- كيف أقود سيارتي وقد شربتُ ، ياسارات؟ .

:إبقي هنا» ، قلت .

«أأنت تغويني؟» ، سألتني ممازحة .

«ألن تتزوجي صديقك ويستروم؟» ، سألتها ، فردت :

- لماذا عليَّ أن أتزوج ، أيها العجوز؟ .

جررتها جراً لطيفاً من طرف عباءتها إلى الردهة فاجلستُها على الأريكة . بادرتها بسؤالي :

- لماذا أنتِ هنا؟ .

«لا أعرف» ، ردت . «لم أذهب إلى صالة العروض اليوم . بي رغبة في الثرثرة ، فاتجهت إليك» .

«وماذ لو لم تجديني؟» ، سألتها بتقديرٍ لاحتمال ذلك . فردت :

- أين ستكون إن لم تكن هنا؟

جلبتُ من المطبخ قدح جعة لي ، وقدحاً من عصير البرتقال لناتالي . اعترفتُ :

طهوي اليوم منتحرٌ . نسيتُ الكزبرة الخضراء .

«بم طهوت ملوخيتك؟» ، سألتني وهي تلفظ اسم النبتة مزحلقةَ الطاء بين أسنانها .

«بدجاج» ، أجبت .

هزت رأسها بلا تعقيب . هزت حروب اللحوم ، في السطور المعرجة من بياض التاريخ ، رؤوسها :

شعوب ملأتْ مزارعها بالأرانب تربية للمقايضات ، والبيع ، فجابهتها شعوب بمعتَقَد من تحريم أكل الأرانب لأن إناثها تحيض كإناث الإنسان .

شعوب رعت خنازيرها في المزارع ، والحظائر ، سلِعاً للمقايضات ، والبيع ، فجابهتها شعوب بأحكام تحريم لحم الخنزير .

مجابهات الفتاوى في تحريم اللحوم وتحليلها لم تصل إلى جبهات الأيزيدي ، بل وصلتْها فُتيا كراهية الخَسِّ . إنه يتجنب أكل الخس ، وحقول الخس ، كتجنُّب بشرٍ أكلَ الجراد فيما يأكله بشرٌ في جنوب العالم ؛ وكتجنُّب بشرٍ أكلَ لحم الدب فيما يأكله بشرٌ من شمال العالم ؛ وكتجنُّب بشرٍ أكل لحم الكلب فيما يأكله بشرٌ من الشرق ، والغرب القديم ؛ وكتجنب بشرٍ أكلَ لحم القرد الشبيه بالخيال الدفين المشكل الآدمي ، فيما يأكله بشرٌ من الجنوب ، ومن الشرق ، ومن أرخبيلات الجنوب الشرق لمياه المحيط الأعظم .

«لديَّ خسٌّ آيسلندي . أأصنع سَلطة؟» ، سألتُ ناتالي .

«إفعل ما تشاء» ، ردت ناتالي ببعض اللا إكتراث .

تجرَّعتُ نصف قدح الجعة البارد . توقفتُ مصغياً . سألتها :

- أسمعتِ نداءً؟ .

«أتعني نداءَ فتيات ، أيها العجوز في حُفرة الأربعين؟» ، تساءلت ناتالي في سخرية . أضافت ممازحةً : «كنتُ مثلك أسمع نداء شبان حِسانٍ ، من غير أن أراهم ، حين بلغتُ الأربعين قبلك بثماني سنين»

ضربتُها ضربة رقيقة بظاهر كفِّي على فخذها :

- كنا متزوجين آنذاك ، أيتها الخائنة .

«كلُّنا نخون» ، عقَّبت ناتالي .

نهضتُ واقفاً . كررتُ التلميحَ والإصغاء :

- أسمعتِ؟ .

«لم أسمع» ، ردت ناتالي .

مضيتُ إلى المطبخ متطلعاً من نافذته إلى الحديقة . كانت شاهيكا تناديني بصوت لم ترفع نبرتَه ، كأنما غير مستعجلة أن أسمعها .

فتحتُ النافذة . ناديتها :

- شاهيكا . تعالا إن أردتما .

«مَنْ تُكلم؟» ، تساءلت ناتالي وهي تتطفَّل ، قادمة من ورائي .

«أكلم الفتاتين» ، أجبتها .

حدَّقتْ ناتالي مليًا إلى حيث أنظر . عادت إلى الردهة متراخية وهي تتمتم ، مادةً ذراعها إليَّ بقدح عصير البرتقال :

- خذْ عصيرَ حواء ، وأعطني نبيذاً .

لماذا تجاهلت ناتالي الفتاتين؟ عطرها قويٌّ اليوم ، هي التي أعرفها تحب العطرَ خافتاً ، هامساً ، كسولاً ، ناعساً ، لا يلتقطه الشمُّ إلاّ في غفلة ، أو خُلسة . عطر ناتالي ، عادةً ، عطرٌ يتذكَّر سِيَرَ المخلوقات اللواتي

ام نخرج بعدُ من مستورِ كهوفها ، أوْ لم تنزل بعدُ عن شجرة الأصل الغائرة الجذور عميقاً في أشعار الوداع .

كذَّابٌ مَنْ ينسب العطر إلى أخلاط الزهر ، وتراكيب الزيوت ، ودهون الورد ، وعَفَنِ لحاء الأشجار المطحون ، المحفوظ في لفائف من أعشاب منابع الأنهار . يأخُذُ وصفُ العطر على ألسنة الصانعين ، المروّجين ، منحىً من الحذلقة لا يمت بصلة إلى ذاكرة العطر . بل أخمّن ، أو أزعم ، أنْ لا ذاكرة للعطر ، لأنه ـ هو ـ ذاكرةُ الإخلاص للمفارقات مجتمعةً كخطَّة تآمر .

العطر مؤامرةٌ متهوِّرةُ الخطة .

ناديتُ ناتالي :

- ما عطرك اليوم؟ .

«فُسَاءُ الخنافس» ، ردت ، ثم أردفتْ : «أين تخبئ النبيذ؟» .

«الزجاجات تحت أنفك ، ياناتالي ، في صندوق تحت الأريكة التي تجلسين عليها» أجبتُ .

لم أكن أرى ناتالي في وقفتي أمام نافذة المطبخ ، لكنني سمعتُ صوت سَحْل الصندوق الورقي على أرض الردهة ، قبل أن يصلني صوتها :

- منذ متى تخبئ زجاجات الشراب تحت الأريكة؟ .

«لا أتذكر» ، أجبتها . حملتُ قدحاً من الحافظة الخشب للأواني المغسولة على المسطبة ، قرب مغسلة المطبخ . جئتها بالقدح ثم رجعتُ .

كانت شاهيكا والفتاة الصغيرة قد اجتازتا ثلاثة أرباع معبر الحديقة وتوقفتا . كلمتهما ، من جديد ، عبر النافذة المفتوحة :

- هيا ادخلا . الباب غير مغلق .

بانعطافٍ عن المعبر المستقيم وسط الحديقة ، سلكت شاهيكا الأرضَ العشبَ صوب نافذة المطبخ :

- أفضِّل الوقوف هنا .

باتت الفتاتان على قرب شبرين من النافذة ، مبتلّتين من قمّة خماريهما الملتصقين بشعرهما ، حتى حذاءيهما .

«ستمرضان» ، قلت لهما .

ابتسمت شاهيكا فابتسمت الفتاة الصغيرة من شفتيها الممتلئتين الداكنتين قليلاً .

«ممَّ سنمرض؟» ، سألتني شاهيكا ، فأجبت :

- من البلل .

«لا يمرض الموتى ، يا سارات» ، عقَّبتْ شاهيكا . انعطفت بوجهها إلى الفتاة الصغيرة . سألتني :

- أعرفتَها؟ .

تصنَّعتُ تنقيباً في ذاكرتي عن شيء ضائع :

- أهي التي ترعى عَنْزاً في سنجار؟ .

التفتت شاهيكا إلى الفتاة الصغيرة . سألَتْها :

- أكنتِ ترعين عنزاً؟ .

«أحياناً» ، ردت الفتاة الصغيرة بصوت خجول .

«كانت ترعى عنزتين» ، قلتُ بحصْر العدد ، فردت الفتاة الصغيرة :

- بل كنتُ أرعى خمساً .

«هذه نِيْنَاس» ، قالت شاهيكا مختصِرةً .

«نيناس؟» ، تساءلتُ بنبْرٍ ريبةٍ من التسمية .

«نعم . نيناس» . ، أكدت شاهيكا .

تناهى إليَّ صوتُ ناتالي مستوضحةً :

من تكلِّم ، يا سارات؟ .

«أكلم الفتاتين» ، أجبتها .

لم تستفسر ناتالي . استعجلتني :

- ألن تشرب نخْبي؟ تعال .

«أنا قادم . سأدعو الفتاتين» أجبتها .

«أهما عاريتان؟» ، سألتني ناتالي بنبرٍ ساخر من صوتها الرنين الخافت .

«لا . هما من سنجار» ، أجبتها .

«من أين؟» ، سألتني ناتالي رافعة صوتها .

«جبل سنجار» . أجبتها .

«أين هذا المكان؟» ، سألتني ناتالي .

«في جغرافيا القتل» ، أجبتها ، ثم عدت بكلامي إلى شاهيكا :

- ادخلا .

«أفضِّل محادثتك من وراء النافذة» ، ردت شاهيكا .

ملأتُ قدح الجعة للمرة التي لا أعرف . عدت منتصباً أمام النافذة المفتوحة :

- مَنْ هذه الفتاة الصغيرة؟ .

«نيناس ، التي قررتَ أن ترسمها» ، ردت شاهيكا .

«عدنا إلى المتاهة ، يا فتاة . لم أقرر رسم شيء بعد» ، عقبتُ على ما قالت .

ابتسمت شاهيكا . قلصت جفْنَيْ عينها اليسرى تتأملني :

- متى ستبدأ الرسم؟ .

«حين أعرف أين يقع جبل سنجار» ، أجبتها .

«في العراق» ، ردت شاهيكا .

«أعني أين سيكون موضعه في الرسم إنْ رسمتُ» ، عقَّبتُ على جواب شاهيكا البريء . حدقتُ إلى الفتاة الصغيرة ، السمراء ، المدوَّرة الوجه :

- إسمك مستعار أيضاً كاسم شاهيكا؟ .

هزت نيناس رأسها أيجاباً .

«ما هذا؟» ، تساءلتُ مقطِّباً حاجبيَّ استغراباً : «أجسداكما مستعاران أيضاً؟» .

«لا» ، ردت شاهيكا .

«عنزتان حلّتا في جسدَيْ فتاتين» ، قلت معابثاً .

لم تتوقف شاهيكا عند دعابتي مذ أصغت مثلي إلى صوت ناتالي وهي تنادي :

- لن أنهض عن الأريكة لأستطلع ماذا تفعل ، يا سارات .

«أهيئ الأرزَّ ، ، وأكلم الفتاتين» ، أجبتها .

«هما من أين؟ نسيتُ» ، تساءلت فأجبتها :

- من جبل سنجار .

«أهما جذّابتان؟» ، سألتني ناتالي ، فأجبتها وأنا أتأمل وجه شاهيكا فأغمزها :

- واحدة في السابعة عشرة ، والثانية في الحادية عشرة . عنزتان حلّتا في جَسدَيْ فتاتين .

«مــاذا؟» ، تســاءلـت ناتالـي بصــوت انزلق رنيناً من الردهة إلى المطبخ ، فأجبتها :

- إنهما من ملَّة تؤمن بالتناسخ والحلول .

لم تسألني ناتالي عمّا عنيتُه . صاغت دعابةً من وحي الحلول :

- أتعتقد أن سنجاباً كان إنساناً في حياة سابقة؟ .

«لم أفكر بهذا» ، أجبتها .

«أفكرتَ ، مـثـلاً ، أنك كنت سنجـاباً في حـيـاة سـابقـة ، يا سارات؟» ، سألتني ناتالي ، فأجبتها :

- لا أعرف . لكنني ، قطعاً ، لم أكن سارات في حياة سابقة .

«ألديك شـعـور أنك عـشتَ حـيـاة سـابقـة؟» ، سـألتني ناتالي ، فأجبتها :

- نعم . كنتُ في لوحة .

«لوحة لمن؟» ، سألتني ناتالي ، فأجبتها :

- مارك شاغال .

«أيُّ لوحاته؟» ، تساءلت .

«المُشعْوِذ» ، أجبت وأنا أعني اللوحة التي تحمل عنوان «المشعوذ» .

«اجلب صـديقتيك العاريتين ، وتعـال» ، قالت ناتالي . أضافت : «أيها المشعوذ» .

«ليستا صديقتيَّ ، وليستا عاريتين» ، عقَّبتُ على كلمات ناتالي .

مددت رأسي من نافذة المطبخ . همستُ :

«شـاهيكا . لن أسـتـمـر في الوقـوف هنا . هيـا ادخـلا» . ابتـعـدت أطفئ النار تحت طنجرة الملوخية .

«متى ستبدأ رسمنا؟» ، سألتني شاهيكا السؤال ذاته ، وهي تمد

رأسها من النافذة تلاحقني بعينيها ذاهباً إلى الفرن الكهربيِّ .

«ادخلا . سنتحدث عن ذلك» ، أجبتها .

«أين ستضع نيناس؟» ، سألتني شاهيكا .

أطلقتُ زفرة :

- سأضعها بين قصب البحيرة ، وفي يديها ناي تعزف عليه .

التفتتْ شاهيكا إلى البحيرة . سألتني بنَبْرٍ مستغرب :

- هنا؟ .

«هنا . بين قصب البحيرة» ، أجبتها .

«أين سنجار؟» ، تساءلت بصوت بريء .

«سنأتي بجبل سنجار ضيفاً على مياه البحيرة» ، أجبت .

«ليس هنا . لا . سترسمها في سنجار» ، قالت شاهيكا .

أطلقتُ زفرة ثانية ، مديدة . عدت إلى النافذة متطلعاً إلى الفـ[illegible] الصغيرة :

- أين تريدين أن أضعكِ في الرسم ، يا نيناس؟ .

أغضت نيناس حياءً . تمتمت :

- ضعني إلى جوار أخي .

«ماذا الآن؟» ، تساءلتُ موجهاً بصري إلى شاهيكا : «[illegible] أخوها؟» .

«قُتل قبل سبي نيناس» ، ردت شاهيكا .

«أسبى جنود الحوريات هذه الطفلة أيضاً؟» ، سألتُ شاهيكا ، التي ردت باستفاضة في شأن شقيق نيناس الذي قُتل بطلقة في الرأس ، في ساحة قرية «خانْ صُوْرْ» ، لأنه أبدى اعتراضاً من لمس مقاتلٍ لأخته يتفحَّص عينيها ، ثم رُبط من قدميه خلف عربة رباعية الدفع لسحله .

تضـرَّعَ والد نيناس إلى جنود دولة الخلافة في ثيابهم السود أن لا يفعلوا . أقـسمَ بالله مراراً أنه مـسلم يؤمن بما يؤمنون به ، وسيـؤكـد لهم إسلامه على أية طريقة شاءوا ، فخيَّروه : إمَّا أن يربطوه ، في السحْل ، فوق جثة ابنه ، أو يربطوا جثة ابنه فوقه .

أبدى الأب رغبة العاجز : «اسحلوني إلى جوار ابني» ، قال .

وبَّخه جنود الخلافة : «اخترْ واحداً من اثنين : إمّاَ أنت فوق ابنك ، أو إبنك فوقك ، يا عبْدَ الشيطان» .

ردَّ الأب :

- ضعوه فوق ظهري .

سُحِلَ الأب تحت جثة ابنه وراء سيارة متـهورة في زعيق بوقها المنتصر . بعد السحل بدا وجه الأب بلا أنف ؛ بلا شفتين ، بلا جلد على حاجبَيْ عينيه .

اختفت نيناس من قريتها كأخريات كثيرات ، ظهرن ، فيما بعد ، في مضارب دولة الخليفة الجديد ومعسكراته ، وأقاليمهِ الكهوفِ - أقاليم الكبحْ والذبح ، من الرقَّة إلى تَلَّعْفر والبعَّاج .

بيعت نيناس ، إبنة الحادية عشرة ، في ساحة مدرسة في الموصل . اشتراها شخص من سكان أبو كمال السورية ، في أربعيناته ، داعيةٌ متعهِّدٌ بعلومه في سلخ المعرفة الأرضية ، أن ينشئ العقول على غايات الدولة الإسلامية ، في أرضٍ خالصة للطاهرين ، الأنقياء .

انتقل الداعية إحسان مجاهد بجاريته الصغيرة إلى مدينة تلَّعفر ، متفرِّغاً لإكساء الأطفال الأيزيديين ، المسلوبين ، أغشيةً على أدمغتهم مصنوعةً من مطَّاط يقينه بكُفر العالم .

جُمع له ، في مدرسةٍ موقوفة عليه كداعية ، أربعة وثمانون طفلاً

أيزيدياً ، بين السادسة والعاشرة . أُلبِسوا ثياباً سوداً . عُصبت جباههم بعصائبَ سود عليها نقش من حروف البيرق الأول في معارك النبوة قُرِئت عليهم آيات الصوت المتهدِّد المتوعِّد بالعذاب ، والخلود في النار

هُمْ أطفال لم يجد الداعية مدخلاً إلى استنهاض الشهوات اللذائذ في أحضان الحور عندهم ، فسلكَ مسالكَ الرعب في التصاوير ليبني لهم يقيناً .

طفل روى ، في نجاته منهم بحيلة من أخيه الأكبر أوصله إلى تركيا مع سائق صهريج للنفط ، صورَ الخوف التي تقذف به من كل نوم مذعوراً بكوابيسها : لقدْ استعانَ الداعية إحسان برسام من جند الخليفة البغدادي ، لترويج مباهج الأهوال مرسومةً على لوح أمام أبصار الأطفال : «هذا ما ستفعله زبانية جهنم بالكافرين» ، كان يقول مهدداً أمَ الأرض ، فيعمد الرسام إلى تصوير أناس ببطون حَشْوُها نارٌ ، ورؤوس أدمغتها نارٌ ، وعيون مشتعلة ناراً . أنفاسٌ لهبٌ من الأفواه . جَوعى ، في الجحيم ، يأكلون جيف الموتى ، أو يأكلون أنفسهم نهشاً بالأسنان ، أو تأكلهم كلاب الجحيم الجائعة ، أو تخنقهم الأفاعي .

لم ينسَ الداعية ، الذي ملأ مسامَّ جِلْد الطفل ، الذي روى أمره ، عَرَقاً من عَرَق الأهوال ، وعودَ النعيم أيضاً : سكاكر من كل صنف ولون ، على هيئات لا يتخيلها بشر . أشعار من الحلاوة . ندى من القَطر . ثمار من الشوكولاته ، والرقائق العسلية . بيوت مبنية من البقلاوة . أسرّة ووسائد من الحلوى بزبيب ولوز : «ستسير معكم ملائكةٌ خُدَّام حاملين قِصاعَ المثلَّجات بنكهات لم يتذوقها إنسان» ـ هكذا بشَّر الداعية الأطفال كما روى الطفل الناجي . «كل شيء تلمسونه ، في الجنة ، يصير دِبْساً ، أو عسلاً ، أو هريسة بقَطْر ، أو حليباً محلًّى» .

بشّرهم الداعية بمعجّنات محشوة برُبٍّ فاكهة الجنة التي لم تخطر ببال إنسان .

بشرهم بسهول من حولهم ينبت فيها عشبٌ من سُكر ، وأزاهير من الحلواء .

بشرهم بمطر في الجنة من لوز ، وحِمَّص ، وبندق ، مُلبَّسةً قِشْراً سُكريًا ، أو ملتوتة في طحين السُّكر .

بشرهم بملاعبَ لهوٍ حبالُ أراجيحها حلاوةٌ مجدولة ، ومقاعدها كعكٌ بسمسم .

بشرهم بشراب أين منه الكوكاكولا ، والبيبسي ، على أية نكهة أرادوها . يشربون أنهاراً بلا عُسرٍ على بطونهم ، ويأكلون الحلوى أطناناً في اليوم فلا يُتخَمون .

بشرهم بالكرز كلُّ حبَّةٍ ككرة قدم ، وبالتوت كل حبة أكبر من أن تتسع لها يدان معاً ، وبالموز فأسرف في وصف نوعه الذي في الجنة ، كما روى الطفل الناجي : كل موزة في حجم بندقية كلاشنيكوف . موزٌ ضاحك . موزٌ يروي قصص الأنبياء . موزٌ مُغنٍّ بكل لحن من ألحان الجنة . موزٌ يُسبِّحُ شكراً لله أنه نبتَ ثمرةً كي يأكله أطفال طاهرون ، يحبون خليفتهم ويفتدونه بأرواحهم .

كان الداعية يستنفرهم في نهاياتِ مواعظه ودروسه :

- ماذا ستفعلون لتحصلوا على كل هذا؟

«نقتل الكَفَرة» ، يردُّ الأطفال بصوت واحد ، فيتصنَّع الداعية امتعاضاً :

- أتقتلونهم هكذا بتهذيب؟ .

«لا» ، يصرخ الأطفال هائجين : «بل نقطع رؤوسهم بسكاكيننا» ،

ويُخرج كل واحد منهم سكيناً من حقيبته .

قطع صوت ناتالي سرد الجنون مختصَراً من فم شاهيكا عمَّا حدث للطفلة نيناس . لم يكن السرد هذا كله منها ، بل ملأتُ ثغراته بنفسي تصاويرَ مقتبَسةً من أخبار جهنم «الدولة الإسلامية» ، ونكبة السبايا ، والرهائن ، والمذبوحين ، والمخطوفين أطفالاً إلى مدارس ذبح الحناجر والتباهي برَكْلِ الرؤوس المقطوعة .

«أتعرَّت الفتاتان لك فألْهتاكَ عني؟» ، صاحت ناتالي .

«لا» ، أجبتها .

«ألا تتعرى الفتيات في المكان الذي ذكَرْته لي؟» ، تساءلت ناتالي . استدركتْ مضيفةً : «المكان الجبل» .

«يولدن وعليهن ثياب . يمُتْن وعليهن ثياب . يُبْعَثْن يوم القيامة وعليهن ثياب» ، أجبتها .

«محظوظات . هنَّ محظوظات» ، عقَّبت ناتالي بصوتٍ عالٍ من الردهة .

«لماذا؟» ، تساءلتُ بصوتٍ عالٍ من المطبخ ، محدِّقاً إلى الفتاة الصغيرة التي تأملتني بعينيها السوداوين .

«العُري لم يكن حلاً» ، ردت ناتالي .

«لم يكن حلاً لأية معضلة؟» ، تساءلتُ ، فردت ناتالي :

- لمعضلة الشكل البشري .

«ماذا تقترحين من حلٍّ ، إذاً؟» ، تساءلتُ ، فردت :

- لو كانت ثيابنا مفصَّلة بحسب رغبتنا ، على هيئة واحدة من الولادة حتى الموت ، كجلود متصلة بجلودنا مثل الأقمشة التي نرتديها .

«لم أفهم تماماً» ، عقَّبتُ . «لكنها ثرثرة جيدة» .

«أحتاج إلى ثرثرة كالنبيذ أحياناً» ، قالت ناتالي بصوت تراجع ارتفاعه ، ثم علا صوتُ موسيقى من هاتفها المحمول ، المزدحم بَرْمجةً بالمعقولات الأرضية كلها ، مرئيةً ومسموعة .

أصغيتُ لحظةً إلى لحن Lacrimosa لموزارت من هاتف ناتالي . أومأتُ إلى الفتاة الصغيرة :

- أتحبين الموسيقى؟ .

انبرت شاهيكا مُجيبةً :

- نيناس تغني .

«سأرسم صوتها إذاً» ، قلت . «هيا ادخلا ، ولْتُغنِّ لنا نيناس» .

«لا تغني نيناس هنا» ، ردت شاهيكا .

«أين يحلو لها أن تغنِّي عادةً؟» ، تساءلتُ ، فردت :

- في سنجار .

«كيف جرى أنها هنا؟» ، سألتُ شاهيكا . «ألَمْ يشترِها داعيةٌ من الدولة الإسلامية؟» .

«قُتلتْ نيناس» ، ردَّت شاهيكا . نظرتْ في عطف إلى الفتاة الصغيرة .

انعطفتُ عن النافذة أطفئُ النارَ الكهربية تحت طنجرة الأرزِّ ، مبقياً عيني على الفتاتين .

في سرد مُختزَل بصوت نيناس الخجول ، ذي الرعشة الخفيفة ، تجاورت السطورُ واضحةً من لغة السماء الأولى ـ لغة الكرد : انتقل مالك الفتاة الصغيرة بجاريته من تلعفر في العراق إلى تل أبيض في سوريا . تسلَّم مدرسةً للأطفال يلقنهم طرقَ العبور إلى الجنةِ ـ مخزنِ

الحلوى ، والسكاكر ، والشراب الغازيّ الذي لم يخطر مذاقه على بال
البشر الفانين في الدنيا الفانية .

لن تنسى نيناس نظرة قاضي المحكمة الشرعية في المدينة إليها ،
حين التقاهما أوّلَ مجيئهما ، لينتدبَ مالكَها على مهامه مجاهداً من
مجاهدي الدولة الإسلامية بالكلام إقناعاً ، وإفهاماً ، وتعليماً .

ظلَّ القاضي يتردد عليهما . يكلِّم الداعيةَ بصوت خفيض تسمع
فيه تلميحاً إليها وهي محتجبة عنهما في غرفة أخرى ، أو يرسل من
يسارر مالكها ، حتى تكشَّف واضحاً في الكلام لم يعد خفيضاً ، بل
فيه جَهْرُ القاضي برغبته أن يطلق الداعيةُ جاريته ، بمساومةٍ على مال
ليتزوجها هو .

سُوِّيَ الأمر . طلَّق مالكُ نيناس جاريته لقاءَ صِداق دُفع للمالك
وليس لها ، بالنقود الأمريكية كَماً لن تعرف الفتاة الصغيرةُ مبلغَه . بعد
يومين غدت الطفلة حَليلةَ القاضي ذي السادسة والخمسين ، طوع
فراشه تُقاسِمه مع اثنتين أخريَيْنِ في عشرينهما .

«قال لي : قبِّليني» ، تمتمت نيناس إشارةً إلى لقائهما الأول في
فراشه . نظرت إلى شاهيكا مترددةً كأنما تستأذنها أَتُكمل أم تكتفي
فأومأت شاهيكا تحثها على قول ما تريد .

«قبَّلتُه على خده فوق لحيته» ، قالت نيناس . «حدَّق إلي
مستغرباً . سألني : أهكذا كنتِ تقبِّلين مالكك إحسان؟» .

«لا» ، ردت نيناس .

«قبِّليني كما كنتِ تفعلين معه» ، قال لها القاضي في فراشه
باهتزاز من لحيته .

«كان هو الذي يقبِّلني» ، ردت نيناس .

«كيف يقبِّلكِ؟» ، سألها القاضي .

«يفتح فمه ، ثم يفتح فمي» ، ردت نيناس .

«كان يأكلك» ، عقَّب القاضي .

لم تفهم نيناس مقصده ، لأن القاضي نفسه فتح فمها وانكبَّ عليها فاتحاً فمه ، مردداً : «سآكلك بإذن الله» .

رمت نيناس سيرةَ جسدها إليَّ ، من النافذة ، شذراتٍ تلميحات وهي في عهدة القاضي مأمون السكاكيني الرحب العلوم في تشريع لذاته ، يستحصلها من الفتاة الصغيرة على أيٍّ وجه يشاء . لكنْ لم يوقف سؤالاً مكروراً عليها كلما حصل من جسدها على رواءٍ :

- أكان إحسان يفعل بكِ هكذا؟ .

«نعم» ، ترد نيناس .

بات القاضي يلقي سؤاله عليها غاضباً ، كأنما أُهين من أنها مكَّنت مالكها الأول أن ينال منها ما يناله هو منها . بعد أربعة شهور صرخ هائجاً : «ماذا أبقى الداعيةُ منكِ ، يا جارية؟» . وضع وسادة على وجهها حتى اختنقت .

صُرِّح عن موتها أنها سقطت عن درج السُّلم إلى السقيفة في البيت فانكسر عنقها . دُفنتْ بلا كشفٍ طبيٍّ .

«أأنت تجوِّعني ، يا سارات؟» ، صاحت ناتالي .

«الطهو جاهز» ، أجبتها .

فوجئتُ بتردُّدٍ أبدته شاهيكا وهي تهم بالكلام . ابتعدت عن النافذة قليلاً فابتعدت نيناس أيضاً . وجَّهتا بصريهما إلى البحيرة كأنهما ترصدان شيئاً مَّا .

«إلى مَ تنظران؟» ، سألتهما بصوت عال ، وأنا أتفحص ، بدوريَ ،

المياهَ المديدة تجوب في أفقها البعيد بعض الزوارق ، وسفينة بطبقتين .

مالت شاهيكا على نيناس تُهامسُها . ابتعدتا أكثر . خرجتا من الحديقة إلى العراء الصخر ، الممتد لساناً من نهاية الحديقة إلى ضفة البحيرة . دخلتا سورَ القصب واختفتا في حجابه .

«اين الفتاتان ، أيها العجوز؟» ، صاحت ناتالي من الردهة بصوت مُنْتَشٍ نبيذاً .

«عادتا إلى سنجار» ، أجبتها وأنا أهيء صحنين لسكب الطهو فيهما .

«بثياب أم من دونها؟» ، سألتني ناتالي .

«بثياب من جِلديْهما» ، أجبتها . خرجت قادماً من المطبخ بصحن في يد ، وفي الأخرى طاسة من سلطة بسيطة قوامها الطماطم والخس وضعتهما على منضدة الطعام في الردهة ، قرب الأريكة حيث تجلس ناتالي :

- أشمُّ من عطرك القوي ، اليوم ، أنك تتهيئين للعودة إلى الرسم

«لن أعود إلى الرسم» ، قالت ناتالي ، التي استقالت باكراً من مهنتها رسَّامةً ، منصرفةً بكلِّها إلى إدارة صالة عرض الرسوم ، وشؤون الترويج .

«كنت جيدة» ، عقَّبتُ وأنا عائد إلى المطبخ لأجلب الصحن الثاني ملأتُه رزاً ، وغمرت الرزَّ بالملوخية المائعة .

«لم أكن جيدة» ، قالت ناتالي وهي تنهض بقدح النبيذ في يدها ، متثاقلة مما شربته على معدة فارغة .

توقفتُ محدِّقاً إلى ناتالي وقد جلست إلى مائدة الطعام القريبة من الأريكة .

حدَّقتْ ناتالي بدورها إليَّ . سألتني :

- أتزنني بميزان عينيك؟ لم يزدد وزني .

زفرتُ زفرةً خفيفة :

- أأنا جيد ، يا ناتالي؟ .

«عذابُ اللون بين يديك عذابٌ جيد ، مُتقَنٌ» ، ردت ناتالي رافعةً ملعقة أولى من الطعام إلى فمها .

دخلتُ المطبخ لجلب الصحن الآخر . توقفتُ أمام النافذة مجيلاً بصري على سور القصب الطويل محيطاً بشاطئ البحيرة المترامية . لحقَ بي صوتُ ناتالي :

- أكنتَ تكلم نفسك بلغتك الكردية ، يا سارات؟ هذه عادة جيدة لحفظ التوازن .

أجبتها بصوت لا أعرف هل بلغ الردهةَ أمْ لا :

- كنتُ أكلم جبلاً ، يا ناتالي .

الفصل الرابع

(William Adolphe Bouguereau: Dante and Virgil in Hell)

هل من معنى أخلاقيٍّ للريح؟ للرياح مواسمها . تُسْتَجْمَع خلاياها من مخابئ فوضىً حتى تكتمل نظاماً واضح البلاغة في التبشير بالجهات : رياح شمالية ؛ غربية ؛ جنوبية ؛ شرقية ، أو فروع منها . ولها طباعٌ تُشخَّص ككل طباع . فهي حارة ، أو صقيعية ، أو محايدة . وهي رطبة ، أو جافة ، أو محايدة . وهي رملية ، أو ثلجية ، أو غبارية ، أو محايدة . لكنها لا توصف رياحاً إن لم تكن هُوْجاً ، عاصفةً ، رِعاناً ، جوامحَ في هبوبها .

ليست الرياح مُلزَمة بإفصاح عن معنىً أخلاقيٍّ . إنها تخصب الشجر ، وتحطم أحياناً ، وتكنس الأوراق الميتة برميها حيث يُراد ولا يُراد ، وتحسِّن شروط الموج في المفاوضات عن نفْسه مع القُوى أنه ضَارٍ مثلها ، ومُهابٌ .

لكنَّ الفائدة التي تُستحصَل منها أحياناً ، والضرر الذي يُستحصل أحياناً ، لا يُحتِّمان تخمينها أنها تكليف من الخير بالمهمة ، أو تكليفٌ من الشر ، إلاَّ في أديانٍ أثبتتها سجلاً من سجلِّ القصاص والتصحيح ، والتطهير ، مخوَّلةً ـ بسلْطة الغيب فيها ـ أن تذكِّر الأرضَ بحدودها فلا

تتمادى معصيةً ، ولا يتمادى قاطنوها غروراً .

لا حُكمَ لي على أخلاق الريح ، بل لي حُكم على أخلاقِ يومي وحاصل ساعاته . قد يكون لطيفاً ، أو عادياً ، حتى لو وضعت الريحُ البحيرةَ في فراشي . وقد يكون عكِراً حتى لو قسَّم سكونُ الهواءِ ولطفهُ كعكةَ الهواء المحلاَّةَ على المخلوقات . أمَّا يومي الذي سأصف وقائعه ، فهو على حيادٍ في الأخلاق .

نهضت باكراً ، على غير عادتي في الصباح . وقفت أمام المرآة أستعرض الرسم الجديد الذي حلَّ على جلدي من تصفُّحي ، في آخر الليل ، لجلد الأمهات الرسوم .

لم تستقصِ عيناي ، من فورهما ، تفاصيل الرسم متفرقة على صدري حتى البطن ، بل تفرَّستا في هيأتي : أنا أبيض البشرة ، بل على سُمرة تراجعتْ للبياض . معتدل الطول . معتدل الوزن . شعر أسود قصير . شاربان رفيعان ، معقوفان إلى أعلى . لحية حليقة حلاقة خشنة . عينان عسليتان ، غائرتان قليلاً في محجريهما . أنف مستقيم . شفة سفلى ممتلئة ، وعليا عادية . أذنان نافرتان .

أأصف نفسي على وسامةٍ؟ لا أعتقد : ملامح عادية . تنفُّسٌ عادي . تدخينٌ عادي . ثياب عادية . حنين عادي . هجرة عادية . غضب عادي . أخلاق عادية كالليل كان عاديًا في مطلعه استحال صاخباً ، مدوِّياً ، هائجاً مع اكتمال النظام في ريح غير عادية .

أفقتُ مراراً ، حتى الفجر ، من العزيف بأصوات أَلْف من غضب الصوت ، يكاد الزجاج المزدوج على النوافذ أن ينتفخ هلعاً وينفجر ، أو ينشدخ فينشرخ من خمْش الريح .

أوراق شجر القيقب ، والبتولا ، والحور ، توالت ارتطاماً بالنوافذ .

محمولةً من أجمة الشجر الكثيف أمتاراً كثيرةً بُعداً عن البيت . رأيتها في الصبـاح تلتفُّ في الفـراغ زوابعَ ، تعلو وترتفع بغـتـة ، ثم تنتـشـر محمومةً تطارد الورقةُ الورقةَ بحقدها على الخريف الجلاَّد ، أو بحقدها على أخوَّة الورقة .

أفقت مبكراً على غير عادتي . الصوتُ متسرباً من الجدران إلى الحشو في وسادتي ، طوال الليل ، أنشد لي أشعار المذابح الفاضلة من حناجر المهرجين في مسرح الليل .

نظرتُ إلى رسم «دانتي وفيرجيل في الجحيم» ، منجزاً عنيفاً بريشة الرسام الفرنسي وليام أدولف بوغرو . رسمٌ متطاول على جلدي . تراجعتُ عن المرآة متجهاً إلى المطبخ بلا رغبة في ارتداء ثيابي للتسوُّق اليومي : عندي عصير برتقال ، وبَيْض ، ولحم عجل مفروم ، وأكياس خضار مجلدة ، وأرزٌ مطهو يعفيني من الحاجة إلى الخبز .

مضغتُ لقمة من شريحةِ كعكة مملحة ، محمصة ، دهنتها بربِّ فستق الصويا . أحكمت النظر إلى البحيرة واقفاً أمام النافذة .

سمعتُ ، أو خال لي أنني سمعت صهيلَ القصب مختنقاً في انحناءاته ، وركوعه ثم ارتداده منقصفاً أو يكاد ، فيما أوراقُه السيوفُ تتقارع ، أو يجلد بعضها بعضاً في عراكٍ طاحن تتطاير منه نصالُها اليابسة ، وتتشقق أنصافاً .

أنجزت استحماماً سريعاً تحت رَشَاش الماء . ارتديتُ برنساً طويلاً ، سميكا ، ذا قلنسوة غطيتُ بها رأسي المبتل . أشعلتُ لفافة تبغ منسلاً من الباب في الجدار الجنوب للمطبخ إلى المَشْغل الشاحب فضاءً .

أضأتُ المصباح الكهربيَّ المتدلي من السقف . ثم أضأتُ مصباحاً اخر ، ذا ضوءٍ كشّاف قويٍّ ، وجَّهته من مفصله ، المتصل بماسورةٍ مطاطٍ

سهلةِ اللَّيِّ ، إلى القماش البياض مشدوداً في إطاره ، فوق الحامل ذي القوائم . جلست على المقعد الدائري ، المتحرك في مركزه إنْ أردتُ استدارةً إلى أية جهة شئت . حدَّقت إلى المبياض مسلِّماً عليه بنفثة من دخان اللفافة ، ثم عطفتُ عنقي صوب النافذة المطلَّة ، كسائر نوافذ البيت ، على الشرقِ المياه من بحيرة أودن .

موجٌ يتقوَّس فيحتضن موجاً آخر ؛ يلتهمه ، أو يمضغه ثم يلفظه من فمه هشيماً أبيضَ زبداً . موجٌ رمادي ، في السطوع الباهر لشمس اليوم مغرِّدةَ الشعاعات في قفص سمائها الزجاجيِّ البلور صافياً ، ينضم وينتشر متفتتاً على اللسان الصخر ، الممتد من حديقة بيتي إلى الجزء المرئي عارياً من شاطئ البحيرة بلا قصب ، لكنه جزء صغير مثل بوابة لم تكتمل في سور النبات المتمايل بسيقانه النحيلة .

مياهٌ مطايا بظهور تتقوس ، وتتحدَّب ، يعلوها بط ، وإوز ، مدرَّبان على ركوبها . بط ، وإوز ، على الشاطئ أيضاً ، ملتمَّةُ الفصائل سربا صامتاً ، بعضه واقف ، وبعضه جاثم ، بريشٍ ينتفشُ وينطبق من نفْخ الريح .

«أين سنجار؟» ، ساءلتُ نفسي كمن اعتقد أن الريح نقلت الأمكنة من مواضعها . أعدت بصري عن المياه إلى القماشة البيضاء .

بي رغبة في وضع بصمةٍ مَّا من اللون على البياض هذا اليوم . بي رغبة في لمسة من اللون قد تتشعبُ معانيَ ، أو تبقى أثراً يُدفن تحت لمسة بالفرشاة تُناقِضُها .

نقَّلتُ بصري على رفٍّ تجاورت عليه علبُ الدهان الصفيحُ . بأي لون أبدأ؟ من أي موضع أبدأ؟ أمِنَ السماء المتخيَّلة أعلى اللوحة ، أم من الأرض أسفل؟ ماذا لو خلطتُ الجهات : سماء في الأعلى ، وسماء

في الأسفل ، وأرض في الوسط بين السماءين؟ سيبدو المشهد كانعكاس للأعالي في مياهٍ ، وستوحي الأرض أنها جزيرة مّا .

عَرَضَ لخيالي أشباحُ خيام مبثوثة فوق صفحتيٍّ السماءين ، أو فوق صفحة سماء في الأعلى وصفحة مياه في الأسفل ، من غير أن تتداخل حدود تلك الخيام بحدود الأرض ، أو تتصل بها .

بوغِتُّ بصوت أشبه بكسر قوي في غصن . لا شجر قرب البيت . لا غصون لتكسرها الريح . ربما انخلعت قرميدة من حواف سطح المنزل . ربما ارتطامُ طائرٍ بالنافذة الوحيدة الغربية للردهة ، وهو ما يحدث مراراً للطيور تخال الزجاجَ المزدوج فراغاً بانعكاس الضوء عليه ، أو فضاءً يمكن عبوره .

سمعت ، بعد قليل ، صوتَ كسْرٍ آخر ، أقوى ، أو ما خلْته كَسْراً له دوي . لم أستطع تخمين جهة الصوت مُذ وزَّعته الريح مموَّهَ المصدر ، دائراً من حول البيت .

تفحصت الأرض القريبة من نافذة المَشْغل . انتقلتُ إلى نافذة المطبخ . ثم النافذة الخلفية الوحيدة للردهة ، المطلة على عراء يمتد غرب البيت حتى الطريق الواسعة ، الواصلة بين العاصمة والضواحي .

لا شيء خلا ورق شجر يتطاير . لا أثر لقرميد منهار . لا سقوط لمواسير الميازيب . لا خبطة من طائر على الزجاج تُسقِطُه صريعاً لثوانٍ ، في العادة ، قبل أن يستفيق مذعوراً .

عدتُ إلى المطبخ لأعبر الباب بينه وبين المشغل . لمحتُ رجلاً قادماً من جهة الشجر الدغل مهرولاً ، يحمل بندقية صيد .

إجراءات ترخيص للصيد في أمكنة معلومة ، ومواسم معلومة ، مكلفةٌ ، وكذلك ترخيص البنادق بأنواعها ، من ذوات الطلقات

المُصْمَتة لصيد الغزلان، وذواتِ الطلقات المتشظية الكُرات لصيد الطيور. لكنَّ للبعض هوايته التي لا تُردُّ رغبتُها. فهل أضلَّ الرجل السّتيني، الذي لمحتُه، الطريقَ إلى معاقل الصيد المسموح ليسلك الطريقَ إلى المكان المحظور على صيدٍ؟ هذا المكان ليس محظوراً على الصيادين فحسبُ، بل غير مسموحٍ فيه أن يُشْتَم طائرٌ، او أرنب، أو غزال.

كان الرجل الأشعث الشعر الأبيض في قميص لا يصلح للخريف، في الأرجح. ربما هبَّ على عجلٍ ليطارد شبح حيوان، أو طير، خرج من حلم ليلِه في صيد. بدا متوتراً، مدركاً ـ بالتأكيد ـ أنه يخرق القانون خرقاً لن يحسده كائنٌ عليه. توجَّه إلى سور القصب، الذي تنتهي حافته إلى الجزء الصغير من الضفة المكشوفة عاريةً من القصب.

توتَّر سربُ البط والإوز الملتمُّ. هرع الواقفُ من الطيور إلى الماء، ووقف الجاثم منها مبغوتاً قبل الهرع هرباً من الرجل الهائج، الذي أسقط الطلقتين الفارغتين من بندقيته، وحشاها طلقتين جديدتين.

ذلك الكَسْر، أو ماخلْتُه كسراً، كان دويَّ طلقتين من البندقية. وقد عَرَاني توجُّسٌ من مشهد الرجل، قياساً إلى أخبار يفقد فيها البعض توازن الحقائق فتفقد الحياةُ توازنَها:

لطالما خرجَ شبانٌ مراهقون، أو رجال بالغون، بأسلحة إلى المدارس، أو المتاجر، أو الأسواق، فأفرغوا طلقاتها عشواءَ في الأجساد، قَدْرَ ما تستطيع الطلقات أن تحصد بمناجل نيرانها.

لطالما انبرى قادمون من مسالخ مُعتقَداتهم أجازوا إباحةَ الموت باسم الرب، نيابةً عن أقداره، فمرَّغوا تاريخَ إيمانهم بالجثث.

لطالما نهض مهووسون بتعجيل القيامة السماوية كفراً بالأرض،

ومن عليها ، فعجَّلوا بالنكبات للأبرياء .

أكان حامل البندقية يطارد إنساناً لجأ إلى دغل القصب؟ فكرت أن أتصل بالشرطة ، ثم تريثتُ مذ بدأ الرجل يتفحص فجوة صغيرة في القصب لا أظنها أثراً من عبور شخص هارب . ولو كانَ ثمَّتَ من شخص هارب لسمعتُ ، ربما ، استغاثته مستنجداً ، طالما في وسع هارب مذعور أن يتجه إلى أحد البيوت ، المتناثرة حول البحيرة .

تراكمت الأسئلة مسقسقةً كالعصافير على غصن خيالي . تراشقت الأسئلة بسهام كُثر لا تصيب .

انتصب الرجل بعدً انحناءة تفحَّص فيها آثاراً بين القصب . بدا أقلّ هياجاً مما رأيته للوهلة الأولى مهرولاً من جهة الدغل . بل بدا كالمتفكر في الموقف المُرْبك بسلاح صيد في يديه حيث الكلفة لا يتصوَّرها إنْ ضُبِط .

تراجع عن سور القصب بوجه أداره على الأنحاء . تراجعَ متمهلاً ، موزِّعَ الحركة بين تصحيح خطَئِه أو الإمعان فيه ، يخفق قميصُه منتفخاً من جهة الظهر ، ويلتصق بصدره من أمام .

نفرت هرة سوداء ، ببياض على عنقها ، بغتةً ، منقذفة من بين القصب .

سدَّد الرجل إليها طلقة عجولةَ التسديد فاخطأها .

ركض من خلفها متهيئاً لإطلاق النار ثانيةً .

هربت الهرة ركضاً عنيفاً ، متعرِّجاً . اتجهتْ إلى حديقة بيتي ، ثم انعطفتْ صوب اللسان الصخر الممتد إلى الشاطئ .

حاصرها الرجل مُذ أجَّل الطلقة كي لا يصيب موضعاً من زوايا البيت .

اندفعت الهرة صوب الجزء العاري من القصب في نهاية الـ...
الصخر .

تعمَّد الرجل ركضاً متعرجاً كي يمنعها من دخول سور القصـ...
فتبقى مكشوفةً لطلقته .

على نحوٍ يائس ألقت الهرة بنفسها في الماء . سبحت سبا...
بطيئة ، متعثرة ، تعلو وتهبط على السطح المضطرب .

وقف الرجل على الشاطئ ثابتاً ، متأنِّياً في التصويب ، واثقاً أنه ...
يخطئ ، بالرغم من التماوج العنيف لسطح المياه .

دوَّتِ الطلقة .

طفتِ الهرة مقتولةً في الزبد أحمرَ أحاطَ بها منخفضاً ليرميها ...
الشاطئ .

أنزل الرجل يده اليسرى بالبندقية هادئاً . أدارَ وجهه على الجها...
يرصد إن كان قد شُوهد . عاد أدراجه ماشياً من الجانب الشمالي...
للحديقة . ألقى نظرة على منزلي ، فتوقف .

لمحني الرجل راصداً من نافذة المطبخ مشهد القتل . جمـ...
موضعه . أطرق كالمستنجد بعُذر لا جدوى من أن يُعذر عليه . تقدم...
صوب النافذة فاتحاً ذراعيه بارتخاء فيه توسُّل أن أفهمه ، حتى من ...
تقديمه تبريراً منطوقاً .

حدَّق إليَّ إذ بات على خطوتين من النافذة ، التي فتحتها صامـ...
مترقباً ، متفحصاً سحنتَه الهادئة .

«لم تُبقِ هذه الهرة في حديقتي عصفوراً» ، بادرني الرجل ...
العينين الحمراوين في بياضهما المحيط بزرقتهما . أردف : «أنذر...
أصحابها ألف مرة أنني لن أسكت عما تفعله الهرة ، وقد سكتُّ إلـ...

الهوم» . صرَّ على أسنانه : «قلتُ لهم أتجوِّعون هرتكم؟ ألا تشترون لها طعاماً؟» .

أبقى بصَره مسدِّداً عليَّ يستقرئ وجهي ، فبقيت ملامحي صامتة كلساني .

«إنها تكمن للطيور فوق شجرات الحديقة» ، قال الرجل مسترسلاً في عروض تبريره . «أشتري البزور ، والخبز للطيور» ، أضافَ . هز رأسه استنكاراً : «أبدو كشريك للهرة في جرائمها . أضع البزور والخبز للطيور تحت الأشجار ، فتأتي الهرة فتصيدها» . تمتم : «أحب الطيور . أرصدها من نافذة مثل نافذتك» . عضَّ على كلماته : «إنها تسليتي الوحيدة» .

«الطيور؟» ، تساءلتُ بصوت خفيض .

«مراقبة الطيور» ، رد الرجل . «أعيش وحيداً» .

نقلتُ بصري من وجهه إلى البندقية ذات الماسورة المزدوجة في يده اليسرى ، فنقل هو بصره عن وجهي إلى بندقيته :

- أنا صياد .

«من تحب أكثر : الطيور في حديقتك ، أمِ التي تتصيدها؟» ، سألته ، فبدا متفاجئاً . ابتسم :

- لم أفكر بهذا قبلاً .

«ها أنا سألتك» ، عقَّبت على رده .

«أظنني أحب الطيور التي في حديقتي ، والتي أتصيدها ، بالقدْر ذاته» ، رد مبتسماً . تلفَّت من حوله يستجلي إن كان قد لوحظ من احد آخر سواي .

بسطتُ سؤالاً جديداً مستخرَجاً من إناء السؤال الأول :

- ما البرهة الأكثر إثارة ؛ أهي البرهة التي تأكل الطيور من بزورك

وخبزك ، أم برهة إطلاق النار على طائر؟

«برهةُ مراقبة الطيور في الحديقة طويلةٌ ، متراخية . أما برهة إطلا

النار فمتوترة ، خاطفة» ، رد الصياد .

«منذ متى تصطاد؟» ، سألته ، فردَّ :

- مذ كنت في الحادية والعشرين .

«ماذا تصيد عادةً؟» ، سألته فرد :

- البط ، والقَبَج ، والأرانب .

«ماذا عن الأيائل ، والغزلان؟» ، سألته ، فرد :

«لم أمتلك بندقية صيد الرَّنة والأيائل . اكتفيتُ بهذه» ، و

مشيراً إلى البندقية ذات الطلقات المتشظية ، المحشوة بكرات صغيرة

الحديد . «أفضِّل صيدَ الطرائد الصغيرة ، القريبة أهدافاً . الطرائد الك

تحوجها ملاحقات مسرفة طولاً ، وبنادق بمناظير ، وشركاء في المراف

إنها حفلاتٌ وليست صيداً» .

«ربما يكون لصائدي الغزلان ، والأيائل ، رأي آخر» ، عقَّبت علي

قال .

«نحن على اختلاف في حبنا لطرائق الصيد ، كالاختلاف

حبي بين طيور حديقتي وطيور الصيد» ، رد الرجل .

«أأنت ماهر في الصيد؟» ، سألته ، فرد :

- أنا جيد .

«كيف نجت الهرة منك ثلاث مرات؟» ، سألته ، فرد :

- غضبي ، والريحُ ، أنجدا الهرة ثلاث مرات .

«ألم يرك أحد في الطريق وأنت تطاردها؟» ، سألته ، فرد :

- لا أعرف . الغضب أعماني .

«ألن تدفنها؟» ، أشرت بيدي إلى جثة الهرة مقذوفة إلى اللسان الصخر من الشاطئ .

«أووه» ، غمغم الرجل مستدركاً . «لن أشوِّه عليك مشهد الضفة . سأدفن الهرة» .

«ألن يتساءل أصحابها عن غيابها؟» ، سألت .

«فليتساءلوا» ، رد .

«قد يتهمونك مادمت هدَّدتهم مراراً» ، قلت .

«فليتهموني» ، رد .

«كيف ستعود إلى البيت ببندقية في يدك؟» ، سألته ، فرد :

- مثلما خرجتُ بها سأعود بها . أمْ أرميها؟ .

«أنت مكشوف جداً» ، قلت بنبرٍ لا أسف فيه ، فتمعَّن الرجل فيَّ تحديقاً :

- أستتصل بالشرطة؟ .

بعد أكثر من ثلاثمائة ألف قتيل ، حتى يومي ، أيها الصياد ، ومئات الآلاف من السجناء ، والمفقودين ، وملايين النازحين ، واللاجئين هرباً من المجازر ، في بلدي ، لم يتصل أحد بشرطة النجدة . لن أقول ذلك له . لن أقول ما عَبَر خيالي في اللحظة المستريحة بين نطقه بالكلمات وإصغائي إليه .

لم يكن سؤاله مرتجلاً ، بل مسبوكاً على مقاس علمه بالقوانين : للهرة حقُّها في الصيد بلا ترخيص مُذْ هي حيوان ، كحقه هو في الصيد بترخيص . ما خطر ببالي ، في اللحظة المسترخية ، من أرقام الإحصاءات الدموية السريعة النمو ، كان مرتجلاً ، في الأرجح ، كالشعوب المرتجَلة في العالم الذي هناك ، والدول المرتجَلة ، والتاريخ

المرتجل ، والأخـلاق المرتجلة ، والقـتل المرتجل ، والمذابح المرتَجلة ، والحـ ا
المرتجلة ، والأرواح المرتجلة .

لا شيء يحتاج إلى ترخيص في الشرق الذي جئت منه :

تمزيق الشعوب لا يحتاج إلى ترخيص .

تهشيم الدول لا يحتاج إلى ترخيص .

طحْن التاريخ لا يحتاج إلى ترخيص .

معْسُ الأخلاق بالأحذية العسكرية لا يحتاج إلى ترخيص .

الترويج للمذابح لا يحتاج إلى ترخيص .

نثْرُ القتل كالبذار في الأرض لا يحتاج إلى ترخيص .

تمريغ الحياة في اللا معنى لا يحتاج إلى ترخيص .

أمَّا نهْبُ الأرواح ، قبل الموت وبعده ، فهو من عادات التنشئة ...
المعتقَدات .

«لا . لن أتصل بالشرطة» ، أجبتُ الرجل .

ابتسم . مدَّ إليَّ بندقيته :

- احفظْها لي عندك .

«ماذا؟» ، تساءلتُ بنبرٍ مستنكرٍ .

تمطَّت ابتسامته أكثر . عقَّبَ على استنكاري المستغرِب :

- أنا أمزح .

تراجعتُ عن النافذة مشيراً برأسي إلى ضفة البحيرة أذكِّره بجـ...
الهرة ، فردَّ بإيماءةٍ أنه لن ينسى .

أغلقتُ النافذة ، فيما اتجه الصياد إلى البحيرة . رنَّ الهاتف .

توجهتُ ، في بطءٍ ، إلى ردهة البيت حيث الهاتف الأرضي . ...
ترددتُ ، في نهاري العاصف ، أن أرد على المتصل .

أعماقي راكدة جداً ؛ لا ريحٍ فيها ، لا هواء ، لا نسائم . نظرت إلى الالة ذات الرنين اللحوح ، المذكِّر في عنادٍ أن الحياةَ صوتٌ . رفعتُ السمّاعة متثاقلاً إلى أذني .

«هه» ، تمتمتُ .

«أكنتَ مختبئاً؟» ، تساءل محدِّثي .

«ليس بعد . لماذا عليَّ أن أختبئ ، يا خَاتْشِيْك؟» ، سألت صديقي الرسام الأرمني ، ابن مدينتي في سوريا .

«عليك أن تتدبَّر ملجأً» ، رد خاتشيك .

«لماذا؟» ، تساءلتُ ، فرد :

- لتنجو من الذبح ، يا سارات .

«لم أفهم ، يا خاتشيك» ، عقبتُ على توضيحه غير الواضح .

«انتظرْ لحظة» ، قال خاتشيك . انصرف بصوته إلى شخص مَّا كلمه لثوان ، ثم عاد إليَّ بصوته ثانيةً :

- أما زلتَ معي ، يا سارات؟ .

«لم أغادر إلى أرمينيا بعد» ، أجبت مازحاً .

«لا مكانَ آمناً» ، قال خاتشيك .

«ما بك ، يا خاتشيك ، تكلمني عن المخابئ ، والملاجئ؟ هل طوَّق العثمانيون فنلندا؟» ، سألت صديقي القديم ، الذي لم يبعد بيت أهله عن بيتنا ، في قامشلو ، أكثر من ثمانمائة متر . هاجر هو إلى فنلندا ، وهاجرتُ إلى السويد ، قبل إكمال الدراسة الثانوية . كلٌّ منا تدبَّر مغامرةً لعبور أوروبا بجواز سفر لبناني مزوَّر ، حالماً بفتوحٍ من اللون في لوحات يعرف الغربيُّ كيف يزن مقاديرَ الجسارة فيها .

كان خاتشيك أكثرَ تمكُّناً مني في تحديد الأشكال ، ورسم الوجوه ،

وحصْر الطبيعة منقولةً بحِذْق . لكنني كنتُ أكثر شغفاً بالمغامرة ، والمقامرة ، بلا تردد في اقتحام الموضوعات .

سلك بي اللَّهفُ إلى جمال الأجساد والوجوه صوب السويد . ما من مراهق شرقي إلاَّ استهواه فردوس الشقرة السويدية ، واختباء السماء زرقةً في عيون النساء . أمَّا خاتشيك فأكمل طريقه من السويد إلى فنلندا الغريبة اللغة بحروفها المتكررة في الكلمات المكتوبة رصْفاً كالفِقَرات العظم في ظهر الإنسان . لقد سبقه إلى هناك خاله منذ زمن . وقد أغواه هذا الخال بوعود لا أعرفها فاجتذبَه إلى سواحل خليج بوتْنيا ، على الجهة الشرق من بحر البلطيق .

«خاتشيك» ، رددتُ اسمَه بعد ذكْر العثمانيين ، فأجابني :

– هم يطوِّقون السويد . لكن لن يجتازوها إلى برد فنلندا .

«كيف الرسم؟» ، سألته ، فرد :

– كيف الملاجئ؟ .

«هل خطط الإيرانيون لتدمير أوروبا بالقنابل النووية؟» ، سألته ، فرد على مزاحي بشكل ملتبس :

– لم نعد نعرف ، في أوروبا العليا والسفلى ، أيُّ وجه شرقيٍّ أدْعى للثقة؟ صرنا في حالِ حذرٍ من الوجوه الشرقية ، يا سارات .

«عليك قراءة كُتُب في عِلْم الفراسة» ، قلتُ .

«فراسة؟!» ، تساءل خاتشيك . «لا يحتاج الأمر إلى فراسة بعد اليوم ، يا سارات . المسلمون ، في كل مكان من الغرب ، يحملون المساجد على أكتافهم ، وبُسُطَ الصلوات في جيوبهم» .

«أتتهيأ لرسم المسلمين هكذا ، يا خاتشيك؟» ، سألته ، فرد :

– سأرسم أطفالاً بلحىً يحملون السكاكين في الحدائق العامة

«عليك بقراءة كتب في علم الفراسة ، يا خاتشيك» ، كررتُ اقتراحي ، فردَّ :

– خذْها مني ، يا سارات : إن وجدتَ شرقيين من حولك ، بعيون خالية من أي شيء ، تنظر ولا تنظر ؛ ترى ولا ترى ؛ لا شيء فيها على الإطلاق ، فهي عيون متهيئة كي تنفجر .

«عيون تنفجر؟!» ، تساءلتُ ، فردَّ خاتشيك :

– ينفجر أصحابها . تنفجر أجسادهم . تعلَّمْ ذلك ، يا سارات .

«أنت تبالغ ، يا خاتشيك» ، قلت ، فرد صديقي الأرمني القديم :

– ألا تسمع بمتفرِّعات الجهاد باتت أكثر سعة من المعاجم؟ جهاد الفُروج . جهاد النكاح . جهاد الذبح . جهاد المَواقع على الإنترنت . جهاد الرسائل الألكترونية . جهاد الصوت . جهاد الكِتاب . جهاد الظل . جهاد الحيلة . جهاد الخوف . جهاد الترهيب . جهاد الكراهية . جهاد الهمبرغر . جهاد التوابل . جهاد النفاق . جهاد القَدَم . جهاد اليد . جهاد النظر . جهاد اللسان . جهاد النوم . جهاد الإغراء والإغواء . جهاد الهاتف . جهاد البكتريا .

«ما جِهادُ البكتيريا؟» ، سألتُ خاتشيك ، فردَّ :

– هناك طبقة متخصصة من الجهاديين في أوروبا بالتسبُّب لأنفسهم بأمراضٍ مُعْدية ، يبتكرون الطرائق لنقلها إلى الناس . وهذه الطبقة تسعى بكلٍّ الطرق إلى إيجاد أعمال لها في الأفران ، ومطابخ المطاعم ، ومتاجر الأطعمة ، والمقاهي ، والحانات .

«أأنت رسام ، يا خاتشيك ، أم خبير في معجم الجهاد ومذاهبه؟» ، سألته ، فرد بلكنة عربية من شمال سوريا :

- إختصاصيَ الجديدُ هو الحذر من أعين الشرقيين ، والحذر ..
وجوههم ، والحذر من اللغات .

«هاجسك من الدرجة الحمراء اليوم ، يا خاتشيك» ، عقَّبتُ عا..
كلامه .

«ماذا عن هواجسك؟ في أية درجة هي؟» سألني خاتشيك .
فأجبته :

- لاأعرف بعد . لكنها تتقدم وتتراجع .

«ماذا عن اليوم؟» ، سألني ، فأجبته بسؤالٍ مستفهِمٍ :

- اليوم؟ .

«هل تدبَّرتَ ملجأً؟» ، سألني خاتشيك .

«لماذا الملجأ؟» ، تساءلت .

«الملجأ من الذبح» ، رد خاتشيك . أضاف : «الحياة عندكم ..
تكون بعد الرسائل مثلها قبل الرسائل» .

«رسائل؟ ماذا تعني؟» ، تساءلتُ ، فردَّ في زفرةٍ :

- أين أنت؟ .

«أين أنا؟ في مَشْغلي» ، أجبته . استدركت : «أنا في ردهة
البيت» .

«في أي بلد أنت؟» ، سألني خاتشيك بنبرٍ سخرية .

«أتمازحني؟» ، أجبته . «إن لم أكن في أرمينيا فأين أكون؟» .

«لن تكون في كردستان طبعاً ، بل في السويد» ، ردَّ خاتشيك .

«حزرتَ أيها الأرمني» ، عقَّبتُ على قوله .

تنهَّد خاتشيك . صمتَ لحظةً كأنما يدقق في شيء مَّا . سأل..
متشكِّكاً :

- هل بلغتْكَ أخبارٌ عن بلدك السويد اليوم؟ .

«لا أخبار في السويد عن السويد» ، أجبته .

«ألك اتصال بالعالم من جُحْرٍ مَّا ، أو من ثقبٍ مَّا ، يا سارات؟ أتسمع؟ أترى؟» ، سألني ، فأجبتُ :

- أسمع الريح ، وأرى بحيرة أودن .

«وماذا غيرهما؟» ، سألني ، فأجبتُ :

- أرى بياض قماش لا أعرف ماذا أفعل به .

«استطلعْ أخبار بلدك السويد على الإنترنت ، يا سارات ، وليس على مياه البحيرة ، أو في بياض القماش» ، عقَّب خاتشيك .

«أتحاول تذكيري بشيء؟ ماذا في السويد؟» ، تساءلت ، فرد صديقي القديم بزفرة طويلة :

- يا للمعجزة . السكين على عنقك .

«أتعني سكيناً من تلك التي ترسم أطفالاً مسلمين يحملونها في حدائق فنلندا؟» ، تساءلتُ .

«مجازر باريس قادمة إليكم ، يا سارات؟» ، عقَّب خاتشيك على مزاحي . شتم أمكنةً من أقاليم الأرض قبل أن يضيف : «أحس أنني أكلِّم شخصاً في صحراء العقبة» .

«أطمئنك أنني لستُ تائهاً في صحراء ، بل في جبل» ، قلت .

«أين؟» ، سألني ، فأجبت :

- جبل سنجار .

«سنجار؟» ، تساءل خاتشيك ، فأكَّدتُ :

- جبل سنجار ، في العراق .

«بحقِّ الجليد عليك أسمعت أخباراً عن الرسائل؟» ، سألني

خاتشيك متذمراً مما ظنَّه تجاهلاً مقصوداً مني .

«الرسائل؟ أية رسائل؟» ، تساءلت ، فتصنَّع عضًا على نواجذه :

- الرسائل في صناديق بريد السويديين ، يا سويدي .

«ما أخبار الرسائل في صناديق السويديين؟ أتدخل الأخبار صناديق البريد؟» ، تساءلت في لعب بالكلمات كي أستثيره .

«أأنت سكران؟» ، سألني خاتشيك .

«أقسم بريح هذا اليوم أنني لم أذق قطرة كحول بعد» ، أجبته .

«لماذا تُقْسِم بالريح؟» ، سألني .

«الريح غاضبة اليوم ، يا خاتشيك ، أكثر من كاليغولا» ، أجبته .

«مَنْ؟» ، تساءل فأجبته :

- الوليُّ الفقيه في زمنه كاليغولا الرائع .

«مَنْ؟» ، كرر سؤاله ، فأجبتُ :

- الإمبراطور الذي عيَّن حصانه عضواً في مجلس شيوخ روما ، وقنصلاً فخرياً .

«لم أفهم» ، قال خاتشيك ، فأوضحتُ :

- القذافي . صدام حسين . أسد سوريا الخالد ، هم قناصل كاليغولا الفخريون في عالمنا .

«إلى أين تتدحرج؟» ، تساءل خاتشيك .

«أحاول ربط أمور التاريخ بعضها ببعض» ، قلت ، فغمغم صديقي الأرمني :

- لا تربط شيئاً بشيء . أهطل الثلج عندكم ، في السويد؟ .

«أرى الثلج يهطل في لوحة لم أرسمها بعد» ، أجبته . «لكن ليس في السويد» .

«ماذا في صندوق بريدك؟» ، سألني ، فأجبته بتلقائية :

- أأرسلتَ إليَّ شيئاً؟ .

«لا» ، قال خاتشيك متصنِّعاً نبرةَ صراخ . «أرسلتِ الجحيم إليك شيئاً» .

«اهدأْ» ، قلت ضاحكاً . «لم أتفقَّد الصندوق منذ البارحة» .

«تفقَّدْهُ» ، قال خاتشيك . «أولاد أعمامكم في الدولة الإسلامية ، الجهاديون ، ملأوا صناديق بريد السويديين ألغاماً» .

«ألغاماً ، أم همبرغر من صناعة مطاعم الخليفة أبي بكر البغدادي؟» ، تساءلتُ ممازحاً ، فردَّ :

- بالرسائل ، يا سارات . رسائل محشوَّة بتهديد ناعم كجلود المراهقات في السويد .

«منذ متى لكَ اختصاصٍ بجلود المراهقات في السويد ، يا خاتشيك؟» ، سألته ، فردَّ :

- منذ لم أعرف جلوداً غير جلودنا .

«أجلودنا خشنة ، يا خاتشيك؟» ، سألته ، فردَّ :

- لا ، يا سارات . هي ناعمة كالمخمل ، لكنَّ التاريخ الذي عليها هو دُهْنٌ حجريٌّ .

«ماذا في الرسائل ، يا خاتشيك؟ كيف عرفت بأمرها وأنت في المريخ؟» ، سألته ، فرد :

- لا أعرف من مِنا في المريخ . لكنْ تفقَّدْ صندوق بريدك ، وابحثْ عن ملجأ .

تفقَّدتُ صندوق البريد المعلَّق إلى عمود حديد لصق حافة الحديقة شرقاً ، بعد ثرثرة مستفيضة مع صديقي الرسام . كان الصندوق

فارغاً إلاَّ من ورقةٍ من شجر البتولا ، وأربعة أوراق صنوبر إبريَّة تسلَّلت إلى عمقه الخشبي .

غير أن صناديق كثيرة تلقَّت في عاصمة السويد وضواحيها ، بتوزيع خفيٍّ ، رسائل تهديد ممهورة بختم الوعيد المُتقن في التبشير بدولة الخلافة الإسلامية . كانت الجملة المسطَّرة على الأوراق مستعارة من شبح التاريخ الراقد تحت طين المياه في أرخبيل المملكة : «حمَّامُ دم ستوكهولم» .

أعادَ مريدٌ مفكِّر ، من المهاجرين المبايعين الخليفةَ البغدادي ، إلى ذاكرة السويديين قَبَساً من محفوظات القرن السادس عشر ـ محفوظات اللوعة : قوات من الدنمارك ذبحت جملةً من نبلاء مملكة السويد دفعة واحدة ، في مجزرة لا يزيد من هولها ، أو ينتقص من هولها ، عددُ المذبوحين ، مُذ امتلأت أيامنا بمجازر تتلعثم الأرقامُ في نطق أسمائها .

المفكِّر الجهادي ، المهاجر بحثاً عن خبز لم يجده في مكان آخر ، تسلل إلى التاريخ لانتحال الأنسبِ مَقاساً على خياله ـ خيال السكين . لم يجد من السويد التي أكدتْ له حقوقَ يقينه ، وجسده ، ورزقه ، إلاَّ جرحاً سويديًا يَحزُّه بنصل جهاده .

هي موهبةٌ ، في الأرجح ، أن لا تعرف فِرَقٌ ، أو جماعات ، أو ذئاب متوحِّدة ، إلاَّ إحياءَ الألم دِيْناً ، وإحياء التكفير نبيًا للوعد بفردوس الوجودِ الألم . وقد تلقَّى سويديون ، في صناديق بريدهم ، مع الصحف المجانية للإعلانات عن ثياب الموسم ، والبضائع الأطعمة ، والأثاث الرخيص والنفيس ، إعلاناً مجانيًا هو الأول من نوعه ، لا يرقى شك إلى جودة تصميمه ، مؤكَّدَ المَنْشأ ، محفوظَ الحقوق ، موسوماً بعلامته المسجَّلة رسماً للسكين : «الذبح» .

إمَّا أن تُشهر السويد إسلامها أو «انتظروا حمَّامَ دم ستوكهولم» . لم يكن كاتبها همجيًا ، رثَّ التعبير في التكفير ، بل أَكاديميَّ المظهر في اختيار المخاطَبة اقتباساً من محفوظات التاريخ ، ومناهج وقائعه رخاءً أو قتلاً .

خرجت أشباح النبلاء السويديين ، في يومي العاصف ، من صناديق بريد السويديين إلى ردهات بيوتهم ، وإلى سطور الأخبار في صحفهم ، وإلى شاشات الصور الناطقة بشؤون العالم ـ أحوالِه وأهواله . وقد خرجتُ من البيت ، بدوري ، بعد استقاء بعض الوقائع على الإنترنت عن صحة التهديد ، متتبِّعاً خطى النبلاء والأشباح ، ذوي الأعناق المشقوقة ذبحاً ، تخفق ثيابي عليَّ خفْقاً عنيفاً ، متجهاً إلى مطعم في نواحي السوق : «ليكُنْ ، أيتها الريح . في التاريخ ، أبداً ، متَّسَعٌ للقتل» .

لم أستطع إشعال لفافة التبغ . اختبأت النار في جوف القداحة من تهديد الريح ووعيدها ، فاكتفيتُ ، في عبوري دغلَ الشجر ، بوقاية عيني من مقاذِف الأوراق الحاقدة في سقوطها من ممالكها الغصون ، وجمهورياتها الغصون ، وإماراتها الغصون ، وتواريخها الغصون العارمة بمحاصيل الموت خريفاً بعد خريف .

الظلال متخبطة في مسالك الأجمةِ الدغل ؛ متشققة ؛ متهارشة كضباع ؛ تتجوَّف وتنتفخ بالنظام الذي تمليه الريحُ عليها ، وبالفوضى التي تمليها شعاعات الشمس .

ماذا تفعل شمس في يوم عاصف ، ساطعة ، تشرق من الجنوب وتغيب في الشمال؟ لا معنى للسماء فوق الشمال في يوم يأكل فيه أطفالُ الريح إخوتهم نَهَماً ، في رضىً من أمهم الريح . ولا معنى ، في

الأرجح الأوسع، لاختياري يوماً كذاك تقودني فيه قدماي إلى مطعم. كان الأجدى أن أجلس أمام القماشة البيضاء، ملوِّحاً بسوط اللون للأشكال أنْ تنتظم في بزوغها عليَّ راضيةً مَرْضية .

في اقتدار ريح كريح يومي ذاك أن تبعثر خيالي أيضاً كورق الشجر تُبَعْثِرُهُ، وكالقصبِ تميل به راقِصاً في صَرَعه . لقد كنتُ مياهاً ذلك اليوم ـ هكذا أحسستُ، وكان عليَّ الخروج من البيت لأصير موجاً .

في ناحية من نهايات الدغل، قبل الوصول إلى روضة الأطفال في الحدود الأولى للمساكن، نفقٌ بطول سبعة أمتار، في كتلة من الصخر تذليلاً لعبور عربة البريد الصغيرة، والدراجات الهوائية . وأنا لا أنعطف للعبور فيه، عادةً، في ذهابي إلى السوق، لكنني انعطفت تلك الظهيرة العنيفة صخباً من عزيف الريح، وأناشيد الشجر المتألم الزئير .

على مرمى بصري، في أول انحداري خطواتٍ إلى الجوف الصخر الطويل، المضاء بمصباحين، كان عدنان واقفاً بكلابه الستة، محدِّقاً من بُعْده إليَّ .

فتحتُ ذراعيَّ، لا ترحيباً، بل استغراباً :

- أهذا كمينٌ؟ .

«أنا أنتظرك»، قال عدنان ذو السمرة الترابية .

«لا أعبر من هذا النفق عادةً»، قلت مقترباً منه على مهل .

«هذا الموضع أفضل من مسالك الغابة»، عقَّب عدنان بصوته الخشن النبرِ نُطقاً .

«أَفضَلَ من أجل ماذا؟»، تساءلتُ، فردَّ :

- كي نلتقي .

«ماذا لو لم أعبر من هنا؟ مَن كنتَ ستنتظر إذاً؟» ، سألته ، فأجاب :

- أنت .

أجَلتُ بصري على الستة الكلاب في مقاودِها متلامسةً لهواً . سألته :

- أفي يوم كهذا أيضاً؟ .

«ليت الأيام كلها عاصفةً ، يا سارات» ، رد عدنان .

«كنتَ ستجمع ثروة من أصحاب كلابك» ، عقَّبتُ ، فردَّ مُجيلاً بصره على الحيوانات :

- هؤلاء العبيد ليستْ كلابي .

لم أعقِّب على رده . سألته :

- كيف خمَّنتَ أنني سأعبر النفق؟ .

«الرصدُ من مهمة المجاهد» ، رد عدنان . أضافَ : «أخرجتُ أربعة وثلاثين منافقاً من جحورهم في الرقة : مدخنين ، لوطيين ، تاركي صلوات ، زناةً ، مهرِّبي تبغ في سيارات جند الخلافة» .

«أكنتَ ترصدني؟» ، سألته . رفعت يدي أستمهله في الرد . أخرجت لفافة تبغ متحيِّناً فرصة الوقوف في النفق . حميتُ شعلة القداحة براحتي وأشعلت اللفافة ، قبل الوثبة الثانية للريح عبرتِ النفقَ بالتواء ، واستدارة متكسِّرة .

نفثتُ الدخانَ في رضىً ، محدِّقاً إلى سائح الكلاب :

- اعتبرْني ، يا عدنان ، من مهرِّبي التبغ . ما قصاصي؟ .

«سأُعلمك بالقصاص في حينه» ، ردَّ عدنان ، فاستوضحته :

- ذكرت قائمة بجرائم من ضبطتَهم . أين المخدرات؟ .

«لا مخدرات في أرض سُلطة الخلافة» ، رد .

«واو» ، عقّبتُ متصنّعاً إعجاباً . تمتمتُ :

- ماذا عن حبوب الجهاد؟

«ماذا عنها؟» ، ردَّ بسؤال .

«هي مخدرات» ، قلت بإشارة واضحة إلى عقاقير يتناولها جنود دولة الخلافة في المعارك . حبوب لا تُسمع بعد تناولها ثرثراتُ الألم في الأجساد ، ويستكين الخوفُ مروَّضاً ، وتغدو البسالةُ جرعات من نوافير الحليب في الجنة .

توهمتُ أنني لمحتُ رأساً وراء الحافة الناتئة في نهاية النفق . بان لحظةً خاطفة ثم توارى . ربما ما لاحَ لي لم يكن إلاّ أضمومة من ورق الشجر المقذوف . أبعدتُ قدمي مُذ تشممني كلب بُتُّ أليف الرائحة في خطمه . كلَّمتُ عدنانَ من غير نظرٍ إليه :

- لماذا تنتظرني؟ .

أدار عدنان وجهه صوب نهاية النفق . نادى بصوت هادئ :

- أخي إحسان . لقد وصل سارات .

أدرت وجهي إلى نهاية النفق أيضاً . ظهر رجل أصلع ، متوسط الطول ، بدين ، بارز البطن تحت سترة سوداء مزرَّرة فوق بنطال بني واسع .

تقدَّم الرجل الأربعيني ، ذو اللحية المدبَّبة في وجهه المستدير الخالي من تعبير . هزَّ رأسه مسلِّماً بلا كلمات . توقَّف عن بُعد ثلاث خطوات منا . كلَّم صاحبَه ، مبقياً عليَّ عينيه البنيتين ، اللتين في يمناهما حول خفيف :

- أهذا هو؟ .

«هذا هو سارات» ، رد عدنان .

«مَن رفيقك ، يا عدنان؟» ، سألته ، فرد :

- الداعية إحسان مجاهد .

«داعية؟» ، تساءلت ، فأجابني الممسك بمقاوِد الستة الكلاب :

- من دعاة الدولة الإسلامية .

«ماذا يفعل في السويد؟ أسيبدأ بي؟» ، تساءلت بنبرٍ خافت السخرية ، فرد عدنان :

- ليس الآن . لكنه هنا لترسمه .

زفرتُ زفرة قصيرة مع الدخان نفثتُه ممزَّقاً بين شفرات الريح المنقذفة لحظة بعد لحظة إلى النفق . حدقتُ إلى الأصلع :

- أأنت أيضاً في محنة قبل السقوط في الجنة؟ .

غمغم الداعية مقطِّباً بين حاجبيه ، محدِّقاً إلى رفيقه :

- ماذا يعني بالسقوط في الجنة؟ .

غمغم عدنان بدوره ، غير متأكد مما عنيتُ . قال للداعية مشيراً برأسه إليَّ :

- اسألْ سارات .

«إنني أمشي على مهل في الطريق الصواب إلى الجنة . لا حافَّة أسقطُ منها . لا مهوى أسقط فيه» ، قال الداعية متجاهلاً النظر إليَّ . أضاف : «أنا في محنة . لكنها سهلة بإذن الله» .

أبعدتُ قدمي عن الكلاب حائمةً من حولي ، فشدَّ عدنان مقاودها . تساءلتُ :

- ما مشكلتكم ، يا ناس الخلافة؟ .

«لا مشكلة» ، ردَّ الداعية مبقياً بصره على رفيقه .

«أأنت ميت أيضاً ، ياسيد إحسان؟» ، سألتُ الداعية ، فردَّ :

- ماذا؟ .

«رفيقك عدنان ميت في محنة . وأنت في محنة . أنت ميت إذاً» ، قلتُ نظْماً للمنطق غير مضبوط .

قرَّب الداعية فمه من أذن عدنان . هامسه ، ثم ابتعد مشمئزاً من لمس كلب لبنطاله .

قرَّبت نفسي أيضاً من عدنان . سألته :

- ما الذي أسرَّ به الداعية إليك؟ .

«أن ترسمه بشَعر على رأسه» ، رد عدنان

سدَّدت الريحُ ، خلسةً ، كُرات منجنيقها إلى عمق النفق القصير . تماوجت ثيابنا . سدَّدتُ سؤالاً آخر إلى الداعية :

- أأنت مقيم في السويد ، أم ظهرتَ فيها؟ .

«أين؟» ، تساءل الداعية ، موجهاً بصره إلى رفيقه كأنه هو الذي خاطبه ، فأجبته :

- السويد . هنا .

أبدى الداعية دَهَشاً من عينه اليمنى الحولاء . فلم أفهم لماذا فوجئ . اقترب من رفيقه عدنان سأله :

- ماذا يعني؟ .

ظل عدنان صامتاً ، فاستثقلتُ ذلك :

- لماذا يتصنَّع السيد إحسان دهشةً من أنه في السويد؟ .

«ليس للأمكنة عنده إلاَّ الأسماء التي أوجبها الشرعُ للأمكنة» ، ردَّ عدنان .

«ما هو الإسم الذي أوجَبَه الشرعُ للسويد؟» ، تساءلتُ محدِّقاً إلى

الداعية ، الذي ردَّ على النحو ذاته متوجهاً بعينيه إلى رفيقه وليس إليَّ :

– ما هذه السويد؟ أين أنا؟ .

ابتسمتُ ممسِّداً على شاربي المعقوف بأنامل يدي اليسرى . عقَّبتُ على تساؤله البادي بلا مذاق :

– ربما لم تصل ، يا إحساً ان ، إلى السويد بعد . أنت في محطة ضائعة بين الأمكنة .

«لا . لقد وصل» ، ردَّ عدنان .

أدخلتُ يدي اليمنى في جيب بنطالي متلهياً بلمس مفتاح البيت . سألتُ مسوِّحَ الكلاب :

– أهو مقتول إعداماً مثلك ، يا عدنان؟ .

نظر عدنان إلى الداعية متأملاً . ردَّ بصوت مهموس :

– اسألْه .

انتظرتُ للحظة جواباً من الأصلع ذي اللحية المدبَّبة ، فلم يرد . نقلتُ بصري إلى مخرج النفق متأملاً زوابع الورق تتسرب إلى عمقه لاهثةً ، متعَبة . عشبٌ طويل السيقان قرع بأوراقه المحتضرة على جنبات مخرج النفق الصخر الطبيعي نافراً في ملاطٍ من الإسمنت .

رياحٌ على جهتيِّ النفق . رياحٌ في السماء الأبعد التي نحن منها ، بين أنظمة مأزقَ للحياة ضمْنَ حدود ، وبين دعاة بارعين في جعْلِ المعتَقَد مأزقاً بلا حدود .

أعدتُ بصري إلى إحسان . سألته :

– أجئتني بمأزق معك؟ .

حدق الداعية إلى رفيقه . سأله :

- ماذا يعني؟ .

لم أنتظر رداً من عدنان . أجبتهُ :

- أعني : أمعك مأزقٌ مَّا تحمله إليَّ؟ .

تفحَّص الداعية يديه ، وثيابه ، كالمتفقِّد شيئاً نسي موضعه . غمغم :

- ما من شيء أحمله إليك .

«هذا هو المأزق» ، عقَّبتُ على ردِّه . أضفتُ : «سأرسم المأزقَ إنْ رسمتُ» . تفحَّصتُه : «لماذ ليس لك ، وأنت داعية ، لقبٌ مستعار من أجلاَّء التاريخ؟» . أومأتُ إلى عدنان : «لقبُه أبو دحية ، الصحابي» .

«أنا غارُ حِراء» ، قاطعني الداعية متوجهاً ببصره الأحول إلى رفيقه .

«غار حِراء؟!!» ، تساءلتُ مستغرباً . «هذه كِنْية من طرائف الكِنى» ، قلت .

«لا ظريفَ . لا طريفَ» ، غمغم الداعية . «لقبي الحقُّ هو الغار في الجبل الذي آوى نبيَّ الهدى ورفيقه أبا بكر الصديق مهاجريْنِ من مكة» .

«غارُ حِراء» ، أعدتُ لفظ الإسم مستذكِراً جلالَ مقام الغار والجبل مكانيْنِ في السِّيَر . غارٌ آوى نبي الإسلام هارباً من مطارديه ، فعجَّلتْ عنكبوتٌ في بَسْطِ هَلَلِها على مدخله ، وانبرتْ حمامة فباضت أسفل الهَلَل ورقدت .

تمويهُ المعجزات إتقاناً لا يُرَدُّ : هَلَلُ العنكبوت سيُمزَّق ويُخرق إن اجتازَ أحدٌ باب الغار ، وسيُمعَسُ البيضُ أو تنذعر الحمامة الراقدة . مطاردو النبي رأوا الهَلَلَ صحيحَ النَّسج ، ورأوا الحمامة آمنة ، فلم

يخامرهم شكٌّ في خلوِّ الغار من لاجيءٍ إليه ، أو متوارٍ فيه .

«ما حكمك كداعية في الحمامة التي باضت على باب الغار ورقدت على بيضها؟» ، سألتُ إحسان مجاهد .

«هي حمامة الجهاد القديم» ، رد الداعية .

«وما حكمك في العنكبوت التي سدَّت باب الغار بنسْجها؟» ، سألته ، فردَّ :

- تستأهل موضعاً في الجنة ، ويكون هللُها من الخيوط العسل .

«غارُ حراء كلقبٍ كُلفةٌ في المخاطبة . بحق الله عليك دعني أخاطبك باسمك إحسانٌ» ، قلت متصنِّعاً إرهاقاً ،فرد :

- أمَّا وقد وضعتَ عليَّ حقَّ الله ، فخاطِبْني بأيِّ إسم تشاء .

«من أين أنت؟ .» ، سألت الداعية ، فرد :

- من مدينة أبو كمال .

«بِمَ تتميز مدينتك عن مدن سوريا؟» ، سألته ، فرد بصوت عميق ، متأنٍّ :

- هي من مدن الطاعة الآن .

الأتراك هم من شيدوا مدينة الداعية على التَّخْم المتداخل بين سوريا والعراق اليوم ، على القرب من أنقاضٍ آثار لها ذاكرة القِدم ، تحوي مدافن من الرقم الثاني والثالث لحسابٍ القرون الميلادية . «أبو جلال» هو لقب الأنقاض من الآثار . لا سِمةَ للجلال في الأنقاض ، لكنْ سُمِّيت باسم يجاهدُ أن يُقْنع . والداعية ، بالطبع ، لن يقتنع بجلال لأنقاض ، أو أرض ، أو قرية ، أو مدينة ، لم ترشدها مصادفاتُ الله بعدُ إلى إعلانٍ الطاعة لخليفة القرن الحادي والعشرين .

أبو كمال من مدن الطاعة ؛ من مدن الولاء للعَلَم الأسود مهدِّداً

بالحروف البياض عليه أنْ لا كلمةَ إلاَّ التسليم .

قرَّبتُ وجهي ، بتسليمٍ في عيني للمصادفة أتتني بداعية إلى نفق ، في يوم عاصف :

- أأعدْدًتَ بعضاً من تلك الرسائل التي في بريد أهل السويد؟ .

«مَنْ؟» ، تساءل إحسان مضيِّقاً بين جفني عُينه اليمنى الحولاء .

«الشعب السويدي» ، قلت .

أدار الداعية وجهه صوب رفيقه . سأل بنبرٍ متحيِّر قليلاً :

- ما السويد؟ ما البريد ، والرسائل؟

رنَّ صدىً متلاطم على جدران النفق حين دخله صبيَّانِ لاهييْن بكرة قدم خبطها أحدهما بالأرض ، ثم ركلها الآخر إلى السقف الإسمنت .

لم يعيرانا انتباهاً . تجاهلانا . كانا سعيدين بالصدى لم تستطع الريحُ انتقاصاً من رنينه . هما ، في الأرجح ، من مدرسة قريبة يشرد الأطفال منها في سكك الغابة أحياناً بلا ابتعاد ، وفي السكك إلى السوق ، في الدقائق الممنوحة لهم راحةً بين درس ودرس . وهما ، قَطْعاً اختارا النفقَ متلهِّيين بالصدى تحديداً ، لا بالكُرة التي لا متَّسع لحرية إيمانها في مكان ضيِّق كذاك ، بسبعة أمتار محصورة في الصخر والإسمنت .

تصارخَ الصبيَّانِ ليضيفا بُعداً آخر إلى صدى ارتطام الكرة بجدران النفق وسقفه . أصدرا من فميهما ، بوضع الأيدي عليهما ، أصواتاً موقَّعةً من موسيقى الرَّاب ، ثم دحرجا الكرة إلى خارج النفق بإحساسهما أن وقتَ سياحة قلبيهما في مسالك الصدى قد استُنْفد . مضيا راكضين وراء الكرة ، التي خمَّنْتُ أنها ستنحرف ، في كلِّ

الهدف ، نصفَ دائرة بصدٍّ من الريح لها عن هدفها .

«أتحب كرة القدم ، يا إحسان؟» ، سألتُ الداعية .

لم يردَّ عليَّ . قرَّب فمه من أذن رفيقه فهامَسَه .

«أكلما سألته شيئاً يستشيرك الداعية ، يا عدنان؟» ، سألتُ مسوِّحَ الكلاب ، فرد :

- قال لي : ماغرض الرسام من سؤال كهذا؟ .

«أيريد سؤالاً أكثر فكاهةً؟ حسناً» ، قلت : «أسألكما معاً لِمَ تتجنبون الصدام مع جحافل الشيعة حشدتْهم إيران من أنحاء الأرض ضد السنَّة في سوريا؟» .

«نحاربهم في العراق» ، رد الداعية .

«تحاربهم حين يريدونك أن تحاربهم . ماذا عن سوريا؟» ، سألته .

«سترى» ، ردَّ عدنان نيابةً عن الداعية ، فأضاف الداعية كلمات إلى تهديد رفيقه :

- سنشوي السماء على الجمر .

«خذْ معك أسياخاً إيرانية ، أو روسية ، إذاً» ، قلت .

أصدر الداعية زفيراً . حوَّل عينيه ، من جديد ، إلى رفيقه :

- متى سيرسمنا؟ .

«أتريد شَعراً ، يا إحسان؟» ، سألتُ الداعية ملمِّحاً إلى صلعه ، وقد انتفَشَ شَعرٌ خشن نافر من أحفَّة قحفه العاري ، فوق أذنيه وقذاله .

«يريد شَعراً تامًّا ، أقلَّ خشونة» ، ردَّ عدنان نيابةً عن الداعية .

«أتجدان حلاَّقين هنا من صنْفِ حلاَّقي دولة الخلافة؟» ، سألتهما ، فردَّ الداعية ببصره على رفيقه :

- نحن نتولى الحلاقة لأنفسنا .

«مـا أحكامك في طُرُز حـلاقـة الشـعـر ، يا إحـسـان؟» ، سـأل ، الداعية .

«إكرام الشعر . كل شعرة تسبيحٌ» ، رد الداعية .

«والشارب؟» ، تساءلتُ .

«نهينه على سُنَّة النبي الأعظم . والحُكم هنا متعلِّق بنظافة الشفة العليا» ، ردَّ عدنان .

«مـاذا لو رسمتُك بشـاربين كـشـاربي الأيزيدي يتركـهـما حرّين ، طويلين ، مفتولين؟» ، تسـاءلت ، فاصدر زمجرةً لجم نصفها في باطن حنجرته استنكاراً .

«أأخذتم معكم حـلاَّقين إلى سنجار ، يا عدنان؟» ، سألتُ مسؤ الكلاب ساخراً .

«إلى سنجار؟» ، تمتم الداعية مستيقظ الخيال .

«أكنتَ في سنجار ، يا إحسان؟» ، سألتُ الداعية ، فردَّ عدنان :

- كانت جاريتُه من سنجار .

«أووه» ، عقَّبتُ محدِّقاً إلى عين الداعية الحولاء . نعم . هذا فر من هدايا السمـاء . دولة الخلافة هدية السمـاء للإيراني الفقيه المرشد إلى النَّكبـات ، وللروسي القـيـصـر ، وللحـاكم العلوي ، وللأمـريكي الكذاب حسين أوباما . كلٌّ منهم وجد في دولة الخلافة ما يخصُّه من تحالف الشيطان فيه مع الشيطان :

سنَّ الفـقيـه الإيراني تشريعاً يُجيز احـتسـاب المراقد الشـيعية مـسـتـوطَنات ٍله في سـوريا ، بزعم صـدِّ دولة الخـلافـة عن العـبث بالعظـام .

شرَّع الروسيُّ القيصر انتدابه على سوريا بزعم محاربة دولة الخلافة .

مزَّقَ الحاكمُ العلوي سوريا تدبيراً لمفاضلة بين بقائه حاكماً ، وبين وحش دولة الخلافة .

أمَّا هدية الأمريكي حسين أوباما من الدولة الإسلامية فكانت تُحفةً لم تتحسَّب لامتلاكها براعات التاريخ في الهذيان : إنها تُحفةُ الاقتدار على جعل اللاأخلاق طرازاً مُستَحبًا كالأخلاق نفسها في المفاضلات .

نبحت الكلاب دفعة واحدة ، في تواطؤ واضح ، تذكيراً بوجودها ، فبادلها الصدى في النفق نباحاً دائرياً . زمجر عدنان .

«ضجرتْ سباياك يا أبا دحية» ، قلت لمسوِّح الكلاب . حدَّقتُ إلى واحد منها تُركتْ غرَّته مسدلة على عينيه : «أيرى هذا الكلب طريقه؟» .

«يرى أفضل من غيره» ، رد عدنان .

نظرتُ إلى الداعية متسائلاً :

- أمعك مقص؟ .

«ماذا؟» ، رد الداعية بنبرٍ استفسارٍ واستنكار في صوته من مزاحي .

«فلْنتسلَّ بحلاقة شعر هذا الكلب» ، قلت ، فعقَّب عدنان :

- لن يسلمني أحدٌ كلباً بعد اليوم .

«ألا تحمل مقصًا؟» ، أعدتُ سؤالي الذي بلا طعم على الداعية .

قرَّب الداعية فمه من أذن رفيقه . هامسَه .

«ماذا الآن؟ ماذا همس إليك؟» ، سألتُ مسوِّح الكلاب ، فردَّ :

- يريدك ألاَّ تنسى الشَّعر على رأسه في الرسم .

«أيريده مستعاراً أم حقيقياً؟» ، تساءلتُ ، مبقياً بصري علي الكلب الصغير ، المحتجب العينين في غرته الطويلة .

«أتريد الإيقاع بي؟» ، سألني الداعية . أردفَ : «ماقصدك؟» .

«إنْ أردتَ شعرك طويلاً ، سبطاً ، كثيفاً ، في الرسم ، فسيكون مستعاراً . إن أردتَهُ خشناً ، منفوشاً جَعْداً ، فسيكون حقيقياً» ، قلت .

همس الداعية شيئاً في أذن رفيقه ، الذي اقترب مني هامساً بدوره :

- ارسمْ شعره كما تشاء ، إنَّما ليكنْ تامًّا ، كثيفاً .

«مثل شعر دانتي» ، عقَّبتُ ، فغمغماً معاً :

- مثل مَنْ؟ .

أهداني الصباحُ الصاخب الريح رؤيةَ الوشم الرسم على النحو العادي في ظهور الرسوم على جلد صدري ، وكتفيَّ أحيَاناً ، وبطني أيضاً ، بأثر من اقتحام آخر لوحة مُقلقة ، أو مفزعة ، أو صادمة ، لخيالي من مجلد الرسوم مجاوراً لسريري أتصفحه كل ليل . كان حظُّ جِلدي لوحة «دانتي وفيرجيل في الجحيم» ، للرسام الفرنسي وليام أدولف بوغرو .

دانتي يصحب الشاعر فيرجيل في سياحته السماوية على حدائق جهنم . هما واقفان ، في الرسم ، يرصدان - بعيون المؤرخين للأهوال رجلين عاريين ، استحكمَ أحدُهما القبض على الآخر بِلَيٍّ ذراعه اليسرى إلى الوراء ، واضعاً ركبته في ظهر غريمه يلويه ، ويُلْزِمُه الأرض جاثياً .

عراكٌ بين اثنين . لكنَّ لمسةَ الهول فيه تتبدَّى من الشخص المسيطر وقد أنشبَ أسنانه في حنجرة الشخص المغلوب الجاثي .

إنه يلتهمه ، أو يكاد . ربما يقطع المدعو كابُوْشيو الغالبُ حنجرةَ المدعو شِيْشِي المغلوب بأسنانه . ربما يستنزفُه دَمه ليشربه . ربما يخنقه عضًا لا أكثر ، كما تفعل السِّباع بالطرائد فتسدُّ عليها بالأشداق مجاريَ أنفاسها أولاً ، حتى الموت ، قبل تمزيقها .

يذهب المبشِّرون ببراعة الرسم هذا إلى ميزان التقدير الصارم لاقتدار الرسام بوغرو على تحصيل العضل في الجسدين المتعاركَيْنِ العاريين ، تحصيلاً من أُمهات البراعة : تناسقٌ ، وتناسبٌ ، وتكافؤ ، بتعاضُدِ العروق والأعصاب جَليَّةً في التشريح الصارم لهندسة الجسم الإنساني .

ليس انحيازُ قلبي إلى براعة الرسم هو الذي شغل خيالي في الليل ليظهر في الصباح على جِلدي . مسْخٌ طائرٌ في سماء المشهد صبَّ على خيالي زيتَ استحواذه اللاذعَ المذاق : إنه في المنتصف فوقَ رأسَيْ دانتي وصاحبه فيرجيل ، ورأسَيْ الروحيْنِ المتعاركين ، الشقييْنِ ، كابوشيو وشيشي . للمسخ جناحا خفاشٍ مبسوطان ، وذراعان مضمومتان على صدره ، ووجهٌ مبتسم ابتسامةً تشفٍّ من شقاء الأرواح : إنه من عمال الجحيم المدفوعِيْ الأجور بنقودٍ لهبٍ .

خَلْفَ المسخ سماءٌ ممرَّغةٌ في حُمرة معتكرة المزاج .

مكَّنتْ ضرباتُ ريشة بوغرو في الجهة اليمنى من اللوحة ، المحشوَّةِ بأجسادٍ شبحية يلتهمها بُعْدٌ رماديٌّ ، خياليَ من التسلل إليها بإضافات مُفترَضَةٍ أزعم لنفسي أنها تخصُّ جبل سنجار : الأجساد العرايا الشبحية ، في البُعد الرمادي ، أجسادٌ معذَّبة ، منكوبةٌ هُتكَتْ . أوه . لقد فكَّر بوغرو بسنجار قبلي ، منذ نهايات القرن التاسع عشر . لقد رسمَ الجبلَ في الجحيم .

لن أرسم للداعية ، إنْ رسمتُه ، شَعراً كشَعر دانتي . الشاعر

الإيطالي القديم يرتدي خماراً ـ قلنسوةً لاطيةً حمراء ، مطوَّقة بإكليل من غصن شجرة الغار . لم يُرِني دانْتي شَعرَه لأتخذه نموذجاً أضفيه على رأس الداعية ، الذي لن أتخيله إلاَّ كما هو : أصلع بشعر منفوش فوق أذنيه وقَذاله .

ربما عليَّ إضافةُ شيء من الثياب إلى جسده غير التي يرتديها داعية من دعاة دولة الخلافة لا تليق به سترة وبنطال . يلزمه ثوب كثوب شاعر من الإمبراطوريات العائمة على مياه أعمدةٍ ، ومياه أساطيرَ ، أعني فيرجيل في لوحة بوغرو ، التي تسللتْ تفاصيلُها في الليل إلى جِلدي فانطبعتْ عليه .

«إن تدبَّرتُ لك شَعراً ، يا إحسان ، فالأجدى إذاً أن أتدبَّر ثوبا أيضاً» ، قلتُ فابتسم الداعية لأول مرة ، وهو ينظر إلى رفيقه . لقد لمستُ خياله فأبهجتُه . ردَّ :

- نعم .

«نعم ، ماذا؟» ، تساءلتُ ، فردَّ الداعية :

- أعطني ثوباً في الرسم .

«سأُلْبِسُك عباءةَ فيرجيل» ، قلت .

«مَنْ؟» ، تساءل الرفيقان معاً .

«هذا» ، قلت . ففككتُ زرَّين عن قميصي تحت سترتي . كشفتْ قماش القميص عن النصفين العلويين للشاعرين دانتي وفيرجيل ، وراء مُنحنى ظهْر كابوشيو المسيطر على غريمه شِيشيْ في العراكِ العَضِّ .

حدَّق الرفيقان إلى صدري في استغراب وفضول . تمتم الداعية :

- هذا وشمٌ وثنيٌّ .

«هذا النفق وثنيٌّ» ، عقَّبتُ على كلماته . خبطتُّ بكفيٍّ على

الجدار الصخر والإسمنت : «هذا الصدى وثنيٌّ» .

صمتنا معاً . كان استغرابهما الخافت لأقوالي تشبه أقوالي نفسها في يوم عاصف . تدحرج ورقٌ على أرض النفق صريعاً يُنشد آخرَ خشخشةٍ من أشعار أُمهاته الشجر .

«الثوب» ، قلت مستعيداً صوتي الذي خبَّأتُه لحظةً . صحَّحتُ تقديري : «بل هي عباءة» ، أضفتُ واضعاً إصبعي على ظهر فيرجيل الظاهر الشَّعر مطوَّقاً بغصن من الغار النبيل نُفضِّل ورقَه ، في عصرنا ، للطهو تابلاً يابساً ، أو أخضرَ نضِراً .

«عباءة» ، تمتم الداعية . «أسترسمني مرتدياً عباءة؟» .

«لا أعرف بعد» ، أجبته .

«ارسمْني في ثوبٍ أفغاني» ، قال الداعية .

«وعلى رأسك عمامة؟» ، تساءلت ، فرد بتلقائية :

- نعم . لتكنْ على رأسي عمامة .

«ماذا أفعل بشَعرك حينئذ؟» ، ساءلته ، فقلَّص بين جَفْنَيْ عينه الحولاء وقد التبس عليه التقدير . أدار وجهه إلى رفيقه عدنان صامتاً ، فانبريتُ متحدِّثاً قبل أن ينطق مسوِّغُ الكلاب : «ما تفضيلك ، يا إحسان : أرأس بعمامة ، أَمْ بشَعرٍ ظاهرٍ ، سبْطٍ ، طويل ، كثيف ، أسود ملتمع ، مغسولٍ توًا ، ومدَّهناً بزيتِ اللوز؟» .

فتح الداعيةُ فمه لا عن كلامٍ ، بل عن تردُّدٍ في التفضيل . حدَّق إليَّ مليًّا قبل أن يستقر بعينيهِ ، من جديد ، على عيني رفيقه كالمستنجد .

«ثوبٌ أفغانيٌّ لا يُستكمَل إلاَّ بعمامة» ، قال عدنان متلمِّساً مخرجاً لتردُّد رفيقه .

بقي الداعية على صمته . ستخفي العمامة شَعره الذي يريده سبطاً ، طويلاً ، كثيفاً . أفلتَ من فمه غمغمات مُحْرَجاً ربَّما ، قبل أن يقرِّب فمَه من أذني ، للمرة الأولى ، هامساً :

- ارسمْني في أي ثوب تشاء . لكن لا تنسَ شَعري ، يا سارات .

ابتسمتُ له . دحرجتُ ابتسامتي إلى رفيقه أيضاً . سألتهما :

- ماذا يعني الثوب الواسع لكما؟ ماذا يعنيّ البنطال والسروال؟ أهما اختراعٌ أم اقتداءٌ؟ .

اختصر الداعية تقديره في كلمات قليلة :

- الثياب الواسعة سِتْرٌ للمفاتن .

لماذا الثوب الأفغاني ، تحديداً ، في اقتداء جنود الخلافة بالأسلاف؟ كلُّ ثوب واسع يستر المفاتنَ ويخفيها . لا مطلوبَ أكثر لكنَّ طلبَ التمايز ينحو بمريدي الخلافة الجديدة إلى إحياء اللزوم بذبح اللزوم : ذبحُ طُرُزٍ من الثياب كذبح طُرزٍ من الأعناق ، وتمجيد طُرُزٍ من الثياب كتمجيد السكاكين رهيفةً ، ماضيةً في وضعها على الأعناق .

الأمر كلُّه ذبحٌ واسع كثوب الأفغاني . لكنْ حيَّرني قليلاً اختيار فقهاء دولة الخلافة للإعدام ثوباً برتقالياً . لم أتحرَّ الرمزيَّةَ على مقاصد الشرع في تفضيله لوناً للقتل ، ولا على مبتكرات مذاهب الجهاديين . انقسمت قلوبُ بعضهم بين استحسان الذبح من يمين العنق إلى يساره ، واستحسان الذبح من يسار العنق إلى يمينه .

كيف فاتني استقصاءُ المعنى في مرموزه الديني ، أو في مصادر المعنى اقتداءً بالأسلاف؟ قد يكون الشرحُ بسيطاً ، هيِّناً ، مبذولاً ، واسعَ الذيوع ، لكنَّ المصادفة استثنتني منه . يا للعيب . كُثُرٌ مواضع البرتقاليِّ في رسومي ، فهل كنتُ ـ بالأثر الغامض من إرث العقا

متنقلاً من سلالة إلى سلالة ـ أستعيدُ الحُكْمَ الأول من معاني اختيار الألوان تفضيلاً ، وتبويبِ مُقام الملائكة في بعضها ، ومُقام الشياطين في بعضها؟ .

بُعثَ اللون الأبيض نبيًّا مطهِّراً في شَعب اللون . بُعثَ الأسودُ عاصياً مدنِّساً في شَعب اللون . وأوكِلتْ بعد ذلك وزاراتُ المعاني وأخلاقُها إلى الأخضر ، والأزرق ، والأحمر ، والأصفر ، وما فرَّعهُ المزْجُ من وظائفَ صُغريات على بَنِيِّها من الألوان الفروع . واهاً : كلُّ موضع للبرتقاليِّ ، في لوحاتي ، هو موضعُ إعدام ، أو حُكْم بالإعدام .

أيُّ برتقاليٍّ سيُبهج ، بعد اليوم ، أُمًّا ، أو أباً ، أو شقيقاً ، شهد في الصور ، أو رأى رأيَ العين ، أخاً أو إبناً يُذبح في ثوب برتقالي؟ كل من شهد حبيباً ، أو قريباً ، يُعدم في اللون المنتخَب قصاصاً من فقهاء دولة الخلافة ، سيُقْسم بالبرتقاليِّ كقسَمه بالشيطان ، وسيذكُرُ البرتقاليَّ كتجديف ، او كُفْر .

لقد أُعدمَ البرتقاليُّ باختياره لوناً لعبور المحكوم إلى الموت ذليلاً ، مقهوراً ، مهاناً . لكنني لن أتخلى عن البرتقالي في محنته هذه ، التي لا تشبه محنة مسوِّح الكلاب عدنان ورفيقه الداعية ، وهما في البرزخ ـ المطْهَر الذي لا أعرفه ، متهيِّئيْنِ للوثوب إلى الأسِرَّة في الفردوس .

«ما معنى الثوب البرتقالي يرتديه المحكوم بالإعدام في دولتكم؟» ، سألتُ الداعية .

«لا تسأله سؤالاً كهذا» ، بادرني عدنان مقاطعاً في استنكار .

«ما المعيب ، المخيف ، في سؤالي ، يا عدنان؟» ، تساءلت ، فالتفت بعنقه إلى الداعية ، مسدِّداً إليه نظرةَ مواساة واضحة .

في الأخبار موثَّقةً من صحائف أيامنا ، أن مراهقاً هرب من

معسكر للتدريب في دولة الخلافة ، حرَّضتْه أمه على اعترافات عمّا حلَّ به في المعسكر ، فتحدث عن داعية مُنتَدب لتلقين المجنَّدين الصّغار علومَ دينهم ، كان يغتصب المراهقين باستدراجهم ترهيباً إلى سريره . وكان المراهق هذا واحداً ممن اغتصِبوا . لكن الداعية لم يكن يكتفي بمجامعته ، بل يستدبر له ، ويقسره على مجامعته كفعل الداعية به . ولم ينسَ المراهق ، في بوحه ، ذِكْر تفصيل صغير عَلِق بذاكرته «كان الداعية ، حين ألوط به ، يتمتم كلاماً كالدعاء» .

دعاءُ اللَّذة يتكرر في المباح من الأخبار مصوَّرةً من ساحات الإعدام . التمتماتُ ، مع إنزال القصاص بلوطيين قتلاً ، كانت شبق الرغبة مستظهَرَةً قبل الأوان ، على تخيُّل غِلمانٍ في الفردوس مُرْد رائقين .

الرجال أوكلوا أطفالاً ، في عاصمة دولة الخلافة ـ الرقة ، برجم مثليِّيْنَ حتى الموت . أما في مدينة تدمر ، التي أخلاها الحاكم العلوي من جنوده ليسلمها إلى جنود البغدادي تسليماً حلالاً ، طاهراً من الدم ، معلَناً ، بلا مواجهة أو مصادمة ، فقد رمى الجلادون بمثليِّيْنَ من سطح أحد فنادقها العالية ، فانسحقوا .

لا شيء يقارَن بتسليم مدينة تدمر إلى مقاتلي الدولة الإسلامية سوى ما فعله حاكم بغداد الشيعي ، بأمر من سيده المرشد في إيران سلَّم مخازن أسلحة ، وطوابير مدرعات ومدافع ، في مواضع من العراق لجنود الخلافة ، كأنها كانت ودائع الخليفة البغدادي عند جيش العراق .

الحاكم العلوي في سوريا ، والحاكم الشيعي في العراق ، أنجزا بخطط تسليم الأرض والأسلحة ، ما ابتكرهُ الوليُّ الفقيه الإيراني من

معضلات الرسوم على خياله ـ خيال الخراب : أيْ تدبيرُ صفقة مع العالم الغبي ليشركوا إيران ، وأتباع إيران ، في ترميم الخراب الذي أهداه مأزقاً للعالم الغبي .

من سطح فندق في المدينة المغدورة تدمر ، رُمي شبَّان اتُّهموا باللواط . هي مدينة السائحين بقلوب في سحر الصحراء المرفهة بالفنادق التي لم تعرفها ، قبلاً ، قوافلُ العابرين منها بحريرهم ، وتوابلهم ، على الجِمال ، من آسيا إلى موانئ البحر الأبيض المنكوب .

«ما معنى الثوب البرتقالي؟» ، أعدتُ سؤالي على الداعية تحت بصر عدنان ، المحدِّق إلى رفيقه ببعض التأسِّي في نظرته التي لم أتمالك نفسي من التعليق عليها : «لِمَ تنظر إلى إحسان هكذا؟» .

«هو يعرف» ، رد عدنان .

«حبذا لو عرفتُ أنا أيضاً . عيناكَ أثارتا فضولي» ، قلتُ ، ثم تخابثتُ من عبور خاطري على أخبار سابقة عن داعية غرَّر بمراهقين فجامعهم في سريره ، وجامعوه :

– أفي قلبه حسرة على غُلام؟ .

هز الداعية رأسه مستنكراً . غمغم على نحوٍ غير مفهوم :

– أعداء .

«من تقصد؟» ، تساءلتُ ، فلم يردَّ ، فعقَّبتُ : «عاديتم بشر الأرض كلها» .

«ليس صحيحاً» ، نطق الداعية .

«أعتذر عن المبالغة في الحكم» ، قلت مستدركاً : «هناك من يدَّعون العداء لكم ، لكنهم سبب وجودكم . هم أوجدوكم» .

«ربما» ، غمغم الداعية . استدرك : «أوجدنا اللهُ» .

«من هُمْ أعداؤكم المؤكَّدون حقًّا؟» ، تساءلت ، فرد الداعية :

- من نسمِّه عدواً هو عدونا . من نسمِّه كافراً هو كافر . كل أرض فيها نزالٌ بين الخير والشر هي أرضنا نغسلها من الرجس .

«تستطيعون إذاً أن تسمُّوا كلَّ مِلَّة ، وكل أرض ، على النحو الذي تريدون» ، عقَّبتُ ، فرد :

- ذلك صحيح .

«اين أحكام الشرع من ذلك؟» ، سألته ، فرد :

- لا نتعدى الحدود .

«ماذا أبقيتم؟» ، تساءلت ، فرد :

- من ماذا؟ .

«من الحدود» ، قلت .

«لا حدود لتكليف الله ، أيها الرسام» ، قال الداعية .

نقلت بصري إلى وجه عدنان المحدِّق بالنظرة المتأسية ذاتها إلى الداعية ، كأنما لا يصغي إلى المحاورة ، بل استحوذ على خاطره شيءٌ لم يستطع تجاوزه .

«لِمَ تحدِّق إلى إحسان هكذا؟» ، سألتُ مسوِّح الكلاب .

«منذ ذكرتَ الثوب البرتقالي وهو ينظر إليَّ هكذا» ، قال الداعية أبقى بصره على رفيقه . تمتم بصوت اعتراف : «لقد أُعدمتُ» .

سرد الداعية عن مقتله مَخْتَزِلاً ، لكن مستفيضاً في الصرير بأسنانه كلما ذكَر القاضي في مدينة تل أبيض ، حيث أُعدِم . إنه القاضي مأمون الذي اشترى منه جاريته التي لم يسمِّها ، لكنني خمَّنت أنها الفتاة الصغيرة نيناس .

«لم أفهم تنامي حقد القاضي ، يوماً بعد يوم . بعْتُه جاريتي

برْخص . أمتَعْتُه بتنازلي له عنها طلاقاً» ، قال الداعية بصوت منكسر . «هو الذي أوقع بي في فخاخ من الكلمات عن ديك العرش وديك البيوت» .

في صباح من أيام تلقين الداعية أطفالاً صِبْيَةً مناهجَ الوضوء الحق ، المتأني ، استرسل في تحديد مواعيد الصلوات مضبوطة على دقائق الساعات وثوانيها : «كلما ألزَمَ المؤمن نفْسَه بالمواقيت أجزلتِ الملائكة الثناء عليه عند الله» ، قال لهم . وأفاض في تخصيص صلاة الفجر بكرامة أوسع من المواقيت الأخريات : «ينفض المؤمن عن نفسه نعيم الرقاد الهانئ ، والفراش الدافئ ، ملبِّياً نداء الديك» .

أثار مديحاً في عيون الصبية للديك بتسبيحه ، وفضله في إيقاظ المؤمن : «صوته أنبل ، وأكرم عند الله ، من رنين الساعات المنبهة» ، قال لهم . «سبق صوتُ الديك في وجوده صُنَّاعَ الآلات الخبيثة النداء ، المتكلِّفة في تقليد الأصوات» . غرَّد قلبُه للديك وهو يرى الأطفال مبتهجين من ذكْر طائر لا يطير ، يعرفون قأقأته ، وزُقاءه ، ومطاردته الدجاجات للسِّفاد ، وعراكه مع جنسه الذكور حِفْظاً لحريمه حَكْراً عليه . غمغم الداعية : «لا صفاءَ كعين الديك إلاَّ صفاء عينيٍّ خليفتنا أبي بكر البغدادي حفظه الله ورعاه» ، قال . «سمعتُ صوتَ الخليفة . إنه كتسبيح الديك» .

خرج الصِّبْية ذلك اليوم من دروس الداعية منتفخين إعجاباً بالطائر الذي لا يطير . هُم يعرفون الديك . كلهم رأوا ديكة . كلهم أكلوا لحومَ ديكة . لكن الديك الذي بزغ على خيالهم ، ذلك اليوم ، بالصُّور مرسومةً على كلمات الداعية ، قَلَبَ أحكامَ العاديٍّ من معرفتهم بالديك : إنه قرب عرش الله ؛ صياحُه مبادلةٌ للملائك بالتسبيح ، وهو

عليمٌ كضابطي الساعات في المصانع بالمواقيت ثانيةً ثانية .

وقد اغتبط الصِّبْيةُ ، أكثر من هذا كله ، أنَّ صفاء عين الديك لا نظير له ، أو يفاضله سوى عينَيْ خليفتهم ؛ وأن صوت خليفتهم هو من صنوف التسبيح كتسبيح الديك لله كلما سبَّحت الملائكُ في علياء السبع السماواتِ الطباقِ .

جَملةٌ تدحرجت من أفواه الصِّبية في مسالك بيوتهم ، عائدين ذلك اليوم ، برفاهية الكشف ، فتصايحوا جَذِلِيْنِ : «يا ديكنا الخليفة . يا ديكنا الخليفة» .

رصدَ الراصدون الجملةَ الغريبة من أفواه الصِّبية . تأوَّلوها . تداولوها تفسيراً . تتبعوا مصدر صناعتها جملةً من الكلام في الأفواه على غير معهودٍ من تفخيم الخليفة وتبجيله . نقلوا ما باحَ به الصِّبيةُ استنطاقاً إلى فروع الفحص الفقهي .

العارفون بأصولِ وصفِ المناقب لم يهتدوا إلى مَخرج ليِّنٍ من إقران الخليفة بطائرٍ من مناقبه الصياحُ ، وسِفاد الدجاج : الديكُ في الأرض ديكٌ أرضيٌّ ، أمَّا ديك العرش فهو هناك ، في الأعالي ، منصرف كالكروبيين إلى استغراق في الله لا في الخَلْق .

لم يهتد العارفون بأصولِ وصفِ المناقب على أيِّ وجه يضعون الجملة ، التي قالها الصِّبيةُ ، في ميزان الأحكام : أهي هرطقة ، أم زندقة ، أم مدحٌ ، أم وصف لا ينبغي أخذه على مَحْمَل قط؟ .

حُمِلت الجملةُ إلى تقدير القاضي الشرعي مأمون لإحقاقها موضعاً في الصَّرف فاستهولها ، أو تصنَّع استهوالاً حين عرف المصدر : «ما هذا . الخليفة ديك؟» .

إنه الموقف الذي يستطيع فيه القاضي استرداد ما حصل عليه

الداعيـة من لذائذ في سـرير جـاريتـه نيناس . حِـقـدُه الحسـدُ من أن الداعية قد سبقه إلى اللذائذ في جسد نيناس أطلق شرايين قلبه يعضُّ شـريانٌ شـرياناً . وها هو الموقفُ طوْعُ انتـقـامـه الغـامض ، فـاسـتـدعى الداعيةَ . أوقفه بين أيدي الفقهاء في أصول اللحى مدافعاً عن نفسه . سأله :

- بمن شبَّهتَ الخليفة أدامه الله ، يا إحسان؟ .

«لا بأحد» ، رد الداعية .

«ماذا عن الديك؟» ، سأله القاضي ، فردَّ :

ـ شبهت بعض مناقب الديك بمناقب الخليفة أيقظَ الأمة لصلاة الفتح .

«وماذا أيضاً؟ ، سأله القاضي ، فردَّ :

- صفاء عيونهما ، والتسبيح .

وقف القـاضي عن كـرسـيـه مـحلّقـاً بكُميَّ عـبـاءته الواسـعين كجناحين :

- ما الديك إلاَّ طير على مزابلنا ، يرمي بسَلحِهِ حيث يمرُّ .

جاهد الداعية ، مراراً ، أن يدير التحقيق معه صوب شَرَفِ الديكِ مطابِقاً بصياحه صياحَ ديك العرش ، فلم يُفلح أمام إصرار القاضي على تسفيه ديك الأرض ـ ديكِ المزابل .

خيَّرَ الفقهاءُ الداعيةَ في الحُكم بين رصاصة في قذاله من خلف ، أو رصاصة في صدغه من جنب ، أو رصاصة في الجبهة بين العينين من أمام ، جالساً ، أو واقفاً ، أو راكعاً مصلِّياً . إلاَّ أن القاضي ساومهم على حُكْم لم يستنبطوه قياساً ، من قبل . قال لهم : «يُخنَق إحسان بحزامه» ، وصرَّف لهم الحكم على معنى قطْع الصوت ، لأن صوت

الداعية هو الذي زيَّن للأطفال تركيب وصفهم للخليفة .

خُنِق الداعية بحزامه حتى الموت ، وراء مسجد في تل أبيض ، بحضور جميع الصِّبْية ، الذين كان مرشدَهم إلى معرفة الحقائق على الأرض الزائلة ، وفي الآخرة الأبقى .

زفر الداعية بين سرده المتقطع حسرةً ، وفي نهايته ، فألْهمني الموقف سؤالاً :

– ما مرتبة بلوغه من العِلم ليصبح المرء داعيةً؟

«إتمام فقه الأحكام» ، ردَّ إحسان .

«أبَلَغتَ ذلك؟» ، سألته ، فرد :

– بَلَغْتُه إلاَّ قليلاً .

«ما القليل الذي لم تبلُغْه؟» ، سألته ، فرد :

– الإفتاء في شرع الرسم .

«الرسم حرام شرعاً . حتى مثلي يعرف ذلك» ، قلت .

«ليس حين ترسم مرضاةً لله . لقد ظهر التصوير ، وهو ما يستخدمه أمراؤنا في الدعاوة» ، رد .

«ألا فرق بين الرسم باليد والتصوير بالآلة؟» ، سألته ، فرد :

– ذلك هو القليل المحيِّر .

«حسناً» ، عقَّبت . «ما حُكمك في صاحبك عدنان يتكسَّب من سياحة الكلاب؟» .

«إنه في دار المحنة» ، رد الداعية .

«ما المحنة؟ ألم يُقتل وانتهى أمره كما يقول؟ لقد حسم الله له» ، قلتُ .

احتدم عدنان قليلاً :

- لم أزل في المحنة .
نظرتُ إلى عدنان متفحصاً ، ثم التفتُّ من جديد إلى الداعية :
- لماذا أنتما في هذا البلد؟
«نحن في دار المحنة» ، رد الداعية . «قريبون من اجتيازها» .
«بِمَ تتكسَّب ، يا إحسان ، في دار المحنة هذه؟» ، سألته .
قرَّب الداعية فمه من أذن عدنان . ساره همْساً كبيرَ الخفوت .
التفتَ عدنان إليَّ قائلاً :
- سؤالك مريب .
«أأرابَ الداعية سؤالي؟» ، قلت . «ألا يعرف بِمَ تتكسَّب؟» .
«يعرف . معي كلاب» ، رد ، فأعدتُ سؤالي :
- بِمَ يتكسَّب هو؟ .
حدَّق عدنان إلى الداعية متردداً ، فأومأ الداعيةُ برأسه إليَّ :
- سأرد على سؤالك . أتكسَّبُ من رعاية البحيرة .
«بحيرة أودن؟» ، تساءلتُ مستظرفاً جوابه ، فتساءل بدوره :
- ما اسمها؟ .
«أودنْ» ، أجبت .
«هذا ليس اسم البحيرة» ، عقَّب الداعية : «لها اسم من الأسماء الحلال» .
«اسمٌ حلال؟!!» ، تساءلت ، فرد :
- نعم .
«ما اسم بحيرة أودن الآن؟» ، سألته ، فردَّ :
- بحيرة المؤمنين .
لم يستوقفني رده . ساءلته ، من جديد ، في طريقة كسبه معاشه :

- كيف ترعى البحيرة؟ ممن تنال أجرَك على ذلك؟ .

«هذا اتفاقٌ خاص» ، رد الداعية مُغْلقاً على سؤالي كلَّ مخرج منه :

عصفت الريحُ عصفاً اجتاحت به النفق من أوله إلى آخره ، كأنها سدَّدت زفيرَ حوتٍ من حيتان البحار العليا إليه .

أغمضتُ عيني لحظة ، وكذا فعل الرفيقان . إنتشر في إغماضتي غمامٌ خفيف ، برتقاليٌّ ، على سفح خيالي . تمتمتُ كأنني متردد في مذاق سؤالي الذي ألقيتُه خافتاً إلى الداعية :

- أأُعدِمتَ في ثوب برتقالي ، يا إحسان؟ .

«نعم» ، رد الداعية .

انعطفتُ بالسؤال ذاته إلى عدنان :

- وأنت أيضاً؟ .

«لا» ، رد عدنان باحتدادٍ ملجوم . «أُعدمتُ في ثيابي» .

تنحنح الداعية معترضاً بتصحيح :

- كل من أُعدم أُعدم في ثوبٍ برتقالي .

ضرب عدنان على صدره براحتي يده ، في حركةٍ من يقطع اللوعة :

- لم أُعدم في ثوبٍ برتقالي .

أُفلتتْ مقاودُ الكلاب من يد عدنان في احتداده ملاطِماً بكفيه على صدر سُترته . أُجفل إذ رأى الكلاب طليقةً تعدو إلى مخرج النفق فلحق بها .

أمسك الداعية بذراعي اليسرى ، مبقياً بصره على رفيقه اللاحق بالكلاب : «عليَّ أن أغادر» ، قال بنبرٍ فيه توسلٌ لم أفهمه . تردد قل...

كأنه سيضيف شيئاً إلى كلماته ، ثم تعجَّل فمضى هرولةً . غير أنه وقف في نهاية النفق وقد حسمَ اختيارَ ما سيقول . ناداني :

- سارات .

مشيتُ متمهلاً صوبه ، عازماً على إكمال مسيري إلى المطعم الذي استهواني ذلك اليوم العاصف أن أقصده .

أدار الداعية يديه فوق رأسه راسماً حلقةً في الهواء فوقه . رفع صوته ضد الريح :

- لا تنسَ شَعري ، يا سارات .

الفصل الخامس

(Edvard Munch: Death of Marat)

ثلاث فتيات لوَّحن لي معاً كأنهن لُقِّنَّ ، على تخوم الغابة جنوباً ، في رجوعي من التسوُّق ذلك الصباح المتأخر . كنتُ أنوء بحمل كيسين ، أحدهما أطعمة ، والآخر زيت زيتون في صفيحة من أربعة ليترات بسعر خاص ، مُصدَّراً من جزيرة ساموس ـ مولد الخمر الأنقى ، ومهبط وحي الأرقام على عقل فيثاغوراس الذي أناط بها حركة الكون رياضياً ، وساح في زهده مع المريدين في مسالك الإيمان بتناسخ الأرواح .

لا أطهو طعاماً إلاَّ بزيت الزيتون . ولا أقلي لحوماً ، أو خضاراً ، إلا به . ولا أتذوق سواه نيئاً في سَلطة ، أو دَهْناً على الخبز ، أو رشًّا على قفل الباب كي لا يجمد مِغلاقُه في جليد الشتاء . وحيُ المرارة الخافتة ، اللاذعة في مذاقه بتهذيبٍ هو الوحي ذاته ، الذي شرَّع للسان جسارتَه استساغةً لمرارة الجعة صنعها نبلاءُ المَخاطر من شعير الزمن وذُرَته ، وما آخاهما من حَبٍّ تُسْتسقى خمائرُه .

لا توثيقَ ، أو شبه توثيق ، في محفوظات علومي عن سيرة الجعة اكتشافاً مصادفةً في الأصل كشرابٍ ، ثم صناعةً عن تدبيرٍ ، ثم ابتكاراً لأنواعه على براعات الصيدلانيين في التوليد ، والتفريغ ، والاستنباط ،

والابتكار. ولا توثيقَ في علوم خيالي عن سيرة المذاق الأول لثمرة الزيتون كيف غدت، بمرارتها، إرثاً جلالاً على يمين الآلهة بعد عثور الإنسان على الآلهة الأوائل، وترويضِ المذاقات الأصول.

ثمرةٌ مُرَّةٌ على شجرة شعثاء، جاسئة الجذع، ضخمة، غبراء الخضرة، هي ثمرة الزيتون؛ وحبوبٌ على عشبةٍ بساق رفيعة هي حبوب الشعير؛ وحبوب في عرانيس على شجيرات قصبٍ، مدججة بالورق العِرَاض، هي حبوب الذُّرة. اعتُصِرَت ثمرةُ الزيتون، وخُمِّرت حبوب الشعير والذرة نقعاً في الماء. لذعٌ مرٌّ في زيت الثمرة إذ تُقطف عذراءَ بكراً، ولدغٌ مرٌّ في النقيع شراباً من الحبوب.

هوىً مُرٌّ، إذاً، تتبَّع الآثار في نبت الأرض وشجره، وأخضع ذوق اللسان الآدمي للمُكتَشَف الجديد بعد الحلو، والحامض، والمالح؛ بل ربما تساوَقَ كشفُ المرِّ مع الحلو، والحامض، والمالح؛ بل ربما سبقها كلَّها مُذ وُلِدَ الآدميُّ بمرارة الخوف في فمه من الحياة، ومرارة الخوف من فَقْد الحياة، ومرارة الحياة خوفاً من نفْسها.

سأضرب صفْحاً عن نقص مصادري في توثيق أصول الطعم لكنني لا أتردد في الجزم أنَّ المرَّ مذْهبان: مرارةٌ رفاهيةٌ كالتي في ثمرة الزيتون وشراب الجعة، ومرارةُ إهانة هي، تحديداً، ما يقْدِر أيُّ مولود من مواليد بلداننا أن يبوِّبها تصنيفاً يفوق ما يقْدِر الصيدلانيون الحُذَّاق على تصنيفه من عقاقيرهم، وما يقْدر السحرة على ابتكاره من النَّيْرنْجات، وما يقْدِر قارئو البخت، والحظوظ على الإيهام أنهم يستنبطون الحظوظ من خطوط الأكف، ومن رقائق الحجارة، والعظام ينثرونها عشواءَ على بُسُط الكشوف.

المرارةُ فينا طبعٌ من طباع الجسد، ومن طباع الهواء الذي نتنفسه،

تولد معنا، لكنها لا تموت معنا؛ أمينةٌ في توريث كنوزها للأجيال. وأنا لا أحبها على شيء فيها إلا وفاءَها: المرارةُ وفيَّةٌ بلا حدود، لا تخون، لا تخذل، لا تتراجع، لا تتردد، لا تتنازل. هي ثروة أخلاق الأرض التي نبتت عليها بلداننا بأنيابٍ تعض على قلوبنا من الفجر حتى الفجر. وها أنا أكاد، أو أُوْشِكُ، على تدبيرِ ربطٍ، في قسرٍ لا مثيل له، ومنطقٍ مجوَّف، بين الوجودِ المرير - وجودنا، وبين استطابتي لثمرة الزيتون المُرة، والجعة المرة.

هذه ليست تبعية المغلوب بالمرارة للغالب بالمرارة. ليست استعذاباً للألم، أو اتِّقاءً من بطش المرارة بإعلان الهوى للمرارة في الطعوم. إنها حال أستطيع تبريرها بازليَّةِ «أحلاف» المرارة في الطباع، أو بوصفها «حالاً لونيةً» من العبث توضيحُها، ومن العبث تشخيصُها تحليلاً، أو شرحاً، أو تأويلاً حتى.

ثلاث فتيات لوَّحن لي من التَّخْم الأخير لأَجمة الشجر جنوباً، في اتجاه مسكني. وضعت الكيس الذي فيه صفيحة الزيت أرضاً أريح كتفي، فنقَلَتِ المرارةُ كيسها الأزليَّ من رئتي اليمنى إلى اليسرى.

إحداهن شاهيكا، والأخرى نيناس الصغيرة، والثالثة لم أرها قبلاً. ثلاثٌ هنَّ في البرزخ بين نهايات الشجر والعراء المتصل بمطالع القصب على الضفة الغربية للبحيرة. ثلاثة رؤوس في خُمُر حُمْرٍ. شاهيكا ونيناس بدَّلتا خماريهما إذاً. ماذا يهمني من ذلك؟ رفعتُ بصري إلى الغيوم. غيومٌ هادئة لم تستشر السماءَ في تَرْكِ فراغات متقطِّعة بين حدودها المتقاطعة. هواءٌ رطب مِنْ لَمْسِ البحيرة بأذياله.

لا أحب الرطوبة في الهواء. أحب الهواء جافاً. أحبُّ جُرعةَ الهواء التي أتنفسها جافةً. لكنْ أنَّى لي الحصول على نسائم جافة

كالتي تدحرجها البوادي على مدننا؟ أنا في مملكةٍ أرخبيل : مياه في الأرض معلَّقة بحبال مياه إلى مياه السماء .

لم أستطلع أخبارَ الأهوية والمناخ في ليلتي السابقة على التلفاز، ولم أستطلعها صباحاً . ثُمَّ ما الذي كان سيعنيه لي لو عرفت أن النهار ممطر مثلاً ، غائم مثلاً ، عاصف مثلاً ، معتكر أو هانئ؟ لم يكن من شيء ليردَّني عن الذهاب إلى المتجر لأجيء بصفيحة من معدن ملأى زيتاً من جزيرة الرياضي فيثاغوراس ، الذي توكَّل منطقُه بجهاد الأرقام لغزو مغاليق الكون ، وخزائن النشوءِ والعِلَلِ الروابط .

وجدتُ صفائح الزيت في يوم سابق فأجَّلت الشراء إلى يوم لاحق . وذا أنا ، في الصباح المتأخر لعودتي من المتجر وضعتُ الصفيحة أرضاً في الكيس البلاستك القوي ، مُذ أتعبْتْ كتفي بالأربعة الليترات معتصَرة في جزيرة ساموس ، وسط تدخين كثيف من العمال اليونانيين للتبغ التركي ، في إشرافهم على عصْر الزيتون بحسب طرائق الأسلاف أداروا معاصِرهم بالأرحية الخشب الضخام .

تخيَّلتُ العمال مدخنين من حول الأرحية تدور بها بغال ، أو حُمُر مستوردة من قبرص . أشعلتُ ، من إلهام الشغف بالتبغ أراني يونانيين عمالاً يدخنون في جزيرة فيثاغوراس ، لفافةً ملأتُ بدخانها رئتيَّ مرارة مستعذَبة على مرارةٍ مقيمة فيهما . أعَدتُ التحديق إلى الثلاث الفتيات لا يتقدمن ، أو يتأخرن ، لكن على حالهن من التلويح كتماثيل بأذرع متحركة آلياً .

لماذا كنَّ يلوِّحْنَ هكذا؟ لستُ قائداً . بل ربما أنا قائد في الرسوم أدير الأقدار على هوى اللون الحاكم : فلأقبَلْ تلويحهنَّ كرشوة ، أو كتملق .

أهنَّ يتملَّقنني؟ لماذا أنا سيء الظن في يومي المطرَّز بغيوم هادئة لم تستشر نفْسَها ، ولم تستشر السماءَ في توزيع أعضائها مقسَّمةً بمقصٍ كمقصٍ جَزِّ الصوف؟ .

لم أقرر ، في وقفتي القصيرة المستريحة ، المتخفِّفة من صفيحة الزيت ، أأنعطف قوسياً إلى الغرب ، من نهاية أجمة الشجر ، في اتجاه البيت ، أم أنعطف قليلاً إلى الشرق في اتجاه الفتياتِ على الضفة الغربية من ضفاف البحيرة؟ أزمعتُ أن أنتظر لأعرف ماذا سيفعلن بعد ذلك التلويح الطويل ، المبالغ فيه .

شيءٌ ما أزرقُ كان في يد شاهيكا اليمنى . هزت يدها تلك أكثر من يدها اليسرى في التلويح . عَنَّ لي خاطرُ استغلالٍ : لماذا لا أناديهن ليحْملن عني صفيحة الزيت؟ أشرت بذراعي أن يتقدمن فأرخين أذرعهن كأنما كنَّ ينتظرن إشارتي . تقدَّمن بمحاذاة سور القصب تحديداً ، ثم انعطفن قليلاً إلى أول أجمة الشجر حيث وقفتُ . أبقيتُ بصري على الفتاة الجديدة ، الطويلة ، البيضاء الوجه على حُمرة واضحة ، في سترة بنية فوق سروال بني واسع .

وصلت الفتياة الثلاث . وقفن قُبالتي ، فبادرتهن من فوري :

- فلتحملْ إحداكن ، أيتها الشابات ، هذه الصفيحة .

انبرت الفتاة الجديدة إلى حمل الكيس الذي فيه الصفيحة ، مبتسمة ابتسامة واسعة عن أسنان قوية في فمها ذي الشفتين الحمراوين . خمارها لم يحجب الكثير من خصل شعرها المتماوج ، الأقرب إلى حمرة من شدَّةِ صفاء البني الفاتح الذي فيه ورقَّته .

«هذه آنيشا» ، قالت شاهيكا وهي تعرِّفني إلى الفتاة الجديدة . مدت يدها بالشيء الذي رأيته من بُعْدٍ أزرقَ ، فإذا بها زهرة زرقاء :

«إنها من وادي لالش» ، أضافت .

بادرت آنيشا إلى توضيح بصوتٍ عجول :

– هذه الزهرة مني إليكَ .

وافقتْ شاهيكا :

– نعم . هي من آنيشا إليك .

تسلَّمتُ الزهرة من يد شاهيكا في هدوء . حدقتُ إلى وجه الفتاة الجديدة ، البادية المرح من عينيها الشهلاوين غلب السوادُ على زرقته :

– أأنتِ شبح أيضاً كرفيقتيك ، يا آنيشا؟ .

«نعم» ، قالت ، ثم ترددت مضيفةً : «لا أعرف» .

«كم عمرك ، يا آنيشا» ، سألتها ، فردت :

– أربع عشرة سنة .

«أأنا شبح؟» ، تساءلتُ بتعميم خصصتُ به جميعهن .

«ليس بعد» ، ردت شاهيكا . «لكنك تقيم إلى جوار أشباحٍ» ، أشارت بذراعها اليسرى إلى أفق البحيرة ، كأنما تُريني جموعاً ، أو منازل ، غير مرئية ، موزَّعة على الأرجاء . وضعت يدها ، بعد تلك الإشارة الواسعة إلى المياه ، فوق كتف الفتاة الجديدة : «آنيشا هنا لترسمها» .

«أما من رسام شبح في مكان آخر يرسمكنَّ؟» ، تساءلتُ وأنا أستكمل خطواتي مشياً في اتجاه البيت .

«هم كُثر . لكنك كردي تفكر برسمٍ لجبل سنجار» ، ردت شاهيكا .

«أما من رسام كردي آخر يفكر ، الآن ، في رسم للجحيم؟» ، تساءلتُ . أضفتُ تمتمةً : «يفكر الرسامون الكُرد في رسم الخيول . وهم

لا يحسنون رسمَها . لم يروا خيولاً» .

«الخيول؟» ، تساءلت آنيشا بصوتها العميق الذي لا يناسب صباها .

«نعم» ، أجبتُ .

تساءلتْ آنيشا مستغربة :

- لم يروا خيولاً؟! .

اعترضت شاهيكا :

- كل الرسامين الكرد رسموا خيولاً .

«أين رأيتِ رسومهم؟» ، سألتها ، فألوت فمها غير متأكدة :

- أَنا أخمِّن .

«تلك جرائمهم» ، عقَّبتُ بنبرٍ ملتبس لا يلزمني توضيحه .

«جرائم؟» ، تمتمت شاهيكا مستغربة .

استدارت آنيشا المائلة الكتف قليلاً من ثقل صفيحة الزيت . اعترضتني بجسدها تماماً فتوقفتُ في فضول .

«قبِّلْني» ، قالت بابتسامتها الواسعة ذاتها .

شهقتْ شاهيكا متفاجئةً . غمغمتْ :

- ماذا قلتِ؟ .

شهقتُ بدوري أخرسَ الفم من عَرْضٍ كالحيلة عَرَضتْه آنيشا عليَّ .

«قبِّلْني» ، كررت الفتاة ، ابنة الرابعة عشرة .

أمسكت الصبية الصغيرة نيناس بطرف سترة آنيشا تجذبها في تنبيه مستنكرٍ . هأهأتْ خجلاً .

«لماذا تجذبين سترتي؟» ، سألت آنيشا رفيقتها الصغيرة ، فأغضت

نيناس . توردتْ سمرتُها حياءً .

مدت شاهيكا يدها إلى سترة آنيشا في توبيخ مُبطَّن .

ضحكت آنيشا . أشارت بعينيها إلى الزهرة فيَّ يدي :

- أأعجبتْكَ؟ .

لن تتمكن ذاكرةٌ من تخيُّل الصورة الأولى لرجل ، أو امرأة ، يهدي أحدهما الآخرَ زهرةً . لن يعثر الخيال على توضيح لمعاني المبادلات الأولى للبشر زهوراً بزهور ، ووروداً بورد . سيتأوَّل الحذَّاقُ المتكلمون مداخلَ إلى المعنى ، ومخارجَ منه ، بقياس إلى الرسوم على جدران الكهوف : بشر يمدون أيديهم إلى بشر بنباتٍ أخفى الزمنُ لونَه ، أو لم يلوَّن أصلاً .

الأمر قديمٌ قِدَمَ انبثاق المعجزة الأولى للألوانِ نقيةً . والأمر قديم قدم اكتشاف الإنسان الأول أن للأشياء ، وللنبات ، وللكائنات من غير نوعه ، ما يجذبه إليها خارجَ جوعه وحاجاته :

لقد جلس ، قطْعاً ، بعد شبع من لحم ثور قنيصٍ ، يقلِّب قرنيه بين يديه ، متأملاً العظمَ الصلب ، المتقوس ، العريض القاعدة في جبهة الحيوان ، والرهيف الحاد في نصله الدقيق .

لقد جلس ، قطْعاً ، بعد شبع من لحم طائرٍ تصيده ، يقلِّب بين يديه الريشَ بالنقوش اللون عليه منتظمةً ، بالغةً مبلغها دقَّةً في توزيع صارم ، أخَّاذ ، على الأجزاء .

لقد جلس ، قطْعاً ، بعد شبع من قضم الأعشاب كالحيوان ، يقلِّب بين يديه زهرة اجتذبه اتِّساقُ الوَرق فيها على ألوانٍ متشاكلة ، أو متعدِّدة متخالفة بلا تنافر . ربما استساغها إذ تذوَّقها ، أو مجَّها ربما إذ تذوقها . لكنه ظلَّ ، في الحالين ، على انجذاب بصره إلى خصائصها

لوناً مفصَّلاً ببهاء الاقتدار في الطبيعة على إنجابها خيالَها مولوداً في نبتٍ ، أو ثمر ، أو ورد ، أو زهر . وربما ـ هنا تحديداً ـ التفت حامل الزهرة الذكر ، أو الأنثى ، إلى من يجاوره أو يجاورها ، فأعطياها له من غير تفكير في معنى .

هدايا كثيرة يتبادلها البشر : الجلود ، المعادن ، الحجارة . حتى التبرع بالدم ، في عصرنا ، نوع من ذلك . لكنْ من ابتكر أولاً هذه العادة غير المدروسة في إهداء الزهور؟ أرآها الإنسان الأول ، بانجذابه إلى اللون ، وسيطاً من ألوان أحاسيسه الوحشية إلى من يهديه؟ لماذا لم يُهدِ الذكر الأول إلى الأنثى الأولى ، والأنثى الأولى إلى الذكر الأول حجراً رُقاقةً ، أو حصاة ملساء ، أو خصلة من شَعره أو من شعرها ، أو إصبعاً مقطوعة إمعاناً في إعلان الوفاء كما تفعل عصابات الياكوزا اليابانية؟ ربما فعل الإنسان كل هذا قبلاً . لكن لماذا استقرَّ العُرْفُ على الزهر والورد ، وليس ورق الشجر المتناظر الشكل تصميماً ، أو الريش البهي متناظراً في تصميمه ، أو حفنة من ترابٍ نبيل احْتُفِنَت من حول عَرائش العنب ، أو شجر الزيتون والتوت؟ سيبقى الأمر غير مفهوم قطْعاً ، حتى لو شقَّ الدارسون في العادات ثيابَ الريح عن شؤون العلاقات غراماً ، أو احتراماً ، أو تقرُّباً ، وفصَّلوها كما يليق بجسد كِيم كاردشيان الكبيرة الردف ـ ملكةِ ما تبقَّى من مجد الأرمن كلِّهم .

كل تأويل لمظاهر المبادلات زهوراً بزهور ، ووروداً بورد ، يبقى مُباحاً لجسارات العقل في اختلاق أكاذيبه ، مدعومةً بمنطقٍ في توليد الحقائق كبَيْض الضفادع .

هنيئاً إذاً : ستعيش الأزاهير والورد حتى نهاية نوعها منسجمة مع الأكذوبة . لن تمانع في سيادتها على الشعوبِ النباتِ كما لا يمانع

الذهب في سيادته على الشعوبِ المعادن .

«أعجبتْني» ، قلت لآنيشا عن هديتها الزرقاء . أضفتُ سؤالاً إلى جوابي :

- لماذا لم تقدمي أنتِ هذه الزهرة إليَّ ، بل قدَّمتها شاهيكا؟ .

«لأننا في يوم الأربعاء» ، ردت آنيشا .

تأملتُ وجهها الذي تساكن فيه بيُاض وحمرة . ضيَّقتُ بين جفنَيْ عيني اليسرى كما تفعل شاهيكا أحياناً ، كتعبير عن أنني لم أفهم .

«اليوم أربعاء» ، كررت آنيشا توضيحها غير الواضح .

«أيقوم شخص بفعل شيء نيابة عن شخص آخر يوم الأربعاء؟» ، تساءلتُ .

نظرت آنيشا إلى شاهيكا كأنما تستعين بها على تبريرٍ مقنع ، فأغمضت شاهيكا عينها اليسرى تماماً ، تعبيراً عن أنها لا تملك ما تعينها به .

هو يوم الأربعاء إذاً ، يوم صفيحة زيت الزيتون في يد آنيشا المائلة الكتف من ثقلها .

هو يوم طاووس مَلَك في المعتقد الأيزيدي ؛ يوم ولادة النور والظلام ، فأين كانا قبل أن يولدا؟ ما اللون الذي بسط لنفسه سيادة على اللاوجود قبل بزوغ النور والظلام؟ النور ليس لوناً ، بل هو كشّاف اللون انتقالاً من مجهوله إلى معلومه ذرّاتٍ من عقلٍ يخصُّه . أما الظلام فلونٌ سوادٌ مطلق ، مُصمَّت .

لونٌ ، ولا لونٌ ، كانا غائبين ، محجوبين ، ممحوَّين ، مكتومين ، فوجِدا متجاورين ، متحاذيين ، متقابلين ، متطابقين ، متوازيين ، جَنْبًا

على جهتيٍّ القميص الكليٍّ الذي يرتديه ما لانعرف . وقد اتَّفق أن يُنْجَزَ حضورهُما يوم الأربعاء قماشاً لتفصيل جيبيْنِ منهما على جهتيٍّ السروال الذي ترتديه الأيام .

يوم الأربعاء يوم كوكب عُطارد السيَّار ، الأقرب إلى الشمس من إخوته في مَجْمَع الكواكب وقبائلها . سريع في تجواله على مغاليق السماء ، ومدافنهاَ الكبار من جثث الأجرام ، وأرمدة الشهب ، وقمامة المدارات ، ونفاية مصانع أسرار الكون في خلجان الكون .

أُجيْزَ عُطارد ، في أساطير الروم ، شفيعاً في أصناف التجارة ؛ وليًّا للأسفار ؛ إماماً لهوى اللصوص ؛ نديماً للفقهاء في الحِيَل والأحابيل . أما الإغريق فأجازوه باسم هِرمزَ وسيطاً بين الخلق والآلهة . ويُروى على مداخل أقاصيص الفَلَك ومخارجها أن السومريين اكتشفوه نائماً في سرير الأفلاك قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام .

عطارد ، في معتقد الأيزيدي ، شاب يركب طاووساً ، ممسكاً بلوح في يد يقرأ سيرةَ الممكنات عليه ، وفي الأخرى أفعى . يحقُّ للكوكب عُطاردَ الشاب أن يقرأ على غير عادة الأيزيديين ، الذين يستكرهون القراءة ، والكتابة ، طالما يحتملهما الأئمةُ الخواصُّ تكليفاً عن ملَّتهم كلها . ربما لا حاجة للأيزيدي إليهما ، ما دامت العلوم الكبار ، الجليلة القدسية ، تُوحى وحياً : «عِلْم الصَّدر» الأيزيدي ، المتضمِّنُ محفوظاتِ الأسرار نزلت من علياء إلى المرشد الإمام الأيزيدي ، هو المتكفِّل بإجراء التلقين ، وإحكام اليقين .

حالُ الأيزيديٍّ قراءةٌ بلا قراءة .

حالُ الأيزيدي كتابةٌ بلا كتابة .

فلْيقرأْ عطارد الشاب ما يشاء على لوحهِ فوق ظهر الطاووس

الكوني، في يومه ـ يوم الأربعاء.

لكنْ كيف اتّفق لَلأسرار المعصومة أن تنتزعَ إسمَ يوم لتعطيه اسما ليوم آخر؟ كانت مباهج الأيزيدي، في مواسم أعياده، مقرونة بحلول يوم الأربعاء. هو اليوم المختار من مناهج الزمن في تبويب المقدَّس والمدنَّس. هو اليوم الرَّحم استولدَها اللهُ نورَه وظلامَه، وملاكَهُ الطاووس الأعظم.

في الأربعاء يسير الأيزيدي بسناجقه الأعلام على المقامات، والمراقد، في عصْفٍ من أعازيف المزامير والمزاهر. بَيْدَ أن جيرانه من ملل المسلمين الأخرى حاصروه باستنكار من عيونهم، وباستنكار مُعْلَن من أفواههم، فاتَّقاهم الأيزيدي بحيلة الأسرار المعصومة: جارى مللَ المسلمين الأُخريات بمباهج مواسمه الأعياد في يوم الجمعة. لكنْ أبقى لنفسه اليقينَ الصارمَ واضحاً: الجمعة هي الأربعاء، واسم الأربعاء هو «الجمعة».

«اليوم أربعاء»، ذلك ما قالتهُ آنيشا في تبرير لن أفهمه من تولّي شاهيكا تقديم الزهرة إليَّ نيابة عنها، قبل أن تفاجئني، من جديد، بعرْضها الصادم:

- قبِّلْني، يا سارات.

لم تحتدم شاهيكا كما فعلت من قبل إمساكاً بسترة آنيشا توبيخا لها، بل نظرت إليٍّ مُحدِّقةً:

- تبدو راضياً.

«راضياً ممَّ؟»، تساءلتُ مستغرباً.

«منْ عَرْضِ آنيشا قبلةً عليك»، ردت شاهيكا.

«خفِّفي عني، يا شاهيكا»، قلت. «أنا متفاجئ مثلك».

وضعت آنيشا صفيحةَ الزيت أرضاً قبالتي . أمسكت بطرف سترة شاهيكا وهي تكلمني :

- فمي جميل ، يا سارات .

ابتسمتُ مأخوذاً بجرأتها . تمتمتُ :

- نعم .

«يصلحُ لقُبلة» ، قالت .

«لأكثر من قُبلة» ، عقَّبتُ غير ملتفت إلى شاهيكا مُطلِقةً زفيراً باستنكار .

«هل ستقبِّلْني؟» ، سألتني ، فأجبتُ بصوتٍ دائخ قليلاً :

- لا أظن .

«ارسمْني ، إذاً ، مع شخص يقبِّلني» ، قالت آنيشا بصوتها العميق ، الذي لا يناسب عمرها الفتيَّ .

زأرتْ شاهيكا ، أو هكذا حسبتُ صوتَها :

- يا للعار .

أزاحت آنيشا يدَ شاهيكا عن سترتها . حدَّجتْها بنظرةِ تحدٍّ :

- ما العار أن يقبِّلني أحدٌ في رسم؟

وضعت الصبية الصغيرة نيناس يديها على أذنيها تصمُّهما عن سماع المزيد من المحَاوَرة . استدارت بوجهها إلى البحيرة ساكتةً كتمثال .

زأرت شاهيكا من جديد ، أو هكذا حسبتُ صوتها الرفيع وقد انزلق مرتفعاً ، مذهولاً :

- ما هذا ، يا آنيشا؟ .

ردت آنيشا في هدوء ، محدِّقة إلى عينيَّ :

- لطالما تمنَّيتُ أن يقبِّلني أحد في سنجار .

«أنت تفاجئينني . أنا أرتعد» ، قالت شاهيكا .

«ألم تتمنَّي أن يقبِّلك شاب في سنجار ، يا شاهيكا؟» ، سألتها آنيشا .

«نحن لسنا في سنجار» ردت شاهيكا .

ابتسمت آنيشا لي ابتسامتها الواسعة تهمُّ بالكلام ، فجاوزتُها ماشياً أكمل الطريق إلى البيت .

حملت آنيشا صفيحة الزيت لاحقة بي :

- ألستَ سترسمني في سنجار ، يا سارات؟ .

أجبتها من غير التفات إليها :

- لم أقرر الرسم بعد .

«ألست سترسمنا في سنجار حين ترسمنا؟» ، سألتني آنيشا .

ألتفتُّ متطلعاً إلى الصبية الصغيرة نيناس واقفة بعد ، مصمَّةً أذنها بيديها ، في تحديق ثابت إلى البحيرة . أجبتُ آنيشا عن سؤالها :

- ربما .

نقلتْ آنيشا خطوها مقتربة من شاهيكا أكثر :

- سيرسمنا سارات ونحن في سنجار .

«لم يقرر سارات بعد» ، عقَّبت شاهيكا ، ثم نادت الصبية الصغيرة : «ماذا تفعلين ، يا نيناس؟» .

«إنها تسمع نفْسها بصوت أوضح» ، قلتُ .

«بل تسمع القُبلةَ عاليةً في الرسم» ، قالت آنيشا . انتقلت بخطوها ، من جديد ، مقتربة مني : «حين سترسم جبل سنجار ، ألا يصير سنجار هنا ، في هذا المكان؟» ، تساءلتْ .

«لن ينتقل الجبل إلى هذا المكان ، يا آنيشا . بل سيكون في لوحة موجودة في منزل هنا» ، أجبتها بضجر من المنطق في كلماتي .

«لوحة في هذا المكان . سنجار في اللوحة» ، عقَّبت آنيشا . تساءلتْ : «ماذا يعني هذا ، يا سارات؟» .

«يعني الذي يعني» ، أجبت .

«ألا يصير سنجار هنا؟» ، تساءلتْ .

زفرتُ متبرِّماً من المنطق هزيلاً ، فلم تُعِر آنيشا زفيري اهتماماً . أكَّدتْ :

- سنجار سيكون هنا . قبِّلْني ، يا سارات .

دلقتْ شاهيكا زفيرها عليَّ :

- إحذرْ ، يا سارات . لا أعرف ما يحدث لآنيشا .

«أحذرُ مَّ؟» ، تساءلتُ .

«من أن تغويك» ، ردت شاهيكا .

«أنا فارغ . لا أغوى حتى في رسمٍ» ، عقَّبتُ .

قاطعتنا آنيشا :

- كيف سترسمني يا سارات؟ .

«بأية لغة أحدِّثكنَّ؟ ألم تفهمن من كل جواب لي أنني لم أقرر أيَّ شيء بعد؟» ، أجبتها بصوت متورِّم .

لم تكتفِ آنيشا بردِّي . استوضحتْني :

- على أية صورة سترسمني حين تقرر أن ترسمني؟ .

التفتُّ إلى شاهيكا بصوتٍ فيه نبرُ الدهش وبعضُ الصراخ الخافت :

- هذه الفتاة مفاجأة ، يا شاهيكا .

«لماذا؟» ، تساءلت شاهيكا .

«إنها تقتحم» ، أجبتها .

«أأنت خائف منها؟» ، تساءلت شاهيكا بصوت ليِّن .

«لِمَ أخافها؟ أنا متفاجئ بجسارتها . أنت تبدين مذعورة» ، أجبتها . وضعتُ كيس الأطعمة أرضاً ، على الورق الكثيف من أشجار شتى يصغي إلى ثرثرة الأحياء . «تعالي» ، قلت ، وأنا أمسك بكتف آنيشا المنخفض من ثقل صفيحة الزيت ، حين حملتْها من جديد .

اتسعت أجفان عيني شاهيكا مبغوتةً من حركتي الواضحة المقصد :

- ماذا تفعل؟ .

«سأقبِّلها» ، أجبتُ .

زأرت شاهيكا من جديد ، أوْ خالَ لي ذلك :

- ماذا يحدث؟ لم أتخيل أن شيئاً كهذا قد يحصل ، يا سارات ، قبل مجيئي بآنيشا إليك .

وضعت آنيشا صفيحة الزيت أرضاً فتقصَّف الورق اليابس تحت ثقلها . قرَّبت نفسها مني كأنما ستمكِّنني من تقبيلها ، وهي تنظر إلى رفيقتها المذهولة :

- لم تسأليني ، يا شاهيكا ، ماذا سأفعل وماذا لن أفعل .

سدت نيناس الصغيرة أذنيها من جديد ، متراجعةً بالحياء في وجهها إلى تجاهل الأصوات ، محدقةً إلى البحيرة .

غمغمت شاهيكا بصوت فيه شهيق :

- أكان علي أن أسألك ماذا ستطلبين من سارات غير رسمك في لوحة؟ لم يخطر ببالي هذا .

«ما الذي لم يخطر ببالك؟» ، تساءلت آنيشا .

«هذا» ، ردت شاهيكا باستنكار وفزع أيضاً ، وهي تشير بيدها إلى مدى القُرب الذي بلغته رفيقتُها مني .

«أمتأكدة أنت ، يا شاهيكا ، أن هذا لم يخطر ببالك؟» ، تساءلت آنيشا بصوت رقَّقت نبرَه لطيفاً وهي تحدق إلى عينيَّ مبتسمة .

«لا . لم يخطر ببالي قط» ، ردت شاهيكا .

قربت آنيشا وجهها مني حتى لمستني بأنفاسها :

- قبِّلْني ، يا سارات ، كي يخطر ببال شاهيكا ما لم يخطر على بالها .

جذب سمعي غناءٌ تعالى نبره من حنجرة الفتاة الصغيرة نيناس . بدا لي صوتها متردداً ، لكن بلا تراجع : «خُذِ القمرَ الذي أهديتَ إليّ» ـ تلك كانت الكلماتُ خافتةً في حنجرتها ، ثم أعقبتها توقيعاتٌ من النَّبرِ بحروفِ نداء متتالية لا تعْني أحداً بالتحديد ، وتَعْني كلَّ أحد .

تراجعتُ قليلاً عن أنيشا المنتصبةِ طويلةَ الجسد أمامي فمدت يدها ممسكةً برُدْن سترتي :

- هل قبَّلت فتاة ، يا سارات؟ .

أزاحت شاهيكا يدَ آنيشا بيدها عن رُدن سترتي ممتعضةً .

«نعم . أظنني قبلتُ فتاةً» ، أجبتها .

«أتظن ، أم أنت واثق؟» ، سألتني آنيشا .

«لستُ واثقاً ، لكنْ أظن أنني فعلت» ، أجبتها .

جذبت شاهيكا رفيقتها آنيشا من كتف ثوبها في خشونة ، فالتفتت ابنةُ الرابعة عشرة إليها :

- مِمَّ أنت خائفة ، يا شاهيكا؟ .

«من وقاحتك» ، ردت شاهيكا .
ضحكت آنيشا . تمتمت هَأهأةً :
- وقاحتي؟ .
جذبتها شاهيكا من جديد ، مغمغمةً :
- ابتعدي عنه .
ألقت آنيشا نظرةَ استكشاف على أرجاء المكان حيْث وقفنا :
- نحن لسنا في سنجار ، يا شاهيكا . ألا ترين؟ .
«نحن من سنجار» ، غمغمت شاهيكا تذكِّر رفيقتَها بخطإ سلوكها ، فالتفتت آنيشا إليَّ :
- أنحن من سنجار ، يا سارات؟ .
«اسألي شاهيكا» ، أجبتُ ، متطلِّعاً إلى الصبية الصغيرة نيناس . متمادية في غنائها ، وهي على حالها سادَّةً أذنيها براحتي يديها .
«أأنت خائف ، يا سارات؟» ، باغتتني آنيشا بسؤالها ، فأجبت :
- ممَّن؟ .
«من أن تقبِّل فتاةً» ، ردت .
رفعت كيس الأطعمة عن الأرض بعد ما أنزلتُه دقائق قليلة نظرتُ إلى شاهيكا أسألها :
- مَنْ جلبتِ إليَّ؟ .
«جلبتُ التي سترسمها أيضاً» ، ردت بإشارة إلى آنيشا .
«أهي سبيَّة مثلك؟» ، سألتُ شاهيكا ، فردت آنيشا على سؤالي
- أنا من سبايا سنجار ، وقد قُتلتُ .
«واسمك مستعار ، بالطبع» ، أضفتُ إلى تصريحها ، فردت آنيشا
- ليس مستعاراً .

وبَّختها شاهيكا :

- لماذا تكذبين؟ اسمك مستعار كاسمي واسم نيناس .

«ما أحبه لا يكون مستعاراً . واسمي هذا أحبُّه» ، ردت آنيشا . التفتت إليَّ : «ارسمْني بهذا الإسم ، وليس بأي اسم آخر» .

«سأرسم اسمك أيضاً» ، عقَّبتُ مبتسماً . «كيف تريدينني أن أرسمه؟» .

«لائقاً بِطولي» ، ردت آنيشا وهي تقيس جسدَها بيدها ، من الرأس إلى القدمين ، واضحةَ التباهي .

«فهمتُ» ، قلت . «الحقي بي بصفيحة الزيت» .

مشيتُ يلحق بي صوتُ نيناس الذي بدأ يخفت ، وكذلك تتبعني الرفيقتان .

نثرتْ آنيشا بذورَ سيرة الجنون الصغير ، الذي شقَّ أثلاماً في تراب وجودها . تكلمت بلا توقف ، ماشية خلفي ، على قُرب من كتفي اليسرى : لقد بيْعت في مبنى شعبة المخابرات المهجورة من مخابرات الحاكم العلوي ، في الرقة ، والمسكونة بحشدٍ من جلاوزة الجهاد المتخم مذاهبَ وفروعاً ، واشتقاقات . «لم يكن الثمنُ بخساً» ، خمَّنت آنيشا . «أظنه بلغ ستمائة دولار» .

اشتراها شيشاني يتحدث العربيةَ فصحى ، لكن بكلمات لها كُسورٌ في سيقانها ، ورضوضٌ في حروفها ، وكَدماتٌ في نُطقها . وقد أزمع أن يعلمها لغة أهله ، باللكنة المائية لقاطني ضفاف نهر تِيْريك .

لم تُكثر آنيشا تفاصيل سَرد الجنون . مالكُها الشاب قتل أخاه الذي يكبَره بعامين ، اشتباهاً في أنه يُراود آنيشا . حُكم عليه بدفع ديَّة وبتنظيف مراحيض أحد المعسكرات ، ثم أُطلق سراحُه مجاَهداً

بسلاحه الذي قتل به أخاه . زوجة أخيه القتيل أفرغت في مالك آنيشا إحدى عشرة رصاصة من بندقية كلاشنيكوف ، وأفرغت في جسد آنيشا تسعاً .

«هنا ، وهنا ، وهنا» ، قالت آنيشا وهي تشير إلى مواضع مختلفة من جسدها . «واحدة هنا» ، ضغطت بإصبعها على نحرها . «لم أتألم . كانت الطلقات كالدغدغة» .

«كالدغدغة؟!» ، تساءلت شاهيكا باستخفاف .

«أُقْسِم بمراقد الأولياء كلهم ، وبتراب لالش ، وبجبل هكاري» ، قالت آنيشا مؤكِّدة بالقَسَم ما أحسَّت به .

«أية طلقة من الطلقات التسع قتلتْكِ؟» ، سألتها شاهيكا . صرخت ملتفتة إلى نيناس : «أوقفي مواءَكِ» .

أكملت الصبية الصغيرة ، المُغلقةُ أذنَيها براحتي يديها ، غناءَها الخافت ، مذ لم تسمع صرخةَ شاهيكا ربما ، فهرولت شاهيكا إليها . رفعت إحدى راحَتَيْ نيناس عن أذنها وصرخت بفم التصق ، أو كاد ، برأس الصَّبية : «غناؤكِ قبيحٌ هنا» .

أحنت نيناس رأسها من صدمة الصوت على أذنها . أغمضت عينيها .

تراجعت شاهيكا عن نيناس ، متجهة إلى آنيشا :

- أيةُ طلقة قتلتْكِ؟ الرابعة ، الخامسة ، أم الأولى؟ .

«لم تقتلني الطلقات» ، ردت آنيشا . أردفت : «تصنَّعتُ الموت حتى يومنا هذا» .

زفرتُ متبرِّماً . أكملتُ المشي ، فجاورتني شاهيكا بأسئلة في عينيها لمحتها بلَحْظَيَّ .

«لا تسأليني شيئاً» ، قلت .

«لن أسألك» ، ردت شاهيكا . «ماذا ستفعل حين نبلغ منزلك؟» .

«هذا سؤالٌ» ، عقَّبتُ .

«لا . لا . ليس سؤالاً ، بل . .» ، تمتمتْ ، فقاطعتها آنيشا مسرعةً بصفيحة الزيت لتجاورنا :

- سنزور مسكنك .

«لا ندخل المساكن» ، قالت شاهيكا .

«أتدخلن المياه؟» ، سألتُ شاهيكا وقد صرنا على بعد خطوات قليلة من حديقة البيت .

«لاندخلها . نبقى فوقها» ، ردت شاهيكا ، فتأمَّلتُها جانبياً . غمغمتُ :

- لم أنتبه أنكِ حلوة ، يا شاهيكا .

«أنت كذاب» ، عقَّبت شاهيكا بكلمات كأنها كانت جاهزة ، متوثبة .

«لماذا أكذب؟» ، سألتها متفاجئاً من تقديرها الإطراءَ قدَّمتُه بلا تمهيد .

«أسمعك ، لكنني لا أرى في عينيك ما تقول» ، ردت شاهيكا .

«كيف أقنعك أنني لستُ كذاباً؟» ، تساءلتُ .

«اقتلْها» ، قالت آنيشا مدحرجةً صوتها العميق كثيفاً .

«ماذا؟» ، تساءلتُ ، فردت آنيشا :

- قبِّلْها .

«طلبتِ أن أقتلها» ، قلتُ ، فصحَّحت آنيشا :

- عنيتُ أن تقبِّلها .

«اسكتي» ، زأرت شاهيكا .

التفتُّ إلى شاهيكا :

- لا قدرة لي على قتلك . أنت ميتة . لكن ماذا عن قُبلة؟ أستقنعك قُبلةٌ أنني لستُ كذاباً؟ .

رفعت شاهيكا يديها في إنذار أمام وجه آنيشا :

- فتحتِ صنبورَ القُبل هذا اليوم . عارٌ عليك وعلى القُبل ، يا آنيشا .

«لا قتلَ . لا قُبلَ» ، عقَّبتُ . «كيف أقنعك ، يا شاهيكا ، أنك حلوة؟» .

«فات الأوان» ، ردت شاهيكا .

«متى كان الوقت مناسباً لأقنعك ، إذاً؟» ، تساءلتُ .

«كان ينبغي أن تفكر في رسمي قبلاً» ، ردت .

«قبلاً؟» ، تساءلتُ . «متى؟» .

«قبل تفكيرك في رسم سبايا سنجار» ، قالت شاهيكا .

وضعتْ آنيشا صفيحة الزيت على أول المعبر المستقيم من مدخل الحديقة إلى باب البيت :

- كلُّ أوانٍ مناسب لي ، يا سارات . أأنا حلوة؟ .

خطفت الفتاة الصغيرة نيناس صفيحة الزيت ، مستعرضةً قوتها في الحمْل . سارت بها هرولةً حتيى باب مسكني . وضعتها أرضاً وعادت لاهثة .

«شكراً ، يا نيناس» ، قلت ، فأغضت الصبية الصغيرة حياءً ، بفم مفتوح ، مبتسم . أضفتُ مستعرضاً وجوههن :

- كلكن حلوات .

«أحب كذب سارات إن كان يكذب» ، عقَّبت آنيشا .

حدقت نيناس الصغيرة إليَّ في فضول ، نازلة ببصرها من عيني إلى طوق قميصي حول العنق ، فسألتها :

- أأحببتِ كذبتي ، يا نيناس؟ .

أشارت نيناس بإصبعها إلى عنقي . تساءلت :

- أعندك وشمٌ هناك؟ .

نظرةُ الليل ، قبل النوم ، على مجلد الرسوم ، أثبتت في خيالي ما سيظهر رسماً على جلدي كالعادة . ولما استطلعت نفسي في المرآة ، صباحاً ، كأول شيء أفتتح به نهارَ حقيقتي على الوجود كياناً ، لم أجد الرسم على صدري ، أو كتفيَّ . لكنني لحظت خيطاً من اللون أسفل أذني اليسرى . استدرت للمرآة بظهري قَدْرَ ما أستطيع : كان الرسم هناك .

جئت بمرآة أخرى صغيرة . عكستها على المرآة الكبيرة في الممر ، متأملاً لوحة «موت مارات» للرسام النروجي إدوارد مُوْنْشْ . الخيط اللوني ، الذي بانَ على عنقي ، أسفل أذني اليسرى ، كان بعضاً من الشعر الأحمر على يأفوخ رأس السيدة شارلوت غوردي ، الواقفة عاريةً قرب جثة الثائر الفرنسي جان ـ بول مارات في حمَّامه .

الرسام مونش جاء بالسيدة غوردي إلى مشهد موت الثائر في رسمه . الرسام الفرنسي جاك ـ لوي ديفيد ، الذي سبق الرسامَ النروجي إلى رسم الثائر مقتولاً ، لم يستحضر في لوحته أحداً إلى جوار الجثة في الحمَّام . ثائر يرقد قتيلاً في المغطس ، وحيداً ، بوجه لا ألم فيه . سكين الاغتيال ، المدمى ، مرميٌّ أرضاً . ريشة كتابة في يد ، وورقة في اليد الأخرى : تدوينٌ بالأرقام مرتعشةً فزعاً من اقتدارها على

الإنجاب كسمك السلمون . هكذا خمَّنتُ صورةَ الحروف في ورقة الثا
ـ الحروف الحسرة ، ربما ، لأن النهاية الغادرة للثورة الفرنسية لم تعتا
للثائر عن وقاحتها .

الحروف على الورقة في يد مارات انقلبت ، في بصري ، إلى أرقام تتراكل كثرتُها بأقدار السوريين جرحىً ، وقتلى ، ومأسورين ، ومخفيين ونازحين هرباً بملايينهم بين السطور التي دوَّنها ماراتٍ بيد مرتخية على شرشف ممدَّد فوق مغطس الاستحمام .

السيدة غوردي غير موجودة في لوحة «موت مارات» ، للرسام الفرنسي في رسمه المضبوط عضلاً ، وقماشاً ، كالتصاوير الطبيعية . أما إدوارد مونش ، النروجي ، فَقَد ساقَ السيدة غوردي متهمةً باغتيال الثائر إلى لوحته المطابِقة إسماً لإسم لوحة سلفه الفرنسي : «موت مارات» .

لماذا استوقفت لوحة النروجي خياليَ ، في الليل ، وليس لوحة الفرنسي القوية؟ ربما هو التجاورُ المتحقق للقاتلة والقتيل . ربما الخطوط النَّزقة من الألوان الزيت على نَسَق كالرسم بالأقلام : ضراوة في الخطوط النازلة طولاً ، والمندفعة عرضاً ، كشقٍّ للأشكال بشفرة سكين . الوجهان غامضان ـ وجه مارات ووجه السيدة غوردي . مغطسُ حمام كالسرير . ماءٌ سميك كمناشف وشراشف . دمُ قطراتٌ في إهمال تعويضاً من انهيار ثورة ، وانهيار عصر يحفظه التاريخُ متشبثاً بحافة مغطسِ استحمام .

ربما كان علىً مونش ، بنصيحة باهتة من رسام غير معروف مثلي ، أن يُحضر كليتمنسترا الإغريقية وعشيقَها إلى الرسم أيضاً وهما يخنقان زوجها أغاممنون ، ملك طروادة ، في الحمَّام .

إغتيالُ ثورةٍ عاشقةٍ في رسم، واغتيال ملك بأيدي عاشقَيْنِ، بحسب اقتراحي على مونش من إضافة. لكن مونش لن يسمعني. لن يصغي إلى همسِ خياليَ لخياله بفارق أكثر من قرن بين نظرتي إلى النكبات، ونظرته: الأمر كله رسمٌ في رسم.

جلدُ ظهري، ذلك الصباح، كان تاريخَ اغتيال كأياميَ اغتيل فيها، بلا أسف، فخرُ الدولة السورية بصناعة أوهامها عن شعبٍ متجانس الأماني والأقدار كذباً، وعن روابط شعبٍ قويةٍ من التاريخ الاكذوبة، وعن متانة علائق المجتمع الأكاذيب. بلدٌ من ثمار العسف في إنشاء الدول. بلد من ثمار المصادفات في إنشاء الدول. بلد من تلفيق الدول بقصاصات من الحرائق إن أطفئت سالت رماداً لا غير. دولة استقلال ركيك منذ نشأت ركيلةً بين أضراس الخوف. أين مونش؟ أين سلفه جاك - لوي ديفيد؟ حلفٌ سُنِّيٌّ من العربان والعجم، خصَّ نفْسَه بلقب «أصدقاء سوريا»، مزَّق الثورة السورية. جَرَم اللحمَ عن عظامها ووزَّعه شِواءً على فصائله الإسلامية وأمرائها. حلفاء الحاكم العلوي كانوا أكثر إخلاصاً: الولي الإيراني الشيعي، والقيصر الروسي القومي الأرثوذكسي، ثبَّتا تابعهما الحاكمَ على كرسيه ذي القوائم المسنودة بعَضِلهما - عَضل السوخوي، وعَضَل فِرَق الشيعة جمعتهم إيران من أنحاء الأرض، ومن الكواكب الأخرى الزاحفة إلى لقاء المهدي.

ثم ماذا؟ أتسألني نيناس عن خيط اللون على عنقي ظَنَّتْه وشماً؟

«لا. ليس وشماً، بل رسمٌ»، قلت للصبية الصغيرة. فتحتُ زريْنِ عن صدر قميصي، ثم اعتذرتُ: «الرسم موجود على جلد ظهري، وهذا الذي ترينه على عنقي، تحت أذني اليسرى، هو بعض شَعر السيدة غوردي».

«مَن؟» ، تساءلت نيناس ، فأجبتها :

- السيدة غوردي .

«من هي هذه السيدة؟» ، تساءلت نيناس .

«إنها سيدة عارية» ، أجبتها .

أغضت نيناس مبتسمة في خَفَر .

لم تتقدم الفتيات معي أكثر من خطوات على معبر الحديقة . فتحت الباب . أدخلتُ صفيحة الزيت وكيس الأطعمة إلى المطبخ ، ثم عدت . وقفتُ على العتبة من داخل أتأملهن . لم أعرف بم أخاطبهن تحديداً بعد وصولي إلى البيت . الثرثرةُ استُنفِدت . ولم يخامرني شك في أنني إن دعوتهن للدخول فلن يدخلن . ارتجلت إشارة من يدي إلى مياه البحيرة ، استطراداً لم أفهم لماذا تعمَّدتُه ، بالرغم من رغبتي في الانصراف عنهن :

- أما زلتنَّ مقيماتٍ حول البحيرة؟ .

«البحيرة مقيمة عندنا» ، ردت آنيشا بنبْرٍ من مَرَحِ الصوت .

«هي وأسماكها؟» ، ساءلتها ، فردت :

- هي وأسماكها .

«ألم تحاولن أن تتصيَّدن أسماكاً؟» ، سألتهن ، فردت آنيشا :

- لا أسماك في سنجار .

«أعني البحيرة ، هنا» ، عقَّبتُ .

«بِمَ نتصيدها؟» ، سألتني آنيشا .

«غطْساً» ، أجبتها .

«أهكذا يتصيدون الأسماك هنا؟» ، تساءلت نيناس الصغيرة .

«لا . ليس هكذا تحديداً» ، أجبتها . «يأتي الصيادون في قوارب

صغيرة ومعهم كتب فيها أقاصيص عن حشرات شهية ، وديدان شهية . يقرأون القصص للأسماك فتجتمع من حولٍ قواربهم تصغي إلى الغرائب والعجائب من عالم المخلوقات في قصص الصيادين . وكلما ازدادت سمكةُ رغبة في المزيد قفزت من الماء إلى قارب . هكذا يتصيدون هنا ، يا نيناس . أسماك بحيرة أودن تحب القصص» .

«واو» ، شهقت شاهيكا . التفتت صوب المياه : «أسماك بحيرة لالش لا تحب سماع القصص ، بل تقرؤها» .

«أتقرأين؟» ، سألتها ، فردت :

– لستُ سمكة .

«أعطنا زورقاً» ، قالت آنيشا .

«ماذا ستفعلين بزورق؟» ، تساءلتُ ، فردت :

– سأتصيد أسماكاً .

«لا تحتجن إلى زوارق . أنتن تمشين على الماء» ، قلت . هززتُ رأسي أسفاً : «ستختفي الأسماك . هكذا يقول المنجمون العارفون بخراب الكوكب» .

ربما . لا أعرف . لكنني أمنحُ ثقتي للزعماء الأقوياء من سادة الأمم الكبريات اجتمعوا ، في قمَّةٍ للحدِّ من أضرار الإنسان في سلخ المناخ بسكاكين نفاياته . لقد قرروا استدعاء آلهة الغرب القديمة لاستجوابها عن نكبة الأرض ، واستصدار أحكام بتحديد من تقع عليهم المسؤولية .

تبادل الزعماء الأقوياء ، وآلهة الغرب القديمة ، اتهامات بإفساد سماء الكوكب ، ومفاصل الكوكب ، وأحشاء الكوكب .

لم يعترف الزعماء بأي خطأ .

لم تعترف آلهة الغرب القديمة بأي خطأ .

قرر الزعماء ، والآلهة ، من أجل الخروج بحُكْم موثوق ، مُعتَرَف به ، لا يُرَدُّ ، أن يؤجّلوا الاتهامات المتبادلة ، ويحتكموا إلى تصويت البشرية ، فرداً فرداً ، على الإنترنت ، لتحديد المسؤول عن سلخ الكوكب : أهْوَ سلخٌ بسكاكين نفايات أمم الأرض ، أم نفايات الآلهة؟ .

التصويت جارٍ ، في أيامنا هذه ، على قدم وساق ، حتى انتحار الزمن كبلدي سوريا .

«حسناً ، يا فتيات» ، غمغمتُ ، مُقْدِماً على إنهاء لقاء آخر لا ينتهي إلى شيء مذ فكرتُ برسم عن «سبايا سنجار» . أضفتُ : «لا صيدَ هذا اليوم . تستطعن ، في الساعات الباقية من نهاركن الالتحاق بالمقاتلين في مدينة كوباني» .

«أين؟» ، تساءلت آنيشا .

«كوباني» ، أجبت . «مقاتلو الدولة الإسلامية يعترفون بذعرهم أنهم ، إن قُتلوا على أيدي نساء مقاتلات ، فلن يدخلوا الجنة» .

تبادلت الفتيات نظرات استفسار إحداهن إلى الأخرى متفكّرات ـ ربما ـ في الميزان الذي ينبغي أن يزنَّ فيه معاني ثرثرتي .

اختلستُ تلك اللحظة مودِّعاً ، وأنا أوصد البابَ أو أكاد ، لولا نداء آنيشا :

– لم تقل كيف سترسمني ، يا سارات؟ .

«أرسمك كما تريدين» ، أجبت مختصِراً .

«متى؟» ، سألتني .

«حين تكتمل الدائرة» ، أجبت ، مبقياً بصري عليهن من شق الباب غير الموصد تماماً ، واثقاً أنني سأثير فيهنَّ شيئاً بجوابي ذاك .

شيخ الأيزيديين الأعظم، عادي بن مسافر، أهدى مريدي مذهبه شكلَ الدائرة لا على قياس إلى دائرة الرياضيات المتساوية نقاطُ حلقتها بُعداً عن المركز؛ ولا على قياس النظام المعنى استلهمَهُ العقلُ لتجسيم الكمالِ صورةً. لقد اعتاد الشيخ عادي على رسم دائرة بعصاه على الأرض يجلس فيها بين أتباعه، ملقياً عليهم عظاته وإشاراته ـ إشارات الكامل العارف. دائرة الشيخ عادي الرمزية وطَّدت لنفسها، في الزمان، حُكْمَ المقدس المحصور إقامةً في حلقة. فإن رُسِمَتْ حول الأيزيدي دائرةٌ أبى الخروج منها حتى تُمحى، نأياً بنفسه عن إهانة الشكل الدائري ارتضاه شيخُ يقينه موضعاً لإقامة جسده في تبليغ مريديه بمسالك الأبواب في سور الجنة.

الفتيات الثلاث توجَّسن شيئاً مّا من قولي «حين تكتمل الدائرة». لا يُردن دائرةً تكتمل حولهن. ما لا يكتمل ليس مأزقاً بعدُ. في كلٍّ ما ليس مكتملاً منفذٌ للنجاة، وما يكتملُ معه مأزقُ كماله.

«أسترسمنا في دائرة؟»، تساءلت شاهيكا ببعض الفزع الخافت في نبر صوتها.

«قلتُ: حين تكتمل الدائرة»، أجبتها.

«ماذا تعني؟»، سألتني شاهيكا من جديد.

غمغمتُ باحثاً عن توضيح، مع إدراكي أنني تقصَّدت ذلك التعبير، الذي سيثير فيهن شيئاً، بالنَّبرِ الخفيِّ فيه من صوت التذكير، والتلميح معاً.

خرجَ صوت نيناس بالغناء خافتاً، ثم ارتفع وهي تغادر الحديقة. تبعتْها الفتاتان الأُخريان، ملتفتات بعْدُ إليَّ، ثم هرولتا هرولةً لم

تتوقف إلاَّ أمام سور القصب على الضفة . لحقت بهما نيناس بلا توقيف لغنائها .

هبَّت الثلاث معاً إلى القصب الطاعن في صفرة الوداع يقصفنه ، ويحزمنه ، ويكوِّمنه حزمةً إلى جوار أخرى مرصوفةً باستطالة على الأرض .

أثْرْنَ فضولي . فتحتُ الباب على وسعه بعد ما أبقيته مواربا في آخر المحاوَرة بيننا . مشيت حتى بلغت نهاية الحديقة . سألتهنَّ بصوت رفعتُه عالياً :

- ماذا تفعلن ، يا بنات سنجار؟ .

استقامت آنيشا المنحنية توزِّع القصبَ ممدوداً فراشاً على الأرض . رفعتْ صوتَها :

- سننام الليلة هنا . لن تتسع البحيرة ، بعد أيام للقادمين .

سرَّحتُ بصري على مياه البحيرة في النهار المعتكر غيوماً لها مزاجٌ معتكر : مياه رمادية . بعض المراكب في البُعد السحيق . ناديتُ متسائلاً :

- ماذا تعنين ، يا آنيشا؟ مَنِ القادمون؟ .

اكتفت آنيشا بردٍّ من يديها أشارت بهما إلى البحيرة من أدناها إلى أقصاها ، ومن شمالها إلى جنوبها .

الفصل السادس

(Hieronymus Bosch:
The Garden of Earthly Delights)

الكون على ما يرام . منذ أُنشئ وهو منشغل بإضافة زيادات دقيقة التفاصيل إلى أساطيره . ذلك ما يريحني . أنا والكون وضعنا بَيْضَ يقيننا تحت الرُّخِّ ذاته ـ رُخٍّ المعضلة الحنون . فكرة الكون عنِّي منسجمة كانسجام فكرتي عن الكون ، بلا زيادة أو نقصان : كلانا كفَّتا ميزان ، في واحدة منهما المصادفاتُ الذهبُ كلها ، وفي الأخرى المصادفاتُ اليواقيتُ والماسُ كلها .

معهد العِلْم الفيزيائي ، المعتَمَد في عالمنا ، خرج إليَّ ، في الصباح ، بخبر أراحَ تقديري لنشوء الكون ، ونظام آلاته الأساطير : لقد تصادم ثقبان أسودان فسرَّعا الزمن ، ثم أبطأه . أَحْدَثَ الصدامُ عاصفةً انثنى منه شكلُ الفضاء وانحنى .

ماذا يعني هذا بتفسير من رسام درَّب الذَّرات على حبْلِ خياله مشياً ، وقفزاً ، وزحفاً أيضاً ، فإن سقطت الذراتُ عن الحبل عشواءَ ، أحْدَثَ التناثرُ فضاءً يُصطلحُ على تعريفه بالتجريد ، وإن أَحدث التناثرُ فضاءً منسجماً ، منتظماً ، يُصطلح على تعريفه بالتجسيم المماثِل ، أيْ المطابق للأشكال ، أمَّا نَسْخاً تامّاً ، أو ببعض التزييف المغاير ، أو ببعض

التلفيق الماكر ؛ وكُلُّها فروعٌ من تصنيف مدارس الرسم؟ ماذا يعني انثناء الفضاء؟ إلى أعلى أم إلى أسفل؟ .

لقد انثنى الفضاءُ الكون ، إذاً ، بصدام من السواد لا يتَّفق تحديده سوى بالافتراض أن الأساطير ، وحدها ، إبطَّاءٌ زمنيٌّ ، أو تسريعٌ زمني ، كجلوسي ذلك المساء إلى منضدة صغيرة في حانةٍ تجاور سوقَ الضاحية شبهِ خالية .

كنتُ زمناً جرى إبطاؤه بصدام من بقعتين رماديتين وضعتهما على الكون البياض في لوحتي ، ذلك اليوم . وكانت الحانة زمناً جرى تسريعه بصِدام الخلوِّ إلاَّ من ستة روَّاد ، في الضوء الشاحب للمصابيح موزعة على المناضد الفقيرة التوزيع في أرجاء القاعة ، وعلى مسطبة الحاجز بين النادل الساقي والفراغ أمامه .

معهد العِلم الفيزيائي ، الذي أراحَ خيالي صباحاً بخبر الصِّدام العاصف كمجازات الأشعار الفقيرة ، ألهمني الاختلاءَ بفكرةٍ عن صدام اللون في بياض القماش الذي لم أجرحه مُذ طليتُه بياضاً . وضعتُ أول ثقبين رماديين في الكون العاصف فسرَّعتُ زمنَ فراغه البياض ، ثم أبطأتُه .

لم أتقدم أكثر من ذلك في مجهول لوحتي عن «سبايا سنجار» . ما كنتُ لأقبل بأقل من ذلك في اندفاعتي الأولى ، بعد ظهر يومي العائم على مياه الفيزياء الكونية .

قطرتان رماديتان . بقعتان كلٌّ واحدة في حجم بصمة إصبع : لقد حرَّكتُ البياضَ اللانهائي الراقد في ضرورات اللاتحديد . وقد أسمع ، فيما بعد ، تصادمُ ثقوبٍ بِيْض أكثر هولاً من صدام الثقوب السود في نظريات منجِّمي الفيزياء عن معقولاتهم المفترضة .

وُلِدَ الفيزيائيون مصعوقين. أحبُّ المصعوقين. صَعَقٌ أخلاقيٌّ يجذبهم إلى تركيب الخواصٍّ المعدومة للظواهر المادية. لا أحد يعرف الصَّعَقَ في شيء قوي كهذه الافتراضات المذهلة سوايَ، لأنني في غيبوبةٍ من ذهولي. والخبرة في الذهول كالخبرة في التبلُّد. كان عليَّ، منذ بدأ قلبي في التماس المداخل إلى الأساطير، أن أنحوَ إلى التخصص في الفيزياء. أول درس منها تلقيتُه في المدرسة كان عن الشوكة الرنَّانة - الملعقة المعدن ذات الشِّعب. أحضر المعلم ملعقة معه. قرعها بأنملته فاصدرت رنيناً متماوجَ الخفوت، ناعماً. يا للمعجزة: دراسة الصوت، وتمحيص الصوت، وتأويل الصوت، وتشريح الصوت بمبضع، والإيمان بالصوت كدِيْنٍ، كلُّها براعاتٌ لاستدراج خيال الفيزياء من سجِّلٍ علمه المتراكب من ضروراتٍ كقواعد الأشعار، ونظام القوافي.

الرنينُ أولاً. الرنين أخيراً. رنين المعادن ورنين اللحم. لم أعرف أن للحم نفسه رنيناً كرنين الملعقة الشوكة إلاَّ بعد عمر طويل، منحرفٍ بسنينه عن سَجْع الوقت الصحيح: قُرِعَ لحمُ الجماعات في سورياً بمعادن الأرض كلِّها. رنَّ لحمهم، لكن لم يتعدَّ رنينُه أبعدَ من رنين ملعقةٍ تُقرع بأنملة يد المعلم في درس الفيزياء.

البقعتان اللتان أنزلهما خيالي رماديتين، من وحي مًّا ذلك اليوم، على موضع من لوحتي المفترضة، تصادمتا في تدبيرهماً النشوءَ الأعظمَ - نشوءَ مَطْلع الرسم، الذي ستحيطُ كُلِّيتُه اللانهائية، غيرُ المُنجزَة بعد، بتفصيل صغير من وقائع السبي في سنجار: تهيأتِ العاصفةُ في بياض لوحتي، وانثنى الفضاءُ فيها.

كنت مزمعاً، بعد وضع البقعتين الرماديتين، اللتين لا تعنيان شيئاً، أن أسترسل مساءً في استنفار المعاني إلى نجدة الأشكال، وأن

أضعَ اللونَ وجهاً لوجه مع ضميره، الذي وعدني ببعض العَدْل في حصَّة خيالي من غنائمه. لكنني، في البرهات التي حدَّدتُ لنفسي توقيعَ العقد مع اللون، قبل المساء بقليل، شعرتُ بانحرافٍ في مسار الوقت إلى هدفه: صوت زوجتي السابقة ناتالي المحتدم حزيناً، ومنكسراً مصدوماً، في الهاتف، مزجَ الألوانَ في خيالي على غير ما ينبغي من نِسَبِ مقاديرها:

- إنه يخونني، يا سارات.

«من تعنين، يا ناتالي؟»، تساءلتُ مباغَتاً.

«وِيْستروم الخنزير»، ردت.

لم أعرف كيف أواسي ناتالي وهي تعترف لي بخيانة صديقها لها. صمتُّ محتاراً، فصرخت بي:

- قلْ شيئاً.

«خونِيْه»، أجبتها بارتجال شديد.

انقلب صوتها هادئاً ـ هي الهادئة عادةً، ربما من ظرافة لم أتقصَّدها بجوابي، لكنها سكَّنت صخبَ قلبها. سألتني:

- بمن تشير عليَّ لأخون وِسْتروم معه؟.

اقتنصتُ هدوءها لأنعطف بالموقف إلى بعض المَرَح:

- لا أنصحك بخيانته معي.

«معك؟ لماذا لا؟»، تساءلت ناتالي.

«لن يكون الأمرُ خيانة»، أجبتها، فتساءلتْ:

- ماذا يكون إذاً؟.

«أن تخون امرأةٌ صديقَها الذي تحبه مع زوجٍ سابق فذلك كُفرٌ، وليس خيانة»، أجبتها.

«جِدْ لي أحداً» ، قالت ناتالي بصوتٍ استعادَ اتِّزانه .

«سأجد لكِ أحداً . أعِدُكِ . سأرسمك في سرير رجلٍ آخر» ، أجبتها .

«مادمتُ سأخون ويستروم ، في لوحة من رسمك ، فاجْعلِ الخيانةَ وقحةً ، صادمة» ، قالت ناتالي .

«أتعنينَ أن أرسمكِ مع رجل في موقف خليعٍ جداً ، فاضحيْنِ في عُرْيكُما؟» ، سألتُها ، فردت :

- ارسمْني مع أربعة رجال في سريرٍ واحد .

لم أتجه مساءً إلى مَشْغلي من الباب الفاصل بينه وبين المطبخ ، بل إلى الحانة الفقيرة الأثاث ، في الجهة الجنوبية من سوق الضاحية التي أسكنها . لا أحب الحانات بعامَّة ، وبخاصَّة هذه الكئيبة بروَّادها القلائل من سكارى فنلنديين ، وأفارقةً تدبَّروا مواعيد لهم فيها مع نساء مسنَّاتٍ يكبرنهم بعديد من السنين . وهم يحصلون من ذلك الفارق في العمر على دلال شقراوات بالأصباغ غادرتهن الشقرة من زمنٍ . هم راضون . هُنَّ راضيات : إنه ما أراه من رقصٍ شاحب في الضوء الشاحب ، على موسيقى يُسقِطون نقوداً معدنيةً في صندوق ذاكرتها ، في ركن من الحانة أُخلِيَتْ مناضده .

في ست سنين لم أزُرْ تلك الحانة إلا ثلاث مرات بدت متطابقةً بكل تفصيلٍ فيها : الضوء الشاحب . الرواد القلائل أنصافَ نائمين من أول المساء . نساء جاوزن الستين ، بيضاوات شقراوات ، في صحبة شبانٍ سود . مناضد فوضى أزيحت عن مواضعها بعد انتظام فلم يُعِدْها أحدٌ منتظمة . نادل وراء الحاجز المسطبة يشرب عصيراً ، ويبادل الأصدقاء ثرثرةً على شاشة هاتفه المحمول .

ما الذي يجعل حانة كتلك قادرة على مغالبة إفلاسها؟ عنادٌ الكسل ربما. عناد التجاهل أنَّ الزمن، في الحانة، بمنأى بعْدُ عن صِدام يُسرِّعنه، أو يُبطئه. وأنا طلبتُ من النادل، على غير عادتي في الشراب، صنفين متجاورين: قدحَ بوربون، وقدح جعة معاً، مقلِّباً عقل قلبي بين حديثي السابق مع ناتالي، وبين نشوء الثقوب السود. وقد وجدتُني، بعد قدحين متتاليين من كل شراب، أميل إلى مصاحبة المُلغزِ الجَسُورِ، الهاذي؛ أعْني صِدامَ الأجرام، والثقوب، وغزوات النجوم للكواكب والكواكب للنجوم، وانتحار المجرات، وتحالفَ النيازك.

«ما هذا؟»، ساءلتُ نفسي سؤالَ العجب الكُليِّ: «انثنى فضاءُ الكون؟»، إنه ليس خبراً، في الأرجح، بل نَظْمٌ من أشعار الفيزيائيين، وذلك يريحني. يريحني تتبُّعُ أخبار الرياضة العضلية، وليس أخبار الفن والرسامين. عضلاتُ مدهشة النَّظْم بقوة البلاغة في الحديد تدريباً. رجال متناسقون عضلاً حتى السخرية من التناسق. بعضهم في البناء الهاذي لأجسادهم كُتَلاً منفوخة، أقربُ إلى وحش الآلهة الخدَّام، والجلاوزة الحرس، بوجوههم المعروقة من شدة الرَّهَقِ في التمارين.

عضل لن يدوم. خلوده هو تلك الصورة التي ستُضاف إلى سِجل عمالقة الأجساد البليغة في ترجمة العضل إلى ذهولٍ. أما الرسم البليغ في ترجمة اللون إلى وقتٍ لا يقدر الوقت على إخلائه، فرسم يدوم. الرسومُ البليغةُ دوامٌ خلودٌ، والعضل البليغ لا يدوم.

ما لا يدوم يجذبني في الطبقة الأرضية من طبقاتِ عقلي. أما الكون المتقشِّف في اعترافاته، فهو يجتذب الطبقات الباقية السبع الأخريات السماوية من طبقاتِ عقلي. وتلك كانت حالي في

جلوسي ، ذلك المساء ، إلى منضدة صغيرة في الحانة ، سارحاً بين ما يدوم وما لا يدوم ، لولا إشارة النادل من بُعْدٍ إليَّ بيده ، يُلفِتُني إلى شيءٍ مَّا ورائيَ .

التفتُّ إلى الوراء : لا أحد . أعدت النظر إلى النادل خلف حاجز المسطبة غيرَ مدركٍ غايتَه من الإشارة بيده إليَّ ثم إلى جهة أخرى .

كرر النادل الإشارة إلى موضع ورائي ، ثم رسمَ في الهواء إطاراً وهميًا ، مربعاً ، بيديه معاً . أَقَصدَ النافذَة؟ استدرتُ إلى النافذة خلفي ، على بُعد أربع مناضد ربما . كان وجهٌ غارقٌ في شحوب الضوء الساقط عليه من النافذة يحدِّق إليَّ ، فيما تنقرُ أناملُ نقراً خافتاً على الزجاج المزدوج .

أنا لم أسمع النقر قبلاً . سمع النادلُ النقْرَ الذي يخصُّني بإشارته ، ولمحَ الوجهَ فنبَّهني إليه .

حدَّقتُ مليًا إلى النافذة قبل أن تتطابقُ الصورُ في ذاكرةِ بصريَ : إنه عدنان ، سائح الكلاب ، وكانت تلويحتُه ، إذ أدرك أنني عرفته ، تلويحةَ الداعي المنادي إلى لقائه خارجاً .

نهضتُ في تكاسُلٍ بَرَماً مسبقاً من لقائه . خرجت من الحانة إلى الظلام المتشقِّق بمصابيح الشارع الصُّفر الإضاءة ، في الطقس الجاف ، البارد قليلاً تحت السماء بنجوم من نَثْرِ النور .

لم أتمالك نفسي ، وأنا أتقدَّم إلى عدنان ، من إطلاق الكلمات بنَبْرٍ توبيخ :

- ماذا الآن؟ أأنت تتبعني ، أم تترصَّدني؟ .

أشار عدنان من فوره إلى ركن معتم من ملتقى جدار الحانة بمبنى مستطيلٍ حضانةٍ للأطفال في ساعات غياب أهليهم عنهم . لمحتُ

شبحين يخرجان من الركن المعتم . عرفتُ الداعية . لم أعرف الآخر لأنني لم أره قبلاً .

بادرني الداعية إحسان بتقديم رفيقه الجديد :

- هذا أخونا الشيشاني علي عمروف .

«شيشاني؟!» ، تساءلتُ مستغرباً . تأملتُ الشاب البالغ ثلاثينه ، الكبير الرأس . لم أستطع تحديد ملامحه ، وألوان ثيابه ، الواضحة أنها قميص صوف سميك جداً ، طويل ، وبنطال واسع : «أهذا اجتماعٌ لإعلان حرب؟» ، أضفتُ .

«هو من ساكني لوحتك مثلي ومثل عدنان ، يا سارات» ، قال الداعية .

أطلقتُ زفرة . أخرجت من جيبي علبة التبغ . أشعلتُ لفافة متحيِّناً وجودي خارج الحانة التي لا يُسمح بالتدخين فيها .

مشيتُ إلى الساحة المرصوفة خشباً ، والمحاطة بسور صغير أمام الحانة يهيئون المناضد فيها صيفاً لروَّادها . اتكأت بمرفقي على السور منحنيَ الجذع .

«لماذا تتبعوني؟» ، تساءلت . «حين أنهي لفافتي سأعود إلى الداخل» .

«لا نتبعك» ، رد عدنان . «أراد أخونا الشيشاني أن يسمع منك كيف سترسمه ، وقد جئناك به» .

«عن أيِّ رسم تتحدثون؟» ، تساءلت متبرماً ، فردَّ عدنان ببعض العتاب في نبْرِ صوتِه الخشن :

- كُفَّ عن هذا ، يا سارات .

«أكفُّ عن ماذا؟» ، تساءلتُ ممتعضاً .

«عن ادعائك أنك لم تقرر بعد، أو لم تفكر بعد، أو لم تختَر الألوانَ بعد، أو لم تتخيَّل الجهة التي سترسمها من جبل سنجار، أو من سيكون في لوحتك ومن لن يكون»، قال عدنان بصوتٍ متلاحق، فقاطعتُه:

- متى أخبرتك من سيكون في لوحتي ومن لن يكون؟.

«لا يحتاج الأمر إلى تصريح منك، يا سارات. سنكون في لوحتك»، رد عدنان. أضاف: «سَيكون آخرون في لوحتك، وستستبعد بعضاً فكرتَ في إضافتهم إلى الرسم، لكنك لا تريد إثقالَ الرسم بالمزيد».

«لماذا لا ترسم أنت لوحتي، يا عدنان؟ ها تعرف كلَّ ما فكرت وما لم أفكر به. سأعيركَ مشْغَلي»، قلت. رميت لفافتي التي لم أُنْهِ نصفها أرضاً. وطأتُها. أشرت برأسي إلى باب الحانة:

- لن أقف هنا. ادخلوا أو ارحلوا.

«هذه حانة»، قال عدنان بصوت مستنكر.

«حانة؟»، غمغم الداعية مستنكراً بدوره.

«نعم. حانة»، قلت. «ألستُم في محنة؟ ما الذي سيضيفه إلى المحنة لو دخلتم إلى الحانة؟».

«لا يقبلون دخول الكلاب»، عقَّب عدنان.

«كلاب؟!»، تساءلت.

أشار عدنان إلى موضع معتم تحت شجرة صنوبر جُزَّت من أعلاها، فتمدَّدت غصونها أفقياً، وتهدَّلت. رأيت أشباح الستة الكلاب هادئةً، ساكنة كأنها دُمى.

غمغمتُ محتاراً:

- أتسوِّح الكلابَ في الليل أيضاً ، يا عدنان؟ .

«هِي كلاب ميتة ، يا سارات . أتجوَّل بها النهارَ والليلَ» ، رد عدنان .

«سأرسم كلاباً ميتة . أُقسِم على ذلك» ، عقَّبتُ . التفتُّ إلى الشيشاني : «من أين أنت؟» .

«أخبرتك أنه من الشيشان» ، رد الداعية .

«أهي دولة؟» ، تساءلتُ .

«أأنت تسخر؟» ، سألني الداعية ، فهززتُ رأسي نافياً :

- لا . قطْعاً . لا أسخر . لقد كثرت الدول بعد الخراب السوفياتي ، فلم أعد أعرف هل الشعوبُ دولٌ ، أم الدولُ شعوب؟

لمس الشيشاني كتفي في رفق . سألني بالعربية الفصحى مدوَّرة زوبعةً من اللُّكنة على لسانه :

- أتتكلم اللغة العربية؟ .

ابتسمتُ للاظرافة سؤاله . أجبتُه بالفصحى :

- أأنا أكلم رفيقيك بالسنسكريتية؟ .

«الفصحى هي اللغة العربية» ، عقَّب الشيشاني على ردي . «لغة الله» .

استدرت إلى الداعية متسائلاً :

- بكمْ من اللغات تتخاطب شعوب دولة الخلافة؟ شيشان . بوسنيون . عرب . أتراك . سايبيريُّون .

«ليس بيننا سايبيريُّون» ، ردَّ عليٌّ الشيشاني . «هناك شيعة سايبيريون مع الإيرانيين في سوريا ، وشيعة من آلاسكا ، ومن جنوب أفريقيا» .

«لا مثيل لسوريا اليوم بكثرة اللغات فيها . هذه نعمة الجهاد» ، عقَّبتُ على معلومات الشيشاني .

«كثرت فيها لغات الجهاد . وستغدو أكثر بإذن الله» ، قال الداعية .

«جهاد الشيعة أم السُّنة؟» ، تساءلت .

«لا عِلمَ لك يا سارات ، بأحكام الجهاد ، وقواعد التكليف» ، قال الداعية .

«سأعود إلى الداخل ؛ إلى لغة صِدام الثقوب السود الكونية» ، قلت منقِّلاً بصري على وجوههم .

«ماذا؟» ، تساءل الداعية ، فأجبتُ بتمتمةٍ لا أعرف مدى بلوغها أسماعَهم واضحةً :

- لغتكم لغة العاصفة بعد صِدام الثقوب .

«عمَّ تتحدث؟» ، تساءل عدنان .

«عن نشوء الكون» ، أجبت . مضيتُ صوب باب الحانة ذي النصف العلوي الزجاج يُرى منه الجالسون في الداخل ، فتبعني الشيشاني . وضعت يدي على مقبض الباب مستديراً إليه : «أستدخل معي؟» ، سألته بالفصحى مبتسماً ، فهز رأسه نفياً . تكلم بصوته المعتدل النَّبر متأنِّياً في ألفاظه العربية :

- لا تستطيع أن تفعل هذا بنا .

انتبهت ، في الضوء الشاحب ساقطاً على وجهه من زجاج الباب إلى شقرة تُمازجُها حمرةٌ في شعره الطويل ، ولحيته المشذبة . بل أظنني لمحت ، أيضاً ، زرقةً على خضرة في عينيه .

«ما الذي لا أستطيع أن أفعل بكم؟» ، تساءلتُ ، فرد :

- أن تتركنا وتدخل الحانة .

هأهأتُ متصنِّعاً ضحكاً :

- أأنا محتَجَز في معسكر خليفتك؟

«حفظه الله» ، قال . أضاف : «لم نتفق ، بعدُ ، كيف سترسمني؟» .

لحق بنا الداعية ورفيقه ، وهما يتمتمان كأنما يقنعانني ، بلا كلمات ، أن أبقى معهم قليلاً .

«أراكم غداً وأنا عائد من التسوُّق» ، قلتُ ، مضيفاً : «في وسط الغابة ، وليس على مداخلها» .

سارَرَ الداعيةُ رفيقه عدنان همساً استفزَّني :

- عدتَ إلى عادتك ، يا إحسان . خاطبْني إن أردت مخاطبتي .

همَّ عدنان بالكلام فاحتدمتُ قليلاً :

- لا تنقُل إليَّ ، بعد الآن ، أيَّ شيء يقوله الداعيةُ همساً . لست وسيطاً .

دفعت باب الحانة دالفاً إلى جوفها . مضيتُ إلى منضدتي الصغيرة تحفُّها ثلاثة كَرَاسٍ . أومأتُ للنادل إذ وجدتُ قدحيَّ - قدح البوربون ، وقدح الجعة - فارغين ، أن يأتيني بمثلهما شراباً . رميتُ نظرة مختلسة إلى الباب . كانت الوجوه الثلاثة محتشدة خلف نصفه الأعلى الزجاج . تجاهلتُها ، صارفاً طبقةَ عقليَ الأرضية إلى شأن لم أُقْسر نفسي عليه منذ سنين ، أعْني السفرَ .

لا أحب السفر . لا ، ليس هذا صحيحاً . الصوابُ أنني أكره المطارات - الأمكنةَ الذلَّ .

المطارات أكثر الأمكنة غدراً بأحاسيس الإنسان . كل مطارٍ مكان

غـدرٌ بالمكان ، تمزيق للمكان ، احـتـقـار للمكان ، عـبثٌ بالمكان ، ذبحٌ للمكان ، ولهـو بجـثـة المكان على شكل شـديد الانتظام . المطار أكـثـر الأمكنة تفـاهةً من ابتكار خـيـال الإنسـان للأمكنة التـافـهـة . المطارُ سقوط . المطارُ بعثٌ خطأ للعبور إلى قيامة الجهات . كان ينبغي الإبقاء على الطرق الأرضـيـة وحدها للوصول إلى الأرض . طرق الطيـران في أقاليم السماء مزاجٌ لا يستسيغهُ عقلُ المصادفة العادلة .

سـمعتُ نقراً . عرفتُ مصدره من غير نظر إليه : إنها أنامل جنود دولة الخـلافـة الثـلاثـة على النصف الزجـاج من باب الحانة .تجـاهلتُ . تجاهلتْ أمُّ الأرض نقرَ الحديد بأناملَ دم على الزجاج الرقيق في قَدَر سـوريا . جنود دولة الخـلافـة الإسـلامـيـةً ، وفـقـهـاؤها ، ومـشـرِّعـوها ، وأئمتـها ، وخليفتها ، لم يلتزموا هذا القَدْر من الوحشية إلاَّ بالقدْر الذي التزم به المتجاهلون ، من أنظمة الأرض ، تجاهُلَهم للوحشية .

كلهم ابتكروا الدولة الإسلامية المتوحشة تعويضاً عمَّا لم يستطع التاريخُ أن يتدبره من برهانٍ على أنهم كانوا أقل وحشية في أخلاقهم ، أو في عسفـهم ، أو في تثبيت قوائم المصالح على جثة الإنسـان . ربما أزمع المتغاضون ، عن سبق إصرار وتصميم ، أن يعيدوا على خيالهم ما كانَهُ العالمُ ذات يوم من تَرَف إنسانه المتوحش ؛ أن يعيدوا العالمَ قبائل صيد من آكلي لحوم نوعهم . وقد أفلحوا .

ها نحن ندفع للموتى المتوحشين ضرائبَ الحياة من نقود البؤس ، ونقود الهجرة ، ونقود الخوف . ها هي الحياة بلا أمل في انتحار رحيم .

أعطتنا المصادفةُ أمكنةً في دول الانتحـار الفظِّ . كلُّ دولةٍ رُكِّبتْ مفاصلها على خطأ في التركيب ، والشعوب تدفع الثمنَ مجازرَ عن كل خطأ : مجـازر الحرية . مجـازر اللحم الحيِّ . مجـازر الإقـامة في المكانِ

المجزرة . مجازر الوجود في ظلال الجزارين .

ما الذي فعله المشؤوم ، سليلُ الشؤم ، حسين أوباما؟ أعاد للروسي هيبةَ المتوحش ، وسخَّر وزيرَ خارجيته بتنازلاتٍ قدَّمها من تجاهله مجازر سوريا ، ليكونَ حاملَ السراويل الداخلية الوسخة لوزير الخارجية الروسي في مؤتمرات القبول بالحلول الإيرانية الدموية لشقاء السوريين .

نقرتُ بأناملي على المنضدة الخشب الرثة . أثرتُ فضولَ النادل برهةً قبل أن يعود إلى هاتفه برسائل ابتسم لها .

صرَّ بابُ الحانة . دخل رجلان كهلان . لمحتُ من ورائهما قَدَما امتدت تحجز إغلاقَ الباب : «سارات» ، ناداني الداعية .

وضعَ النادل قدحيِّ الشراب على منضدتي ، ملتفتاً إلى باب الحانة بنظرةاستنكار لتلك القَدَم تُبقي البابَ غيرَ منغلق ، فيما صاحبها باقٍ بجسده في الخارج .

«أتعرفه؟» ، سألني النادل ، فأجبته ناهضاً :

- كل أوربا تعرفه .

مضيت إلى باب الحانة ببعض الغضب متسرباً مع الدم من قلبي . فتحت الباب . دلفتُ خارجاً .

«مابكم؟» ، قلت بنبرٍ فيه احتداد واضح . «لن أرسم شيئاً . لن أرسم أحداً» .

«أنت تخيفنا ، يا سارات» ، قال عدنان .

«كيف أخيفكم وقد خوَّفتم الكون؟» ، سألته .

«نريد دقائق من وقتك . لن نثقل عليك . أخونا الشيشاني يريد إخبارك ببعض حكايته ، لا أكثر» ، قال الداعية بصوت فيه لينٌ ليهدِّئني .

«ماذا أفعل بحكايته إن رواها؟» ، تساءلتُ ، فرد الداعية :

- ربما تُعينُك على رسمه في موقف من وحيها .

«أعرف حكايته» ، قلت هامساً . «هي كحكايتيكما : اشترى جارية . باعها ، أو قتلها . أُعدم» .

اقترب الشيشاني محدِّقاً إليَّ بعينين انعكس عليهما الضياء المقذوف ، من عمق الحانة ، إلى النصف الزجاج العلوي من بابها : «ترجمْ لي ما قلتَه» ، قال بلكنة من فصحى العربية المنتفخة بين شدقيه ، متململاً أمامي بقامته الرَّبْعة .

«اشتريتَ جارية . قتلتها ، أوبعتَها ، وأُعدمتَ» ، قلت بالفصحى .

«لا» ، ردَّ وهو يهز رأسه نفياً بلحيته الملتمعة حرَّةً ، مشذَّبة ، في وجهه الواسع .

مشيتُ إلى شجرة الصنوبر المجزوزة من نصفها الأعلى ، بحكمة لم أفهمها ، فتشعَّثت غصونها أفقياً وتهدَّلت . مشى عليٌّ إلى جواري . وقفتُ في العتمة الكثيفة تحت الشجرة ، قريباً من الستة الكلاب رُبطت مقاودها إلى غصنين واطئين . أشعلتُ لفافة تبغ ، وأصغيت .

اشترى الشيشاني فتاة أيزيدية ، في الرابعة عشرة عمراً ، من مدينة الرقة بستمائة دولار . هو في الحادية والثلاثين ، من بلدة على ضفة نهر تِيْرِيْك المتفرِّع شرقاً في اتجاه داغستان ، وغرباً في اتجاه روسيا .

نهرٌ تلتمع على الحجارة ، في مجراه ، صور القوزاق بالقبعات اللَّبود البيض ، في عبورهم تاريخَ الماء بلا بلل ، وفي طينه الصدى الصهيلُ لجياد المغول في حروبهم الأهلية . كان ينبغي أن يكون اسم النهر هولاكو ، وليس تيريك . بَرَقَ المكانُ وأرْعدَ بصدى من صوت هولاكو ،

وعَرِقَت السماءُ عَرَقاً بارداً في لحاقها برياح جنوده الذين ضاقت عليهم الآفاق .

لم أسمع صوت مغوليٍّ قط . قد يشبه نبرَ صوت الشيشاني أو لا يشبهه . لكن صوت علي عمروف ، بالكلمات العربية الفصحى المتزحلقة لُكْنةً في فمه ، انفلقَ عن بزرة أنبتتْ ، في العتمة تحت شجرة الصنوبر المجزوز نصفها ، أشباحَ مغول على الجياد في ساحة الحانة ، فوق الخشب المرصوف مربَّعاً كبيراً لمُنازلات الشراب صيفاً تحت النجوم في الليل ، وتحت المظلات الواسعة في النهار .

كيف يصير الصوتُ صورةً أحياناً؟ الروائح تعرف ذلك . الروائحُ صورٌ بدورها ، والصوتُ يستلهم الرائحةَ في الخصِّيصة هذه . للرائحة ذاكرةُ صورةٍ ، وللصوت ذاكرةُ صورةٍ أيضاً . وأنا كنتُ أرى صوت الشيشاني بعيني قبل سماعه بأذني ؛ كنت أرى الصوتَ أقاليمَ واسعة بشعوبٍ فيها .

الصوتُ تاريخ . ما تعرفه من صوتٍ هو تاريخٌ تعرفه ، وما لا تعرفه من صوتٍ هو تاريخ لا تعرفه . صوت الشيشاني ، بالكلمات المتكلِّفة من الفصحى ، كان التاريخ الذي لا أعرفه ، لكنني أراه . عيناي ترجمتا الصوتَ لا أذنايَ . نعم . قال لي : «لم أقتل جاريتي . لم أُعدَم» .

إذن ، لم يبعْ عليٌّ الأيزيديةَ التي اشتراها من موضع في الرقة . لم يقتلها . وهو لم يُعدم كصاحبيه الداعية وسائح الكلاب : لقد تشمَّم ، بأنف الخيال الذَّكَر الذي فيه ، ما يريبه من أخيه خليلوف ، الذي يكبره بسنتين . تشمَّم نظرات أخيه إلى جاريته الأيزيدية ذات العينين الشهلاوين ، والشعر البني الفاتح على حمرة . تتبَّع حركات أخيه في زيارة بيتهما . قاسَ الوقتَ المتقاصر بين الزيارات . ترجم لنفسه نبْر

صوت أخيه كلما خاطبَ الأيزيدية متصنِّعاً إغضاءً من مراتب التقوى .

لم يستطع عليٌّ مغالبةَ شكوكه . أراد يقيناً على وساوسه فمضى إلى أخيه في مدرسة دُعيتْ «مدرسة الشيشان» . تنحَّى به . سأله بلسانٍ عارٍ :

- أتستهويك جاريتي؟ .

«مابك؟ أنت أخي» ، رد أخوه خليلوف ، فأعاد عليٌّ السؤالَ :

- أتستهويك؟ .

«إنها مُحْصَنَة ، في عِصمة مؤمن هو أخي» ، رد خليلوف .

«لسانُك يراوغ» ، قال علي لأخيه . «أتستهويك؟» .

زعمَ الشيشاني لي أنه لو حصل من أخيه على اعترافٍ أن جاريته الأيزيدية تستهويه لطلَّقها ، وزوَّجها أخاه خليلوف .

«أتستهويك؟» ،كرَّر عليٌّ سؤاله على أخيه للمرة الرابعة ، فردَّ خليلوف رداً تحوجه ترجمةٌ على أربعين صيغةً كي تُفْهَم :

- كل أنثى على الأرض هي ظلٌّ حورية من حُور الجنة . كلُّ أنثى تُستهوى ، لكن تؤجَّل على الأرض لبلوغ الأصل في السماء .

أطلق عليٌّ طلقة واحدة من مسدسه على صدر أخيه . قُتل خليلوف من فوره .

اقتيد عليٌّ إلى السجن ، فاستاء فصيل من المقاتلين الشيشان . اعتبروا الأمرَ خلافاً عائلياً يجب إبقاءُ الحُكْم فيه محصوراً بالشيشانيين .

تمرَّد علي عمروف ، في المحكمة ، على القاضي بإعلانه رفضَ أيِّ حُكْم عليه . تسامحَ الشرعُ بتسامح أهل الفتاوى : قُبلت منه ديَّةٌ مائة وعشرون دولاراً يدفعها للزوجة الأرمل - زوجة أخيه ، وتنظيف

مراحيض المعسكرات .

عاد علي إلى جاريته الأيزيدية ، مُزْمعاً تمام الزَّمَعِ على تعليمها لغة أهله على ضفاف نهر تيريك ، بلُكنتهم المائية .

بعد يوم واحد كمنت له زوجة أخيه قرب دكان لبيع الفواكه والبزور ، وبعض الحلوى . وإذ رأته خارجاً من البيت كشفت عباءتها عن بندقية كلاشنيكوف . أطلقت عليه إحدى عشرة طلقة ، ثم صعدت سلالم العمارة التي من طبقتين فأرْدَتِ السبيَّةَ الأيزيدية بتسع طلقات .

يوم اشترى علي عمروف الفتاةَ المسبية ، سمع مشادةً بين اثنين على شراء يزيدية من عشْرٍ جُمعن في مبنى من فروع المحكمة الشرعية . روى الشيشاني لي حكايتهما باستظراف :

قال الأول يُقْنع الآخر بالتخلي له في المنافسة على شراء الفتاة :

- سمعتُ صوتها في حلمي .

سأله الثاني :

- ماذا قالت؟ .

رد الأول :

- أن أنجب منها ولداً .

سأله الثاني :

- بأية لغة سألَتْك هذه الكردية؟ .

رد الأول :

- كل اللغات مفهومة في الحلم .

قال الثاني بمنطق المساومة لا بمنطق حلم منافسِه :

- سأدفع أكثر .

توسله الأول :

- سمعتُ صوتها في حلمي . هناك فتيات أخريات ، يا أخي المؤمن .

رد الثاني :

- أنا رأيتها ، في حلمي ، على صورتها هذه ، كما هي .

تساءل الأول مستنكراً :

- أأنت أيضاً رأيتها في حلمك؟ .

رد الثاني :

- أنت سمعت صوتها ، وأنا رأيت صوتها . من الأَوْلى بها؟

تدخَّل أمين صندوق المال في فرع المحكمة الشرعية . سألَ الأولَ :

- أسمعتَ صوتَ الفتاة قَبْلاً؟ .

رد الأول :

- في حلمي .

عقَّب أمين صندوق المال :

- ربما لم يكن صوت هذه الفتاة .

تدخَّل الثاني مستغلاً ثغرة في منطق الأول . توجَّه بصوته إلى الفتاة المعروضة للبيع :

- قولي : العزة لله ، يا فتاة .

قاطعه الأول :

- أيحق لواحدة من أتباع الشيطان ذِكْرُ الله؟

رد الثاني :

- لماذا تريدها ، إذاً؟ .

أجابه الأول :

- سيكون لي الأجر عند الله بإعلان إسلامها عن يدي .

قاطع أمين صندوق المال الإثنين مخيِّراً :

- لقد أعلنت الفتاة إسلامها . فلْنحتكم إلى ما تدفعان فيها ثمناً .

ذكَر الشيشاني علي عمروف أن سعر الفتاة بلغ في المزاد عليها ، ثلاثة آلاف دولار .

أسعار قوية حقًا . ماذ يشبه مزاد بيع الأيزيديات؟ شيء واحد يُقارنُ به قطْعاً : أنَّ سليل راسبوتين ، قيصر روسيا الجديد بوتين ، نبت قويًا بسمادٍ من روث أخلاق حسين أوباما . سعره في المساومات على أوكرانيا والقرم بات عالياً بعد احتلاله سوريا بمعاهدة مفتوحة مع حاكم سوريا العلوي . نعم . ربما يقارن بمزاد بيع الأيزيديات فرادةً أن أول رئيس أسود لأمريكا يحمل تحت جلده كل لا أخلاقيات رؤرسائها البيض منذ نشوئها .

أسعار قوية حقًا : سعر بوتين غالٍ في تهديده غير المعلن بإغراق أوروبا بالهاربين السوريين من قصف طائراته ، وقصف تابعه الحاكم للمدن ببراميل الهول .

سعر حسين أوباما غالٍ في خفض الأخلاق كأسعار النفط المنخفضة في وقته . كيف أشرح ذلك؟ لا أعرف . الإحساس بضراوة بقاء السوري وحيداً في طحن الآخرين لحمَه وقَدَره ، وحده قد يشرح .

«حسناً ، يا علي» ، قلت للشيشاني معلناً اكتفائي بذلك القَدْر من سيرة مصيره ، فبادرني بسؤال يقْطُرُ فضولاً :

- الآن ، وقد عرفت شيئاً عني ، كيف ستستوحي رسمَك لي ممَّا قلتُ؟ .

«سأرسم زوجة أخيك» ، أجبت .

تبلبل الكلام في فمه . غمغم متحيِّراً :

- زوجة أخي؟!! .

لم أعلِّق على حيرته . نظرتُ إلى أشباح الكلاب في العمق المعتم تحت شجرة الصنوبر ، المصعوقة الغصون من بتْرِ جذعها الأعلى . خبطتُ بقدمي الأرضَ استثيرها ، فظلَّت كالتماثيل على سكونها الأخرس .

تلقَّاني الداعية ورفيقه ، في توجهي نحو باب الحانة ، بسؤال خفيض :

- أسمعتَ الحكاية منه؟ .

«سمعتُ حتى ما قالته زوجة أخيه» ، أجبت على نحوٍ مُبهم .

«أأراك ندوب الطلقات في جسده؟» ، سألني الداعية ، فأجبتُه :

- أسْمَعَني صوتَ الطلقات .

زعمتُ لنفسي ، وأنا أدلف إلى الحانة ، أنْ لكل سلاح صوتاً من طلقته يمكن إقرانه بمظاهر من حياة المجتمعات . صوت طلقة الكلاشنيكوف يشبه النثر في مقالات صحافة المجتمع ، وأخبار المشاهير ، وإحصاء مبيعات تسجيلات الأغاني ، وإيرادات أفلام السينما الأكثر حظًّا من الفوز بغباء المشاهدين .

صوت طلقة المسدس لا معنى بإقرانه بما يشبهه من تحيات الصباح الفاترة بين الجيران خارجين ، في الوقت ذاته ، من البيوت إلى أعمالهم . لكن صدى الصوت قصير كأغنية قصيرة تُؤدَّى مع رقصة في مشهد تصويري مسجَّل لا نعرف مدى التلفيق في تركيب الرقصة ، بضبطها تقطيعاً وتوصيلاً . إنها رقصة جيدة ، متقنة ، ملفقة في حِذْقٍ على قَدْر ما يقْدِرُ عِلْم التصوير على تلفيقه قويًا ، متقَناً .

سألني الشيشاني، قبل أن أفترق عنه تحت شجرة الصنوبر، وهو يَعُدُّ مواضعَ الطلقات في جسده من بندقية أخيه نفسها، التي قتلته بها زوجته الأرمل:

- هل أطلقتَ النار من سلاح؟.

«لا»، أجبته. «لكنني رسمتُ أناساً أُطلقتْ عليهم النيران».

«لا يشبه إطلاقُ النار عليك إطلاقكَ النار على شخص»، قال الشيشاني. «اهتزاز السلاح في يدك بخروج الطلقة منه ليس كاهتزاز لحمك من دخول الطلقة فيه». أردفَ: «للسلاح في يدك لغةٌ، وللسلاح في يد من يُطلق النار عليك لغةٌ أخرى». تحسَّس جسده من فوق القميص الصوف السميك جداً: «إنني ألمس الندوب. هات يدك».

كنت رفضت قبلاً لمس مواضع الندوب في جسده، لكنني مددت يدي إلى صدر قميصه فلمسته، ثم استعدتُ يدي:

- أنا أراها.

«لم تلمس موضعَ ندْبة بعدُ»، تمتم، فأكَّدتُ:

- لا أحتاج إلى لمسها لأعرف مواضعها. إنني أراها.

حدق الشيشاني إلي في العتمة بعينين لم أرهما جيداً، محيطا وجهي بنظرة استفسار عمَّا عنيتُ من أنني أرى ندوب الطلقات في لحمه، فأوضحتُ:

- أفترضُ أنني أراها.

«لا تفترضْ. هي موجودة»، قال علي عمروف.

«هي موجودة، يا علي، وأنا أفترض أنني أراها»، قلت.

«إحدى عشرة ندبة. إحدى عشرة طلقة»، قال الشيشاني.

«إحدى عشرة ندبة» ، أكَّدتُ . «من إحدى عشرة طلقة أطلقتْها عليك أرملة أخيك من سلاحه» .

«أسترسمها حقًا؟» ، سألني ، فأجبت :

- هل مِنْ مانع؟ .

«هي التي قتلتْني» ، قال بنبرٍ منكسر .

«ألم تقتل أحداً؟» ، سألته .

«بل قتلتُ» ، أكَّدَ .

انعطفت بخيالي إلى موضع من خارج السياق ، مذ وجدت نفسي مختلياً بواحد من هدايا الذبح في مسلخ سوريا :

- مَن المقنَّع الذي ذبح تسعة أشخاص دفعة واحدة؟ .

«المعلِّم» ، ردَّ .

«المعلِّم؟!» ، تساءلت . «أهذا لقبٌ؟» .

«نعم» . ردَّ .

«مَنْ أوجد له هذا اللقب؟» ، سألته ، فردَّ :

- الرهبة .

«الرهبة؟» ، تساءلت .

«يعلِّم الرهبةَ» ، رد الشيشاني . «القلوب ترتجف منا في الأرض . ترتجف الرُّكب» .

«أأنت معلِّم ، أيضاً؟» ، تساءلتُ ، فرد مستغرباً :

- معلِّم؟ .

«ما مهنتك في السويد؟» ، سألته .

«كراهية الروس» ، ردَّ بتلقائية من فوره .

لم أُلْقِ بالاً إلى ردِّه . عدتُ بالسؤال إلى مَن سماه «المعلِّم» :

– صِفْهُ لي ، يا علي .

«مَنْ؟» ، تساءل ، فأجبته :

– المعلم . ذابح التسعة بالسكين .

«لماذا؟ أأنت مُخبر؟» ، سألني ، فأجبتُ مبتسماً في العتمة :

– أنا من جواسيس الرسم .

«أتريد أن ترسم المعلِّم؟» ، تساءل مُدرِكاً سبب رغبتي في أن يصفه لي ، فأجبت :

– نعم . وأريد رسم أطفال يطلقون النار على الرؤوس ، ويَذْبحون بالسكاكين .

أطفال من دولة الخلافة أطلقوا النار على رؤوس خمسة شبان ، في ثيابهم البرتقالية ، جاثِيْنَ أرضاً ، فيما نَحَر طفل بالسكين سادسهم هكذا نقلتِ الصورُ المتوحشة فَخْرَ دقَّتها في التوثيق إلى العالم .

«أنت مفيد» ، عقَّب الشيشاني على رغبتي في رسم «المعلم» الذباح ، والأطفال الذبَّاحين . أضاف : «ستفيدنا في إرهاب الكفرة باللغة التي يفهمونها» .

«كيف تتفاهمون في دولة الخلافة على تعدُّد لغاتكم؟» ، سألته ، فردَّ :

– بيننا ترجمان ليس كترجمانات العالم .

«أيعرف اللغات كلها؟» ، سألته ، فردَّ :

– نعم . الإيمان .

«فهمتُ» ، قلت تعقيباً ، فأردف الشيشاني مستطرِداً :

– قلوب المؤمنين تتفاهم بإشارات الأرقام الدهرية .

«ما الأرقام الدهرية؟» ، تساءلتُ ، فردَّ واثقاً بلُكنته المدحرجة

للكلمات الفصحى في العربية إلى مساقط معانيها :

- مدة عمر آدم عليه السلام ، ومدة إقامته في الجنة . سنة النبوة المحمدية . سنة الفتح الأول . مدة عُمر حوتِ يونس عليه السلام . مدى عمر النبي الخضر . عمر البُرَاق .

عليَّ أن أقتنع مع عليٍّ . نحن تائهون بين التلفيق وقدرة التلفيق على الإقناع . نحن تائهون في تلفيق مُقْنع . نحن ممتنُّون لأنفسنا أنها مقتنعة بالتلفيق . نحن والتلفيق متجاوران في إدارة الوجود بأحكام لا نعرف مبتكريها . لا يهم . أنا مقتنع . لكنَّ علياً أراد ، قبل انصرافي من تحت شجرة الصنوبر ، أن يعرف مني شيئاً يرضيه :

- أنت لن ترسمها ، يا سيد سارات .

«زوجة أخيك؟» ، تساءلت ، فردَّ :

- قاتلتي .

«كان قتلك رحيماً ، يا علي» ، قلت . «إحدى عشرة طلقة رحيمة . بِمَ أحسسْتَ في اختراق الطلقات جسدك؟» .

«كانت الأولى مؤلمة . العشْرُ الأخريات كنَّ ثرثرةً من فم الكلاشنيكوف» ، ردَّ عليٌّ .

ابتسمتُ لتعبيره ، فابتسم في العتمة . مدَّ يده فأمسك بذراعي في رفق :

- لماذا حَسبْتَ قتلي رحيماً؟ .

«قتلتم فتاة بوسنيَّة ، في الرقة ، ضرباً بالأحذية حتى الموت» ، أجبته .

«حاولتِ الهربَ» ، عقَّب الشيشاني .

«لِمَ لم تهرب أنت إلى بلدك؟» ، سألته بنبرٍ تهكُّم ، فاعتصرَ عَضْدي مبغوتاً مما قلت .

«بلدي؟» ، تمتم . «سيـحـيْنُ الوقت الذي تكون كل أرض بلدا لي» .

أفلتُّ عضدي ، في هدوء ، من بين أصابعه . سألته :

– أين تريد مَسْكناً ، بحقٍّ ، حين تمتد سلطة خليفتك على الأرض كلها؟ .

«الكرِمْلِن» ، رد الشيشاني .

«الكرملن؟!» ، تساءلت .

«نعم» ، رد الشيشاني . «قد أحكُم الكرملن ، من يدري ما يخبئ الله؟» .

«ماذا ستفعل إن حكمتَ روسيا؟» ، سألته ، فرد :

– سأبيع الروس لم يشتريهم ، بإذن الله .

«مَنْ سيشتري الروس؟» ، تساءلت ، فردَّ :

– مَنْ يشترِ خنزيراً يشترِ روسيًا أيضاً .

«ماذا ستفعل بالنقود الحلال من بيع الروس إلى من يشتريهم؟» ، تساءلتُ ساخراً ، فردَّ :

– سأستشير فقهاءَ الشرع .

عدت إلى الحانة بعد الحديث الخافت مع الداعية وعدنان إ سألاني ، بعد انصرافي عن الشيشاني :

– أسمعتَ حكايَتَه منه؟ .

«أسمعَني صوتَ الطلقات» ، أجبتهما .

جلست إلى منضدتي مصحوباً بالرنين الخافت من لُكنة الشيشاني بالفصحى العربية . نعم . كل بلد هو بلده حين ينضج وق قطاف الأمكنة . ممكناتٌ كُثر تفاجئ نفسها في الشرق الذي جن

منه . هو الشرق الذي كلما تقدَّم البشرُ فيه خطوةً تراجعت الحياةُ خطوتين ؛ كلما تقدَّمت السماء خطوةً تراجعت الأرض خطوتين ؛ كلما تقدَّم الحلمُ خطوةً تراجعَ التاريخُ ألف خطوة .

لا تُقاس المسافات بالخطى ، في الشرق الذي أنا منه ، بل بفراسخ الإهانة .

الأقوياء ، هناك ، يخافون أن يخسروا ، والضعفاء يخافون أن لا يربحوا قط . سأصرخ :

– أعطوني دراجة هوائية ، وأنا أعِدُكم أن أقطع تاريخَ الحكمة من أدناه إلى اقصاه ، في الشرق الذي أنا منه ، في خمس دقائق وبضع ثوانٍ . إنها المسافة الكاملة ، الحقيقية ، بين المبغى والمَحْكمة .

شروخٌ خفيفة أصابت خيالي ، السارح في رسم الخرائط المعدومة الأبعاد للشرق الذي جئت منه ، حين صَرَّ كرسيٌّ صراً عنيفاً من سحل قوائمه على الأرض : رجل طويل ، في معطف سميك كمعاطف الجنود السوفيات في الحرب الثانية ، والحروب اللاحقة كلها ، جرَّ كرسيًا ليجلس عليه ، في ثقل ، أمام منضدة قريبة ، خلفي تقريباً .

لم انتبه إليه حين دخل الحانة ، ربما لأنني تلافيت النظر ، بإصرار ، صوب الباب مخافةَ أن أرى وجوه أبناء دولة الخلافة وراء الزجاج في نصفه العُلوي .

قدحان آخران من البوربون ، والجعة ، حطَّا خفيفين بأجنحتهما على منضدتي . التفتُّ إلى ما وراء كتفي اليسرى إلى الرجل الطويل الشعر متنافراً خصلاً لم يُغْسَل ، في الأرجح ، منذ أسبوع . كان يحدِّق إليَّ من وجهٍ غير حليق . أهو في خمسينه؟ شعرٌ على شقرة خافتة . عينان محتجبتان في أجفانه المنتفخة . أومأ بتحية من رأسه . رفع

كأسه بالنبيذ أحمر فيه ، فاومأتُ رداً .

مضت برهتان ، او أكثر ، بعد تلك التحية ، فإذا بالرجل ينتقل إلى منضدة قُبالة منضدتي . جلس بوجهه إليَّ تحديداً . تأملني . باغتني بسؤال لا أعرف مدى الظرافة فيه :

- أأنت صيني؟ .

«صيني؟» ، تساءلت .

من يدري؟ ربما انقلبت عيناي حَوْصَاويْنِ كحال عيون أهل الصين ، في البرهة تلك ، مثل الظهور المعتاد للرسوم على جلدي كل صباح .

«حديقة الملذات الأرضية» ، للرسام الهولندي هيرونيموس بوش ، ظهرت بتفاصيل منها على جلد كتفيَّ ، وصدري نزولاً حتى أسفل السرَّة . اللوحة الأكثر كثافة في تاريخ الرسم ، أثقلت عينيَّ ، إذ تصفَّحتُ مجلد الرسوم في الليل ، بما لم يدقِّق فيه بصرُ قلبي على النحو الذي دقَّق هذه المرة : السكاكين . نعم . إنها السكاكين التي باتت ، في أيامنا ، تصنيفاً مضافاً إلى متخيَّلات الهلع .

كانت المقصلة ، في عصورٍ ، عقلَ إشباع للفتك بالجسد .

كان الخازوق ، في عصورٍ ، عقلَ إشباع للفتك بالجسد .

كان الدولاب تمغيطاً للجسد حتى تمزُّقِ المفاصل ، عقلَ إشباع للفتك بالجسد .

كان الحَرْق ، في عصور مطاردة الساحرات ، والهراطقة ، والمارقين عقلَ إشباع للفتك بالجسد .

والطرائق هذه كانت ، بتحصيل المعاني ، قبل الفتك بالأجساد وبعده ، تهويلاً بالمنع والردع .

أُضيف السكين ، في عصرنا ، إلى مُصنَّفات النَّكالِ بالأجساد ، إخضاعاً من أمهات الخوف وآبائه . وقد تلقَّف قلبي رسالة الهول من لوحة فيها سكاكين على مقاسات واضحة التطابق مع سكاكين دولة الخلافة الإسلامية .

ثمَّت فرق سيلحظه مؤرخو جماليات الرعب بين آلات النكال بالأجساد : الخازوق لم يوجد في البيوت . محرقة الأجساد لم توجد في البيوت . المقصلة لم توجد في البيوت . دولاب فسخ الأعضاء تمغيطاً لم يوجد في البيوت . لكنَّ السكاكين حاضرةٌ مشاعاً في كل مطبخ ، وعلى كل مائدة .

لوحة هيرونيموس بوش ، في المتعارَف من معلوم منطقها ، سيرة للخلق ، والجنائن النعيم ، والخطيئة ، فالقصاص على عقوق أبويٍّ النوع الإنساني . وتقديرات المراتب هذه معتَمدة على مظاهر الرموز صادرةً عن أخلاق الرسام الدينية ، وعقل معتقَده . لذا بنى الشرَّاحُ ظاهرَ الرسم على وضوح معانيه جليَّةً في تصاميم الحدائق نعيماً ، وكذلك ضراوة القصاص الكابوس بلا حدود ، مرعباً ، متوحشَ التفصيل في التنكيل .

متفحِّصون في الغوامض ، والمستورات البواطن ، من غيرِ شُرَّاح الظاهر ، أجازوا التأويلَ في عناصر الرسم على مذهبٍ مُضْمَرٍ لا يستظهره إلاَّ بصرُ المريدين السرِّيين من رموز إيمانهم بالوجود على عللٍ لم يَصفْها دِيْنٌ ، أو يَقْرَبْها مجتهدون في تقويم الخصائص ، أو يتعَقَّلْها كشَّافةُ المعاني الإلهية .

خمسمائة عام على رسم مقيم في الوسط بين شرح الظاهر من التبويب الديني للخلق ، فالإقامة في الحياة ، فالعبور منها إلى خلود هانئ أو شقاء خالد ، وبين قياس أسرار الباطن يتوخاه العقل المغامر في

تجاريبه على الرموز استنطاقاً لمغاليقها، ومقارناته للمعتقَدات المتحفظة بالكتمان على إفشاء مُلْغِزها: لقد منح هذا الرسمُ العصورَ حقَّ جباية الضرائب عن كل فنٍّ لا يُسْتَنْفَد، وعن كل كابوس لا يُستنْفد.

ما لا يُفشى سرٌّ سحرٌ. خمسمائة عام أغلق هيرونيموس الكثير من المداخل إلى توضيح رسمه. وسيستمر الأمر خمسة آلاف عام أخرى على النحو ذاته، لأن الرسام الهولندي رسمَ حدود الدول الإسلامية في العقل السري لقَرنه، وخبَّأ في الرسم إشارات إلى دول مثلها، بخلفاء ذوي ساعات ثمينة في معاصمهم، وأقراط ماس في آذانهم تحت العمائم، يتوالى ظهورهم واختفاؤهم على قَدْرٍ صياح الدِّيكة فوق أنقاض العالم القمامة.

لوحة «حديقة الملذات الأرضية»، في المعلوم المعروف، زيتية على خشب السنديان النبيل، في ثلاثة أجزاء على شمولها الخطيئة فالكوابيس، فالجحيم، وما تلاها أو لحقها. أمَّا ما ظهر منها مجتزأ على جلدي فحمل أربعة تفاصيل، ثلاثة لسكاكين، ورابع لصرخة.

في مقتطف منها على صدري صحن أزرق عليه يدٌ مقطوعة أُغمد فيها سكين. فوق أنملتي إصبعيها السبابة والوسطى نَرْدٌ.

في المقتطَف الممتد من كتفي إلى كتفي، مروراً فوق الجهة العا... من الصدر حتى النَّحر، فارس صريعٌ في درعه، يأكله حيوانٌ و... على طبقٍ تحته سكين ضخم هو الأكبر في المشهد المتلئ بالمعذَّبين.

في تفصيل على بطني، نزولاً حتى السرَّة، هيكلُ جسم حيوان مقطوع المؤخرة، مفرَّغٌ كبقية قشرة صلبة، ضخم، واقف على قائم كقوائم الدواب. وقد اتخذهُ البعضُ منزلاً يصعدون إلى جوفه بسلم. في أعلى الهيكل الحيواني المفرَّغ القشرة المتصلبة سكينٌ بين أذنين

التفصيل الرابع ظهر صغيراً في انتقاله من خيالي مرسوماً على جلدي ، أسفل السرة : صورة حيوان برأسٍ وسطٍ بين سِباع الوحوش والسمكة ، له أذنان ضخمتان ، منتصب علَى رجلَين هما قائمتا بقرة ربما . فمه مفتوح من ألم مذهل على سعةٍ ، مندلق اللسان بالتواءٍ في صرخة لا يتسع لها الرسم كله : إنه مصاب بسهم .

إن كانت تفاصيلُ من لوحة «حديقة الملذات الأرضية» بانت نابتةً بألوانها في بستان جلدي ، فلربما قَلَب خيالُ الليل عينيَّ مشقوقتين ذلك اليوم ، على خصائص العيون في مِلَلٍ من الشرق الأقصى .

«أأنت تمازحني؟» ، سألت الرجل ذا المعطف السميك جالساً إلى منضدة قبالة منضدتي ، إذ سألني : «أأنت صيني؟» .

«لا» ، رد الرجل المختبئ العينين في أجفانه المرهقة المنتفخة .

«إن لم يكن مزاحاً ، فهو ليس سؤالاً جاداً» ، عقَّبت على رده .

«لم تردَّ تماماً» ، قال الرجل . أعاد عليَّ سؤاله :

- أأنت صيني؟ .

حاولت أن أستنجد بزجاج ، أو معدن ، يعكس الصور . رفعتُ قدح الشراب عالياً أمام بصري فلم تنعكس عيناي عليه . فتحت كفي أمام وجهي متأملاً فيها كالنظر إلى مرآة . هززت رأسي :

- عيناي مستديرتان . أنا بومٌ صيني .

«بل عيناك حوصاوان» ، قال . «متنكرتان في عينين عاديتين . أأنت مَلِكٌ صينيٌّ؟» .

حوَّلتُ وجهي إلى النصف الأعلى الزجاج من باب الحانة . كانت وجوه مريدي دولة الخلافة بيِّنةً في الضياء الشاحب ، ساكنة ، تنظر ولا تُبدي إشارات .

لوَّحتُ للنادل رافعاً قدح الجعة بيد ، مع إصبعين مرفوعتين من اليد الأخرى علامة على رغبتي في قدحين .

جاء النادل بقدحَيْ جعة . سألته أن يقدم أحدهما إلى الرجل الجالس على مبعدة قليلة من منضدتي .

نهض الرجل مستأذناً أن ينضم إليَّ ، فاعتذرتُ من فوري :

- أنتظرُ أصدقاء .

انحنى الرجل لي مبالغةً منه في احترام رغبتي ، ثم عاد جالساً بلا استياء ، أو خيبة ، متمتماً :

- أنت الملك . نخبك .

رفعتُ قدحي أُبادله نخْباً . تجرع الرجل نصف قدح الجعة دفعة واحدة . وضع راحة يده أمام فمه يكتم تجشُّؤَه .

«سأحدثك عن ملك» ، قال الرجل . تلفَّت من حوله متصنّعاً بحثاً عمَّا لا أدري . أردف : «لديك متسع من الوقت» .

«كيف تعرف؟» ، سألته ، فرد :

- لم يصل أصدقاؤك . حين يصلون سأنهي الحكاية .

«هاتها» ، قلت .

«حكايتي عن ملك متنكِّر» . هكذا استهلَّ الحكاية مطرقاً ببصره إلى قدح الجعة احتواه براحتي يديه الطويلتي الأصابع . «متنكر في هيئة شحاذ ، يدور على الأقاليم في مملكته ، وحيداً . كل الذين آووه من غير أن يعرفوا حقيقته ، وأطعموه ، ولاطفوه ، وسامروه ، أضمر الملك لهم ثواباً مدهشاً من الأعطيات والهدايا . أضمر لهم أن يعطيهم ما لم يُعطِه ملكٌ قبله لأناس طيبين ، وأن يكافئهم بما لم يخطر على بال حين يعود إلى قصره . أضمَرَ أنه سيُنعِم عليهم بأثقالٍ من النِّعم تكه...

أجيالاً من نسل أولئك الطيبين ، وأن يبوِّئهم مراتبَ من الوظائف لأنهم طيبون ، كرماء ، وادِعون ، يحبون الغريب كأنه منهم ، ويطعمون الجائع كأنه شريك في طعامهم ، ويتخلون عن أَسِرَّتهم للضيف إيثاراً .

سجل الملك كلَّ اسم خلسةً ، في سجلٍ جلدٍ معه ، ودوَّن عناوينهم ، ثم قرر العودة إلى قصره . لكنه سمع في طريق العودة ، من أناس لم يتعرفوا عليه ـ هو المتنكر بعدُ في هيئة شحاذ ، أن خال الملك وأخته انقلبا عليه . قتلا كل موالٍ أو مؤيد له ، واقتسما النفوذَ في البلاط . عندئذ صرف الملك المتنكرُ النظرَ عن العودة إلى القصر خوفاً على نفسه . ظلَّ سائراً جوَّالاً ، متسكعاً في أرجاء مملكته ، متنكراً ، يطعمه البعض ، ويؤويه البعض . عاش الملك مجهولاً . مات مجهولاً على ضفة نهر لم يعثر الصيادون على سمك فيه ذلك اليوم ، بل عثروا على جثة الملك المتنكر» .

كرعَ الرجل بقية الجعة من قدحه فأفرغه . تمتم :

- تبدو شبيهاً بالملك المتنكر .

«ربما» ، قلت .

«إن مُنِحْتَ فرصة لتصحيح أخطاء حياتك ، فماذا تفعل؟» ، سألني الرجل .

«أستغلها . أصحح كل خطأ» ، أجبت .

«ستستمر إذاً ، في تصحيحها إلى درجة لاتعرف أنك صححتَ شيئاً» ، عقَّب الرجل .

«ماذا أفعل بفرصة ذهبية كهذه ، إذاً؟» ، تساءلتُ .

«لا تصحِّح الأخطاءَ . تقَصَّ كلَّ شيء صحيح فعلتَه واقلبه إلى خطأ» ، قال الرجل .

«ما المنطق في هذا؟» ، تساءلتُ ، فرد :

- ستُنجز الأمورَ على نحوٍ أسرع . لا متسع في الوقت لتصحيح الأخطاء .

«لم أفهم بعد» ، عقَّبت على كلماته . «إن كانت الفرصة الذهبية قصيرة فسأستغلها مهما كانت لأصحح بعض أخطائي» .

«ما أدراك أنها أخطاء كي تصححها؟» ، سألني ، فأجبت :

- هل أسرد عليك بعضاً منها لتعرف أنها أخطاء أم لا؟ .

«هاتِ . اسردْ عليَّ بعضاً منها» ، رد الرجل ، ملتفتاً إلى النادل في طلبه قدح جعة ، مبعداً عنه كأس النبيذ الفارغ .

«إن سردتُها عليك فكأنني أكرر أخطائي» ، قلت .

«الاعتراف تطهير» ، قال الرجل .

«أأنت مسيحي؟» ، سألته ، فرد :

- أنا مغالَطاتٌ دينية .

«ماذا عن الاعتراف الذي يقرُّ المعترفُ بذنبه فيُقتل عليه؟» سألته .

«هذا يعني أن المعترف ارتكب جريمة» ، رد .

«هذه مغالَطةٌ دينية ، في الأرجح» ، عقبتُ على رده .

التفت الرجل إلى باب الحانة إذ دخلت امرأة عجوز ، شبه نائمة انغلق البابُ خلفها ، وقد أبقى بصره على النصف الزجاج العلوي منه متأملاً ثلاثة وجوه تحدِّق إلى عمق الحانة حيث أجلس . سألني :

- أينظرون إليك؟ .

«نعم» ، أجبت .

«أتعرفهم؟» ، سألني ، فأجبت :

- نعم .

«أهم الأصـدقـاء الذين تنتظرهم؟ لِمَ لا يدخلون؟» ، سـألني ، فأجبت :

- ليس هُمْ مَن أنتظر .

«أحقًّا تنتظر أحداً؟» ، سألني بنبْرِ شكٍّ ، فأجبْتُ :

- هذا شأني .

«المنضدة هذه صغيرة ليجتمع حولها أصدقاء . اختَرْ واحدة أكبر» ، قال .

«أحب الزحـام . صـديق واحـد ، أو اثنان ، يكفـيـان لجعل هذه المنضدة مزدحمة جداً» ، أجبت .

التفت الرجل ثانيةً صوب الباب :

- لماذا يقفون هناك؟ ماذا يريدون؟ .

«أن أرسم مبنى الكرمْلِنْ» ، أجبت .

سُئل بوتين ، عـميل الاستخبارات في اتحاد البؤس السوفيـاتي سابقاً ، عن كلفة عملياته العسكرية في سوريا ، فردَّ : «هذا ليس عبئاً على الميزانية . إننا نتدرب هناك» .

سأرسم الأئمة الثلاثة ، الذين لا تصرِّح بهم دولة الخلافة أولياءَ لنشأة أصولها تنظيماً : سأرسم الفقيه ، المرشد ، المعلم في كيمياء الخراب خامنائي الإيراني ، ثم الشؤمَ حسين أوباما ، ثم سليل راسبوتين القيصر بوتين ، الذي أذهل الشيوعيين عن تعاليم ماركس فانعطف بهم إلى الإيمان بتعاليم الجودو والكاراتيه . أذهلهم بحضوره سبَّاحاً يذوب لينين حسداً منه على براعته . أذهلهم بتمارينه الرياضية ، التي تَعْرَقُ أفكارُ آباء الإشتراكية تقليداً لها ، بمفعولٍ رجعي ، ثم تنهار مُرهَقة . لقد

اكتشفه الشيوعيون، واليساريون بليغاً في أفكار العدالة بتطبيقها عن أيدي المافيا الروسية.

يساريون، وشيوعيون، من حطام بناء دول العرب على مقاس عائلة الحاكم، ألهب بوتين خيالهم بعد تيهٍ من التخبُّط أعقب انهيار النظريِّ الخرافة عن مجتمعات بلا ألم قط، سعيدة سعادة البقرة بلا طبقيَّةٍ مجتمع الأبقار. ألهب بوتينٌ خيالهم في تصحيح تعاليم ماركس: لقد وضع صراع المافيا موضع الصراع الطبقي، إيماناً ببقاء الأصلح اقتداءً بداروين. قذف بوتين بالشيوعيين، واليساريين، بأبوّة ناعمة، من الخرافة المنهارة لأفكارهم إلى نبوَّة المعلِّم الجديد، المرفهة بتعاليم الجودو المادية في قيادة الطبقات إلى سحر استسلامها للاَّطبقية.

يساريون، وشيوعيون، على أصنافهم كأسماك البحيرات المالحة، يهتفون هتاف نيوتن بإشراق وحي الجاذبية عليه، في أيامنا هذه، ما طلع عليهم قمرُ بوتين، المولود سباحةً من رحم أمه إلى الوجود.

لا بؤس يَعْدِلُ يُتْمَ الشيوعي، واليساري العربي، إلاَّ بؤس العثور على أبٍ قوميٍّ، أرثوذكسي، لا أكلافَ لقوته الخارقة في سوريا: إنه تدريبٌ محض فضَّلَ أبوهم ـ أبو اللقطاء، اللقيط، أن لا تكون روسيا أرضاً لتمارينه، بل أرض بلد آخر من طبقات شعب الشيوعي واليساري. نجحَ مِسْخٌ من تاريخ أفكار العبودية، مُجنَّد عند الـ «ك. ج. ب»، في إدهاش الشيوعي، واليساري العربيين بأبوَّته. لهم أبٌ الآن. وهم سعداء مُذْ أهدت مجازرُ سوريا أباً إليهم. لم يعودوا أيتاماً.

سأرسم آباءهم الكثر، بالقلم الرصاص، على صرختي.

أبٌ روسي ، لا إيمان له إلاَّ بتبادل السلطة في بلده بينه وبين خادمه المنفِّذ لرغباته ـ رئيس الوزراء المطيع . أبٌ حاكمٌ علوي لا إيمان له إلاَّ بعائلته وكرسيه . أب وليٌّ فقيه شيعي لا إيمان له إلاَّ بشيعيَّته . هؤلاء ملهمو الشيوعي العربي ، واليساري العربي ، في بناء معتقدَهما الجديد على أنقاض بناءٍ أشبهَ برثاءٍ ركيك للنفس في انهيارها .

كم كان معتقدهم هزيلاً؟ كم بات أهْزَل؟ سامحْهم أيها الغبارُ المتسامح ، العلاَّمة في إرشاد الأفكار إلى أسف الغبار عليها .

«أأنت رسام؟» ، سألني الرجل الجالس على منضدة قبالة منضدتي ، فأجبت :

- نعم .

«لماذا يريدون أن ترسم مبنى الكرملن؟» ، سألني محاولاً توسيع أجفانه المنتفخة عن عينيه ليتأملني أكثر .

تدرَّبت أياماً ـ بعد تصريح بوتين البارد عن تجاريب أسلحته في سوريا كأنه يصف صحن كافيار ـ على رسومٍ من جموح النَّكال بالبلدان والمدن . هدمتُ الكرملن أنقاضاً موئلاً لوحوشِ الأساطير . رسمت إيفان الرهيب يأكل المدرَّعات ، والصواريخ ، والطائرات ، والمتاحف . رسمت روسيا مقسَّمة بانهدامات زلازلٍ ، وعمارت تجرُّها دببة إلى معاقل النوم القطبي . وزَّعتُ أشلاء بوتين محمولة بين براثن الطيور الكواسر توزِّعها على جمهوريات البؤس السوفياتي كأعضاء ريتشارد قلب الأسد بعد مقتله بسهم في العنق . فتَّقتُ السماءَ فوق موسكو عن قديسين على أيقونات ممزَّقة . وضعتُ تشيرنوبيل في الساحة الحمراء محاطةً بأهرام من الجماجم ، وعميان متجولين بعصيٍّ من نار في أيديهم على جنبات الأهرام .

رسمتُ بالقلم الرصاص ما لم يرسمه هيرونيموس بوش من نهايات في «حدائق روسيا الأرضية والسماوية» .

أيعلن رئيس بلدٍ شاسع واسع ، بصوت شاحب كشحوب بشرته ، أنه يتدرب على شعب آخر بأسلحته الجديدة وفتكها؟ بعثرتُ متاحف روسيا : ما من متحف يَعْدِلُ حذاء طفل قتيل بأسلحة بوتين .

بعد أن سألني الرجل ، ذو المعطف السميك ، عن دواعي طلب أولئك الواقفين عند الباب رسمَ الكرملن ، نهض متمتماً ، ممدود الذراع صوب كرسي من الإثنين الشاغرين حول منضدتي :

- أتسمح لي بالجلوس معك؟ .

«أخبرتك أنني أنتظر أصدقاء» ، أجبته .

«سأُخْلي الكرسيَّ حين يحضرون» ، قال .

«أحبُّ الكرسيَّ شاغراً أتخيَّل شبحَ صديق جالساً عليه» ، عقَّبت .

«أنت ملكٌ صيني حقًّا» ، قال الرجل ولم يزل واقفاً .

«أهذا تلميح من حُبِّك للصينيين ، أم مِنْ كراهيةٍ لهم؟» ، سألته ، فرد :

- سؤالك فخٌّ . تلزمني أربعة أيام لأصوغ جوابي .

«قد أعود بعد أربعة أيام» ، قلت .

«من أين أنت؟» ، سألني ، فأجبت :

- إن كنتُ ملكاً صينياً فأنا من الصين .

«أنت ملك صيني من مكان آخر غير الصين ؛ من مكانٍ متنكر في شكل مكان . ما اسم المكان المتنكر الذي أنت منه؟» ، سألني .

«أنا من لا مكان» ، أجبته .

«كلنا من مكان مَّا مكشوف أو متنكِّر» ، قال .

«سأرضيك إذاً» ، قلت . «أنا من المكان الذي كلُّ مَنْ فيه رابحون : المنتصر يمجِّد طُرقَ المصادفات إلى انتصاره ، والخاسر يمجِّد طُرقَ الحزن إلى خسارته» .

«أنت الملك الصيني ، المتنكِّر بعينين ليستا صينيتين ، ولُكْنة في لغتك السويدية ليس فيها أثر من لُكْنة الصينيين إذ يتحدثون بالسويدية . أنت بارع في تنكُّرك» ، قال الرجل ذو المعطف السميك ، ممسكاً بقدح الجعة الفارغ . أردفَ : «لتكُنْ لي حظوةُ شراء قدح من الشراب لك أيها الملك . ما اسمك؟» .

«سارات» ، أجبته .

«أنا غوستاف العاشر» ، قال الرجل المحتجب العينين في أجفانه المنتفخة .

«أسليلُ ملوكٍ أنت؟» ، سألته ، فرد :

- سليلُ طهاةٍ في مطابخ الملوك .

لم أعقِّب على رده . أرخيت بصري إلى قدح الجعة أمامي شبْهَ فارغ .

«انظرْ إليهم» ، قال الرجل الواقف ، فرفعتُ وجهي إليه أولاً ، ثم إلى النصف الزجاج العلوي من باب الحانة ، حيث ينظر . تمتم : «إنهم يثيرون الرغبة في القتل» ، وهو يعني بكلماته الوجوهَ الثلاثة الشاحبة في الضياء الشاحب وراء الزجاج .

«ربما» ، أجبتُ في فتور .

«لماذا أنت متردد؟» ، سألني .

«ليست بي رغبة في قتل أحد ، يا سيد غوستاف العاشر» ، أجبت .

تقدم الرجل خطوة في اتجاه منضدتي . أراني القدح الفارغ في يده :

- إمَّا أن أشتري لك قدح جعة ، أو تشتري لي قدحاً .

تبادلنا شراءَ الأقداح ، أنا وغوستاف العاشر ، حتى نامت الأقداح من ثَمَلها .

حين خرجتُ من الحانة ، في الليل المتأخر ، تاركاً غوستاف شاردا بخياله في غيبوبة خياله على المنضدة ، لم أجد أحداً من أبناء دولة الخلافة الثلاثة . لكنني لمحتُ أشباحَ الستةَ الكلاب تحت شجرة الصنوبر المجزوز نصفُها الأعلى ، ساكنةً ، متمادية في سكونها النقيَ سكون للتماثيل .

الفصل السابع

(Mathias Grunewald:
The Temptation of Saint Anthony)

كل عشرة أيام ، ربما ، يخطر لجسدي بعضُ خيال التمارين الرياضية ، اتفاقاً منه وقبولاً لمناشدات الحياة الصحية الصحيحة . وأنا ، بالطبع ، أوجِّه جسدي إلى لقاءٍ سهل بحظوظ صحته : أعْني الركضَ البطيء ، الخاضع لاستراحات متتالية ، مع إجازة لتدخين لفافتَيْ تبغ أيضاً ، جلوساً على مقعد هنا ، أو هناك ، من تلك الممنوحة هِبةً للطرق حيث اتجهت الطرق .

أتخيَّر ، عادةً ، لاختبار العضل المتكاسل ، ركضاً بين بساتين التفاح ، في الجهة الجنوب من ضفة البحيرة . بساتين على امتداد من الأرض الشاسعة ، متوازيةُ الخطوط كتابةً بالجذوع المستقيمة ، المتباعدة شجرة عن شجرة على قياسٍ معلوم ، مضبوط ، يحفظ للواحدة منها استقلال خواطر غصون الشجرة التي تسبقها أو تليها ، ويضمن مُلكيتها للحيِّز الفراغ المحيط بهيئتها .

معلوم ، باستناد إلى مصنَّفات توثيق أحلام النبات ، ومعتَقَدات النبات ، وطباعه الثابتة والمتغيرة المتنكِّرة ، أن لكل شجرة خواطرَ تتراءى كشْفاً للمتأمِّل ، المجتهد في التدقيق ، من اهتزاز أوراقها ، وتموُّجها

باستدارات الهواء عليها وملامساته المداعبة .

للورقة وجهان نشأةً : وجهٌ أعلى ، داكنٌ من تخصيص الورقة الشمسَ بالمسارَرات النورانية ، ووجه أسفل ، رقيق الخضرة ، من تخصيص الورقةِ الأرضَ بالمسارَرات الظِّلِّية . والعروق ، في الورقة ، هي التشارك في توزيع المساررات ، بمقاديرَ عادلةٍ من الصنفين النورانية والظليَّة ، على غذائها اليخضور .

للثمار في مَنْشئها زهرةً أولاً ، فجَّةً في الطور الثاني ، فناضجةً في الطور الثالث ، نقْلٌ متدرِّج لسلطة رُضابها العصارة المكنونة ، الوصيّة بكمونها على طفولة الثمرة ، فصباها ، فبلوغها مبلغَ اللَّذة قطافاً ، بحلاوة في الثمرة المستطابةِ حلوةً ، وبحموضة في الثمرة المستطابة حامضةً ، وبمزج من حلاوة وحموضة في الثمرة المستطابة حلوةً حامضة نِكاحاً زواجاً من المقدار الذَّكَر في مذاقها للمقدار الأنثى في مذاقها .

وللثمار طباعٌ لا تُستوثق ، أحياناً ، من نَكَد الخصائص في توليدها ثماراً برعاية المبيدات ، وحقْناً لتراب جذور شجرتها بالمُخْصبات المصنوعة في مختبرات التوليد ، والتوريث ، والاستنباط ، والإنماء السريع . ربما يُحذِّر من ثمرة هذا مولدُها ، بالرغم من البهاء المتصنَّع في شكلها القناع وراءَه ضَررٌ يُحْذَر . ريبة الفكر الصحيِّ من إنضاج الإنسان للثمرة ترويضاً لخيالها بعقاقيره المُكْسِبة رونقاً في ظاهرها ، تشير ، بقوة الإرشادات والتعريف ، والتشخيص ، إلى العمى في باطن لبِّها وعصارتها .

البساتين التي أدرِّب فيها خاطرَ جسدي ، كل عشرة أيام تقريباً ، على تنظيم مسائل العضل ومنطقها ، تراعي ريبةَ الفكر الصحي بتخصيص حقول فيها للشجر طبيعيِّ النمو بعضويات من الروث وبُرادة

الحديد ، وحقول للشجر مروَّضاً ، محسوب الترويض ، بالأغذية الكيميائية ، وبنجدة من المبيدات المجازر في حق الحشرات والآفات .

أحب التفاح المروَّضَ بهيَّ الشكل ، متناسقَ التدوير ، برَّاقاً بالزيت الخفيِّ على قشره . الصنف الآخر ، العضويُّ المتحرر على قدْر محسوب من أدب الكيمياء ، وفلسفة الإختيار بالإرادة القصدية ، كثيرُ الخدوش والنتوش ، والبثور ، من عبوره مطاحنَ الفجاءات ، والمصادفات من انقلاب الطقسِ والأهوية ، ناجياً بندوبه ورضوضه . وهو صنف مستحبٌّ عند مُعْتَنقِيْ وصايا إطالة الأعمار ، والنباتيين من أكلة منتجات الحيوان المخفَّضة الشحوم والدهون ، النحفاء عادةً ، الميالين إلى تدخين الحشيش ، المسموعِيْ المفاصل صريراً . وهم ، بعامةٍ ، طيبون ، لا عنف في طباعهم .

كل عشرة أيام أسلك بساتينِ التفاح ركضاً بطيئاً ، في ثياب خاصة بمحترفي إذابة السمنة ، وخفْضِ رواسب الكسل في الدم : بنطال أسود ضيق ، مطَّاطيُّ القماش ، ومثله قميص بلا جيوب ، وحزام فيه حافظة لما يشاء حامله أن يحمل من مال ، أو وثائق شخصية ، أستودعه علبة تبغي وقدَّاحاً . وفي الحزام جعبة صغيرة لتثبيت وعاء المياه البلاستيك للشرب قبل العطش ، وآناءَ العطش ، وبعد الارتواء أيضاً ، لأن شرب الماء صَرْفٌ لنفايات العروق ، وتنظيف للمسام ، وتغذية لذاكرة الجسد المائية .

قطْعاً لا نفع لجسدي من رياضةٍ ركضاً كل عشرة أيام لساعتين ، أو أكثر . هما ساعتا نزهة ، في الأرجح ، بين بساتين التفاح ، كلما لهثتُ توقفتُ ، مجدِّداً غرامَ رئتي بالحياة تدخيناً للتبغ ممتعاً بعد تعبٍ قليل . بل لا أتعب في ركضي ، لأنني أتوقف كل بضع دقائق ما دام لا أحد

يراني . فإن لمحتُ شخصاً راكضاً عدتُ إلى الركض بدوري .

عندي حسنُ ظن بنصائح أقرؤها على الإنترنت من قبيل الفضول في تقصِّي المُهْلِكات والمُحْييات . النصائح تكثر في أيامنا إلى درجة الريبة في كل شيء : تشكيك في آلات الحلاقة ، والمناشف ، وجدران الحمَّامات ، ومواد غسل الصحون . تشكيك في الثياب الواسعة والثياب الضيقة من تأثيرها على الحياة الجنسية . تشكيك في هواء الحقول أنه زائد عن اللزوم في نقائه ، وتشكيك في هواء المدينة تشكيك في الوجبة الساخنة من الطعام ، وتشكيك في الوجبة الباردة تشكيك في بياض الحليب وصُفرة الجبنة . تشكيك في الأطعمة المجلَّدة ، والمعلبات ، وتشكيك في الطوازج .

شكوكٌ نصائحُ ، وإرشادات ، على طَبَق من فلسفة العلم المهذَّب ، المحترف في ارتداده عن قديمه أحياناً ، وعن جديده أحياناً وعمَّا لم يحصل على استخلاصٍ فيه بعْدُ ، كمدَّة النوم الضرورية للإنسان على كوكبٍ مضلَّع ، مثلاً .

إنها الحياة هكذا : الحياة تعقيدٌ في موتٍ سهل . هي والموت مقامران ، على منضدة واحدة ، بنقودِ الأجساد .

الراكضون يدفعون النقودَ ذاتَها من نقود عضلهم ، والمترهِّلون يدفعون النقود ذاتها من نقود شحومهم : سكْتةٌ قلبية هنا . سكتة دماغية هناك . ورمٌ سرطاني هنا . حادث سير هناك . شهقةُ همٍّ قاتلة هنا . شهقةُ إرهاقٍ قاتلةٌ متعةً في نكاح ببطنٍ متخم هناك . ومضة قاتلة من قذيفة هنا . صرخةُ ذهول قاتلَة من ركاب طائرة تهوي بهم مقتولين ، مضمونيْ الموت ، هناك . طعنة سكين قاتلة من لص يسرق حقيبة هنا . سقوطُ سكِّيرٍ في محطة القطار على سكَّته ، والقطارُ قادم

سقطةً قاتلة هناك . إعدامٌ بطلقة قاتلة على شتم المذنب دِينَ أبيه هنا . إرغامُ شعب على الانتحار وفاءً لمرقد وليٍّ يحب الغلمانَ على الأرض وفي السماء ، هناك .

مقامراتٌ لا تنتهي ، والحياةُ تعقيدٌ في موتٍ سهلٍ .

غالَبَني ، وأنا لم أبدأ الركض إلاَّ أمتاراً ، اندفاعُ دمي إلى المطالبة بحقِّه من دخان التبغ . توقفتُ ، مع حَسْمٍ للموقف أنني سأكتفي بنصفِ لفافة لا أكثر . وهكذا فعلتُ ، مُذ كسَّرتُ اللفافة من وسطها . أعدتُ نصفاً إلى الحافظة القماش المشمَّع منعاً لتسرُّب الماء ، واسترسلتُ تدخيناً للنصف الآخر .

كثيرٌ من طيور كسَّار الجوز ، والشقراق ، كان يتوالى نفوراً في طيرانه ، بقليل من الحذر ، في عبوري على قرب من جذوع شجرات التفاح تناثر من حولها ثمرٌ مهمَل تحبه الغزلان ، بعضه عَطِنٌ ، وبعضُه سَقْطٌ قديم قبل النضوج .

كان صباحاً هادئاً جداً ، مشمساً بقليل من غيوم عالية ، وهواءٍ لم يعلن انتماءه بعدُ إلى الرطوبة أو الجفاف . باكراً ، على غير عادتي ، عزمتُ على افتتاح النهار بركضٍ . ما الركض؟ هل هو ، في أصل عادته ، نازعُ الخوف ، ثم الإدمان على محاولة النجاة مما لا نعرف ، ثم تمثيل الخوف بلا خوف ، ثم ترتيب شرْع اجتماعيٌّ له بتحويله إلى رياضة ذات قوانين في المسابقات ، أو حرَّةٍ كركضي انا كل عشرة أيام مرةً؟ .

كان القتل نفسه رياضةً في حلبات المصارعين . قوانين القوة ، وقوانين القلوب في الإعجاب بالقوة . قَتْلٌ تتلوه مكافآت . عبيدٌ يتحررون بمكافآتٍ من إعجاب الجمهور ببراعة القتل . الحرية مكفولة

في الدستور الروماني للمصارع على توالي مُنازَلاته المنتصرة . قَتْلٌ كالركض رياضةً . قتلٌ رياضةٌ للبقاء حيًا ، وركضٌ رياضةٌ للبقاء حيًا بعقلٍ صحيٍّ للجسد المفكِّر .

الجسدُ يفَكر ، ليس غريزيًا ـ حَسْبُ ـ بطبعه طلبِ الطعام إن جاع ، وطلب النكاح إن اغتَلَمَ ، بل كشجرة تفاح . لن أسأل نفسي ماذا يعني ذلك . كل الكائنات متشاركة في ضرورات الغذاء ، وعافية النماء ، ثم الخاتمة الموتِ مبكراً من آفة ، أو متأخراً من شيخوخة .

التفكير كشجرة تفاح ، بلا استفاضة في مراجع ميتافيزيا ، النبات ، هو البقاءُ شجرةَ تفاح وليس شجرة جوز ، بحرِّيَة مطلقة في تصوُّر القيامة وفق قانونٍ نباتيٍّ للجاذبيةِ العقابِ ، وللصوتِ الثواب ، والحركةِ الخلود .

أيفكر الجسد على هذا النحو؟ لا حاجة إلى توثيق فكر شجرة التفاح للبرهان أنَّ الجسدَ الإنساني يفكر على النحو ذاته . ثمرةُ التفاح مستقبلُ ذاتها ، ومستقبل الجسد هو الأوقات التي كان مرغوباً فيها كل انتهاء للجسد كرغبةٍ يصيِّره ماضياً كان مستقبلَه . الماضي رغبة انقضت ؛ ذكرى رغبة ؛ رغبةٌ بلا ذاكرة ؛ مستقبلٌ ماضٍ لن يُنتظر جسدٌ غير مرغوبٍ جسدٌ ماضٍ مهما كان فتيًا صحيًا . والأجسادُ ، في تفكيرها بحقائقها ، هي إمَّا سريعةُ القفز عن رغباتها ، أو لها قفزات عالية جدًا ، طويلة جداً .

لا أعرف أين أضع جسدي ، الذي يفكر كشجرة تفاح ، في فواصل بين هذين الصنفين المفكِّرين . أهو نصفُ ماضٍ ونصف مستقبلٌ؟ كلُّ ماضٍ يفقدُ توازنه حين يفقد الحاضر توازنه . كلُّ ماضٍ هو جوابُ الحاضر عن سؤاله المؤجَّل . كلُّ ماضٍ جوابٌ حاضرٍ عن

سؤال لن يتجرّأ على طرحه ثانيةً . الماضي نفاية الحاضر ومزبلتُه المرفَّهة .

أين المستقبل هنا؟ تاهت فكرتي ، في الأرجح ، وأنا أنهي نصفَ اللفافة تدخيناً . تنشقتُ الهواءَ بقوة الرئتين غير الرياضيتين ، وتابعتُ الركضَ البطيء متفكراً بزوجتي السابقة ناتالي في محنتها ـ محنة الخيانة .

بعد انفصالنا بسنتين هويت ناتالي صديقَها ويستروم . اختصرت شرحَ غرامها به على نحو لم يكن يعنيني سماعه ، لكنني أصغي ، عادةً ، إلى ناتالي .

«حين أكون معه لا أكون أنا نفْسي على الإطلاق» ، قالت لي .

«أنتِ غائبة ، إذاً ، في حضوره» ، عقَّبتُ ، فقاطعتْني :

– لم أضع إلاَّ لمسة من اللون على قماشتي فحكمتَ ، ياسارات . دعني أوضح .

«أوضحي حتى يسيل اللون خارج القماشة أيضاً» ، قلت .

«يراني ويستروم جميلة بلا حدود : تلك ليست أنا . يرى جسدي شهيًا بلا حدود : ذلك ليس جسدي . يرى كلَّ حركة مني كأن لا امرأة تحركت هكذا ، ويسمع كل كلام مني كأن لا امرأة تكلمتْ قبلاً في هذا العالم» . تنفَّستْ : «أنا لستُ أنا حين أكون معه . ذلك مذهل» .

«أيعجبك أن لا تكوني نفْسَك وأنت معه؟» ، سألتها ، فردت :

– مدهش أن لا أكون أنا نفْسي . إنها معجزة . أنا معجزةٌ حين أكون معه .

«ستنتهي المعجزة حين ينتهي ذلك الهوى يوماً ، أو يفْتر .

سترجعين عاديةً حين ترتوي الرغبة» ، قلت .

«لا يهم» ، ردت ناتالي . «أنا معجزة الآن . فإن انتهت ، أو فترت رغبة ويستروم فيَّ ، سيكفيني أنني كنتُ معجزة ذات يوم» .

«لماذا تخبرينني هذا ، يا ناتالي؟» ، سألتها . «أتحاولين إثارة غيرتي؟» .

«أتغار إن أخبرتك هذا؟» ، سألتني ، فاجبت :

- لا .

«حاولْ أنت أن تثير غيرتي ، يا سارات» ، قالت .

«ليس عندي ، قطْعاً ، ما أثير به غيرةً فيك» ، أجبت .

«ماذا عن أنني معجزة الآن؟» ، سألتني .

«كوني معجزة . باركتْك السماء» ، أجبت .

«لِمَ لم تسألني إن كنتُ أحسستُ أنني معجزة حين كنا معاً؟» ، سألتني .

«هل أحسستِ بذلك مرةً؟» ، سألتها .

«أكنتَ تراني جميلة بلا حدود مثلما يراني ويستروم ، شهية بلا حدود ، لا مثيل لحركاتي ، وكلامي هو كلام كل النساء اجتمع على لساني وحدي؟» ، ردَّت بتساؤل .

«منحتُكِ أكثر من هذا كله» ، قلت .

«حقّاً؟» ، تساءلتْ ، فأجبتُ :

- أنقذتُكِ مني ، يا ناتالي . منحتك فرصةَ أن تري نفْسَك معجزة عند شخص آخر .

«أنت أنت كإسمك ، يا سارات» ، عقبت ناتالي .

«ماذا يعني ذلك؟» ، سألتها .

ناتالي أيضاً لم تعرف ماذا يعني ذلك .

هي في محنة . هكذا فكرت راكضاً ركضاً بطيئاً ، مقلِّباً جملتَها «أنت أنت كإسمك ، يا سارات» على وجوه المعاني قالتها قبل سنتين . لماذا عليَّ أن أجد كفايةَ تدبيرٍ للمعنى فيها؟ ارتجلتْ ناتالي كلماتها تلك كارتجالي ، في الليل ، فكرةَ الركض صباحاً باكراً على غير عادتي في النهوض من الفراش .

أنا سارات . اسمي لم يكن هكذا حين تقدَّمت بطلب لجوءٍ إلى السويد . أصدقاء صديقي الأرمني خاتشيك رافقوني إلى دائرة الهجرة . نصحوني بانتحال شخصية أرمنية من سوريا ، والتصريح بأن الشخصية التي وصلت بها إلى السويد كانت منتَحلَة .

تردَّدتُ . قلتُ لهم :

- لا أعرف اللغة الأرمنية .

«سيكون المترجم بينك وبين المحقِّق منا» ، قالوا لي . «بأية لغةٍ نطقتَ سيتظاهر المترجم أنها لغة أرمنية ، وسيترجمها للمحقق إلى اللغة السويدية» .

«كيف سيفهم المترجم ما أقول إن تكلمت بالكردية؟» ، تساءلتُ .

«لا يهم . سيترجم المترجم للمحقق ما ينبغي أن يسمعه من قصتك . سيختلق المترجم قصةً لك ، وسيرةً لماضيك» ، قالوا .

«ماذا لو كان المحقِّق عارفاً بالوضع الخاص لأرمن سوريا : أي أنهم أحرار في البقاء أو الهجرة إلى أرمينيا؟» ، سألتهم .

«الأمر بسيط : لا تريد الهجرة إلى أرمينيا ، ولا البقاء في سوريا التي سُجن أبوك فيها ، وعُذِّب ، لأنه شيوعي» ، قالوا . «لن يتوقف المحقق عند هذا الأمر . ربما لن يخطر بباله» .

«ماذا عن اسمي؟» ، سألتهم ، فابتسم أحدهم :

- إسمك سايات .

- منحني أصدقاء صديقي الأرمني خاتشيك إسمَ شاعر الفخر الأرمني سايات نوفا . لكن الإسم ، في مداولات الأوراق بين التحقيقات ، والإجراءات ، والترتيبات ، تخلى عن حرف الياء لحرف الراء . صرتُ سارات ـ الإسمَ الذي لا أعرف معناه ، ولم أحاول تصحيح الأمر .

أنا لم أروِ حكاية اسمي لناتالي قط . ولا أظنها نطقتْ جملتَها «أنت أنت كإسمك ، يا سارات» على شكٍّ منها في صحَّة امتلاكي للإسم ، أو انتحالي له ، أو غموض معناه . لكنني صححت كذبة أصلي الأرمني بصدقٍ في تعلم اللغة السويدية ، وبصدقٍ في الانتساب إلى قواعد العيش في المملكة ، وبصدقٍ في فهم العقل على جهة من شمال العالم ، وبصدقٍ في العبور باللون إلى اللغة المشتركة للخيال الإنساني .

ما الذي يدور في قلب ناتالي بعد خيانة ويستروم لها؟ أستبقى معه بتعهُّدٍ منه في العودة أميناً لها ، أم انتهت المعجزة تماماً ، وسترجع إلى نفسها كما هي امرأةً ليست أجمل النساء ، ولا أكثرهن إغراء ، عاديةَ الحركة ، وعادية الكلام؟ .

لكل قلبٍ معركته التي لا تشبه معركةَ قلبٍ آخر . وأنا ، في مطلع ركضي البطيءِ ذاك ، كان قلبي متعثراً في إيجاد مخرج لفكرتي التائهة بين تعريف حاضرِ جسدي ، وماضي جسدي ، ومستقبله المحتجب في ماضيه ـ ماضي الرغبة .

توقفتُ مُذ لمحت وراء جذع شجرة امرأةً منحنية عبرتها فلم تلتفت

إليَّ ، ممسكة بمقود كلب صغير . كانت مثلي في ثياب رياضية ، وعلى رأسها قبعة بحافة طويلة من أمام .

كُثرٌ يركضون في بساتين التفاح . يظهرون ويختفون وراء الجذوع المتراصفة باستقامة على مدِّ البصر . شبان ، وكهول ، وشيوخ أيضاً . ذكور وإناث . ركيكون في الركض مثلي ، وحُذَّاق . والكلُّ يومئ بالتحية للكل في عبور بعضهم ببعض : لقد جمعتْهم أمومة البساتين ، وربطهم رابطٌ من عقْد الركض الاجتماعي ، ومن تشابهٍ في مرايا ثيابهم التي على طراز واحد ببعض الاختلاف الخفيف في الألوان على أجزاء منها ، تدليلاً على بصمة الصانعين .

أن أرى امرأة منحنية فهو أمر أقل من عادي ، لا يؤبه له . لربما تُعيد ربطَ سيور حذائها المتراخية ، أو تدلِّك عضلاً في ساقها . لكن الذي استوقفني أنها كانت تتشمم جذعَ الشجرة قريباً من الأرض ، ثم تشم الأرض كالكلب الذي معها .

أكانت تستقصي بأنفها الكشَّاف مواضعَ أكدت الكلابُ ملكيتها لها بوثائق من البول؟ هي ، قطْعاً ، لم تكن تفعل شيئاً آخر . كانت متكئة على إحدى يديها في انحنائها ، وتدور بوجهها على التراب والورق بشكل متعرِّج ، ثم استقامت وهي تشد مقود كلبها إلى موضع بعينه . رفع الكلب الصغير قائمته اليسرى الخلفية متبوِّلاً حيث أشارت سيدته .

فوجئتِ المرأة الأربعينية إذ لمحتني محدِّقاً إليها . تفرَّستْني برهةً بقليل من الارتباك قبل مخاطبتي :

- أأنت تراقبني؟ .

«لا» ، أجبت بصوتٍ فيه نبْرُ المدافعة عن نفسي من التهمة المبطَّنة

في سؤالها . أضفتُ زيتاً من خيالي إلى الكلمات كي تلين اللحظة المشدودة : «كيف تدرَّبَ كلبك على هذا؟» .

«على ماذا؟» ، تساءلتْ ، فأجبتُ :

- على البول في الموضع الذي أشرت إليه .

ابتسمتْ ، فأحسستُ بتراخٍ مريح . نزعت القبعة عن رأسها بالشعر فيه على شقرة خافتة :

- كنتَ تراقبني .

«ليس ذلك تحديداً . صدِّقيني» ، قلت . «لكنك أثرتِ فضولي» .

عضَّت شفتها السفلى متفكرة لومضة ، ثم رفعت رجلها اليمنى على الأرض فطوتها ، وكذلك فعلت برجلها اليسرى ، على التناوب ، تهيئ مفاصلَ ركبتيها لمتابعة الركض . تكلمتْ :

- لي أنف كلبة .

«ماذا؟» ، تساءلتُ لأتأكد من أنني سمعتُ كلماتها على النحو الذي نطقتْ بها .

«لي أنف كلبة . كل موضعٍ أتشمم منه رائحةَ بول ثعلب أُفسدها ببول كلبي» ، قالت .

«ثعالب؟» ، تمتمتُ متسائلاً .

«ثعلب واحد ، هو هو ذاته . ثعلبٌ وقح» ، ردت ، ثم انطلقت ركضاً بكلبها ، ملقيةً إليَّ ابتسامةً وضعتني وجهاً لوجه مع الشك في كل ما قالته : أكانت جادَّةً ، أم أَلْبَسَتْني مظهرَ المُغفَّل؟ .

ارتبكتُ قليلاً ، ليس من الموقف وقد انقضى ، بل من فكرة الاستمرار في الركض ذلك الصباح ؛ بل من استرجاعِ جسدي لتاريخ من لا وعي الإرتباك :

نكبرُ ، في الشرق الذي أنا منه ، مرتبكين . نحن كائنات مرتبكة منذ الولادة ، هَلَعاً من كل شيء . نولد هناك مذنبين ذنوباً لا نعرفها . نولد متَّهَمين على ما لا نقترفه : أحاسيسُ متَّهَمَةٌ . رغباتٌ مذنبة .

استدرت . آليتُ أن أعود ماشياً ، متسلياً بمخاطبات مع جذوع الأشجار وأنا أسميها بأسماء الشيطان تقاسمتْها أمم الأرض على قدْر رغبتها في الخوف ، أو على قدْر تفسيرها الغامض لِمَا جرى من تمديد عَقْد الشرِّ بين الآلهة وبين المُخْلص لها في مرحلة أولى ، فالمتمرِّد عليها بعد ذلك حتى اتضاح السطر الأخيرِ السرِّ في العَقد المكتوب المحجوب .

شيطان . إبليس . ديابولو . لوياثان . أبادون . أبوليون . بيليزيبوب . أسماء أطلقتُها على شجرات التفاح إلاَّ واحدة بدا غصن كبير فيها محترقاً ـ ربما ـ من رمح الصاعقة . سمَّيتها «ملكة بابل» ضد التذكير الأصل «ملك بابل» ، وهو من ألقاب الملاك الكَروبيِّ العاصي ، في أزمنة لا تتصل بزمننا إلاَّ عن تقليد الحياة لنفْسها الماضية بتمثيلٍ عنيف من أداء حاضرها الممثِّل المتردِّد .

كلمتُ نفسي عن ارتباكات هي من تاريخ أجسادنا ، وذاكراتها الموزعة على أعضاء الأجساد . لكنني ارتبكتُ حقًّا من مباغتة غزالٍ جامح الركض قادماً في اتجاهي .

لا غزال وحشيًا يتجه صوب إنسان على ذلك النحو . هو نَفُورٌ ، يتحامى ويَحْذَر عن بُعد . أمَّا أن يأتي راكضاً هكذا ، طالعاً من محجوبٍ لم ينكشف لبصري بالرغم من سعة المكان المكشوف ، فهو ما أربكني .

أظَنني الغزال غزالاً؟ لا أبدو كغزال ، أو قريب الشبه بقريبٍ للغزال . ربما لستُ مرئيًا . ربما كنت لم أزل نائماً على حلم من ركضٍ طيْفيَ في بساتين التفاح .

أربع فتيات ظهرن أيضاً ، راكضات من وراء الغزال ، الذي حين باتِ على قُرب خمس أذرع مني قفز قفزة في علوٍّ مترين عن الأرض من فوقي تماماً ، فانحنيت ، تلافياً لاصطدامه بي ، بلا موجب : كان عالياً كطائر .

التفتُّ إلى الوراء أرى الغزال ينعطف بين صف من الشجر ، ثم يختفي . فتحتُ ذراعيَّ مذهولاً . بادرت إلى الحافظة الصغيرة في حزامي ، من فوري ، أُخرج علبة التبغ ، مستديراً من جديد إلى الفتيات الأربع في ثياب ليس كثياب الراكضين ، بل في ثيابهن ـ ثياب فتيات سنجار ، تتقدمهن نيناس الصغيرة سابقةً كلهن بركضٍ كالقذيفة . بادرتني وهي بعيدةٌ بعدُ :

– معنا كِيْدِيْما .

لم أفهم ما عنتْهُ نيناس من انصراف عقلي ، بعدُ ، بين قفزة الغزال المذهلة وبين ظهور الفتيات راكضات في أثوابهن الطويلة تحت ستراتهن الطويلة ، بخُمرٍ على الرؤوس . أنهن وجودٌ خارج وجود المكان الذي كنت فيه ، لكنني قد أزعم أن لأجسادهن ، في ركضها ، طباعاً كطباع شجر التفاح في يوم هادئ ، مشمس ، بقليل من الغيوم العالية ، وهواء لا رطب ولا جاف .

المناخ يتغير في السويد كأمكنة أخرى من هذا الكوكب المزدحم بنفايات الأرض ونفايات السماء . قلَّت الثلوجُ فيها ، فيما كثرت الثلوج في صحارى جنوب العالم . ربيع ممطر ، دبقٍ من رطوبته . صيف مغلوب على أمره بالغيوم والرذاذ . خريف حائر ، منقسم على نفسه بين يوم ويوم . شتاءٌ خجولُ الثلوج ، متردِّد ، يحتقره النبات بالإسراع في كشف براعمه المتدفئة من نقصان البرد .

تتخالط الفصول في أيامنا هنا . يستعير كل فصل من الآخر بعضَ طباعه ، وبعض همومه ، وبعض رغائبه الصارخة أو الهادئة المتواضعة . في كل فصل شيء من ذاكرة الفصل الذي يسبقه والذي يليه . لقد باتت الفصول على قرب كبير من فكرة الأيزيديين عن أقطابهم الشيوخ ، علماء آثار السِّيَرِ الكونية ، والنشوء الأول من دُرَّةٍ اعتزل فيها الإله مختلياً بنفسه عشراتٍ من آلاف السنين .

هم يسمُّونهم «الأئمةَ الفصول» على قَدْرِ اتساع المعاني لخواص الدورة الشمسية ، والقمرية ، والأرضية ، وكل كوكب أو نجم آخر له شراكة في توجيه الأقدار ، وإرشاد المصائر ، ورسم الخطوط الكبار لحقوق النبات على النبات ، والمياه على المياه ، والحيوان على الحيوان ، والأهوية على الأهوية .

علماءُ الأيزيديِّ الأقطابُ ، والعارفون الشيوخ ، عاش كلٌّ فردٍ منهم أزمنةً لا تحصى بأجساد لا تحصى ، لذا هُمُ «الفصولُ» المتعاقبة في دورة الزمن كتعاقب فصول الأرض في دورتها السنوية . لكل واحد منهم ، في كل بساتين الأزمنة ، شجرةٌ يُنشِئُ ثمرتَها على مذاقٍ من اختصاص علومِهِ الإلهيات .

هُمْ أئمةٌ فصولٌ لا تتغير إلاَّ أجسادهم حلولاً في أجساد . وجودٌ لا تتغيَّر إلاَّ صورته حلولاً في صور . العِلم هو الجوهر الأبقى على أزليته في كيان «الإمام الفصل» . أئمة الأيزيدي ، في ثبات خصائصهم اللازمنية ، هم فصول المكان القدسيِّ خارجَ محدودِ الأمكنة ؛ خارج ما يستحيل ويبلى . ليسوا على قرب من مطابقة معاني نشأتهم واستحالاتها بمعاني الفصول الأرضية نشوءاً واستحالة . هُم فصولُ أنفسهم ، وفصولُ الأرض فصولُ أنفسها المتآكلة اهتراءً بالأبخرة ،

وبجشع الصحراء في التهام الغابات وطمْر الأنهار .

سماء الفصول الأرضية مقشعرَّة ، مرتعدة من حمَّى اللهب تنفثها مطابخ الإنسان ، مذ بات الإنسان يلمسها بيديه من سطوح الأبنية المنقذفة طولاً إلى فُروج السُّحب . هندسة الأرض تتجه طولاً ، من ضيْقِ الأرض بناسها ، في اتجاه السماء . يستطيع الإنسان أن يخالط السماء برغوة الصابون في مغطس استحمامه ، إنْ مدَّ يده من نافذة بيته في ناطحة سحاب إليها . الأرض تغزو السماء بنفايات مساكنها بعد ما غزت السماءُ القلوبَ الآدمية بنفايات آلهتها الغاضبة أبداً .

إنتاج جديد للنفايات . تصنيع جديد للسماد في بساتين الزمن بأشجاره الحديد ، وثماره اللهب . فصولٌ ، في الزمن الأرضيِّ ، بلا سفاد . لا يُخصبها سِفادٌ لاستيلادها عافيةَ الماء والسماء . لا فحولة تُخصبُها بِسفادٍ كي تلد العافيةَ . فصولٌ عواقرُ لم يتبقَّ لها إلاَّ أن تتبنى أطفالَ المختبرات الذَّرِّيِّيْنَ .

ربما ستستبدل السماءُ لونها الأزرق أخيراً ، إيماناً بمعتقد الإيزيديين في كراهيته للون الأزرق . الأزرقُ لونٌ مرتدٌّ لذا تُعاقَبَ السماءُ لأنها مرتدٌّ عن دِين اللون الأحمر الذي يبجِّله الأيزيديُّ .

هل كانت نشأة الأرض بسماء زرقاء امتحاناً لها على قبولها استقبال آدم وحواء لاجئيْنِ من دون سائر الكواكب؟ امتحانٌ أزرقُ طويلٌ ، تتراكم فيه نفايات الأخطاء ، ونفايات التاريخ ، ونفايات الجشَع ، حتى بلوغ المعضلة مبلغاً من الفساد لا نجاةَ منه إلاَّ اللون الأحمر ، المخلِّص كالمحجوبيْنَ سيظهرون حين سيستعصي على الأرض خلاصُها .

المسلمون ، من المِلل الأخرى غير الأيزيديين ، كرهوا اللون الأزرق

وتوارثوا الكراهيةَ أعرافاً . مساحبُ السطور بأذيالها على صفحات التاريخ سَرَتْ بكراهيتهم للروم إلى كراهية الأزرق في عيونهم ، حتى أنهم وسموا إبليس نفسه بابن العينين الزرقاوين . ربما لم يعودوا يرون الأمر على هذا النحو منذ بعض الزمن ، أو ما قبله بأشبار أو أكثر : زرقة العيون باتت رفاهية لون .

شابَهَ الأيزيديُّ ، المنتسب إلى الإسلام ، المسلمين في كراهة الأزرق . لكنها كانت حالاً كنَسَب الإسم ، لا غير ، بين فصول الأرض و«الفصولِ الأئمة» الأيزيديين . أقرانٌ في التَّسمي فصولاً لا غير .

اللون الأحمر ، عند الأيزيدي ، صفقةُ السعادة . سماءٌ سحابٌ أحمرُ سيكون مفتَتَح عودة الأرض طاهرةً ، نقية ، خالصة كسيادة الورد على الشعوب النبات ، وسيادة الذهب على الشعوبِ المعادن .

«معنا كيديما» ، كررت نيناس الخبرَ بفم مفتوح عن لهاثٍ سعيد من اقتدارها على سَبْق الأخريات ركضاً .

«مَن؟» ، تساءلتُ ، وأنا أخصُّ الفتاة الجديدة بالنَظَر مدركاً ماذا عنت نيناس في المرة الثانية .

قبل أن ترد نيناس وصلت الثلاث الأخرياتُ لاهثاتٍ . شاهيكا ، وآنيشا تمتمتا معاً بحروف جافة من تعب الحروف في حنجرتيهما الجافتين :

- هذه كيديما .

لماذا توقعن مني أنني في لهفة للقاء فتاة جديدة معهن؟ بادرتُهنَّ :

- أرأيتن ماذا فعل الغزال؟ .

«أيُّ غزال؟» ، تساءلت آنيشا من شفتيها الحمراوين بللتهما بلسانها من جفافٍ .

«الذي قفز من فوقي» ، أجبتُ مستديراً إلى صفوف الشجر وراء
علَّ الغزال يظهر في موضع مَّا .
«أسترسم غزالاً؟» ، تسَّاءلت شاهيكا .
سارعتْ آنيشا إلى الجواب :
- كيديما يلزمها غزال في الرسم إلى جوارها .
قلَّصتُ بين جفنَيْ عيني اليسرى كما تفعل شاهيكا . سألتها :
- ألم تري الغزال؟ .
تدخلت آنيشا مستبقَةً . جرَّت الفتاة الجديدة من كُم سترتها
تقرِّبُها إليَّ :
- هذه غزالة ، يا سارات .
زفرتُ زفرة قصيرة ، ملقياً نظرة قوسية على ثيابهن :
- لماذا تركضن ، يا حوريات؟
يخصُّ الأيزيديُّ إناثَهُ نداءً باسم الحوريات . الأنثى الأيزيدية
حورية في بستان نعيمه الأرضي . لا اتِّفاقَ لخياله بعدُ على تجريد
الحورية السماوية من خصائص الأنثى الإنسية . حورية السماء ليست
بلوراً ؛ ليست تسبيح اللذة للبياض في البشرات ، والعيون الواسعة سعة
عيون أبقار الوحش ؛ ليست رقَّةَ حرير ، أو رخَاصَةَ ورقة الكزبرة ؛ ليست
كمالَ أعطاف من نسائم الريحان . الحورية ، هناك ، تدرُّجٌ أخير من
مراتب الشكل ارتقاءً من أصله الأرضيِّ - الحورية الأيزيدية .
الأيزيديُّ يستعير اللقبَ الذي خصَّت به السماءُ أنثى اللذة له
لأنثاه ، على تعميم لا يقتصر على مباهج اللذائذ ، بل بتوسُّع يشمل
التكريمَ ، والتقدير ، والتوقير ،والتحبُّبَ ، والملاطفةَ باللسان في المخاطبة
والنداء .

لقد استعرتُ من الأيزيديِّ نداءَ لسانه في مخاطبة الأنثى ، على مضمَراتِ المعاني ومظهوراتها :

- لماذا تركضن ، أيتها الحوريات؟

«لأننا وجدناك راكضاً» ، ردت آنيشا .

«لماذا بقيتن ورائي مسافةً ، وأنا لستُ بعدَّاءٍ ، بل أكاد أمشي زحْفاً؟» ، سألتهن ، فردت شاهيكا :

- ركضنا مثلك .

أدرت وجهي إلى نيناس :

- أنت جئت كطلقة كلاشنيكوف .

«اللعنة على كلاشنيكوف جندي الحوريات ، الكلب» ، تمتمت الفتاة الجديدة .

«مَنْ؟» ، تساءلتُ ، فردت :

- جندي الحوريات .

«مَن يكون؟» ، سألتها أريد تخصيصاً ، فردت :

- إبن الخليفة .

فهمتُ التلميح ، لكن لم أفهم ذلك التوافق منهنَّ في الإشارة إلى ذكور دولة الخلافة . سألتُهن :

- كيف اتفقتنَّ على تسمية جنود الدولة الإسلامية باسم جنود الحوريات؟

«لا حديث لهم إلاَّ عن حوريات الجنة» ، ردت شاهيكا . قلَّبت بصرَها على وجوه صديقاتها : «ما الذي وجدوه شَبَهاً مِنَّا بالحوريات فاشترونا؟» .

أضافت الفتاة الجديدة كلمة إلى رد رفيقتها :

- وباعونا .

«اشترونا ، وباعونا» ، عقَّبت شاهيكا .

«اشتروكن ولم يبيعوكن . أنا اشتروني وباعوني» ، قالت الفتاة الجديدة .

«ما اسمكِ؟» ، سألتُها لأؤكد لذاكرتي لفظَ اسمها سمعتُه على عجلٍ ، فردت نيناس :

- كيديما .

«اسم مستعار أيضاً» ، عقَّبت ، فردت كيديما :

- أنا اخترته .

«يبقى أنه مستعار ، وليس كإسم آنيشا» ، قلتُ ملاطَفةً ، فردت كيديما :

- اسم آنيشا مستعار .

دارت آنيشا الطويلة حول نفسها ، فاتحة ذراعيها بكُمَّيٍّ السترة الواسعة ، الطويلة ، انتشرت من حول جسدها . قالت بنبْرٍ جَذِلٍ :

- أنا كالحورية في هذه البساتين .

«أنت لست كالحورية ، بل كنتِ حورية ، لذا اشتراكِ من اشتراك من جنود الحوريات» ، قلت .

«وباعها مَنْ باعها» ، عقَّبت آنيشا بإشارة إلى رفيقتهنَّ الجديدة .

«اشتروني وباعوني ثماني مرات» ، قالت كيديما .

«أهذا ذمٌّ أمْ مدح؟» ، تساءلت شاهيكا ، فردت كيديما :

- فلْيحكُم سارات .

أدرتُ المحاورة في اتجاه آخر :

- ما إحساسكن ، وقد جرى لكُنَّ مع جنود الحوريات ما جرى ،

إن ناداكنَّ أحدٌ باسم : حورية؟

تلفتت إحداهن إلى الأخرى : لقد أيقظهن سؤالي من غفلة سَهَونَ عنها . ترددن في الإجابة ، قبل أن تستقر أبصارهن عليَّ يستَعِنَّ بي في مَخرج جوابٍ .

«كُنتنَّ حوريات قبل ظهور الخليفة بسكاكينه ، وستبقين حوريات» ، قلت .

«أُقسم بتراب لالش لا أعرف كيف ستحتمل حوريات الجنة رجالاً كالذين رأيتهم» ، قالت آنيشا .

يصنع الأيزيديون رقائقَ طين مشوية من التراب الذي حول مرقد الشيخ عادي في لالش . يتقايضون بذلك الكعك الطيني في الأعياد ، على امتداد أقاليمهم . كعك مقدس من أرض أقسمت بها آنيشا الطويلة ، ثم دارت حول نفسها ، من جديد ، مرفوعة الذراعين أفقياً ، بسترتها المنتشرة كبيرق من بيارق ملَّتها يطوفون ، بالرسوم عليها ، فوق غَمْر أرواحهم ، من أرمينيا ، إلى كردستان ، إلى جورجيا ، إلى إيران ، إلى أذربيجان ، كلَّما هبَّ عيدٌ عليهم من أعياد الحقائق أنجزها اللهُ مقدَّسةً .

«أتعرفين معنى اسمك المستعار ، يا كيديما؟» ، سألتُ الفتاة الجديدة .

ابتسمت كيديما القصيرة مثل شاهيكا ، الممتلئة ، السمراء على دكْنة . التفتتْ إلى آنيشا تسألها :

- ماذا يعني اسمي؟

«يعني : النبع الذي سقطت فيه حبَّةُ تين» ، ردَّت آنيشا .

ألوت كيديما فمها باستغراب . تساءلت بصوتها الذي فيه خُنَّة

خفيفة تُقَسِّمُ الحروفَ خروجاً من فمها وأنفها معاً :

- كيف اتسع اسمٌ صغير لكل الذي قلتِه ، يا آنيشا؟ .

- «الأسماء تتسع لكل شيء» ، ردت آنيشا . «اسمي القصير يعني : الصبيَّة الطويلة كشاحنة» .

«هذا نصفُ معنى اسمك» ، عقَّبت شاهيكا .

«نصف فقط؟» ، تساءلت آنيشا . أحنَتْ جذعها قليلاً صوب شاهيكا تذكِّرُها ـ ربما ـ بقصَرها ،

أو لتسمع واضحاً النصفَ الآخر من معنى اسمها ، فردت شاهيكا :

- اسمك كاملاً يعني : الصبية الطويلة كشاحنة ، فيها مدفع لا تعرف إلاَّ الحورية استخدامَه .

غمغمت الفتاة الصغيرة نيناس إنشاداً من حروف اسم كيديما .

«ها وجدتْ نيناس لحناً لاسمكِ الشاحنة ، يا كيديما» ، قلت ممازحاً .

«نيناس تدرَّبت طويلاً على الألحان» ، عقَّبتْ كيديما . «عندها لكل عنزة من عَنْزِ أهلها لحنٌ» .

«أهلُكِ جيران أهلها» ، قالت آنيشا . «ربما ظنَّتْكِ نيناس عنزة أيضاً» .

صدمت كيديما صدر آنيشا بكتفها دفعاً خفيفاً ، في خمارها الأبيض ، وسترتها الرمادية الطويلة الواسعة كعباءة ، وثوبها الأصفر بنقاط حمر وخضر فوق سروالها الأسود .

كيديما تتحدث بصوت أخنَّ من فم تُبقي أسنانَه منطبقة ، فتتحرك شفتاها لا فكَّاها . آنيشا قلَّدتْها ، بعد الصدمة ، متصنِّعةً نبْرَ الصوت

يخرج من الفم والمنخرين معاً :

- دعسْتني الشاحنة .

أخرجتُ لِفافة تبغ من الحافظة الصغيرة ، المعلَّقة إلى حزاميَ الرياضي العريض . أشعلتُها ، فتلقَّفتْها كيديما بحركة خاطفة من فمي :

- هذه لي .

ابتسمتُ . أشعلتُ لفافة أخرى . سألتها :

- أتدخنين؟ .

«إنها مَدْخنة» ، ردت شاهيكا .

«ما نوع التبغ الذي تدخنينه؟» ، سألتُ كيديما ، فردت آنيشا من فورها :

- كل شيء . حتى ورق القصب على ضفة البحيرة .

استظرفتُ رد آنيشا . حدقتُ إلى عيني كيديما السوداوين :

- ما طعم دخان ورق القصب؟

«كطعْم الليلة الأولى لآنيشا في سرير مولاها الشيشاني» ، ردت كيديما .

«لا أحب هذه الدعابة» ، قالت آنيشا بصوت فيه بعض الشهقة والحرقة .

ابتسمت كيديما كالمعتذرة . طوَّقتها جانبيًا بذراعها حول الخصر . أسندت رأسها في حنوٍّ إلى صدرها بين الثدي الأيسر والإبط ، لأن قِصَرها لم يسعفها لتضع رأسها على كتف رفيقتها الطويلة .

«فلْأسألك ، يا كيديما . كيف أرسمك إن قررتُ الرسم؟» ، سألتها .

«لهذا أنا هنا» ، ردت كيديما وهي تنزع خمارها الأبيض عن شعرها الأسود السبط .

«أنا أراكِ» ، عقَّبت . «أنت بالتأكيد هنا» .

«نعم . سترسمني ثماني مرات» ، قالت كيديما مع نفثة طويلة من دخان لفافتها .

«ثماني مرات؟» ، تساءلتُ وأنا أنفث الدخان مثلها من منخري على شاربيَّ المعقوفين إلى أعلى .

«ثماني مرات في لوحة واحدة» ، ردت كيديما بتوضيح لم أفهمه سألتُها :

– لماذا ثماني مرات؟ تكفي مرة واحدة .

بدت خيبةٌ في عيني كيديما السوداوين . نظرت إلى شاهيكا متمتمةً :

– لم أتفق معك على هذا .

«أخبرتِني برغبتك أن تُرسَمي ثماني مرات . لكن هذا ليس اتفاقا معي ، يا كيديما» ، ردت شاهيكا . استدارت إليَّ : «سارات هو الرسام وليس أنا . اتفقي معه» .

بالخيبة تلك ، البادية في عينيها ، أعادت كيديما سؤالها عليَّ :

– أسترسمني ، حقًا ، مرة واحدة؟

«هذا إن رسمتُكِ» ، أجبت .

«ماذا تعني بقولك : إن رسمتكِ؟» ، تساءلت كيديما بصوت فيه نبرةُ فجع خافت . تنشَّقتْ نَفَساً من لفافتها .

«ربما لن أرسم أحداً» ، أجبتها .

شهقت كيديما ، ثم سعلت من عبورٍ خاطئ للدخان إلى رئتيها فأمسكتْ بأنفها العادي المتقعِّر قليلاً ، من حرقة أحسَّتْها في قَصَبته

أثارت شهقتها فيَّ بعضَ الإشفاق . أعدتُ سؤالي عليها :

- لماذا أرسمك ثماني مرات في لوحة واحدة؟ لن يبقى موضع لرفيقاتك .

«ارْسُمْني صوراً صغاراً ، إذاً» ، قالت كيديما متدبِّرةً حلاً .

«ثماني مرات؟!» ، تساءلتُ من سذاجة طلبها .

«بحسب عدد المرات التي اشتروني وباعوني» ، أجابت كيديما .

نقلتُ بصري على وجوه الثلاث الأخريات بنظرةِ عَجْزٍ عن تقديم أيٍّ وعد للفتاة القصيرة ، فلمستُ تعاطفاً من عيونهن مع كيديما .

«هلاَّ مشينا؟» ، سألتهن مواصلاً سيري ، في رجوعٍ عن قرار الركض الذي لم أنجز من خطَّته الركيكة إلاَّ أقل القليل .

«إلى أين؟» ، سألتني كيديما .

«إلى الأمكنة التي اشتراك فيها جنود الحوريات ، وباعوك» ، قلت مازحاً .

دارت بي كيديما ، عائدْينَ أنا والفتيات من بساتين التفاح مشياً متمهِّلاً ، على الأمكنة التي بِيْعَت واشتُرِيَتْ فيها ، تحت سيادة الدولة الإسلامية القائمة بين الجنون والجوع . بيعت ثماني مرات واشتُريت ثماني مرات في ثلاثة أشهر من سَبْيِها . نزحت شاحنةٌ بها ، وبأتراب لها ، من قرية «خانه صور» في سنجار إلى الموصل ، ثم فُرِّقْنَ على بلدة البعاج ، وأبو كمال ، والرقة ، على جهتي الحدود الممحوة بين العراق وسوريا .

كيديما ، ذات الثلاث عشرة سنة ، اشتُريت في الرقة أولَ شراء ، ثم بيعت فيها بعد أسبوعين إلى أذريٍّ باعها ، بعد ثلاثة أسابيع إلى أذريٍّ آخر . تنقَّل جسدها بين أسِرَّةٍ أسمعتْها فحيحَ الحناجر ، ونباحَ القلوب من متعةً على لغاتٍ أربع . نقلها مولاها السابع إلى أرض من تخوم

حلب . باعها إلى مولاها الثامن ، بعد طلاق في دقيقتين ، بسبعمائة دولار . والثامن الأخير كان شاباً أسود البشرة ، لم يصارحها قط من أين هو ، ذا لكنة تنزلق بالحروف العربية كالزيت على لسانه ، يلقي عليها اشعاراً من غَزَل الصوفيين .

«كانت رائحة مولاي الثامن كشعر الماعز المبلول» ، قالت كيديما «يكتفي بوضوء سريع يكاد لا يبلل يديه ، ولا يستحم أبداً» .

دارت بي كيديما على طباع مولاها الأسود ، المتبرِّم من عمله كسجَّان ، والمتعجل إلى حظوة القبول به ، من أصحاب الخطط في توزيع الشهداء على الجنة ، متطوعاً لانتحار بسيارة محشوة متفجرات ، أو بحزام ناسف . كان يكره كثرة الناظرين إليه ، ويغمغم غضباً مكتوماً من تحديق المحدِّقين : «لا أرى نفسي شخصاً أسود البشرة إلاَّ حين يحدِّقون إليَّ» ، كان يقول لكيديما ، ويأمرها : «لا تحدِّقي إليَّ» .

كان يعنِّفها على كل حركة منها . يحتجزها بين الجدران ، حتى اليوم الذي نطقت فيه كلاماً كاد يسلخها مولاها عليه سلخاً . قالت له :

- لماذا لم تشترِ جارية سوداء من حيث جئتَ؟ .

عضها الشاب الأسود من عنقها حَنَقاً . عضها من كتفها . عضها من ثديها الأيمن منقلباً مسعوراً ، هائجاً ، مرتعشاً . نكَّل بها جلداً بحزام . طوَّق عنقها بعمامته السوداء حتى كادت تختنق . وضع فوهة مسدسه ، أخيراً ، على قحف رأسها واقفاً وهي جاثية . كرَّر عليها بصوت ينزف الجنونَ :

- سأمعس روحك .

لم يعد جلد كيديما ، حين نظرت إلى نفسها في المرآة منتفخاً

العينين من لكَمات مولاها ، جلداً أسمر كما تعرفه ، بل بات أزرق داكناً على سواد .

بعد يومين من الخلع والرضِّ أصابا مفاصلها فلم تتحرك إلاَّ قليلاً ، سلَّت مسدس زوجها النائم من حزامه الموضوع على كرسي قش . لقَّمتِ الالةَ في إعياء كما علَّمها مولاها قبلاً ، فأفاق مولاها على انزلاق الحديد على الحديد صريراً في آلة القتل .

«ماذا تفعلين ، يا بنت إبليس؟» ، سألها تمتمةً .

ارتعشت يدا كيديما بالمسدس أمسكت به بكلتيهما . كادت ركبتاها تخوران . انضغط إصبعها على الزناد من غير قصد ، بل من ارتباكٍ أرْعَدَها . أصابت الطلقة طرف فخذ الشاب الأسود .

هاج الشاب هياج الجنون مصعوقاً . صرخ بنبرٍ فيه خوف وهلع ، فأدارت كيديما فوهة المسدس إلى بطنها . أطلقت على نفسها النار .

لم تمت كيديما من فورها . نقلتها سيارة عسكرية إلى مستوصف في معسكرٍ قريب ، لكنها توفيت من نزيف داخلي لم تحسن امرأتان مسعفتان ، في نقابيهما الأسودين ، من إيقافه .

«لن أنسى صورة النِّقابين» ، قالت كيديما بعد انتقالٍ بي في سيرتها المختزَلة من إهانة الحياة للحياة . «عيون الممرِّضتين كانت كعيون الجن» . هَأْهَأت بصوت ليس فيه نبرُ الضحك : «بمن ستلتقيان بعد الموت؟» . تأملتني مرفوعة الوجه : «أفي الجنة حورياتٌ ذكور؟» .

«حورياتٌ ذكور؟» ، تساءلت مستغرباً ، فردت :

- أعْني . .

قاطعتُها :

- أعرف ما تعنين .

«إذن؟» ، تمتمت تنتظر توضيحاً ، فتساءلت :

- إذاً ماذا؟

«لا أعرف» ، ردت كيديما . ابتكرت حلاً من سياق خيالها : «ستدخل الممرِّضتان الجنة كمسعفتين إن ضرب الجنود حورياتهم» .

«مَن تحمِّلين تبعة ما حدث لكُنَّ في سنجار ، يا كيديما؟» ، سألتها ، فردت :

- نتحملها نحن .

«أتتحملين تبعة ما حصل لك؟» ، سألتها ، فردت :

- نعم . أحمِّل نفسي .

«لماذا؟» ، سألتها مستفسراً عن منطقها ، فردت :

- لو لم أكن موجودة في هذه الحياة ، لما حصل لي ما حصل .

لن أُحمِّل كيديما شيئاً بالطبع . لن أُحمِّل الشيطان الذي يتحامى الأيزيدي منه بالامتناع عن ذِكره ، شيئاً . إنه شريك في الخَلْقِ باعتقاد بعض المِلَل صوَّرَتْه على الجهة الأخرى من دينار إيمانها الذهبي . لن أُحمِّل الأقدارَ ما صنعتْه لأن الأيزيدي يتجاهل ذِكْرَ مُنشِئِ الأقدار الذي لا يفعل الشر قط . لكنني سأُحمِّل الرسمَ ، إن رسمتُ كيديما ، الكثيرَ من تبعات النكبة في سنجار .

«سأرسمك ، ربما ، مرة واحدة فوق أوراق عريشة عنب عالية ، إلى جوار مرقد الشيخ عادي» ، قلت مبتسماً للفتاة التي في صوتها خُنَّةٌ .

«فوق عريشة عنب؟» ، تساءلت كيديما .

«وماذا عنِّي؟» ، سألتني آنيشا .

زفرتُ مقلِّباً صورَ المخاطبات عشواءَ أمام بصرِ لساني . سألتهنَّ :

- أمعكنَّ واحدة أكبر سنّاً؟ .

«لماذا» ، تساءلت نيناس الصغيرة .

«لأتزوجها» ، أجبتُ .

«لماذا أنت أعزبُ حتى اليوم؟» ، سألتني شاهيكا ، فأجبتها :

- تزوجت امرأة . طلَّقتها . تزوجت بلداً . طلقته .

ردَّ قلبي ، لا لساني ، على تساؤل شاهيكا : بلدٌ بأكاذيب لم يعد يحتملها تاريخُ الإيمان بشراكة في شيء بلدٌ يُطلَّق ، مثلُه مثل أيِّ رَجلٍ أكذوبة ، أو امرأة أُكذوبة يُطلَّقان . بلدٌ غزاه الإيراني ، والروسي بعَقدٍ مع الحاكم اشتريا منه كرسيَّه وأجلساه عليه . إن دام البلد ملتحماً بغراءٍ إيراني ، وصمغ روسي ، فسيدوم باحتلال جماعة لجماعة ، وسرقة جماعة لجماعةً ، ونهب جماعة لجماعة ، وإهانة جماعة لجماعة ؛ سيدوم بفخرٍ لا يوصف من عبقرية الأنقاض ، وبعصبية ـ كعصبية المذهب ـ لجَمَالٍ الأنقاض .

سوريا رغبةٌ لم تكتمل . وداعاً أيتها الرغبات المنتحرة .

دولة في ثياب تنكرية .

دولة باسم مستعار لروحها ؛ مستعارة من التاريخ بلا إعادة إليه إلاَّ محترقة . دولة انتهت كاسمها . الدولة الأقصر عمراً بين الدول في استقلالها . خرجت من عبودية الغزاة الفرنجة إلى عبودية الغزاة ـ جنود المزارات والمراقد ، وأحفاد راسبوتين . خرجت من عبودية المستعمِر إلى عبودية العائلة الحاكمة ، وإلى عبودية الغزو الجديد بعقد مع الحاكم . لا أمل للسوريين ، في أيامنا اليائسة هذه ، في النجاة بحلم واحد . ذبحَ الروسيُّ سماءَ سوريا ، وهواء سوريا ، ويقين سوريا باتفاق مع ذُلِّ الحاكم العلوي على تفصيل الوجود للسوريين على مقاس انتقام بوتين من حسين أوباما ، ليستعيد لقبَ القطب الوازن في رعب الجبابرة اللاأخلاقيين .

استنجد الحاكم العلوي بكل من يستطيع إنجاده للبقاء حاكماً على كرسي من الرماد . وزع البلدَ على الإيراني وحشود شيعته من كل العالم ، وعلى الروسي ليحفظ مقعده حاكماً على الرماد . ربما استطاع إنقاذ نفسه من ثورة السوريين المغدورة ، لكنه لن يرث إلاَّ بقايا دولة تحقد فيها البيوت على البيوت ، والشوارع على الشوارع ، والحدائق على الحدائق ، ولهجات أهل البلد على لهجات أهل البلد ، وأسماء أهل البلد على أسماء أهل البلد ، وبحر البلد على برِّ البلد ، وجبل البلد على سهل البلد . كراهية لن يشبهها شيء إلاَّ بقاء الحاكم حاكماً على أنقاض الإنسان ـ أعماقه ، وأمله ، وحلمه . لا بلد يشبه سوريا الآن منذ الحرب الثانية الكبرى . بلدٌ مقبضٌ ذهبي لمرحاض بوتين ، منقذ البؤس السوري بإعادته بؤساً لا مثيل لرفاهيته .

انتهت سوريا . انتهى بلدي . لربما كان منتهياً قبلاً ، لكنني تجاهلت ذلك ، مؤمناً ـ كالإيمان غير المضمون في قلب كل فرد من هذا العالم ـ أننا نخلق دولاً باعتقادنا أنها دول . البعض يستمر في إيمانه حتى إشعار آخر ، والبعض يواجه خيانته لنفسه في القبول بإيمان لم يكن إلاَّ من اختراع التلقين ، والخوف .

في الشرق الذي أنا منه ليست لنا دول حتى إشعار آخر .

بلدان مطهوة على عجلٍ . بلدان نيئة . بلدان محترقة في الأفران تلهَّى عنها التاريخ الطاهي بلعب النَّردِ مع خياله .

انتهت سوريا . لا شعبَ سيُجْمَع ، بحاصل الحساب في التاريخ ، على الجغرافيا السورية بعد الآن : إنها حِقْدُ الأرض على نفسها أنها أُرغِمتْ أن تكون موضعاً لجماعات تلفيقٍ في حاصل الجمع ؛ حقدُ التاريخ على نفسه أنه أُرغمَ أن يكون تاريخاً متجانساً في التلفيق ؛ حقْدُ

اللغة مشتركةً ، أو مفروضة اشتراكاً ، في مناهج التعليم ، على نفسها أنها لم تُستَشَر في فرضها ؛ حِقدُ النهار على نفسه من المعاني تُقْسِره المعتقداتُ على اعتناقها ، وحِقدُ الليل على ما ألصقته به المعتقدات من شرور المعتَقدات ، لا من شرور الليل .

انتهى بلد على هذا القدْر من السهولة : يستعمرهُ غربيٌّ ، ثم تستعمره عائلة الحاكم ، ثم يستعمرهُ وليُّ الخراب الفقيه الإيراني ، ثم يباع إلى الروسي . بلد لم يولد ؛ لم يكن بلداً قط ؛ لم يكن للهواء خيالٌ فيه . بلدٌ «احتمالٌ» من أزله إلى أبده . لقد عشتُ فيه شبحاً . هربت منه شبحاً . ثم ـ على نحوٍ غامض ـ آمنت به بلداً . آمنت ببلد ميت ، ولد ميتاً ، وهو يجرني معه ، منذ ولدتُ ، إلى عقاب الوجود فيه .

أنا مُواطن الدولةِ الفراغ الآن . مواطنُ النهاية بلا أملٍ في شيء .

النهاية هي دولتي : أنا حرٌّ كالسخرية .

بِيْعَ بلدي كالفتيات الأربع مشين معي في بساتين التفاح .

«أعطني لفافة تبغ» ، قالت كيديما . لقد أنهت لفافتها الأولى قبل خطوات ، وها هي تطلب الثانية .

أعطيتها لفافة جديدة . أشعلتُها لها وهي في فمها :

- أنت مُدَخِّنة جيدة ، يا كيديما .

«أكانت زوجتك ، التي طلقتها مدخِّنة؟» ، سألتني ، فأجبت :

- لا .

«تكره المدخنات» ، عقَّبت كيديما على جوابي .

«لا . أحبُّ مرأى لفافة التبغ بين أصابع النساء ، أو بين شفاههن» ، قلت .

«أطلَّقتها لأنها لم تكن مدخِّنة؟» ، سألتني كيديما وهي تنفث

الدخان من منخريها .

«ربما» ، أجبت في تساهل .

«أحقًا؟» ، تساءلت شاهيكا باستغراب .

مَنْ قال لي مرَّةً : حين نحب امرأة يصير وقْعُ اسمها سحريًا على عاديَّته؟ هي اسمها ، واسمها هو هي . نحن نَعْلق في لا معنى اسمها العادي بأثقال قلوبٍ غير عادية . نكون ، في حبِّنا لاسمها ، ساذجين سذاجةً حالمةً بتعقيدٍ لا يوصَف . سذاجتنا ، آنئذ ، سذاجة لا توصف لشدَّة عمقها . أقال لي أحدٌ ذلك أم توهَّمتُه في أولِ لقاء لي بناتالي في صالة أبيها لعرض الرسوم؟ لماذا خطرت ناتالي على بالي في ثرثرة لا معنى لها عن التدخين ، قبل أن تُقاطع كيديما خيالي : «سمعتُ ما سأقول لك بأذنيَّ هاتين» ، قالت وهي تمسك بشحْمتَيْ أذنيها الصغيرتين ، ولفافةُ التبغ بين شفتيها .

تأملتُها من عليائي ، لا بسبب طولي المتواضع ، بل من قِصرِها ماحكْتُها على مزاح :

- أأنت تسمعينَ؟ .

«ماذا تعني؟» ، تساءلت كيديما في براءة .

ابتسمتُ لها :

- ماذا سمعتِ؟

«جاءت شرطة الحِسْبة بشخص إلى مولاي الأسود في البيت . لا يأتون بالمتهمين إلينا طبعاً . يأخذونهم إلى السجن الذي وكّلوا مولاي بالإشراف على زنازين فيه» ، قالت كيديما .

قاطعتُها :

- لماذا تسمِّين مَن اشتراك بلقب مولاي؟

«لقد اشتراني . كنتُ جاريتة» ، ردت كيديما . استرسلتْ في حكايتها : «لم أعرف ما ذنب الشخص المعتقَل ، لكنني سمعته ، من وراء الباب ، يقول لمولاي :

- أستقتلني؟

ردَّ مولاي : ذلك أسهل ما قد أفعل بك .

قال المعتقل : أستُبقيني حيًا؟

فرد مولاي : سأبقيك حيًا إلى درجة تعرف فيها أن الحياة هي أسوأ ما يمكن أن تحصل عليه .

تساءل المعتقل : ماذا ستفعل بي ، يا سيدي؟

ردَّ مولاي : سأبقيك حيًا بلا يدين ؛ بلا أذنين ؛ بلا قدمين ، وسأقتلع عيناً واحدة من عينيك . طبعاً سأعطيك حقَّ اختيار العين التي ستُقتلَع» ، قالت كيديما .

«ما الملفت في هذه الحكاية ، يا كيديما؟ أنفَّذ مالِكُك الأسود تهديده بالمتهم أمام عينيك؟» ، سألتها . «جنود الحوريات جهابذة القرن الحادي والعشرين في التنكيل» .

«لا . لم يفعل به شيئاً أمامي . لكن المتهم ردَّ ، في آخر الحديث بينهما بكلمة لم أفهمها» ، قالت كيديما . توقفتْ عن المشي تحصر الحروفَ محدَّدةً في كلمات المتهم : «قال لمولاي : أنت فنَّان» . حدَّقت إليَّ : «ما معنى : أنت فنَّان؟» .

«هذا متَّهمٌ إمَّا رسام ، أو حلاَّق» ، أجبتها .

مطَّت كيديما شفتيها من جوابٍ زادَها عدمَ فهم .

«منذ متى تدخنين؟» ، سألتها ، فانبرت أنيشا مُجيبةً على عجل :

- حين ولدتْ كيديما غطت سحابة من الدخان بيتهم .

هرَّت كيديما هريراً في وجه آنيشا باستياء ، فاستمرت آنيشا :

– دخنتْ تسعة شهور في رحم أمها . دخان تسعة شهور ملأ البيتَ لَمَّا وُلدتْ ، واختنقت القابِلَة .

هبَّت كيديما مندفعة صوب آنيشا . هربت آنيشا ضاحكةً .

ربما كيديما والدخان توأمان . ربما ولِدتْ مع الدخان من الرحم ذاتها . كبرت كيديما ثلاثة عشر عاماً . كبر الدخان . هما ، معاً ، في الثالثة عشرة . لن يكبرا أكثر . لن يشتري أحدٌ الدخانَ ، ولن يبيعه . لن يشتري أحدٌ كيديما ، ولن يبيعها أحد . كان ما روتْه لي هو سياقَ سيرتها التي لن تكتمل ، ربما ، إلاَّ بخاتمة لونٍ في لوحتي المؤجلة . كثيرٌ غيرها ، من أطفال سنجار والجغرافيا الأوسع من حول سنجار ، بين دجلة والفراتين ، سيكبرون سنينَ أكثر عدداً ، في الأرجح ، بختام في السِّيَر إمَّا مقتولين ، أو مجنديْنَ بلا ذاكرات سوى ذاكرات سكاكين معلميهم في مجتمع الدولة الإسلامية ؛ أو ربَّما ناجيْنَ بعد خطف على طُرق تجارة الدولة الإسلامية : يبيعون المخطوفين الصغار إلى تجار ، ثم يتولى التجار بيعهم إلى أهليهم لقاءَ مبالغ كبيرة بعد مساومات ، ورُسُلٍ في المساومات ، ووساطات من توسُّط «المحايديْنَ» بين التجار وأهالي الأطفال المخطوفين .

تكرار النكبات ، في الشرق الذي أنا منه ، وحده يصنع الحقيقة ، والابتذال الساحق ـ وحده ـ يخلق المعاني .

أية حقيقة أستطيع إقناع نفسي بها إن سألْتني نفسي عن حقيقة؟ ربما الحقيقة ، التي لا حقيقة سواها ، هي ما أستطيع اختلاقَهُ . الحقيقة الأقوى هي التي تُختَلَق في قسوة .

كنت أُقنع نفسي ـ في المسير مع الفتيات الأربع يتهارشن بلا

عنف ، ويسخرن ، ويمزحن ـ أن كلَّ نكبةٍ عاقلةٌ : النكبة تحسب الأمورَ على نحوٍ متَّزِنٍ في مقادير التاريخ وأوزانه . النكبة عالِمٌ على قدْر احتقارها للعلوم . إنها الظمأُ الأجرةُ يدفعها الماءُ من حسابه .

كنت أُقْنع نفسي ـ في المسير مع الفتيات وهن يضعن خُططاً متداخلة عن وجوب رسمهن على هذا النحو ، أو ذاك ـ أن الإيمانَ بالأشياء الكبيرة ، والمعاني الكبار ، والنهايات المحسومة كالليل والنهار ، كلُّه تأسيسٌ أوَّلُ لانتحار الإنسان من غير أن يشغَلَهُ كيف سينتحر ، ومن سينتحر معه .

كنتُ أقنع نفسي ـ في المسير مع فتيات صغيرات ، يقلِّدن الطيور على شجر التفاح ، ويناديِنَ السناجب الكُثر هناك كي تنزل إليهنَّ ـ أنَّ الإيمانَ بالمُعْضلات التي بلا حلول هو ، وحده ، الإيمان بالحياة ، وأنَّ المفاجآت ، حتى أجملَها ، هي أشكال مبتذلة للإثارة ، وأنَّ المعارك توجَّل ، غالباً ، في الليل لينال النهارُ حظَّه من الجرائم .

كنتُ أقنع نفسي ـ في المسير مع فتيات يجرجرن بسلاسل ظلالَهن ، في ذلك اليوم المشمس ، سِيَرَ الشرق كلها ـ أنْ لاخاتمةَ بلا اعتداءٍ على حقٍّ ، وأنَّ الظلمَ مهنةٌ وليس طبْعاً .

كنت أقنع نفسي أنني في ثرثرة مع خياليَ لاتُقنع ، سائراً ، ذلك اليوم المشمس ، مع الفتيات الأربع يتراكضن ، ويجلسن ، ويتقافزن ، في البياض الذي لا أرى سواه كقماشة لوحتي المؤجَّلة . بياضٌ في كل شيء : بساتينُ بِيضٌ . تراب أبيض . شجر أبيض . سماء بيضاء . طيور بيض . سناجب بيضٌ . كلمات بيضاوات . أصواتٌ بِيْضٌ .

لم أكمل المشي شمالاً في الخروج من بساتين التفاح ، بل انعطفتُ إلى الشرق ، محاذياً تخوم البحيرة في حدود ضفافها

الجنوبية . أردتُ استكمال ربط ذاكرة بساتين التفاح بذاكرة بساتين الجوز الضخام الأشجار ، أو - ربما - لبلوغ محطة الباص الصغيرة في الطريق الواصلة بين مصانع الخشب ، حيث يقوم كوخ صغير يتوقف العابرون الراكضون ، والدرَّاجون ، وبعض السيارات عنده لشراء عصائر أو غازيَّاتٍ ، أو شرائح هامبرغر ، ونقانق في خبز اسطواني كالأصابع .

أحسستُ بجوع منذ خرجت بلا إفطار في الصباح الباكر على غير عادتي . لم أسأل الفتيات إن كنَّ جائعات ، ولم يكلِّفنَ أنفسهن سؤالا عن انعطافي بعيداً عن طريق البيت . آنيشا دارت من حولي دورتين فراشيَّتين في دورانها حول نفسها كرقصِ مريدي الصوفية . ألقت سؤالاً إلى هواء المكان :

- ما الاختصاص الذي ودَدْتَ أن يكون لك لو كنتَ مقاتلاً في الـ سارات؟

«سؤالك هذا يجري من نبع مُرِّ الماء» ، عقَّبت ، فلم تتوقف آنيشا عند توريتي . استرسلتْ :

- أتفضِّل صناعة المتفجرات ، أمْ تفخيخ الأبواب ، أم الألغام ، أم المدفعية ، أم الاقتحام ، أم القنص؟

«توقفي ، يا آنيشا» ، قاطعتها بلا رغبة في الانجرار إلى ردود تافهة الطعم . سألتها : «ماذا تفضلين أنتِ أن تكوني؟» .

«قذيفة هاون» ، ردت آنيشا من فورها .

«هذا ليس اختصاصاً» ، قلت .

«كان لضُرَّةٍ واحدة من المسْبيات ابنٌ في الخامسة ، يتباهى أنه يستعجل أن يصيرَ قنَّاصاً» ، قالت آنيشا .

ما رغبة آنيشا أن تكون قذيفة؟ صديقٌ كرديٌّ ، روائي ، كان يصرِّح

دائماً بشيء يشبه رغبة أنيشا على نحو مَّا ، لكنني لا أعرف ما لونُ الخيط الرابط بينهما : يريد أن يكون ذائعاً ، معروفاً كالكُتاب الذائعين ، متَّهماً كُتبه أنها تعانده في ذلك فتبقى صعبة ، غريبة . الأمر يعذبه . «لكنني أحترم رغبة كتبي» يقول مستسلماً .

روائي طموح تستبدُّ كتبُه بطموحه . تخذله لأنها عنيدة في إفشاء مستور معانيها العنيدة . وله توصيفات في مراتب الكتابة على مقارنة بالماء ، ومقارنة بالرمل :

«الصحفُ الرملُ تُقرأ بالآثار عليها» .

«الصحفُ الماءُ ينبغي الإيمان بما كُتب عليها ، وليس بقراءتها» .

«بالإيمان يُقرأ ماكُتب في الصحف الماء» .

«بالنظر يُقرأ ماكُتب في الصحف الرمل» .

وصفَ لي بحيرة أودن ، مرةً ، أنها تشبه رواية مملَّة ، لكنها خالدة .

في الطريق التي سلكتُها إلى الشرق بانت بحيرة أودن ملحوظةً يساراً ، بسور القصب على ضفتها . أهي ، حقًا ، تشبه رواية مملَّة ، لكنها خالدة؟

قرأتُ الجزءَ الأول من رواية «منازل سوان» للفرنسي مارسيل بروست . قرأت مائتي صفحة ، لا غير ، من «الحرب والسلم» للروسي ليون تولستوي . قرأت الجزء الأول من «يوليسيس» ، للإيرلندي جيمس جويس . نصوص مملَّة ، قوية في مَلَلها ، لكنَّ ضجري لا يضعني في الجانب الصواب من الأحكام . ينبغي تجاوز المَلَل إلى ذلك الهدوء الخارق الجليل لكُتَّاب يعرفون أن ما يكتبون مفرط في تساهله مع انتفاخ الزمن بين السطور ، والفصول ، إنما هم واثقون أن الزمن لن يتجاهل إهانتهم له ، بل سيكافئهم على عنادهم بخلودٍ ، لأنَّ الاقتدار على

إهانة الزمن لا يتقنه إلاَّ الهادئون .

أنا لستُ هادئاً كمظهري ، بل لاعبٌ قوي بالبوكر في داخلي ، ولاعب عنيف بشهوات الهدوء كاستدارة ثياب آنيشا عليها في رقصها المسترسل دائرياً كدراويش الطريقة المولويَّة ، من غير أن تتعثر قدماها على الطريق الترابية رسمَها العابرون نقْشاً على التراب والعشب بأقدامهم .

سمعت من فم آنيشا كلمات لم أفهمها . ناديتها :

- أهذه كلمات بالفارسية؟

«لا» ، ردت . «هي من تأليفي» .

«أتقرأين؟» ، سألتها ، فردت :

- أقرأ ولا أقرأ .

كنت في موضع ضيِّق بين «لا» ، و «نعم» في ردِّ آنيشا كالقديس أنتوني الذي رافقني ، في يومي ذاك ، مرسوماً على جلد صدري كله .

قديس في محنة هي الأقسى من نَكال الخوف كي يخذله يقينُه قصصٌ زاحمت القصص في السياق من سرد محنته الكابوس ، وانزلقت القصص ، من ثم ، إلى رسوم الرسامين كلٌّ تأوَّلها بفِقْهِ خياله نقلاً إلى صور .

اسمه أنتوني العظيم ؛ أنتوني الصحراء ؛ أنتوني مصر ؛ أنتوني ثِيْبَهْ . ثم خُصَّ باللقب الأوفى شاسعاً من كرامة الألقاب : «أب الرهبان» جميعاً .

طفح إيمان أنتوني عن قَدَح معقولة ، وعن قَدَح احتمال يقينه إيماناً ، فانذهل أنتوني . أراد انكفاءً عن الوجود إلى جمع فائض خزائنه النورانية في خَزْنة العزلة . لم تعُد لنفسه الفائضة عن مقدار ممكناتها إلا

السعة اللانهائية في العزلة . حَمَل جسده المُضنى ، وأسماله ، وزاده القليل ، إلى صحراء مصر الشرقية ، لاجئاً إلى المهجورات العريقة في صمتها المؤمن .

كلُّ عزلةٍ هي أُمُّ الإيمان بخلاء إمَّا تدخله الآلهة للإقامة فيه ، أو تنكفئ عنه منتظرة أن تحسم أمرها ، أو تُولِّي هاربةً . أنتوني أراد عزلَتَه أُماً مربِّية لإيمانه ؛ ساهرة على إيمانه ؛ راعيةً لإيمانه ؛ راويةَ قصصٍ لإيمانه إن أحسَّ وحشةً . لكنَّ عزلة المكان المهجور ، في صحراء مصر ، لم تكن خلاءَ البستان الذي يحصد فيه أنتوني نقاءَ يقينه : المهجورات مليئة بشعوبها المحجوبة وراء خنادقِ المرئيِّ ومراصده .

هبَّت على أنتوني المعتزل ، المتنسِّك ، في معقل خلائه ، مخلوقاتُ الإغواء المتهيئة أبداً للتبشير بمعتَقَد الشك .

حشودٌ من الغيلان ، والمسوخ ، والسعالي ـ خارجةً من توصيفات الخيال لعمَّال الجحيم وأُجَرائها ، وزبانيتها ـ اجتمعت من حول القديس أنتوني . راودته عن إيمانه . أرهبته . توعَّدتْه . تهدَّدْته . نكَّلت بظله فمزَّقت ظلَّه : إنه في المحنة الأقسى ـ الكابوس الذي عَرَقتْ منه الصحراءُ رملاً وصخراً .

القديس أنتوني ، أو الراهب الأول كما أقرَّهُ عقلُ الطهرانية ، عاش كوابيس مرويَّة في قصص عنه ، فتدحرجت مرموزاتُ الوقوع في محنةٍ من صحراء مصر الشرقية إلى الفن الغربي وأدبه .

قديسون كُثرٌ نبتوا بصورهم على اللوحات تحت اسم واحد : أنتوني . كل رسام استنزلَ مخلوقات التنكيل من سماء الجحيم التي في خياله . حتى أننا لن نعرف ، يقيناً ، أهي كوابيس القديس أنتوني متعرضاً لفتنة الشكِّ وإغوائه ، أمْ هي كوابيس الرسامين؟ لقد ظلَّ

معظمهم أميناً، بعض الشيء، لرسم المخلوقات المسوخ على قا
معرفتهم بحيوانات الصحراء، وزواحفها، وحشراتها، فأدْمَجوها في
صور مَزْجٍ من أعضائها وأعضاء الإنسان معاً، بما يوهمه هذا المزج
والدمج الغريبان من فداحة الكابوس، وقسوته، وبطشه. لكنَّ أنتوني
لن يلين؛ لن يستسلم؛ لن ينهار معترفاً بضلاله.

رسامون أضافوا إلى مخلوقات الغواية المخيفين مخلوقَ السنتور
النصفَ الإنسان والنصف الحصان، ومخلوقَ الساتير النصف الإنسان
والنصف التيس. رسامون لم يرسموا القديس أنتوني بعدُ سيضيفون
إلى مخلوقات التنكيل بإيمان أنتوني كائنات من مديح القرن الحادي
والعشرين لمسوخه. سيضيفون الأرثذوكسيَّ القوميَّ الروسي بوتين،
والشيعيَّ الفقيهَ في الخراب خامنائي، والعلويَّ حاكمَ سوريا، والخليفة
السنيَّ البغدادي، و«أصدقاء سوريا» المخذولين الخاذلين، وحسين أوباما
ملكَ تجاهل العذابات، وسلطانَ تركيا الجديد، المتعجرفَ كرغباته
الإمبراطورية الركيكة في عالمٍ تتهشم فيه الإمبراطوريات، الطافح
حقداً على الأكراد.

سلفادور دالي، هيرونيموس بوش، بول سيزان، دوروثيا تاننغ،
ماكس أرنست، كانوا بعضَ من رسموا القديس أنتوني، الذي
استوحت إحدى الأوبرات محنتَه، واستوحاها فيلمٌ صامت، ونثرٌ من
غوستاف فلوبير أيضاً. قديسٌ شفيع للناس من أمراض الجلد المُعدية،
مثل «القُوباء المِنْطَقية»، أو «الحزام الناري» الداء الذي يتقشر منه الجلد
كتقشير الحية جلدَها؛ ومثل داء «التسمم الأرْغوتي» الناشئ من أكل
الأطعمة المُعَدَّة من الأرزِّ، ومثل داء «الحمرة»، وهو التهابٌ جلدي
بدوره.

«إغواء القديس أنتوني» ، للرسام الألماني ماثياس غرونوالد ، هي اللوحة التي نقلها خيالُ الليل من النظر في مجلد الرسوم إلى جلد صدري صباحاً . وقد ودِدْتُ ، في مسيري مع الفتيات الأربع بين بساتين الجوز ، لو فتحتُ أزرارَ سترتي عن قميصي ، وأزرارَ قميصي السميك تحت السترة فأخلعَه ، عارضاً نصف جذعي العاري على أبصارهن : «أمررتُنَّ ، في الخروج من سنجار ، بالقديس أنتوني؟» .

كانت الفتيات لاهيات ، تتقدَّمنا آنيشا برقصها الدائري الذي دوَّخ المكان .

الفصل الثامن

(C aravaggio: Judith Beheading Holofernes)

على كل رسام، أو نحّات، في أوروبا، أن يراجع حسابات خياله مع العُـرْي. الجسـدُ يعود، الآن، إلى ما يليق به في صَدَفة الدِّينِ محجوباً، إلاَّ الفم للأكل، والعين للنظر، والأنف للشم، واليد للمس، والقَدَم للمشي. كل تفصيل آخر فيه يتراجع محواً من قائمة الضرورات في الفن، ومن قائمة الخروج إلى الشارع جسداً تُستحسن هيئته، وقَوامُه، ويُرْغَب.

أوروبا في عَقد جديد الآن مع رؤساء الشرق، ووزراء الشرق من ذوي العمامات. الرئيس الإيراني زار إيطاليا فألقت إيطاليا الحُجبَ على تماثيلها العارية، وعلى لوحات قوَّاد الفتوحات الرسامين على جبهات الروح. حَجَبتْ كلَّ عُرْيٍ في فنِّها كي لا تخدش حياءَ الضيف المسلم، المعمَّم، المبتسم الخيال لفِرَق القتل حشدها مولاه الوليُّ الفقيه في سوريا لذبح السوريين.

موائد قادة أوروبا خَلَت من النبيذ رأفةً بحياء ضيوفها المعمَّمين من إيران. لم يسألوهم لماذا تخدش إيران حياءَ الحياة بحرسها الثوري في سوريا، وبشيعتها الملبِّيْن نداءَ إيران بلغات خمس من آسيا وأفريقيا ضد السنَّة في سوريا؟ لم يسألوهم عن تمزيق المجتمعات بالسُّعار المذهبيِّ

في دول عدَّةٍ تُحصى . لم يسألوهم عن المحتَجَزين ، والمنفيين الإيرانيين لم يسألوهم عن دواعي شراكتهم في حروبٍ أغرقت أوروبا باللاجئين لم يسألوهم كيف شرَّع الإيراني لنفسه أن تكون مزاراتُ الشيعة ، ومقامات أوليائهم ، حقوقاً حكراً عليهم تبيح الغزوَ أنّى شاء ، وحيث شاء من الأرض ، بلا قيد أو شرط؟ حجبوا عن موائدهم شرابَ يومهم العاديَّ إلى جوار الأطعمة ، وغطوا التماثيلَ والرسوم في عبور مُعمَّمي إيران بالتماثيل والرسوم ، حِرْصاً من أُمَّهات الحرْص على حياء الضيوف غير المخدوش .

كُرةُ «حقوق الحياء» تتدحرج الآن على ثلج أوروبا . شركاتٌ ، ورساميل ، ورجال أعمال ، ومصانع أسلحةٍ من نُور القتل ، تُدحرجُ الكُرة بثقلها على أرض أوروبا الثلج ، بأيدٍ ريحٍ ، وأفواه يسيل منها لعابُ العقود مع الشريك الإيراني ، الطاهر ، المهذَّب ، المسالم ، ذي الإيمان النووي الملجوم حتى إشعارٍ آخر .

قادة مسلمون كُثر ، من بلادٍ لا حظوظ إلاَّ للدينيِّ في إدارة الحياة ، زاروا أوروبا ، بعد ظهورها قارَّةً حوريَّةً من صَدَفة إلهٍ بحريٍّ ، فلم تُحجب التماثيلُ العارية فيها ، ولم يُسدل النقابُ على رسوم الرسامين . سيذكرُ التاريخُ لإيران أنها دشَّنت في أوروبا «حقوق الحياء» التي لم تكن مثبتة بين قوائم حقوق الحيوان ، والإنسان . أوروبا الحمقاء أيقظتها عمامةُ الزائر الإيراني على تاريخها الناقص في الحقوق . أوروبا المعتمة ، المظلمة ، جاءها من الشرق ، أخيراً ، نُورُ التذكير بالحقوق التي عرفها الشرق ، قبل خروج أوروبا من صَدَفة إلهها البحريِّ وحتى يوم رفع العقوبات عن إيران . «حقوق الحياء» محفوظة في كل خطوة من سيرة الشرق الذي أنا ، والإيراني منه : الحياء من الحرية . الحياء من اللذة

الحيـاء من نظر أنثى إلى ذكر ، وذكـر إلى أنثى ، الحـياء من الثـياب . الحياء من الكلمات . الحياء من الرسم والموسيقى . الحياء من الذات . الحياء من الحياة ذاتها .

مشهدان ستعرفهما أوروبا بعد اكتشافها «حقوق الحياء» عن يد الفاتح الإيراني : مُسارعةُ مصمِّمي الأزياء إلى ابتكاراتٍ فذَّة ، غير معهودة ، مدهشة ، مذهلة ، لثياب تليق بأجساد التماثيل تصميماً لم تعرفه أوروبا ، قبلاً ، إلاَّ على أجساد الدُّمى في واجهات بيع الثياب . لكنَّ الأمرين لا يقارنان قط : التماثيل العارية ترتدي ، للمرة الأولى ، ثياباً في أوروباً .

براعات مصمِّمي الأزياء ستكون مثار مفاضلات لم يعرفها خيالُ أوروبا قبلاً : أيهما الأجملُ ـ التماثيل أمِ الثيابُ التي عليها؟ أفكار من «فلسفة الحياء» ستكون «التنويرَ» المرشد إلى ما أسقطه عصرُ التنوير من حساب أقداره الناقصة .

المشهد الآخر ، الذي ستعْرَق منه أوروبا متعةً ، وتفيض منه فلسفة المقايضات الكبرى من بيع الأخلاق وشرائها ، هو أن يفيق الناس فجراً وقد سارعت الشركات ، والمصانع ، ورجال الأعمال ، إلى تغطية أجساد التماثيل العارية بلفائف هائلة من أوراق العقود المشمَّعة كي لا يُتلفها المطر . أوراق عقود مع إيران من كل لون ، وطعم ، ومذهبٍ ، ودِينٍ ، ونحوٍ وصَرْفٍ متشدِّدَيْنِ أو متساهلين ، بحسب صياغات أئمة الإقتصاد في بناطيلهم الجنز .

ما سيحدث للتماثيل لن يحدث بتمامه للوحات الفاتحين الرسامين ، الفاتكين باللون إنشاءً للرسوم الخالدة . لن تغطى اللوحاتُ الحاويةُ عُرْياً بالتفاصيل كلها . سيبتكر مصممو الأزياء ، ومصمِّمو ورق

الجدران ، ومهندسو الإضاءة ، نجاةً مُرْضيةً للرسوم إلاَّ ما انكشف فيها العُريُ صاعقاً يخدش الحياءَ المكتشَفَ طَبْعاً جديداً من خصائص الطباع الأوروبية : مصمِّمو الأزياء سيلصقون ثياباً صغيرة جداً على زجاج اللوحات حيثما بدا عُريٌ ، على نحوٍ يليق بالأجساد ، ويطابق المتناسبَ اللائق بشكل الجسد وحركته .

مصمِّمو ورق الجدران سيمنحون الفراغَ حول اللوحات ، أنّى عُلِّقت ، امتداداتٍ من اللون تفيض عن الجدران منسلَّةً إلى الرسوم ، من فوق زجاج إطاراتها ، فتغمر الأجزاءَ العارية من الأجساد بتناسق لونيٍّ يحفظ للوحة مظهرها الأصل حين كان العُريُ بلا سِتْرٍ .

مهندسو الإضاءة ستُعْتَمدُ حِيَلُهم ، في الأرجح ، أكثر من مصمِّمي الثياب ومصممي ورق الجدران . هم لن يتدخلوا بحجاب مادَّةٍ ورقٍ ، او قماش ، لحجب العري في الرسوم . ستفيض منهم براعاتُ الحَجْب والتظهير إضاءةً على اللوحات بحِذْقٍ مدروس قد يحسدهم عليه رسامو اللوحات أنفسهم على فَرَادته . سيوجهون أنواعاً من مراتب الضوء خافتاً ، شاحباً ، مبهراً ، ملوَّناً ، مقعَّراً ، محدَّباً ، بالغاً مبلغه من صِغر بؤرته ، دقيقاً كالخيوط أحياناً ، عريضاً حيث يتوجب على النور أن يتلاعب بالمقادير في أَبعادِ الأشكال ، ويخفِّض أوزانَ اللون أو يزيدها ثقلاً ، بجعلها نافرةً أو غائرة . تلاعُبٌ كتلاعُب الشرق العمامات بأوروبا القبعات الراضية بالتبعية للعقود في «جهاد المال» حقوق المال مصونة في أوروبا عادةً ، وها هي «حقوق الحياء» تحصِّنها صَوْناً على صَوْن .

«الجهادُ» بكل مرتبة فيه ، من الأصائل الفروض إلى المُبتَكَرات الترفيه في أيامنا من لعب الدولة الإسلامية تشريعاً بابتكاراتها ، أَلْهم

أوروبا «جهادَ المال» . لا الأخلاقُ عقبة في طريق إحقاقه ؛ لا المهاجرون هرباً من الموت ؛ لا تورُّطُ المتورطين في المذابح . «جهاد المال» الأوروبي سَلَك ، في مصافحة أوروبا لإيران ، طريقَ الفتح الأكبر : الشركات قادمة .

الداعية إحسان عَيَّرَ أوروبا على احتفائها بالرئيس الإيراني الفاتح : «ما إيران؟» ، كاد يصرخ بصوته العميق خارجاً من فمه بنصالٍ حادَّة في الحروف ، فاستوقفتُه متسائلاً :

- أنتم لا تحاربونها .

«ليس الآن» ، ردَّ الداعية . «لدينا مُشْتَرَكاتٌ في مقايضة أراضٍ من سوريا بأراضٍ من سوريا . نتقاسمها على مهل» .

كان الوقت ظهراً حين وصلتُ ، تحت المطر ، إلى موقف حافلة الركاب ، على الشارع الواصل بين العاصمة والضواحي ، حاملاً مظلتي . طريق الحافلة يقع إلى الجهة الغربية من بيتي ، على مبعدة بضع مئات من الأمتار . وقد عزمتُ ، ذلك اليوم غير المتناسب بطقسه مع خطط التسوُّق ، ان أتوجه إلى ضاحية أخرى قريبة من الضاحية التي أقيم فيها . هي أوسع أسواقاً ؛ أوسع أصنافاً ببضائعها ـ ماكولاتٌ ، وملبوسات ، وكهربيات ، وأثاث ، ومصارف ، ومطاعم ، وحوانيت زهرٍ وورد . لقد قررتُ شراءَ معطف .

مطرٌ بين عصبيةٍ وارتخاء ، كان اللسانَ الناطق بمشادات الغيوم وعراكها . أمضيتُ ساعةً أصغي إلى صوت الميزاب وأنا جالس أمام القماشة البيضاء ، في مشغلي ، أحاول ربطَ الخيال المفترض ، الجامع بين بقعتين رماديتين أقلقتُ بهما البياض ، مستديراً كل بضع دقائق إلى النافذة المشرفة على أفق البحيرة ملتحماً بالسماء في لونها .

كانت يدي اليمنى مترددة ، بالرغم من تشجيعي لها بخاتمين

أرتديتهما ، ذلك اليوم ، في إصبعيَّ السبابةِ والوسطى . خاتم فضي بفصٍّ من حجر أخضر في الإصبع السبابة ، والآخر بفصٍّ من حجر أصفر في الإصبع الوسطى . لا أزين يدي بالخاتمين إلاَّ في الزيارات المتباعدة جداً لأصدقاء في المهنة ، بإلحاح من ناتالي . ظننتُ ، أو خال لي ، أنني قد ألجم تردُّدَ يدي ، فأُقحِمها ، أخيراً ، في مطلع من المجابهات اللونية على بياض القماش . يدي الممسكة بفرشاة لم أغمسها في لونٍ بعدُ ، أصغت مثلي إلى الميزاب يتهارش فيه ماء المطر مندلقاً ؛ قايضتْني عجزاً بعجز ، فازمعتُ مغادرة المنزل لشراء معطف .

فوجئتُ ، في وصولي إلى موقف حافلة الركاب ، بالداعية إحسان ، وسائح الكلاب عدنان ، والشيشاني علي عمروف ، وبشخص رابع أسود البشرة ، جالسيْنَ على المقعد الخشب ، المستطيل ، تحت السقف الزجاج للكوخ الزجاج ، ينتظر المنتظرون فيه وصول الحافلات .

تمالكتُ نفْسي . لم أُبدِ اكتراثاً . بادرتُهم سائلاً بلا تمهيد :

- أتخططون لشراء طائرة؟ .

«طائرة؟!» ، تمتم عدنان الممسك بمقاود كلاب أربعة ضِخام ، مبتاه جداً .

«طائرة . نعم . تهاجمون بها مزرعة خنازير في أوروبا» ، أجبت .

زفر الأربعة معاً زفيراً لم يترجمه خيالي جيداً : أهو زفيرُ الرغبة في ذلك ، أم تحسُّرٌ؟ .

تكلم الشاب الأسود ، النحيل ، العصبي الوجه ، بصوت فيه رنين خافت :

- لو عندي طائرة كنتُ أسقطتُها على مدينة قُمْ في إيران .

«آباؤكم من تنظيم القاعدة لم يفعلوا ذلك قط . بعضهم لا يزال

مقيماً في إيران . يأكل الطعام الإيراني ، ويشرب الماء الإيراني ، ويتسلم خططاً من الإيراني يضعها له تحت سجادة صلاته» ، قلت في نَفَسٍ مسترسل فيه نَبْرُ الضِّيْق . أضفت متسائلاً : «أتعرفون لماذا لم يحارب آباؤكم في القاعدة إيرانَ الشيعة بطلقةً وهم يكفِّرون الشيعة؟» .

لم يجيبوا ، بل أصغوا إلى جواب عرفوه سيأتي ملحقاً بسؤالي . قلتُ ساخراً :

- يستحي المرء أن يسيء إلى مَنْ أطعمه وآواه . آباؤكم أوفياء في الحفاظ على حقوق الحياء .

«حقوق الحياء؟» ، تمتم الداعية . «أهذا من معجم الحقوق في أوروبا ، يا سارات؟» .

«لا» ، أجبت . «إنه إلهامٌ جاءَ به رئيس إيران ، في عمامته ، إلى حكام أوروبا ، زائراً» .

«ما إيران؟» ، غمغم الداعية بنبرٍ من الصوت على كراهية ، فأجبته من فوري :

- هي الدولة التي لا تحاربونها .

لم أعِرْ دفاع الداعية إحسان عن موقف الدولة الإسلامية المهادن لإيران مذ تغاضت وسهَّلت لهم إيران اجتياح أرض من العراق ، ومن سوريا ، بإغضاءٍ فاحشِ الصناعة من حِيَلِ الإيراني . لم أعِرْ إسراف إحسان في خلط التعابير خلطاً على حقدٍ شاسع واسع من وسْمِه إيرانَ بدولة هائلة في صناعة الخرافة ، وتسويق الخرافات . رفيقهم الجديد ، الأسود البشرة ، أضاف إلى غضب الداعية سطراً :

- لو عندي طائرتان أسقطتُ واحدة فوق مدينة قُمْ ، والأخرى فوق رأس الخميني .

«مات الخميني قبل أن تولد ربما» ، ذكَّرتُه ، فرفع الشيشاني يدهُ يلفت عقلي ، وعيني ، إلى كلماته بالفصحى :

- هذا أخونا في الإسلام سَعْدون .

«أنا الحاج سعدون» ، قال سعدون مُرْفِقاً اسمه بلقب الحضره الدينية : «حججتُ إلى بيت الله» .

«أتُحسن قيادة الطائرات ، يا حاج سعدون؟» ، سألته مبتسماً ، فرد الشاب الحليق الرأس تماماً ، بصوته الذي فيه رنَّةٌ :

- سأقودها إن شاء الله . طائرات كثيرة ستلتحق بأختيها الطائرتين الشهيرتين .

«أتعني طائرتَيْ أيلول في أمريكا؟» ، سألته .

«نعم . الأُختان الشهيدتان» ، رد سعدون .

ملْتُ بوجهي صوب الداعية الجالس :

- ما حُكْمك في هذا؟ .

«في ماذا؟» ، تساءل إحسان .

«أن يعتبر الحاج سعدون طائرتي ١١ايلول شهيدتين» ، أجبت .

أطرقَ الداعية بوجهه المستدير إلى الأرض . قرأ آية قصيرة همساً قبل أن يجيب :

- لو كان في وسعي أن أتوسط عند الله لتوسَّطت كي يُدخل الطائرتين إلى الجنة .

«إلى الجنة؟» ، تساءلتُ بنبرٍ مستغرب ، فردَّ بنبْرٍ تأكيدٍ :

- نعم .

«أتريد الطائرتين في الجنة بمجموع ركابهما ، أم فارغتين؟» تساءلتُ ، فرد :

– فارغتين . لقد أدَّتا جهادَهما .

«هل تنوي افتتاحَ معرض ، في الجنة ، يا إحسان للآلات التي استخدمتموها في جهادكم؟» ، سألته . «جناحٌ للطائرات . جناح للسكاكين . جناح للبنادق . جناح للسيارات الرباعية الدَّفع الإنتحارية . جناح للشاحنات» .

«أتمازحني؟» ، عقَّب إحسان . نهض في هدوء عن المقعد . أقْسَمَ : «والله ، مع أن فكرتك مبطنة ببعض السخرية ، يا سارات ، لكنني أستملحها» . حدَّق إلى الخلاء الوسيع ممتداً من الشارع حتى الغابة البعيدة : «لِمَ لا؟» ، تساءل .

نهض سعدون عن المقعد بدوره . غَمغم مفتتحاً جملةً قالها بالقَسَم مثل الداعية :

– والله أسمع كل بضعة أيام ، في حلمي ، هدير طائرتَيْ شهر أيلول كسماعِ لحنٍ في الجنة . كنتُ صغيراً حين ألقى مجاهدونا بهما على أمريكا .

«أسمعتَ هديرهما؟» ، سألته ممازحاً ، فردَّ بصوتهِ الرَّنَّةِ :

– كل مؤمن سمع هديرهما بقلبه .

هرَّت الكلاب الأربعة معاً متململة ، تجذب نفوسها إلى خارج موقف حافلة الركاب الزجاجي ، فشدَّها عدنان . كان في هريرها نبْرُ عداءٍ ليس كهرير الكلاب الستة الصغار ، التي اعتدت أن أراها معه .

«إنها ضخام» ، قلت لعدنان في إشارة إلى الكلاب .

«ضخمة كأوروبا ، لكنها كلاب» ، عقَّب عدنان على نحوٍ لا أعرف كيف صاغ عبارتَه . أخرجتُ لفافة تبغ . أشعلتُها . غممتُ :

– أين الباص؟ .

مشيتُ خطوتين أجاور الداعية الواقف . حدقتُ إلى لائحة مواعيد
قدوم الحافلات مؤطَّرة في لوح صغير ، ملصق إلى الجدار الزجاجي ،
فقاطع الداعيةُ نظرتي إلى اللائحةً :

- أوروبا ستنهار .

«أستنهار على يديك؟» ، سألته ، فرد :

- قوانينها تعجِّل بذلك . نحن مع قوانين أوروبا ضد أوروبا .

«أأنت داعية ، يا إحسان ، أم خبير دولي في القوانين؟» ، سألته ،
فردَّ يصرفني عن سياق لا يريده :

- كيف سترسم أخانا الحاج سعدون؟ .

أدرت وجهي صوب سعدون ، الذي بدا مترقِّباً ما سأقوله . سألته

- كيف تريدني أن أرسمك؟

ابتسم سعدون من غير أن يجيب . تدخَّل الداعيةُ متصنِّعاً مزاحا

- هل كنتَ أبيضَ ، ولو لمرة واحدة ، يا سعدون؟ .

اتسعت ابتسامة سعدون باقياً على صمته ، فاسترسل الداعية :

- ستكون كاللؤلؤة بياضاً في الجنة .

زفرتُ متطلعاً إلى امتداد الشارع عن يمين موقف الحافلة ويساره . لا
باصَ . لا شبحَ باص . نظرت إلى ساعة يدي مغمغماً :

- ماذا يجري؟ .

«ستتأخر الحافلة» ، رد عدنان .

«مايُدريك؟» ، سألته . «لقد تأخرتْ كثيراً على أية حال» . أنزلت
بصري إلى الكلاب متسائلاً : «أتتجول بها حتى في يوم كهذا ، يا
عدنان؟» .

«ما اختلاف هذا اليوم عن غيره؟» ، تساءل عدنان .

«سؤالي رديء» ، أجبت ، ثم التفتُّ إلى سعدون يلمس كتفي :

- أأنت جيد في الرسم ، يا سيد سارات؟

«أنا جيد جداً في أن أشيخ» ، أجبته .

لم يستوقفه ردِّي . سألني :

- أأنت كردي؟

«نعم» ، أجبته .

نظر سعدون إلى الداعية . هزَّ رأسَه رضىً :

- أخي إحسان أفتى بجواز أن يرسمنا كرديٌّ .

نظرت إلى إحسان متصنِّعاً امتناناً :

- شكراً لك .

ألوى الداعية فمه :

- إنه امتحان الله أن يرسمنا كرديٌّ .

خفض المطر شجارَه وعِراكه . انقلب من صَبٍّ سَكْبٍ إلى قطرات متلاحقة بلا غلواء . نقرتُ بأناملي على اللوح المطرَّز بكلماتٍ وأرقام متناظرة هي مواعيد وصول الحافلات . تمتم عدنان :

- سيتأخر الباص كثيراً هذا اليوم .

«كيف تعرف؟» ، سألته ، فرد :

- هذا إحساسي .

«الأفضل أن أعود إلى البيت ، إذاً» ، عقَّبتُ . «لا معطفَ اليوم» .

«عمَّ تتحدث؟» ، سألني عدنان .

«كنتُ سأشتري معطفاً» ، أجبت .

«لا تؤجل ذلك» ، قال عدنان .

«لماذا يعنيك الأمر؟» ، سألته ، فرد :

- لنبقى معاً قليلاً .

«ماذا إن لم يجئ الباص؟» ، تساءلتُ ، فرد :

- سيكون هناك باص قادم بعد الذي لن يأتي .

«سأنتظر إلى يوم القيامة ، إذاً» ، عقَّبت .

فتحت مظلتي : «فقدتُ رغبتي في شراء معطف» ، قلت وأنا أهم بالانصراف ، فإذا بالأربعة يحيطون بي طوقاً صغيراً . ابتسمتُ :

- أتحتجزونني؟

«أعطِ المعطف الذي ستشتريه وقتاً كي ينضج» ، قال الشيشاني في تورية لم أفهمها . تساءلتُ :

- صار المعطف طعاماً إذاً .

«الثيابُ أطعمة . لهذا يختار مجتمع دولتنا الإسلامية ثياب الأفغان . إنها ناضجة حشمةً» ، قال الشيشاني .

«إدامةُ الطعام ذاته تجعله وجبةً مملَّة» ، عقَّبتُ ، فرد الداعية :

- لا وجبةَ تُمَلُّ ، حتى لو تكررت ، إن جاع الإنسان .

«أنتم فقهاء الجوع» ، عقبتُ ، فقال :

- الجوع الأرضي سينتهي . خليفتنا ختامٌ .

«أهو آخر الخلفاء في الأرض؟ أستنتهي الأرض بعده؟» ، سألته فردَّ :

- تعرف يا سارات ، أن التبشير بظهور آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم كان في التوراة ، والزبور ، والأنجيل؟ هي كتبُ الله حرَّفها المحرِّفون . في قوانين أوروبا شيء من التبشير بزوال أوروبا ، وفي قوانين الأمم تبشير بقوانين الإسلام . في كل شيءٍ تبشير بسيادة دينا هو آخر الأديان ، وأبقاها .

«ماذا تفعلون في الأرض ، يا إحسان؟» ، سالته ، فرد ممسِّداً بيده على صلعته كأنه يذكِّرني بشيءٍ مًّا :

– نتدرب على الشبع . في السماء متَّسع لا نهائي للجوع الطاهر .

«هذا ليس من كلام الدُّعاة . أقرأتَ فلاسفةً فرنسيين من أبناء اليوم؟» ، سألته .

«ماذا؟» ، تساءل الداعيةُ غمغمةً ، فأجبت :

– فلاسفة ما بعد «حقوق الحياء» .

«لا تأخذنا إلى فلسفات الكَفرة» ، قال الداعية .

«لا آخذكم إلى مكان . إنهم فلاسفة الإيمان بأن المهاجرين سيرسمون صَدَفة إلههم البحريِّ ، التي ستخرج منها أوروبا الثانية» ، قلت .

تبادلوا نظرات متسائلة . لم يلتقطوا شيئاً من مقاصد كلامي المنزَلِق ضجراً إلى أفكار مضجرة .

«ما الصَّدَفة هذه؟» ، تساءل سعدون بصوته الرنين . «ما إلهُ أوروبا؟ للأرض إله واحد» .

زفرتُ فاتحاً ثغرة في حلقتهم بيدي للإنصراف : «أنا متعَب» ، قلت . «قرارُ شراء معطف في يوم كهذا قرارٌ متعَب . أوروبا متعَبة . إله أوروبا القديم متعَب ، مرتجف اليدين في فتح الصَّدَفة البحرية بسكِّينة» .

«لم تجبني عن معنى الصَّدفة» ، قال سعدون .

«لا معنى للصَّدَفة . إنها صَدفة بحرية تخرج منها حورية اسمها أوروبا» ، قلت .

هَأهَأ الشيشاني ، متجولاً بنظرة واضحة المعنى على وجوه رفاقه :

– حظُّ مَنْ ستكون هذه الحورية؟

«في أوروبا يأكلون الأصداف بكثرة» ، قال عدنان ، فعقَّب الدا...
وهو يغمزني بعينه :

– ليسوا مثلنا . هم يأكلون حورياتهم . نحن لا نأكلهن .

«آكلو الأصداف في كل مكان ، يا أمراء الخلافة» ، قلت . «إنهم
يتذوقون بألسنتهم طعمَ الحوريات» .

«أتحب الأصداف؟» ، سألني سعدون ، فأجبت :

– أحب أكل الأصداف .

«ما طعمها؟» ، سألني ، فأجبت :

– طعم قَرْعِ الفأس على درع .

في الأرضِ الخلاء السهل ، الباقية معشبةً في الخريف ، بامتدا...
من محطة الحافلات حتى الغابة البعيدة غرباً ، انقسمت قبيلة ...
الفايكنغ انقساماً طاحناً ، ضروساً شرساً . تذابح ناسها بالخنا...
وتراشقوا بالسهام والحراب ، وتقارعوا بالفؤوس . أحرق بعضهم بيو...
بعضهم . هشم بعضهم سُفنَ بعضهم . هدم بعضهم حظائر حيوانا...
بعضهم . عقروا الخنازير ، والأبقار ، والدجاج ، والكلاب أيضاً .

سبعة آلاف فأس دُفنت معهم في نهاية المعركة .

أعجب قائد من الغزاة الفايكنغ بأيقونات مُذهَّبة ، وألواح ...
الكتابات الدينية المزينة رسوماً ، التقطها من دير في الشاطئ الشما...
لأرض بريطانيا القديمة . جلب معه ، في العودة إلى إقليم فيسترو...
من أرض الإسكندناف ، راهبيْنِ نقَّاشيْنِ يتقنان الرَّقْن بألوان ...
صناعتهما في مزج العناصر . كلفهما القائد بإنجاز عروض من خيال...
عليهما : صور الملوك الآباء ، وصور فردوس المحاربين فالْهالا أيضاً ...

كلفهما برسمٍ لعراف القبيلة الضرير ، قارئ النقوش على رياح المعارك قبل حدوثها .

توسَّع الراهبان في وضع أيقونات من مصكوكات الخيال الخرافي للشماليين ، لكنهم سرَّبوا مع الرسوم الزِّينة ، التي بهرت الفايكنغ ، اقتباسات من أقوال الرُّسل الأحبار في دينهما على حواشي الألواح . شرحوا معانيها بألفاظ الفايكنغ : إلهٌ يفتدي البشرَ الخطاة بابنه مصلوباً . تسامحٌ . سلامٌ . أُخوَّة . قلوبٌ خرافٌ لا تشبه قلوب محاربين في فالهالا . جسدٌ خبزٌ . دمٌ نبيذٌ . صلواتُ خلاصٍ . أرواحٌ تأنيبٌ من خذلان شعب لابن إلههم في تبشيره بمملكة أبيه في السماء .

استظرفَ الفايكنغ ، في مجالس شرابهم كل مساء ، سَمَرَ الراهبين بأحاديث من سِيَرِ التواضع والاتِّضاع ، والتذلل للخصوم مسالمةً وتسامحاً . لكنِ ارتسمت ممَّراتٌ من عبور الكلمات بخطوات إيمانها على أرض الوثنيةِ الوعرة . مال بعضُ تلك القبيلة إلى إله البشر الخراف ، وظلَّ البعض على قَسَمه بعدالة القسوة في طبع إلهه المحارب .

لم يعد ممكناً تجاورُ إله الخراف وإله التنين في إقليم أقرَّتِ المصادفةُ الدهرية أن يكون منزلي على أرضه . نبت لإله الخـَراف أنياب ومخالب . غضبَ التنينُ : سبعة آلاف فأس دفنها ترابُ الزمن مع الأجساد الممزَّقة بالفؤوس ، في الخلاء المديد بين موقف الباص والغابة الغربية ، التي لم تكن على تلك الشساعة بعدُ حين نفخ المحاربون على جمر المعركة بأفواه قلوبهم القوية .

هرب الراهبان ـ هكذا تنتهي الحكاية التي لا أعرف ممَّن استقيتها ، لكنها تخصُّني الآن ، لأنني أسمع أحياناً ـ كما يسمع سعدون في أحلامه هديرَ طائرتَيْ أيلول لحناً من ألحان الجنة ـ صليلَ المعادن في

قِرَاع الفؤوس للفؤوس ، والتروس للتروس ، تحت أرض البيت .

نهض سعدون إذ بدأتُ أول خطوة في مغادرة موقف الحافلة ، رافعاً مظلتي . اعترضني واقفاً في المطر يسيل خيوطاً متصلة على رأسه الحليق حتى مصبِّها بين شعر لحيته الجعدة . كلَّمني هامساً :

- ماذا عن بشرتي ، يا سارات؟

«مابها؟» ، سألته ، فرد من شفتيه العاديتين كسودان موريتانيا والصومال :

- أستبقى في الرسم كما هي؟

«قد أجعلها زرقاء» ، أجبت .

«زرقاء؟!» ، تساءل مبتسماً .

«لونٌ سماوي . ألستَ ذاهباً إلى هناك؟» ، قلت ، وأنا أرفع مظلتي قليلاً في اتجاه السماء .

«يحب غَزَل الصوفيين» ، قال الداعية خارجاً من الكوخ الزجاجي .

«مَنْ؟» ، تساءلت ، فرد :

- الحاج سعدون .

«لا أحب الأشعار» ، عقَّبتُ . «لا أشعارَ سائقي الحافلات ، ولا أشعارَ الشهوة إلى النساء ، والغلمان ، مبطَّنة بالتوريات الإلهية» .

نظر سعدون إلى الداعية مستفهماً بعينيه عمَّا قلتُ ، فألوى إحسان فمه على نحوٍ لم أفهم معنى تعبيره . سألني :

- أيكتب سائقو الباصات ، هنا ، أشعاراً؟ .

«هم المتصوِّفون الحقيقيون . لديهم مجلدات من الغَزَل بجمال الطُّرق» ، قلت ، مستديراً بوجهي إلى جهتيِّ الطريق : «أين الباص القحبة؟» .

«الباص مذكَّر، يا سارات»، عقَّب الداعية على شتيمتي.

«أُقْسِم أنْ لا باصَ سيدخل الجنة»، قلت مقلِّداً الداعية في طريقة قَسَمه. أدرت وجهي إلى رفيقه مكملاً: «إلاَّ إنْ فجَّره سعدون بمن فيه».

«لن يأتي الباص اليوم، يا سارات»، قال عدنان خارجاً إلى المطر بكلابه من تحت السقف الزجاج لموقف الحافلة.

«مالك تكرر ذلك؟ هل اتصلت بك دائرةُ المواصلات، ياعدنان؟»، سألت سائح الكلاب، فزفر:

- اليوم إضراب سائقي الحافلات.

«إضراب؟»، تساءلت مستغرباً. «أهذا من تخمينك أم عن معرفة؟».

«اليوم إضراب»، كرر عدنان. «أين كنتَ قاصداً؟».

«سمعتُ نداءَ معطف»، أجبت. عدتُ إلى تساؤلي بصوتٍ جادٍّ: «أأنت واثق من خبر الإضراب؟ لِمَ لمْ تقُل لي ذلك منذ البداية؟».

«منحتُك فرصة التعرُّف على الحاج سعدون»، رد عدنان.

«ياللفرصة»، عقَّبتُ بصوت فيه نبرُ استنكار، وأنا أنظر إلى الكلاب الضخام انتفض واحد منها فهزَّ بَدَنه ناثراً الرذاذ عن شعره في كل اتجاه.

غمغم الشيشاني مستنكراً:

- أصابني رذاذٌ نجس.

غمغم سعدون والداعية مثل الشيشاني مشمئزَّيْنِ من الرذاذ أصابهما عن هزِّ الكلب هيكله الضخم.

غادرتُ الموضع الذي بات وقوفي فيه عبثاً. كيف لم أعرف

بإضراب سائقي الحافلات؟ ليس عليَّ أن أستغرب حقًا . لا تعنيني
الحافلات ولا مواعيدها ، ولا أشعار سائقيها الصوفيين . لا أحتاجها في
دائرة حركتي بين المنزل والسوق القريب . غير أنني أحسستُ حَنَقا في
داخلي عليَّ . لماذا اخترتُ هذا اليوم الممطر لشراء معطف؟ .

استعجل سعدون خطواته فسبقني ، ليستدير إليَّ في مشي
جانبيٍّ . سألني :

– كم يبعد متجر بيع المعاطف؟

«إنه في الضاحية القريبة» ، أجبت .

«فلْنمش إليها» ، قال مقترحاً .

سرَّع الداعية والشيشاني خطواتهما أيضاً . انضمَّا إلى سعدون في
مقتَرَحه :

– سنرافقك إنْ شئت . كم يبعُد المتجرُ؟

«ساعة ، أو أقل» ، أجبت .

«ما رأيك؟» ، سألني الداعية .

«لا . لن أشتري معطفاً اليوم» ، قلت من غير نظر إليه . «تبًّا
لأشعار الصوفيين» ، أضفتُ على نحوٍ لا معنى له .

لسعدون عينا أَبْرَا ، وصيفة الحسناء الأرملة جوديث . هكذا تهيَّأ
لي . جلدي ، في الصباح ، كان من حظ الرسام الإيطالي كارافاجيو
لوحته القاسية «جوديث تقطع رأس هولوفيرنز» تسرَّبت بخطوطها ، حين
استعرضتُ مجلدَ الرسوم على بصر خيالي ليلاً ، إلى دمي أولاً ، ليظهر
الطَّفْحُ اللونيُّ على جلدي صباحاً .

كارافاجيو الرسام على ولع بالرؤوس المقطوعة . سلسلة من أعماله
يمشي الذبحُ فيها متنزِّهاً بحظوته الدموية . لقد تحيَّن في كلِّها البرهة

الأقسى ، الأعنف ، الأشدَّ صخباً ، إمَّا بمرور الشفرات المعادن الرهيفة على الأعناق ، أو بانفصال الرؤوس من بين الأكتاف ممرَّغةً في الهول : رأس المرأة المسخ ميدوزا ذات الضفائر الأفاعي ؛ رأس يوحنا المعمدان النبي قايضت به فتاةٌ مَلكاً على رقصها له عارية ؛ رأس الجبار المارد غولياث صعَقَه مِقْذافُ النبي الراعي ، مؤسس الممالك . ثم رأس القائد الأشوري هولوفيرنز ، لكن ليس مقطوعاً بعد ، بل خرقت شفرةُ السيف عنقه حتى خرزاته العظام .

جوديث ، الأرملة اليهودية ، من مدينة بيتوليا ، استعانت بالحيلة لإنقاذ شعبها من حصار جيش هولوفيرنز . الملك الأشوري نبوخذ نصر أوكل قائده بترويض الأرض حيث استطاع بلوغاً ، وإخضاء الهواء لرئتَيْ سلطانه حيث استطاع استنشاقاً . بلغ جيشه موئلَ قلب شعب جوديث . حوصِر الشعبُ . حوصرت الحياة .

جوديث استعانت بحسنها الفاتك الفاتن . دحرجته إلى معسكرات القائد هولوفيرنز كُرةً من السحر فاعتقلت رغائب قلبه ، ولهفة جسده إلى الرغائب . سلبتْه حِرصَ العسكريِّ ، وحَذَرَ العسكريِّ ، وحيطةَ العسكري ، بهبات جسدها فاطمأن إلى سحر اللذة المنشودة . سقَتْه جوديث خمراً في خيمة اختلائهما حتى فاض انتشاءً . أثقلتْ عليه سُكْرَه حتى انطرح على السرير نائماً . استلت سيفه . بَطَّتْ عنقَه من الوريد الأيمن فانسفح دمُه مقذوفاً رَشَاشاً مُنْشَخِباً .

ذبحت جوديث القائدَ هولوفيرنز بفتنة حُسنها ، وبفتنة جسدِها الفتنة . أنقذت شعبها . لكنها لم تنقذ جلدي من انجذابه إلى الرسوم القاسية فتظهر طَفْحاً عنيفاً عليه .

في برهة ذبح جوديث للقائد الأشوري ، تقف وصيفتها العجوز أبْرا إلى يسارها ، ممسكة بذيل ثوب جوديث الطويل ، في تأهُّبٍ يخالُ الناظر أنها ستلقي بالثوب على وجه الرجل المذبوح . الوصيفةُ ترتدي قبعة لاطيةً بيضاء . خدُّها غائرٌ مخدَّد . عيناها لا تُسْتَكْنهان من رسمها الجانبي ، لكنهما تحدِّقان في قسوة إلى هولوفيرنز ذي الوجه المنذهل مبغوتاً من الألم ، والفم الناطق بصرخة متأخرة ، معذَّبة .

كيف أجريتُ مطابقةً بين عينيِّ الوصيفة أَبْرَا اللتين لا يُلمح منهما إلاَّ اليسرى جانبيًا ، وبين عيني سعدون؟ ربما كان عليَّ فتحُ صدر ثيابي عن جلدي لأقارن عينيْنِ بعينين تحت المطر . لايهم . عينا الوصيفة أبرا لم تكونا كعيني سيدتها جوديث ، الممسكةِ شعرَ هولوفيرنز بيدها اليسرى تجذب رأسه ، على الوسادة ، إلى خلفٍ ، لتستحكم قطع عنقه بشفرة السيف في يدها اليمنى . وجه جوديث خالٍ من الاستهوال ؛ خالٍ من هيبة اللحظة ؛ خالٍ من الخوف ؛ خالٍ من الغضب أيضا . الذي أراه فيه هو بعض الاستغراب . مِمَّ؟ لن يَقْدر شرحٌ أن يسعفني في توضيح اللمحةِ الاستغرابِ الخفيفة في عيني جوديث . أهي تستغرب في اللحظة تلك ، ما تفعله؟ أم تستغرب بطءَ السيف في البتر؟ أم تستغرب صرخةَ هولوفيرنز؟

ما الذي كانت الوصيفةُ أَبْرا تفعله في خيمة المختليَيْنِ استمتاعاً؟ هل نادتها جوديث بعد تحكُّم السُّكْر بالقائد الأشوري فاستلقى منزوع الوعي والعضل؟ لماذا لا تمسك الوصيفة بشعر القائد ، بل تمسك بذيل ثوب سيدتها؟ لن أسأل الرسام الإيطالي كارافاجيو . أَبْرا حاضرة على النحو الذي هي حاضرة فيه رسْماً . هي هناك ، في موئل اللحظة المقتَطَفة قبل الذبح ، وموئل النصر المقتطَف انتقاماً بعد الذبح .

يكون عاديًا أن تَحْضر وصيفةٌ مجلسَ استمتاع بين متعانقَيْنِ على سرير ، تماماً كشأن حاشية كل ملك في أوروبا القديمة تحضرُ لحظةَ ولادة الملكة ، محيطيْنَ بسريرها رجالاً ونساء ، منتظريْنَ انفراجاً في المزاج الضِّيْقِ لعضل الأنثى كي تُلقي الرحمُ بوجودٍ باكٍ من فم المولودِ إلى الوجود . والحاشية ستصفِّق للولادة ، كما ستصفق ، حاضرةً بتمام رجالها ، ونسائها ، لأيٍّ أمير في مخدعه مع عروسه ليلة زفافهما ، منذ دخول العروس عذراء حتى نهوض الأمير عنها وهي ثيِّبٌ ـ دُرَّةٌ مثقوبة .

جوديث عادت إلى شعبها برأس هولوفيرنز ، في سلَّة ، أو كيس . لا أدري . لكن رأسه موجود ، غير منفصل عن عنقه بعدُ ، في موضع من جلد صدري .

«أتعرفُ أَبْرا؟» ، سألتُ الشاب الأسود .

«مَنْ؟» ، تساءل مستغرباً .

«وصيفة جوديث التي هنا» ، قلت ناقراً بأنامل يدي اليسرى على صدري .

قلص سعدون بين أجفان عينيه في المطر يزِنُ الخفَّةَ في حديثي الغامض . قلَّصت بين اجفان عينيَّ مثله . سألته :

- ما مهنتك ، يا سعدون؟ .

«تذكير أوروبا أن الحرب معها لم تنته» ، ردَّ .

«هذه خطة هائلة ، وليست مهنة» ، عقبت على رده .

«ماذا في استطاعة الغرب أن يفعل؟» ، تساءل الداعية بصوت عال كالصياح . «أسيطردون كل مسلم؟ فليفعلوا . نقلنا الحربَ إلى شوارعهم . أعدْنا تصحيح الخلل» .

لم أُلْقِ بالاً إلى الداعية . نظرت إلى سعدون ماشياً إلى جواري ،

مبتلاً من رأسه حتى حذائه الأسود . سألته :

- متى كان إحساسك الأول بالكراهية؟

أدخلَ سعدون يده إلى باطن سترته . استخرج قبعةً أفغانية لم ألحظ انتفاخ سترته في الموضع الذي أخرجها منه . اعتمرها مبتسما كالمعتذر عن نسيانه لها :

- منذ ولدتُ في زمننا هذا ، وليس في عهد الصَّحابة الأبرار .

«متى كان إحساسك الأول بالرغبة في القتل؟» ، سألته ، فرد :

- لا أتذكَّر . ربما بدأتُ القتلَ في قلبي وأنا في السادسة . قال لي أبي : كل مَنْ لم يُسَمِّ ولداً من أولاده باسمٍ من أسماء النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يستوجب القتل .

«بأية فُتيا ألْزمَ أبوك نفْسَه؟ ما هذا الحُكم؟» ، سألته ، فرد :

- ألزم أبي نفسه بفُتيا الإسم .

«فُتيا الإسم؟» ، تساءلتُ غيرَ مكترث بأيٍّ تفسير . سألته :

- ما اسمك؟

«الحاج سعدون . أم أنت غير مقتنع؟» ، ردَّ .

«ليس من أسماء النبي» ، قلت .

«اسمي الكامل هو محمد عبدالله سعدون» ، رد الشاب الأسود

«سعدون هو اسم العائلة ، إذاً» ، عقَّبتُ مفسِّراً ، فرد :

- لا . الثلاثة الأسماء هي اسمي الأول . لقب عائلتي هو مصطفى هَتْهُوت .

«ماسمك أنت ، يا إحسان؟» ، سألت الداعية ، فرد مبتسماً :

- الشيخ إحسان .

«فُتيا والد سعدون ستمرِّغك في الطين» ، قلتُ .

«أنا داعية . أصحِّح الأسماء» ، عقَّب إحسان .

عاد المطر ، الذي تباعدت قطراته قبلاً ، إلى كثافته . كل ضلع في مظلتي السوداء ، استحالت ميزاباً . نظرتُ غرباً فلم أعد أرى الغابة البعيدة . رماديٌّ دَهَنَ الأفق بفرشاة الماء دَهْناً طبقاتٍ . تلفَّتُّ إلى جانبيَّ أستعرض الأربعة تسيلُ ثيابهم عليهم ، ويسيلون من ثيابهم . هُم كانوا ماءً أيضاً . كانت الكلاب الأربعة متلاصقة الشعر بجلودها سائلةً ماءً . أبقيتُ بصري على سعدون . سألته سؤالَ الثرثرة في عودتي خائباً من محطة الحافلة :

- متى أكلتَ آخر مرة؟ تبدو هزيلاً .

«أنا؟» ، تساءل سعدون . مغَّط بإصبعيه الإبهام والسبَّابة جلدَ خدِّه : «أبدو هزيلاً ، ربما ، من حنيني إلى طعام الجنة» . خبط براحة يده على بطنه : «ما أفضل طعام في الجنة ، يا أخي إحسان؟» .

«لحمُ الضأن . ذكَره نبيُّنا ، في الحديث ، أنه سيدُ طعام الجنة» ، رد الداعية .

«ما كرامة الشحم في الجنة؟» ، تساءل سعدون .

«كرامتُه من كرامة اللحم الذي هو منه» ، رد الداعية .

«لن أتوقف عن أكل الشحم مشويًا في الجنة» ، قال سعدون بنبْرٍ يذوب لهفة إلى شواء . «سآكل الشحم كل دقيقة في الجنة» . نظر إلى الداعية من جانب جذعيَ : «لا كولسترول . لا انسداد في الشرايين من أكل الشحم» ، قال كأنما يستعين بتأييد من الداعية على أن لا أمراض في الجنة مِنْ أكل الدسم ، فرد إحسان :

- لا شبع في الجنة . لا تُخمة . لا تعب مِنْ نكاح . كُلِ الشحمَ ، يا حاج سعدون ، بين تسبيح وتسبيح .

استدرت أستجلي موضع عدنان في قافلتنا الصغيرة كان ،ا،
بغد خطوات وراءنا سألته رافعاً صوتي من غير توقف عن المشي
- لماذا معك كلاب في يوم كهذا؟
«الكلاب كلاب لا يهمها يوم ممطر ، أو عاصف ، أو مثلج ، أو
هادئ» ، رد عدنان
«عنيتُك أنت وليس الكلاب» ، قلت
«لم أسأل نفسي لماذا أنا مع كلاب في يوم كهذا» ، رد عدنان
«ما اليوم الذي لا تظنه صالحاً للتجوال بالكلاب؟» ، سألته ، فر
- كل الأيام سيئة
«لماذا تصحبها إذاً؟» ، سألته ، فردَّ
- لأنها كلاب ، وأنا في محنة
لامسني سعدون بكتفه منحنياً ، كأنما يزاحمني في الاحـ ا
بمظلتي
- هل تستطيع أن تتوقف لبرهة ، يا سارات؟
«لماذا؟» ، سألته ، فردَّ على نحوٍ لم أفهمه
- يداي مبتلّتان
«أنت تحت المطر ، يا سعدون» ، عقَّبت مفسراً ما لا يحتاج إل
تفسير
«توقفْ إذاً» ، قال بنبرٍ فيه التماسٌ لطيف
توقفت ناظراً إليه بعينين متسائلتين توقف الآخرون إلاَّ عدنا
الذي بات بإزائنا ، وباتت كلابه متوزِّعة على الجهات متفرِّقةً
«يداك غير مبتلتين» ، قال سعدون «دعْني أمسك بالمظلة فو
رأسينا»

«لماذا؟» ، تساءلتُ ، فردَّ وهو يتسلم مقبضَ المظلة من يدي :

- ضعْ يدك في باطن سترتي ، من الجهة اليسرى . في جيبي كيس صغير .

دسستُ يدي في باطن سترة سعدون المبتلة من جهة صدره . أخرجتُ كيساً شفيفاً من البلاستك فيه شيء كعشب جاف مطحون خشناً . خمَّنتُ ، من فوري ، ماذا فيه إذ لمحت دفتراً من الورق الرقيق الصغير :

- أهذه حشيشة؟

«نعم» ، رد سعدون .

«أتدخن الحشيشة؟» ، سألته ، فردَّ :

- لفَّ لي واحدة ، حفظك الله .

«لا أعرف كيف أصنع لفائف التبغ ، يا سعدون» ، قلت ، فتوسَّلني :

- اصنعْها كيفما كانت . ألصِقْ طرفيِّ الورقة واحدهما بالآخر على بعض الحشيشة . لا يهم الإتقان .

بسطتُ ورقة مستطيلة على كفي اليسرى . حشوتها ببعض الحشيشة دلْقاً من الكيس عليها . وضعت الكيس بين أسنان سعدون ، ثم لففتُ الورقة مبللاً بلعابي أحدَ طرفيها فالتصقا . كانت لفافة منتفخة من وسطها ، ملتوية قليلاً . استعدتُ الكيس من بين أسنان سعدون ، ووضعتُ اللفافة في فمه . أشعلتها له .

«هات مظلتي» ، قلت ، فتوسلني سعدون من جديد وهو يمتص نفَساً قويًا من دخان اللفافة :

- أبقِني تحت المظلة قليلاً ، يا سارات . سأنهي اللفافة على عجل .

نظرتُ إلى الداعية :

- أليس حراماً تدخين الحشيشة ، يا إحسان؟

«لم يَرِدْ تحريمٌ لها في أي مرجع من شرائعنا» ، رد الداعية . أردف «إنْ لم يُلْهِ تدخينها عن ذِكر الله فلا بأس» .

«ألا يُلهي النومُ عن ذِكر الله؟» ، سألته ، فرد :

- هو راحة المؤمن ليعود إلى ذِكر الله ، وليس إلهاءً عن ذِكره .

هززتُ رأسي وقد بلغ الدخان عينيَّ من نفْث سعدون المتلاحق للدخان ، على عجلٍ ، من فمه بعد كل نَفَس يحتبِسُه لحظةً في رئتيه قبل إطلاقه .

ابتسم سعدون . ابتسمتِ الصُّفرةُ الغالبة على البياض حول حدقَتَي عينيه السوداوين . سألني هامساً :

- كيف سترسمني؟

تلفَّظتُ عبارتي المملَّة ، المعهودة :

- لم أقرر بعد .

«إذا قرَّرتَ» ، قال سعدون .

«سأبلغك آنئذ» ، عقَّبت .

«ماذا ستفعل بها؟» ، سألني مشيراً بيده إلى وجهه .

«ما به وجهك؟» ، سألته .

«أعْني . .» ، قال من غير أن يكمل ، فتفهَّمت :

- بشرتك .

«ألن تخفف السوادَ قليلاً؟» ، سألني .

«سأرسمك أشقرَ ، ربما ، حين أرسمك» ، أجبت .

«لا تمازحني . خففِ السوادَ قليلاً» ، قال . قرَّب وجهه مني أكثر

«تستطيع أن ترسمني أبيض قليلاً ، إن شئتَ» . قدَّم إليَّ بقية لفافة الحشيشة : «خُذْ مصَّةً . الحشيشة تهدِّئ» .

«الألوان غاضبة ، يا سعدون . عليَّ أن أجاريها وإلاَّ عاندتْني» ، قلت .

هَأْهَأَ سعدون بضحكة خافتة جداً ، مكتومة . عقَّب على ما قلت :

- هذا كلامُ حشَّاش .

تسلمتُ مقبض المظلة من قبضة سعدون . أكملتُ المشي ، فأكمل سعدون مصَّ آخر نَفَس من اللفافة المحترقة قبل أن يطفئها المطر . ظلَّ على قُربٍ مني :

- سأدور ، يا سارات ، على مسالخ الحيوان في هذا البلد ، من أقصاه إلى أدناه . يكبر الأجرُ من الله للمؤمن على زيادة المشقة .

«على دراجة نارية ، أم هوائية؟» ، سألته . أضفتُ ممازحاً : «ربما على دراجة بعجلتين من ماء» .

ضحك سعدون مستظرفاً : «لِمَ لا؟» ، قال . «تعجبني دراجة بعجلتين من ماء المطر» .

«ماذا ستفعل في المسالخ؟» ، سألته ، فرد :

- سأبشر الحيوانات بذبح حلال .

«يا علي عمروف» ، ناديتً من غير نظر إلى الشيشاني ماشياً إلى جوار الداعية : «أتفْهم ما يقوله سعدون؟» .

«ينبغي أحياناً أن لا تفهم كي تفهم» ، رد الشيشاني .

«أهذا حُكمٌ فِقْهيٌّ؟» ، تساءلت وأنا أمدُّ عنقي من تحت المظلة ناظراً إلى الداعية . سألته : «ماحُكْمُك ، يا إحسان ، في قول أخيك الشيشاني؟» .

انبرى سعدون مجيباً من فوره :

- كل الأحكام مبنية على أن لا تفهمها ، وتقتنع أنك فهمتَ .

«أعطِ لفافة حشيشةٍ لأخيك الداعية كي يصير فقيهاً مثلك» ، قلت .

انتفض عدنان متذمراً بصوتٍ علتْ شتائمه للكلاب إذ جرّت نفسها ، كل واحد في اتجاه .

تطلعت إليه مبتسماً :

- لقد دوَّخها سعدون بحشيشته .

بادر الشيشاني ، والداعية ، إلى تسلُّم مقودَيْ كلبين من رفيقهما تخفيفاً عنه ، فأشرت برأسي إلى سعدون :

- أعطه واحداً ، يا عدنان .

«لا أُجوِّلُ كلباً حتى لو ذُبحتُ» ، قال سعدون . دسَّ يده في جيب سترته . أخرجها مطبقة على شيءٍ مّا . قرَّبها مني ثم فتح راحته . كانت قطعة نقدية ، صفراء المعدن ، عليها صورة رجل معتمراً عمامة ، تحيط به كلمات من آيةٍ ربما .

«ما هذه؟ أهي قطعة أثرية؟» ، تساءلت ببعض الشك ، لأن القطعة بَدَت جديدة ، ملتمعة المعدن .

«هذا دينار ذهبي من مصكوكات دولتنا» ، ردَّ سعدون .

«صورة مَنْ عليه؟» ، سألته ، فردَّ :

- صورة الخليفة ، أدامه الله ورعاه .

«أليس تصوير البشر مُسْتكرَهاً ، مستنكَراً في الإسلام؟» ، سألته ، فرد :

- هذا الدينار استثناء . عندنا ثمانية عشر ديناًراً ، لا غير .

«لِمَنْ صككتموها؟» ، سألته ، فرد :

- لِمَنْ مدَّ الله في عمره مداً كالمعجزة .

«لم أفهم» ، قلت ، فشرح لي سعدون :

- كل من كرَّر الانتحار بحزام ناسف سبع مرات ، ونَجَا ، حَظِيَ بدينار كهذا .

«أتعني كلَّ مَنْ خذله الحزامُ الناسف سبع مرات فلم ينفجر؟» ، سألته ، فرد :

- بل انفجرت به سبعة أحزمة ، سبع مرات .

«هذا جهادُ الحشيشة» ، عقَّبتُ على ما بدا كالهذيان في كلمات سعدون .

«هذا جهاد الجهاد» ، قال سعدون .

«أأنت واحد من الذين انفجروا؟» ، سألته ، فرد :

- انفجر الحزام ، ولم أنفجر أنا .

«أإنفجرتْ بك سبعة أحزمة سبع مرات ، ولم تنفجر أنت؟» ، تمتمتُ مبتسماً .

«نعم» ، ردَّ سعدون .

«كانت أحزمة محشوَّة بهواء الجنة» ، عقَّبتُ . «لا أرى خدشاً على وجهك» .

«تلك هي المعجزة التي كوفئتُ بهذا الدينار عليها» ، قال سعدون .

«ذكرت ثمانية عشر ديناراً . أحَدثت ثماني عشرة معجزة من مثل معجزتك؟» ، سألته ، فردَّ :

- نعم .

«ولم يمت أحدُ منكم منفجراً؟» ، تساءلت مستغرباً . «أمعك ملاك يقيك بترسه ، يا سعدون؟» .

«مع كل مؤمن ملاك» ، قال الداعية متدخلاً بعد إصغاء طويل .

«لماذا الشراء والبيع بالدولارات الأمريكية في مجتمعكم؟» ، سألت الداعية ، فردَّ :

– لسنا مستعجلين . ستكون نقودنا هي المعتَمَدة في الأرض ذات يوم .

برز في دربٍ فرعيٍّ امرأتان ، محصَّنتان في عباءتين من البلاستك واقيتين من المطر لهما قلنسوتان ، متجولتَيْنِ بكلبيهما . زمجرت وهرَّت كلابُ عدنان الضخام الموزعة بينه وبين الداعية والشيشاني . أوقفت المرأتان كلبيهما المذعورين الصغيرين ، محتميين بسيقانهما ، حتى عبرناهما . عقبتُ : «كل بيت ، في ضاحيتنا هذه ، يملك كلبين . لن نجد في الأسواق ، عمَّا قريبٍ ، سوى طعام الكلاب ، أو طعاماً موحَّدا يصلح للكلب وللإنسان معاً ، بلا تمييز عِرْقيٍّ ، أو جنسيٍّ ، أو دينيٍّ ، أو مذهبي» . نظرتُ إلى سعدون : «عجِّلْ فراراً إلى الشحم في الجنة» .

«حين أنتهي مِّما أنا فيه ، سأغادر» ، رد سعدون .

«تعني حين تُنهي تبشير الحيوانات بذبحٍ حلالٍ؟» ، سألته . «لماذا أنت في السويد؟» ، أضفتُ .

«أين ينبغي أن أكون في رأيك ، يا سارات؟» ، سألني ، فاقتحم الداعيةُ المحاورةَ بيننا :

– أنت ، يا حاج سعدون ، في الإيمان الذي يجيز لك أن تسكن كلَّ أرض بلا شرط .

«وأن تكون كل أرض خاضعة لشرطِ إيماني» ، أضاف سعدون .

«أنت من أئمة الفتاوى ، يا سعدون» ، عقبتُ ، فبسط سعدون عباراتٍ أكثر :

- لقد انتشلتُ هذا المكان من غفلته ، وأسكنتُه إيماني . بات هذا المكان إيماناً بما أؤمن به .

«هذه من عبارات المتصوفين» ، عقبت . «ربما عليَّ تدخين الحشيشة ليقتنع بياضُ القماش في لوحتي ، التي لم أرسمها بعد ، أنه بات مؤمناً بما أؤمن به» . حدقتُ إلى سعدون جانبياً : «ماذا عن إيماني بهذا المكان؟» .

«جذبَك إلى غفلته ، وجذبتَه إلى غفلتك» ، رد سعدون .

نظرت إلى الداعية نظرةً متحيِّرة :

- من منكما الفقيه المتكلم ، يا إحسان؟

«كل مؤمن فقيه على قدْرِ إيمانه» ، ردَّ الداعية .

أعدتُ التحديق إلى سعدون :

- ما غفلتي؟ ما غفلة المكان؟

«أنكما لم تدركا أنْ ليس في مقدوركما أن تكونا غير ما يريده الله» ، رد سعدون ، فسألته :

- ماذا يريدنا الله أن نكون؟ .

«أن تكونا معه ، ومعي» ، رد سعدون ردًا ملتبساً .

«معك؟!» ، تساءلت ، فردَّ :

- نعم . أظنك بدأت تفهم كيف ينبغي أن ترسمني في لوحتك .

«سأرسمك برغبتي وحدها في رسمك . أنت لا أحدُ الآن» ، قلت . حدقت إليه وقد بدا مصغياً في صمت ، فأضفت : « من ذبحك؟» .

بوغت سعدون من سؤالي الذي بلا مقدمات .

«من ذبحني؟» ، تساءل متمتماً . دار بوجهه تحت المطر على رفاقه

مستغرباً . ردَّ : «ما سؤالك هذا؟» .

«أقُتِلتَ بطلقة في الرأس ، أم خُنقتَ بحزامك ، أم دُفنتَ حيًا ، أم انفجرتَ؟» ، سألته ، فرد بامتعاضٍ هادئ :

- انفجرت أحزمتي الناسفة بي سبع مرات ، ولم أنفجر .

«إذن؟» ، تساءلتُ :

«إذنْ ماذا؟» ، غمغم . التفت إلى الداعية يسأله : «ما هذا؟ إلى من جئتم بي؟» .

«لا تقلق» ، قلت ، فردَّ :

- لستُ قلقاً .

«إن رسمتك فسأرسمك في موتٍ صالح . أم تريد موتاً أصلح؟» ، سألته .

تبلبل سعدون . ابتسم :

- أأنا دخَّنتُ لفافة الحشيشة ، أم أنت؟

لم أُعِرْ تعليقه التفاتاً . أضفتُ مترادفاتٍ إلى ما قلته له ، كأنني أمرِّنُ لساني تمريناً على المفارقات : «الموت الصالح ، والموت الأصلح . الحزن الصالح ، والحزن الأصلح . الهجرة الصالحة ، والهجرة الأصلح . التعب الصالح ، والتعب الأصلح . الحقد الصالح ، والحقد الأصلح . الإنهيار الصالح ، والإنهيار الأصلح . الكفر الصالح ، والكفر الأصلح . الشتيمة الصالحة ، والشتيمة الأصلح . الأرَق الصالح ، والأرق الأصلح . العذاب الصالح ، والعذاب الأصلح . العِدَاء الصالح ، والعداء الأصلح . الجريمة الصالحة ، والجريمة الأصلح . الأنقاض الصالحة ، والأنقاض الأصلح . الخراب الصالح ، والخراب الأصلح . الغزاة الصالحون ، والغزاة الأصلح . النهاية الصالحة ، والنهاية الأصلح» .

«أيهذي سارات؟» ، عقَّب الشيشاني على عباراتي اللامتكافئة في منطقها .

«سأغادر» ، قال سعدون تعقيباً بدوره . «أنت تثيرني ، يا سارات» .

«هكذا سأرسمك ، ربما» ، قلت .

«سترسمني مستشاراً؟» ، تساءل سعدون بنبْرٍ من لسانه الواضح الكسل بعد لفافة الحشيشة ، فأجبت :

- سأرسمك منتحراً .

«لا تحدِّق إليَّ هكذا ، يا سارات . لم أنتحر» ، قال .

«من أين أنت ، يا سعدون؟» ، سألته ، فردَّ ردّاً ظننتُه سوءَ فهم :

- أنا من الإسلام .

«عنيتُ من أي بلد أنت؟» ، أعدت عليه سؤالي ، فردَّ :

- الإسلام بلدي ؛ جنسيتي ؛ عائلتي ؛ بيتي .

هربتُ من ردِّه إلى الداعية :

- من أين سعدون ، يا إحسان؟ .

«من حيث اختار أن يكون» ، ردَّ الداعية .

أعدت بصري إلى سعدون . باغتُّه بسؤال لم يخطر بباله أن يُسأل :

- كيف حال جاريتك؟

«ماذا؟» ، تساءل سعدون .

«ألم تشترِ واحدة من سبايا سنجار الأيزيديات ، كرفاقك هؤلاء؟» ، سألته .

«بلى» ، ردَّ . هزَّ رأسهُ حَنَقاً .

«ماذا حلَّ بها؟» ، سألته ، فردَّ :

- أنت كثير الأسئلة ، يا سارات .

«لم أسألك شيئاً بعد» ، عقبتُ ، قبل أن أستظهر سؤالاً بارداً : «ما أحلامك؟» .

«أحلامي؟» ، تساءل .

«ألا تحلم؟» ، سألته ، فردَّ :

- بلى . كل حلم من أحلامي لي فيه مقاصدُ إلهية . اسمعْ هذا الشِّعر .

قاطعته وهو يهم باستظهار شِعر :

- لا أريد سماع شعر في يوم ممطر .

«الشعر كالمطر» ، قال سعدون .

«لا شعر كالمطر . لا مطر كالشعر» عقَّبتُ غير مهتمٍّ .

«اسمعْ ، يا سارات ، بعض ما ينظمه الحاج سعدون من شعر كغَزَل الصوفيين» ، قال الشيشاني . أضاف بنبْرٍ أحسستُه بين المزاح والسخرية : «أشعارٌ مبنيَّة على أن لا تفهمها ، وتقتنع أنك فهمت» .

لقد استعار الشيشاني من سعدون نفسه عباراته ، التي تشبه الأمورَ والأحكام في مجتمع دولة خليفتهم . أطفالٌ ينشأون على اللاَّفهم قويًا ، لكن واضحاً في وحشيته : ضحايا مهانون ، في ثياب برتقالية ، يُذبحون أمام أبصارهم . أطفالٌ يُجلبون إلى ساحات الذبح بالسكاكين ، والإعدام بطلقات في الرؤوس . يُؤخذ ضحايا محكومون بالذبح إلى المدارس فيُعدمون على مرأى من حلقات الأطفال . إنها تنشئة على احتقار الخوف ، وامتهانه ، والسخرية منه . تنشئة على القسوة ترى في الذبح بلوغاً لقلب المؤمن الصغير إلى وصالٍ إلهيٍّ يعرضون عليهم ، في مدارسهم ، صورَ الذبح على الإنترنت ، وإطلاق النار على الرؤوس في الإنترنت . يبتكر الكبار للصغار سباقاً إلى الفوز

بلقب «الطفل السفّاح» ، الذي لا تخذله يده في شَقٍّ اللحم بالسكين ، أو الضغط على زناد المسدس في الإعدام . يتباهى الكبار بإحصاء عدد النساء الحوامل في مجتمع دولة الخلافة ، وينكبُّ الدارسون ، المتخصِّصون من أهل الغرب في علوم التربية ، على تحليل ظاهرة الحَمل المتكاثر في مجتمع دولة الخلافة ، فيصفونها وصفاً مقلقاً : الأجنَّةُ القنابلُ الموقوتة . والدارسون ، أولاء ، على شكٍّ كبير من اقتدار التربية على ابتداع تسوياتٍ من التنشئة لأطفال الدولة الإسلامية إنْ عادوا إلى مجتمع سويٍّ .

لم يعُدَّ الفهمُ مهمّا . سعدون على حق . اللاّفهمُ أكثر إلهاماً للقسوة ، واللاخوف من تقطيع الأعضاء ، وللضبط الصارم للنَّفْس عند ذبح المشبوهين المحكومين . سعدون على حق . أصغيتُ إلى سعدون منسلاً ، بغتةً ، إلى غيمة صغيرة في سماء ذاكرته يستسقي منها مطراً كلماتٍ . ربما سؤالي له عن جاريةٍ اشتراها لنفسه استسهل عليه فتْحَ خزْنةِ قلبه :

كان مشرفاً على فرع من سجون الأسرى ، حين اشترى فتاة أيزيدية في الثالثة عشرة من عمرها ـ هو البالغُ التاسعة والعشرين . اشتراها في موضع من نواحي حلب . دلَّلها بوجوب الحياء من التحديق إليه إذا جلسا معاً . أنشأها على الطاعة له . أتْرَفها بالتلقين أن الإيمان يُسدل حجاباً على جلود المؤمنين فلا تُحسَبُ ألوانُها ، بل صِدْقُ قلوب أصحابها . طوَّعها انتهاراً . أخضَعَ سلوكَ الطفلة فيها تأديباً بالضرب .

توقف سعدون بغتةً كما بدأ السردَ بغتةً . زفر من قلبٍ مسَّته حُرْقةُ ذاكرته :

– أطلقت ابنةُ إبليس النار عليَّ من مسدسي .

منذ أطلقت السبيَّةُ الطفلةُ النار عليه ، وعلى نفسها من ثمَّ ، انصرف سعدون من عمله مشرفاً على السجن إلى نقاهة امتدت شهرين بسبب الإصابة في فخذه . استقصى ، في هذين الشهرين ، أبعادَ رغبة سَرَت إلى قلبه من رؤيته فصائل من جنود الخلافة تشكَّلت على تجانس في نقاء الانتساب إلى بلدانٍ ، ونقاءٍ في الجنسية : فصيل من الأذَريين . فصيل من الشيشان . فصيلٌ من عرب البادية السورية .

شخص من الكويت ، أسود البشرة ، استقصى أَبعادَ رغبةٍ سَرَت إلى قلبه قبل سعدون بزمن . حاول جمعَ لفيفٍ من ذوي البشرات السود ، ثم أخفق بسبب خلافات على النفوذ . اندحرت رغبته وانكفأت .

أحْيا سعدون الرغبةَ المنكفئة . أعاد تدريبَها . خصَّها بولاءٍ من ستة وثمانين مقاتلاً سُودَ البشرات أصولاً . التقطهم متفرِّقين في التحاقهم بالدولة الإسلامية من شمال أفريقيا ، ومن مهاجري أوروبا أيضاً .

لم تحصل ممانعة من ذوي النفوذ على قيام فصيل جديد بسعةٍ من الجنسيات ، لكن بحصرٍ من لونٍ واحد .

الكويتي ، الذي سبق بفكرته فكرة سعدون ، نَقِمَ عليه . هتف سعدون وهو يروي لي : «الكويتي أطلق النار عليَّ من المسدس المكتوم الصوت» ، قال . «كان ملثَّماً ، لكنني لمحتُ عينيه اللتين أعرفهما . تظاهر بسؤالي عن شيء مَّا حين صعدتُ سيارتي بعد شراء كعك من الحلوانيِّ» . صرَّ بأسنانه : «كان يتبعني ، وكنتُ متساهلاً في تنقلاتي بلا حذر» .

إذن ، اغتيْلَ سعدون الذي ، حين وصل بسيرة الغيمة المطرة في ذاكرته إلى هذا الحد ، توقف وأوقفني :

- أتشاهد أفلاماً سينمائية ، يا سارات؟ .

«نعم» ، أجبت .

«كنا نتداول مشاهد من تأليفنا يمكن لمُخْرجٍ أن يتبناها» ، قال بإشارة إلى رفاقه .

«أتريدون شريطاً سينمائياً أنتم أبطاله؟» ، سألته بنبْرٍ سخريةٍ ، فرد الشيشاني :

- بل بطله الخليفة البغدادي ، حفظه الله .

«أمعكم أموال للتمويل لو عثرتُ لكم على مُخْرج؟» . سألتهم بالنبرِ الساخر ذاته ، فرد الشيشاني :

- سنتدبر ذلك .

قاطعته بصوتٍ عال :

- عند خليفتكم أموالُ نفط تخلّى لكم عنه حاكم بغداد ، وحاكم دمشق . اشْتَرُوا مُخْرجاً ، أو اختَطِفوه .

«نريد عرْض فكرتنا عليك» ، قال سعدون ، فتدخل عدنان :

- كانت فكرتي أصلاً .

«لدينا كلُّنا خطوطٌ للفكرة» ، قال الداعية .

أكملت المشي بالرغم من وقوف سعدون قبالتي . «اسمعْ» ، قال . سبقني وهو يشير إلى الخلاء الواسع ممتداً من الطريق حتى الغابة الشبح وراء ستارة المطر الرمادية : «ماذا لو اجتمع حكام العالم في موضع واسع كهذا ، وخرج عليهم الخليفة حفظه الله على جوادٍ أبيض يعِظُهم؟» .

«فكرة مذهلة» ، عقَّبتُ ، فانبرى الشيشاني بإضافةٍ إلى فكرة سعدون :

- يقف الخليفة حفِظه الله بجواده على ربوة أمام حكام العالم .

«لا أظنُّ الربوة مفيدة هنا» ، قال الداعية . «فلْيقفْ حكام العالم على صفَّين يمر بينهما الخليفة حفظه الله ، مَهِيباً ، على جوادٍ أسود يسخَر منهم» .

«يسخر منهم؟» ، تساءل عدنان . «أعنده وقت يضيِّعه في السخرية؟» .

«ماذا تقترح ، يا عدنان؟» ، سأله الداعية ، فردَّ سائحُ الكلاب :

- يصفعهم واحداً واحداً .

«عندي إضافة» ، قال سعدون . «يصفعهم ، ثم يرغمهم إذلالا على تقبيل ذيل عباءته» .

«أيكون راكباً حصاناً ، أمْ راجلاً؟» ، تساءل الشيشاني .

«إن كان راجلاً فسيرغمهم على الانحناء لتقبيل ذيل عباءته ، وإن كان راكباً فسيرغمهم على تقبيل حذائه أيضاً» .

«ويرغمهم على تقبيل حوافر حصانه» ، أضاف سعدون .

أسرعتُ خطواتي مبتعداً ، فلم يسرِّعوا خطواتهم ليُجَارُوني ناداني سعدون :

- أيهما الأفضل ، يا سارات ، لو بدأتْ محاورةٌ بين الخليفة حفظه الله وبين حكام العالم؟ أنبدأ بهم يقولون له :نعرض عليك مآثرنا في الحقوق ، والحريات ، أمْ نبدأ بما سيعرض الخليفة حفظه الله عليهم؟

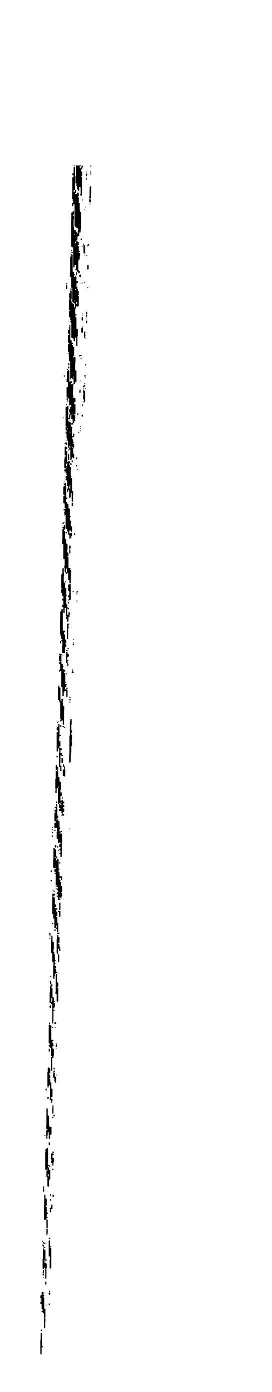
- لم استدر إليه . رفعتُ صوتي :

- ماذا سيعرض الخليفة عليهم؟

«سيقول لهم : أعرضُ عليكم الجنة» ، ردَّ سعدون .

ظللتُ على سرعتي في الابتعاد عنهم ، منعطفاً شرقاً إلى ممرٍّ فرعي يصل الطريق بالمساكن القريبة من البحيرة . التفتُّ ، في فضول ، ام...

واحـدة ورائـي : كـان الأربعة يتـبـادلون مـقـاود الكلاب ، لـيتـمكن كل واحــد ، بمفــرده ، من أداء دوره ـ دور الخليــفــة وهو يعــرض على حكام العـالم سـاقيـةً من سواقـي أنهار الجنة . هذا ما خطر لي من مـشـهـدهم ذائبين في المطر الثَّرِّ مغرِّداً في قفص الأبعاد الملتحمة ماءً . أو ربما كـانوا يتدرَّبون على التخطيط لمشهد ، بخيال رغائبهم ، سيعرضونه عليَّ كي أرسمه .



الفصل التاسع

(Francisco Goya: Saturn Devouring his Son)

كيف للجسد أن ينحدر منزلِقاً، وينتشر؟ لست أدري. كنت أنحدر ثم أنتشر. إحساسٌ كانزلاق عن حافة، أو سفح، لكن بلا ألم، أو رهبة، أو حَذَر. لم أكن أرى مكاناً من حولي حيث أنحدر وأنتشر من غير تمزُّقٍ في أعضائي. كنتُ المكانَ الجسدَ، المنتشرَ في ذاته. نبَّهتُ نفْسي؛ ناديتها: «أنت في حلم، يا سارات»، قلت، ثم أفقت من حلمي.

رنين جرس باب البيت كان متواصلاً. إنه الفجر أو أكثر بقليل. خمَّنتُ ذلك من غير نظر إلى الساعة. الدفء الذي يغلِّف النومَ لطيفاً هو دفء الفجر عادةً. يعرف جسدي ذلك. إحساس يعرفه محترفو النوم حتى ساعة متأخرة من صباحهم.

جررتُ نفسي على خمولٍ، في سروالي القصير حتى منتصفَيْ فخذي، وفي قميصي القطن الرقيق. إنه الصباح الأول، منذ أمدٍ، لم أستهلَّه بالنظر إلى جلدي في المرآة، مستعرضاً ما منحه الليلُ مقتبَساً من خزْنة مجلد الرسوم، المنتصب على الأرض باتِّكاءٍ إلى الجدار، قرب سريري. لكنني ألقيت نظرة خاطفة إلى وجهي في مرآة المدخل إلى البيت: كان طرف شاربي الأيمن ممعوساً إلى أسفل من ضغط

الوسادة ربما . شاربي الرفيع معقوف من طرفيه كهلالين أثبّتهما بمرهم ذي رائحة خافتةٍ في همس نعومتها . لا بأس . سأعيده معقوفاً بعد استحمام الصباح .

فتحت الباب وليس في بالي إلاَّ أن تكون ناتالي هي المقتحمة صباحي بخبر عن انفصالها عن صديقها الخائن ويستروم . كنتُ عندهما ليلاً . شهدتُ شجاراً عاصفاً .

لم أجد ناتالي وراء الباب خارجاً ، بل رجلاً في الستين ربما ، طويلاً نحيلاً ، غير حليق اللحية ، يعتمر قلنسوة متصلة بكتفي سترته البنية ، السميكة ، وإلى جواره امرأة في مثل عمره ، أو أقل قليلاً ، بدينة ، تمسك بعصا من عِصيٍّ رياضة المشي الشبيهةِ بعصيٍّ التزلج على الثلج ، في يد ، وفي الأخرى جثة هرَّة .

كان الضباب ، في الخارج ، كثيفاً ، ساكن البياض ، مختمِراً في سكونه . يغشى الضبابُ البحيرةَ ، وما حولها ، بعد يوم مشمس عادة الدفءُ السماويُّ يستنهض الأبخرةَ ـ العقلَ الرقيق للمياه . لكن البارحة كانت مطراً من صميم استنفار الأمطار . نَفَسٌ بارد تسرَّب من خللِ الباب الذي فتحته . وضعتُ يدي على صدري . تمتمت :

– ما الأمر؟ .

رفعت المرأة جثة هرةٍ أمام عيني ، ممسكة بها من قدميها . تمتمت مثلي :

– هذا هو الأمر .

نظرتُ بامتعاضٍ من عينيَّ المنكمشتين إلى جثة الهرة موحلة ، ممرَّغة في هشيم من العشب المتسخ ، ثم أعدت بصري إلى وجهها الممتلئ لحماً متراخياً كسولاً :

- أعليَّ أن أفهم شيئاً لم تقولاه بعد؟

«مَن قتلها؟» ، تساءلت المرأة بصوت فيه اتهام غير مؤكَّد ، فرفعت يدي مقاطعاً : «إنتظرا برهةً» ، قلت . عدت أدراجي إلى الحمام فارتديت برنساً قطنيًا ، ذا قلنسوة ، أتحصَّن به من البرد رطباً بلَّله لعابُ الضباب يتسلل إلى البيت . وضعت قدميَّ في خفَيْنِ قماشٍ ، ثم عدت إلى الباب . سألتهما بنبرٍ فيه بعض الغضب من اقتحامهما صباحي :

- هل قُتلتْ هذه الهرة ، أم انتحرتْ؟

انبرى الرجل متسائلاً في استغراب :

- انتحرتْ؟!!! .

«إن كنتما تقتحمان صباحَ شخص لا تعرفانه ، على هذا النحو ، فالأرجح أن هذه الهرة . .» ، تداركتُ مستفسراً : «أهي تخصكما؟» .

«لماذا نحن هنا إن لم تكن تخصُّنا؟» ، سألني الرجل .

«لهذا أظنها انتحرت» ، عقَّبتُ .

«بل قُتلتْ» ، قالت المرأة باحتداد . «جلدها مثقوب ، ممزَّق» .

«ماذا تريدان مني؟» ، سألتهما بصبرٍ نافد ، فردَّ الرجل :

- ثمَّتَ من قتل هرتنا .

«لماذا أنتما هنا ، وليس في مخفر الشرطة؟» ، سألتهما . أردفتُ بتهكُّم : «أمْ تبحثان عن تحرٍّ خاصٍّ ليكتشف الجاني؟ لستُ تحريًا» .

تبادل الرجل والمرأة نظراتٍ كالمشاوَرة معنىً .

«وجدناها هناك» ، قالت المرأة مستديرة إليَّ . «بحثنا عنها أياماً حتى وجدناها هناك» . أشارت بيدها إلى طرف سور القصب ، المتوقف امتداداً عند الضفة التي يصل بينها وبين حديقتي خلاءٌ من الصخر مستوياً .

«ربما ألقى بها المدُّ ، أو الموج ، إلى هناك» ، قلت مرتجِلاً عُذراً .

«سألنا منازل الساكنين حول البحيرة كلها . فتشنا الحدائق وضفاف البحيرة من أقصاها إلى هنا . لماذا وجدناها هنا؟» ، تساءل وهي تنظر إليَّ نظرةً متربِّصة ، فأجبتُ :

- اسألي الريح .

«بيتك الوحيد الذ يطلُّ بواجهته على الموضع حيث وجدنا جثة الهرة» ، قال الرجل بصوت خجول قليلاً .

«ثمَّ ماذا؟» ، سألته .

«قُتلت هرتنا بطلقة بندقية منتشرة على جسمها . ألم تسمع دوي طلقة في هذه الأنحاء؟» ، سألني .

«أين منزلكما؟» ، سألته بدوري .

«شرق الغابة» ، قال مشيراً إلى الأجمةِ الشجر التي أسلكها شمالاً إلى سوق الضاحية .

«ماذا تفعل هرتكما هنا؟» ، سألته .

«الهرة تحبُّ التجوال» ، ردت المرأة وهي ترخي ذراعها إلى جوارها بالجثة ، بعد أن رفعتها مدَّةً أمام بصري .

«ربما ظنها صيادو البط بطةً» ، قلت .

«لا صيدَ مسموحاً في هذه الأنحاء» ، ردت المرأة بتحديق فيه اتهام لي بالسخرية منهما . أردفت ساخرةً بصوتٍ جادٍّ : «احْتَرِسْ . لئلا يعتبرك الصيادون بطةً» .

ابتسمتُ . سألتهما :

- ألديكما بندقية؟

«لا نتصيَّد» ، رد الرجل . «لِمَ سؤالك هذا؟» .

«قد يتّهمنا بقتل هرتنا» ، قالت المرأة مفسِّرةً سؤالي .

«لم يخطر ذلك ببالي ، أيتها السيدة . لكن ينبغي أن أحذر ، فقد تعتبرينني بطةً» ، قلتُ .

نقرتِ المرأةُ الأرض المرصوفة ألواحاً إسمنتاً مربعات أمام الباب بعصاها السوداء ، تمهيداً ـ ربما ـ لمواصلة محاورتها في استجلاء غوامض موت هرتها .

ثمّت امرأة في أربعينها أراها ، بعض الأيام في الممر بين الأجمة إلى السوق ، ماشية مشياً موزوناً ، محسوب الخطوات ، متكافئةً ، بعَصَوَيْنِ في يديها من نوع العصا التي تحملها صاحبة الهرة . حركةُ العَصَوَيْنِ تقديماً وتأخيراً ، كالتزلج على الثلج ، بلمس عقبيهما الأرضَ ، تُعين كتفيَّ الشخص الماشي على تمرينٍ لم أستوضح شأنه من أحد ، ولم استقصِ مَنْشأَ ظهوره على الإنترنت كاكتشافٍ لنوع من الرياضة البدنية . والمرأة المشّاءة تلك ، التي أصادفها في مسالك الغابة ، كئيبة الوجه . كئيبة النظرات . كلما لمحتها ساءلتُ نفسي لماذا تمتهن امرأة كئيبة مثلها رياضةً فَرِحةً مرِحة؟ ربما تمرِّنُ عضلَ الكآبة ، أو تتدرب على كآبةٍ أكثر .

نظرتُ إلى عصا المرأة الحاملة جثة هرتها وهي تنقر بها نقراً على الإسمنت ، كأنما تهيئ الكلماتِ لوثبةٍ أعلى . أزمعتُ إنهاء رضوخي لذلك اللقاء القسريِّ في الفجر :

– اعذراني . لا شيء عندي أضيفه .

«ماذا عن هرّتنا؟» ، تساءلت المرأة ، كأنها تنتظر اعترافاً مني . فابتسمتُ لها :

– اسْتَئْجِرا تحرِّيًا خاصًا ، قد يفكُّ اللغزَ المحير .

جذب الرجل المرأة من كُم معطفها يحثها على الإنصراف ، غير مقتنعين أنني لا أملك معلومة عن مقتل هرتهما . كلَّمتني المرأة مغادرةً ، نصفَ مستديرة إليَّ :

- كل الغرباء يخبئون شيئاً مَّا . يلزمنا تحرِّيون كُثر في هذا البلد .

مال عليها زوجها النحيل الطويل هامساً همساً لم ألتقط حروفه ، لكنه - في الأرجح - كان توبيخاً على ازدرائها الغرباءَ .

لم أعقِّب بكلمة . واكبتهما بعينيَّ مغادريْنِ . وإذ خرجا من الحديقة ظلت عيناي في اتجاه مستقيم ببصري إلى حدود ضفة البحيرة وقد باتت ملامح سور القصب تنجلي من فكِّ الضباب حصاره ، وانحساره بآلاته الرطبة القوية البياض .

لمحت وجوهاً بلا ملامح ظاهرةً من بين سيقان القصب ، كأنها ترصد البيت . حدَّقتُ مليًا فلم أتمكن من تحديد شيء فيها . إنها وجوه خمسة ، مخترقة ورقاً عريضاً اختلط لونه بألوان الرؤوسِ البقع الرمادية إنها شبيهة بالبقعتين الرماديتين ، اللتين كل واحدة في حجم بصمة إبهام على لوحتي المزعومة في خيالي عن «سبايا سنجار» ، لم أقاوم بياضَ قماشتها إلاَّ بهما . ماذا لو وزَّعتُ أوراقَ قصب شاحبة من حول البقعتين؟ ماذا سأستحصل؟

رماديةً كانت الخاطرة . حدقت أكثر إلى ما خلْتُها وجوهاً . أهي لشاهيكا ورفيقاتها؟ أغلقت الباب على سؤالي منقسماً نصفا وراء الباب ونصفاً أمام الباب . ارتأيتُ تفحُّص المشهد من نافذة المطبخ على تردُّدٍ : أأمضي مكملاً نومي ، أم أرضى بقِسْمة نهاري لي من ساعات ستكون أطول من معتادها؟ .

استوقفتني المرأة في رواق البيت . نزعت عني البرنسَ . ألقت

على كرسي هناك . نزعت قميصي القطنيَّ الرقيق . «هاهي» ، قلت لنفسي ، متأملاً الخطوط الصارخة من عنف اللون في لوحة «زُحل يلتهم ابنه» ، للإسبانيِ فرانسيسكو غويا .

الرسم كان كاملاً على صدري ، بلا نقصانِ تفصيل منه : الجبار زُحل ، في مديح أساطير الإغريق للآلهة ، يلتهم ابنه .

النبوءاتُ حقائقُ في العصور الكثيرة الآلهة ، وفي العصور القليلة الآلهة ، وفي العصور المحتَكَرة من غَلَبة الإله الواحد . النبوءات ، أبداً ، حقائقُ كأمثال الفيزياء مبنيَّةً من أساطير الثقوب السود ، ونشوء الذرَّات من حلم الذرَّات ، وانحناء الكون في تصادم الماهيات العصيَّة على القياس العقلي .

دحرجتِ النبوءةُ نرْدَها إلى قلب الجبار زحل . أرتْه ، في ضباب المحجوبات ، أنه يُلْتَهَم : واحدٌ من أبنائه يلتهمه ، فسارع هو ملتهماً ابنه .

الرسام الإسباني غويا ، الذي تجاسر عليه نَحَوِيُّو تاريخ الرسم بإدراج أربع عشرة لوحة ، من أخيراته ، في قاعدة «اللوحات السود» ، لم يخطر له هذا التثبيت في «قاعدة السواد» . ربما كان على أرَق قاسٍ من لون الجرحِ أسودَ في خيال وجوده مُذ أصيب بالصمم في السادسة والأربعينَ . ساقَهُ الصَّمم ، المصغي إلى أعماق الأصوات التي لم تَلِد بعدُ ، إلى كمائن القسوة ، وكمائن الخوف . تتبَّع غويا الصوتَ ، الذي لم يعد صوتاً ، إلى بساتين الصمم في الألوان ، فمنحتْهُ الألوانُ صممَها عنيفاً . اللوحات الأربع عشرة ، الموصوفة على غرقٍ في السواد ، كانت مجابهات غويا مع الحقائق تحويلاً للون إلى صوتٍ صراخٍ ، وصوتٍ أنين .

لم يكن يجاري بموضوعاتها المتألمة ، القلقة ، الكابوسية ، معاني الحياة الناطقة بلسان المدَافع في حروب نابليون على جبهات الأمم كلها ، كحروب الأمم كلها على جبهات سوريا اليوم .

لم يكن يجاري معاني الحياة الناطقة بلسان الشهيق ، والزفير عنيفيْنِ في حناجر الجياد خائضةً بحوافرها في السهول الموحلة من حروب نابليون .

لم يكن يجاري معاني الحياة الناطقة بالهول في اختراق حراب البنادق للأجساد حين تنفد طلقاتُها ، أو يستعصي التراشقُ بالطلقات لَمّا تلتحم الجيوش متلامسةً في حروب نابليون .

كانت الرسوم القاسية ، القلقة ، المذعرة ، تنصبُّ على صمم غويا ألواناً أصواتاً ، كحضور الرسوم الأكثر قسوةً من مجلد الرسوم على جلدي كل صباح .

أكان غويا مرتعد الخيال ، حقًا ، من أحوال إسبانيا المتدرِّجة إلى فوضى في وقته؟ قد أُجاوره مرتعدَ الخيال حقًا من أحوال سوريا المتدرِّجة إلى حطام أخير ، أو رماد ، فأحْكُم له بالمعنى الذي صعد اللونُ به من أعماقٍ صممه إلى وجودِه الصراخ : لا سوادَ الكآبة ، أو سوادَ الكابوس ؛ لا سوادَ مطلقاً حطَّ باللون على تمزُّقٍ في رسوم غويا الأخيرات ، أو حطَّ فيها بكشوف من أشكال النكبة صوَّرَها قلبُه . كان غويا مَزَاداً من بَيْع اللون الأثريِّ بنقود الجنون . واللونُ الأثريُّ هو ، في تقدير المؤرخين لظواهر الفيزياء الميكانيكية ، معجزةُ الخَوف العاديِّ من نهايةٍ لا آلهة فيها .

«زحل يلتهم ابنه» ، إذاً ، كانت على جلدي بتمام تفصيل اللوحة : عينا الجبار زُحل ، إله الزراعة في أساطير الرومان ، متسعتان

على غضب لا يكفيه أن يفترس ابناً ، بل أن يلتهم آباءَ الوجود كلهم أيضاً . فمه مفتوح كَهْفاً على قدْر ما يستطيع ، وهو يهمُّ بمضغ ما قضمه من رأس ابنه ورقبته . يدا الأب الضخمتان تحيطان خصرَ الابن بأصابع مضمومة ، مغروزة الأنامل في اللحم كأنها براثنُ سباعٍ . شعر الأب طويل ، أشعث ، زاده هبوبُ الهول انتشاراً فوضى .

الأب والابن عاريان . الأب ضخم ، والابن ضئيل بين يديه . كلاهما على محيطِ سوادٍ ، بلونين من جسديهما على شحوبٍ بنيٍّ ، أو غامقٍ بنيٍّ ، مع القليل من الرمادي الخافت ، التائه . ظهرُ الابن ، تحديداً ، على بياض غير نقيٍّ : إله الزراعة ساتورن ـ زحل يُبيد نباتَ حقله ، أيْ نسْلَه .

رسم غويا لوحتَه على جدار في بيته ، كرسمه لوحاته الأخيرات كلها ، موزَّعة على جدران غرفتيِّ الطعام والبهو . ألم تكن في البيت غرف أُخريات بجدران تصلح للرسم عليها؟ أتقصَّد غويا ، في صممه ، أن يكون أبداً على قُربٍ من اللونِ الصوتِ يصغي إليه حيث يأكل ، وحيث يجلس؟ سأسأله ذات يوم في صمتٍ ، لكن ليس قبل التأكد مما رأيته من وجوه يتسلل تحديقُها في اتجاه منزلي من بين أوراق القصب على ضفة البحيرة .

أعدتُ ارتداء قميصي القطني فقط ، واتجهت إلى المطبخ المطل بنافذته شرقاً على البحيرة .

الضباب بات أكثر رقةً ، صريعاً طريحاً ، مضمحلاً أو ذائباً إلاَّ بقايا أذياله في الأفق فوق البحيرة . الوجوه الجاثمة على أعشاش الفراغ ، بين القصب ، كانت هناك . إنني أعرفها . بل عرفت أربعة من الوجوه إلاَّ الخامس .

هنَّ فتيات سنجار . مختبئات بلا داعٍ ، أو جالسات ، لكنني لا أرى هيئاتِ جلوسهن من إحاطة القصب بهنَّ .هادئات . لا يتخاطبن .

أهنَّ نبشْن عن جثة الهرة فأخرجنها ، بعدما ظننتُ أن قاتلها وعد بإخفائها فدفنها؟ ولماذا هنَّ هناك ، في حضورهنَّ المحير فجراً؟ ألا ينمْنَ؟ أين ينمْنَ؟ لن يقنعنني مهما ردَّدن أنهن يتسكعن الوقتَ كله حول ضفاف البحيرة ، وفوق مياهها أيضاً .

فتحت النافذة . ناديتُ بأعلى صوتي :

- أأنتن أخرجتنَّ جثة الهرة؟

بقيْنَ على صمتهن . لا خُمُرَ على الرؤوس . شعر كل واحدة ممتزج بما حوله من الورق الشاحب بين صفرة وبقايا خضرة . أغلقتُ النافذة . استحممت . أفطرتُ . أشعلتُ لفافة تبغ أولى .

طعم شجار ناتالي وصديقها ويستروم كان بعدُ على لسان يقظتي . هما معاً رغِبَا أن أحضر المجادلات الملتهبة مساءً في بيتهما . لماذا أشركاني في ذلك؟ لا يحتاجان مشاركة . حين يتصدَّع الزجاج في كُرة رجل وامرأة شريكين ، فما من ثالث يقْدرُ على لحْم الصدع . إمَّا أن يتعايشا متبادليْنَ الكُرة الزجاجَ في رقَّة حتى لا تنفسخ من الصدع الذي فيها ، أو يُسقطاها أرضاً .

شيء مَّا أكبر من صدع بدا لي بعد نصف ساعة من حضورٍ هادئ للنبيذ في أقداح هادئة ، قبل أن تتماوج الأقداح في الأيدي ، وتنتشر قطراتٌ من نبيذها بعصبيَّة في السَّكْب والرَّشْف .

فتحت ناتالي كتابَ علاقتها بصديقها على صفحة التلخيص الكبير فيه :

- ماذا فعلتُ لأستحقَّ خيانتك؟

فوجئتُ بالرد المحيِّر لصديقها :

- أنتِ جميلة . جذابة . لكن ينقصك سبعة كيلوغرامات من اللحم . ضعيْها زيادةً على لحمك ، وأنا لن أخونك قط .

تراخى فكِّي وفكُّ ناتالي معاً من ذلك الإلتباس المضحك في قسوة الرد المضحك . تمالكت ناتالي نفسها بعد زفير :

- ألهذا خنتني ، يا خنزير؟ أنقِصْ وزنَك سبعةً كيلوغرامات لأراك جذاباً .

«أنتِ لا ترينني جذاباً ، إذاً؟» ، تساءل ويستروم الطويل ، الضخم ، البالغ الثامنة والأربعين كناتالي بدوره .

«ما هذا؟» ، تمتمتُ . «ما حماقة الجدال في خفض الوزن أو زيادته؟» .

«هذه الحماقة هي كل شيء» ، ردَّ ويستروم بصوته الهادئ .

«أعطِني الزجاجة» ، قلت لويستروم مشيراً إلى النبيذ على المنضدة الواطئة إلى جواره ، في الردهة . سكب لي ويستروم في قدحي . ارتشفتُ الشراب :

- لماذ لا تقدِّم لناتالي تبريراً لما فعلتَ ، أو اعتذاراً عمَّا فعلتَ؟

«بعتُ روحي إلى الشيطان لأيامٍ . لا عُذْرَ آخرَ أقدِّمه» ، رد ويستروم .

«أفعلتَ إيماناً منك أن لحظة متعة ستدوم خلوداً في ذاكرتك؟» ، سألته ، فردَّ :

«لم أفكر بخلود متعة . لم أفكر بشيء» ، رد ويستروم مختصِراً .

«لماذا لم تفاتح ناتالي بخمول رغبتك فيها؟» ، سألته ، فرد :

- ألتتركني؟ فيها من خلود المتعة العابرة ما يبقيني أميناً ، وفيًّا لها .

«ماذا؟» ، تساءلنا ، أنا وناتالي ، بصوت واحد ، مندهشيْن .

«أين الوفاء؟» ، سألته . «لقد خنتها» .

رشقني ويستروم بسؤال كأنه يلقي بنا ، معاً ، في مجادلة لم أحضر إلى بيتهما من أجلها :

- لماذا تركت ناتالي؟

«لم أتركها» ، أجبت مبتسماً . «علّقْنا إكمالَ الرسم» .

«ماذا تعني؟ مزَّقتما اللوحةَ التي لم تستكملاها» ، قال .

«أنت كريم في الوصف ، يا ويستروم» ، عقبتُ على عبارته .

«إلى جانب مَنْ ستقف في نهاية هذه الليلة؟» ، سألني ويستروم بنبرٍ ملتبس .

«أعتقد أن ليس لديك ما تقوله لناتالي ، يا ويستروم» ، أجبت .

«ستأخذ جانبها إذاً» ، قال .

نظرت إلى ناتالي المخذولة العينين مما تسمع . قلت :

- ستقف ناتالي إلى جانب نفسها . أما أنا فلن آخذ جانب أحد

«قُلْ لي : ماذا تفعل في هذه الأيام؟» ، سألني ويستروم على نحو

أيقنتُ أنه يرتجل أسئلة عشواء ، لا تخصُّ الموقِفَ المُقلق من بروز الصا في الكُرة الزجاج لعلاقتهما .

«إلى أين تستدير بأسئلتك هذه ، يا ويستروم؟» ، سألته .

«أستدير بها إلى هنا» ، ردَّ مشيراً بيده إلى ناتالي ثم إلى نفسه

«سألتني ماذا أفعل في هذه الأيام . سأرد عليك» ، قلت . «أركّ ألواناً بخصائص كيميائية سرية» .

«لم أفهم» ، عقَّب ويستروم الطويل الشعر على بُنيٍّ فاتح .

«ألوان سرية كالحبر السري ، الذي كان جواسيس بدايات القر

الماضي يستخدمونه في رسائلهم . الكلمات تختفي بعد وقت . تختفي الرسائل» ، قلت .

«لم تزدْني فهماً» ، عقَّب ويستروم مضيِّقاً بين أجفان عينيه العسليتين ، فاستطردتُ :

- سأنشيء ألواناً سرية تختفي بعد سنة على الرسم بها .

«ما الفائدة؟» ، تساءل ويستروم .

«اللعبة ممتعة» ، أجبت .

أسند ويستروم ظهره إلى مسند الأريكة حيث يجلس . تصنَّع إصغاءً جاداً :

- ما تراكيب هذه الألوان كيميائيًا ، يا سارات؟ .

«إنني أجرب . سأعثر عليها» ، قلت .

«بِعتَ روحك للشيطان» ، تمتم ويستروم منتقلاً بعينيه عني إلى ناتالي الصامتة .

«قلتَ قبل قليل إنك بعت روحك للشيطان ، يا ويستروم» ، عقَّبتُ على تعليقه .

«يحدث أحياناً» ، قال ويستروم .

ليس اكتشافاً ، في حقول الخيال الإنساني ، أن يبيع أحدهم روحَه للشيطان بعقد معه لقاءَ قدرة خارقة ، أو خلودٍ مخفَّض السِّعر في مزاد الشيطان على الخلود . منذ اهتدى الإنسان إلى الآلهة تعاقد معها بعقد الدم ، والروح ، والإيمان ، والخيال ، أن يوافقها كيفما تشاء ، ويقتل من أجلها ليربح خلود النعيم بعد الموت ، أو يربح سطوة في الأرض بامتلاك السطوة . الأساطير كلُّها رتَّبت الوجودَ على نسقين : إنسان يبيع الآلهةَ من نفْسه ما تشاء بعقدٍ ، ويبيع الشياطين من نفسه ما تشاء بعقد .

فلماذا استحق السيد غُوْتهْ الألماني ريادةً بكتابٍ خصٍّ به الإتفاق بين القُدرةِ الشيطان ، والإنسان النازع إلى تأييد الشيطان؟ كان غوته آخر المرمِّمينَ ، للفكرة المهترئة ، وآخر الموثِّقيْن لها بسطور من الأدب في «فاوست» . كان متأخراً .

«أنت متأخر في بيع روحك للشيطان» ، قلت لويستروم .

نهضت ناتالي كأنما تهمُّ أن ترشقنا بقدح النبيذ . هتفت :

– أين أنا؟ .

«ماذا تعنين؟» ، تساءلتُ ، فردت :

– كأنني غير موجودة هنا .

«إننا نستلهم المعاني من خيانة ويستروم لك . ألا ترين؟» ، أجبتها .

«أنا في فردوس ، إذاً» ، عقبت ناتالي بامتعاض شديد من نبْر صوتها المتصاعد رنيناً .

«أنتما في الفردوس» ، قلت بإشارة من رأسي إليها وإلى صديقها «شِجاركما هو نقْضُ الميثاق مع الفردوس كي تعودا إلى الأرض» .

«في أية فردوس أنت ، يا سارات؟» ، سألني ويستروم على النحو ذاته من أسئلته المرتجلة عشواءَ .

«لم أسكن فردوساً بعد . لم أغادر فردوساً بعد» ، أجبت .

«ما الفردوس التي تريدها؟» ، سألني ، فأجبت في ارتجال ، من فوري :

– أن أسكن كل عام ، بعد الموت ، منزلاً مختلفاً : قرب نهر مرة . على سفحِ جبل مرة . في وادٍ مرة . في الصحراء مرة . في جزيرة مرة . في الأرضِ الجليد مرة . في غابة مرة . في مستنقعٍ مرة . في منزل على

شجرة مرة . في منزل سائر في الهواء مرَّةً . أن أسكن بيوتاً على قدْر دورة الأبدية ، تلك هي الفردوس .

«ماذا عنِّي؟» ، صرخت ناتالي تذكيراً بانكسارها .

التزمتُ الصمتَ طويلاً في التراشق بالإهانات تبادلها الإثنان . شِجارُهما ظلَّ طعماً على لسان يقظتي ، في الفجر ، حتى بعد الإفطار . دخان لفافة التبغ أزاح ذلك الطعم قليلاً . خفَّفه .

ارتديت ثيابي . عدت إلى نافذة المطبخ أستجلي الفتيات الخمس مصوِّباتٍ وجوههن إلى منزلي من بين أوراق القصب . تنامى فضولي ، فتوجَّهت إليهن .

صرتُ على قرب خطوتين من سور القصب بَدَا بليلاً ، كثير البلل بالقطرات المدلَّلة من الماء تركها الضباب على الأوراق والسيقان الرفيعة . رفعتُ صوتي مديراً عيني على وجوههن :

- سكوتكنَّ كأنكنَّ عاشقات .

أبعدت نيناس الصغيرة القصبَ بيديها عن صدرها ، مبتلَّةَ الشعر الأسود المتماوج :

- شاهيكا عاشقة .

«هششْ» فحَّت شاهيكا . أعقبت فحيحها بكلمات التوبيخ : «اسكتي ، يا مغنِّية الماعز» .

«لماذا تسكتينها؟» ، تساءلت الفتاة التي لم ارها قبلاً معهن ، ثم أضافت : «كنت تتحدثين عن مشاغل قلبك طوال الليل» .

ضربت شاهيكا بعض سيقان القصب بذراعيها استنكاراً . خشخش القصبُ المحتضَر . «لم يعد ممكناً أن أثق بكنَّ» ، قالت .

«لن أفشي الأمر . أُقسِمُ بهذه البحيرة على ذلك» ، قلت . مددتُ

نصف لِفافة التبغ التي لم أُنْهِها إلى كيديما : «بلِّلي قلبَك بنفَسَيْنِ من الدخان» ، قلت .

زحفت كيديما بين القصب على ركبتيها . تناولتْ نصفَ اللفافة . تنشَّقتِ الدخانَ في نَهم . سألتهنَّ :

– ماذا تفعلن جالساتٍ هنا؟ .

«غسلنا خُمُرَنا» ، ردت كيديما . «ننتظر أن تجفَّ» .

«لن تجفَّ في يوم رطب كهذا» ، قلت . استدركتُ : «أنبشتنَّ عن جثة هرة مدفونة؟» .

«ماذا؟» ، تساءلت نيناس الصغيرة .

«هرة» ، تمتمت .

«دمه حلوٌ» ، قالت الفتاة الجديدة ، ذات الشعر الأسود الجَعْد .

«نعم . دم سارات حلو» ، عقَّبت كيديما وهي تعيد ما تبقى من اللفافة إليَّ ، فردَدْتُ يدها :

– أكملي تدخينها .

«دمٌ حلوٌ» ، تعبير من طرافات التعابير وظرائفها عند مِلَلٍ من هذا العالم توصيفاً لشخص مَّا مستحَبٍّ ، قريب إلى القلب ، عذبٍ . تعبير تَلاعُبٌ بالطعم ، لأن الدم مالح . أللحلاوة المستعذَبة عادةً مَنْبت الأصل من صوغه تعبيراً ، أم للنجوم علاقة بذلك؟ لكل شخص نجمه الذي يتجلَّى عليه بطباع تمنحه حظًّا من غَلَبةِ الإنطباع : ظريف ، أو سمج ، أو غليظ ، أو مسلٍّ ، أو كريه ، أو رقيق . وهي أوصاف تخضع في التعبير ، إلى تلاعُبٍ بالطعوم والأوزان : فالدم المالح في الظرفاء يغدو حلواً ، والظلال التي بلا وزن تغدو ، في نَسَبها إلى الظرفاء ، خفيفةً ، وفي نَسَبها إلى المستكْرَهيْنَ ثقيلةً .

النجوم ، التي تُنشئ الطباع ، من معاقلِها في الأفلاك ، لها الإقتدار ذاته على التلاعب بخيال العناصر كاقتدار الإنسان على التلاعب بالطعوم والأوزان وصفاً للطبائع . ولاءُ العناصر الأرضية للنجوم نباتاً ومعادنَ ، وحجارة ، يجعلها راضيةً عن التلاعب بخصائصها التي تغدو ، بهذا التلاعب ، على سعة لا تُستَنْفَد . ولاءُ الأرضيٍّ للنجوم حتميٌّ من حتميات الرغبة في التلاعب بها . كلُّ ما في النشأت هو تلاعبٌ . الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ، تلاعُبٌ . المذاقاتُ تلاعبٌ . الخيرُ تلاعبٌ بالمقادير كأخيه الشر . الحياة تَلاعبٌ بالمقادير . الموت تَلاعبٌ بالمقادير . لا شيء أرضيًّا ينجو من ميزان التلاعب : في الإنساني شيءٌ من الحيواني . في الحيواني شيء من الإنساني . في النبات شيء من المعدني . في الحيواني شيء من سعادة المعدن صامتاً . في الإنساني شيء من المعدني حالماً بحظوظ النفائس .في النفائس الحجارة ، والمعادن ، استحواذُ الجشع الإنساني ، وإنماءُ الاستئثار الحيواني .

الأمور كلها تلاعبٌ كتعبير «دمه حلو» أطلقته عليَّ الفتاة الجديدة ، فأيدتها كيديما التي عادت إلى تأكيد حال رفيقتهن شاهيكا :

– أنت مغرمة ، تحترقين لوعة إلى قُبلة .

«ممن؟» ، سألتها ، فردت كيديما على قصدٍ من إثارة صديقتها :

– منك .

صرخت شاهيكا منصدِمة :

– أنت فضيحة .

«كيديما تريد قبلة منك ، لا شاهيكا» ، صححت الفتاة الجديدة ما لفَّقه لسانُ كيديما .

لطمت كيديما فخذ رفيقتهن الجديدة في رِقَّة ، ثم جذبتها تريد أن تستلقي معها بين القصب البليل ، فاستوقفتُها :

- دعيْنا ، ياكيديما ، نعرف ماذا في قلب شاهيكا .

«قلبها كلساني . لا شيء يخفى» ، قالت كيديما .

«من تحبِّين؟» ، سألتُ شاهيكا .

هبَّت آنيشا واقفة ، مبتلة الثياب من بقية ضباب الفجر :

- تحب جارهم المتزوج . عنده ابنتان .

«هذا موقف معقَّد» ، قلت وأنا أنظر إلى شاهيكا تغطي وجهها بيديها حياءً .

«إنها ترغب في قتل زوجة حبيبها» ، أضافت آنيشا .

«يا للكذبة» ، فحَّت شاهيكا من بين أسنانها المنطبقة . شدَّت آنيشا من ظهر ثوبها فطرحتها بين القصب .

«أحقًا ترغبين في قتل زوجته؟ أين هي؟ في سنجار؟» ، سألتُ شاهيكا ، فردت :

- آنيشا تخترع . لا أريد الإساءة إلى زوجته .

كل غرام رغبةٌ في قتل . لا شيء مثله ابتكاراً لطرائق الخيانات ، والأخاديع ، والحِيَل . لا شيء مثل الغرام ابتكاراً لخططِ الحروب ، وتثبيْتِ الهدنات . قالت لي ناتالي ، مطلع غرامها بصديقها ويستروم ، ونحن جالسان في صالة عرض الرسوم :

- ألاحظتَ جسده؟ .

«ماذا؟» ، تساءلتُ . «جسد ويستروم؟» .

«جسده ينمو بسرعة مدهشة داخل ذاكرتي» ، قالت .

«لماذا تكلمينني أنا عن جسد رجل؟ صرِّحي له بشيء ملفق

كهذا» ، قلت .

«أكلمك بلساني عنه ، يا سارات . أمَّا خيالي فيكلم ويستروم بكل الرغبة التي فيَّ . كان جسده عاديًا جداً قبل أن أُغرم به ، ثم غدا متناسقاً جداً ، ثم تحوَّل ـ من رغبتي فيه ـ إلى معجزة روحانية تستوجب حرباً لبلوغها . لا معجزة أكبر من جسدٍ مرغوبٍ .

«هل تريدينني أن أنقل هذا إليه؟» ، سألتها باستخفاف ، فردت :

- جسدي سينقل هذا إليه .

«لا أستسيغ ، أحياناً ، اعترافاتك الغريبة هذه ، كأنك لا ترويْنَها لي بل تكتبينها . زُوْري كاهناً في كنيسة» ، قلت .

«منذ انفصالك عني صرتَ كاهنَ كنيستي ، يا سارات» ، ردت ناتالي .

«دِينُك ينهار إذاً» ، عقَّبتُ .

«دِينيَ جسديْ» ، قالت ناتالي .

«منذ انفصالنا وأنت أكثر لصقاً بي ؛ قريبة إليَّ بأسرارك ، واعترافات مشاعرك . أسببتُ لك جرحاً مَّا في زواجنا؟» ، سألتها ، فردت :

- الجسد غير فخور بالجراح عليه . الذاكرة فخورة بجراحها .

«ما هذا التعذيب؟» ، عقَّبت . «أَمْ تعنين أن انفصالنا جرحك ، يا ناتالي؟» ، تساءلتُ ، فردت :

- الجرح ليس عدوَّ أحد . والألم عدالةٌ بلا تشريع .

«تتكلمين كملِكات القصص الجريحة» ، عقَّبت .

«أتحدَّثُ عن الوحدة» ، قالت .

«أنت مغرمة بويستروم ، وهو يبادلك ذلك . أين الوحدة؟ أنتما في

البرزخ الذي تتبادل فيه الغابة والصحراء متاهاتهما» ، قلت .

«ها أنت تتكلم كملِك في رسم صينيٍّ» ، عقَّبتْ ناتالي .

حدَّقتُ إليها مليًا . حدقتْ هي إليَّ :

- ألم تفكر بالانتحار مرةً ، يا سارات؟ .

«أنتِ تدورين في حلقة الأيزيدي» ، قلت . ما من سببٍ جرَّ إلى خاطري دائرةَ الأيزيديِّ ، في اللحظة تلك من محاورتنا . ما من حرب ، أو سبي ، كانا - بَعْدُ - في نواحي سنجار .

«حلَقة مَن؟» ، تساءلت ناتالي ، فأجبتها :

- مِلَّة من العِرْق الذي أنتمي إليه .

«لم تجبْني» ، قالت . «أفكرتَ بالانتحار مرةً؟» .

«قد أفكر بذلك في حالة واحدة : إن وقف العالم على جهة بمسدس في يده ، ووقفتُ على جهة بمسدس في يدي ، منتظرَيْن من حَكَم إشارةَ البدء بإطلاق النار على رأسيْنا ، فسأنتحر راضياً» ، قلت ربَتُّ على ظاهر يدها بيدي : «أخطر لك الإنتحار لأنكِ عاشقة؟» .

شاهيكا لا تفكر بالانتحار قطعاً ، جالسةً بين القصب . لمسني الفضولُ إلى استدراجِها :

- كم تحبين الرجل المتزوج ذاك؟

زفرت شاهيكا وهي تزيح يديها عن وجهها بعد ما حجبتْه حياء :

- أحببتُه . أحبه . صنعت اسمه كعكةً وأكلتها .

«أأكلتِ اسمه ، أم أكلتهِ؟» ، سألتها ممازحاً ، فردت بصوتها الرفيع المنخفض النبر :

- أكلتُ اسمه ، وأكلته كي لا يأكله سواي .

«هو متزوج ، يا شاهيكا . هناك من يأكله» ، قلت ، فردت :

- لم تأكله زوجته بعد .
«كيف تعرفين؟» ، سألتها ، فردت :
- هو بالنسبة إليها ليس كعكةً ، كما هو بالنسبة إليَّ .
«هذا جديدُ الحُبِّ الكعكِ ، يا شاهيكا» ، قلت .
تدخلتْ آنيشا :
- زوجة الرجل الذي تعشقه شاهيكا أكثر سمرة من شاهيكا .
«هي سمراء ، ودمها حلو» ، عقبت كيديما .
دفعت شاهيكا ظهر كيديما بيدها :
- عودي إلى سنجار .
تقدَّمتُ شبريْنِ . لامستُ أولَ القصب بحذائي . نظرتُ إلى الفتاة الجديدة :
- لم تعرِّفنني إلى صديقتكن .
«كيف لم نعرِّفك بها؟» ، تساءلت كيديما .
«لم تنطقنَ شيئاً غيرَ حديث الغرام» ، قلت .
«إنها يَادا . هي تعرفك» ، قالت آنيشا .
«تعرفني؟» ، تساءلتُ مستغرباً .
«ألستَ سترسمها؟» ، سألتني آنيشا .
«ما اسمها؟» ، سألتُ ، فردت الفتاة الجديدة :
- أنا يَادا .
«بحقٍّ لالش عليكنَّ فاجِئنني بإسمٍ عاديٍّ» ، قلت تعقيباً على الإسم ، فردت الفتاة الجديدة بنفسها :
- يادا إسمٌ عادي .
«معك حق . هو اسمٌ عاديٌّ مستعار» ، عقَّبتُ .

«اسمي عادي ، لكن كالدائرة» ، قالت يادا السمراء البشرة .

«وأنت في الدائرة» ، قلت .

«وأنا في الدائرة» ، ردت .

«لن تخرجي منها إذاً حتى يمحوها أحد» ، قلت .

ربما أنا في الدائرة أيضاً ؛ في قلقِها . مَنْ صنَّف الدائرةَ كمالاً؟ ألهذا انتهت البشرية إلى دِينها الجديد : عبادة الشكل الدائري في الكُرة الدائرية ـ كرةِ القدم؟ ربما الدائرةُ كمالُ أكذوبتها . لا وجودَ للدائرة كمالاً . في الحقائق مطلقةً كمالٌ واحد يعرفه الإنسان الذي يكتب سيرته ناقصةً ، فاقعة ، متناقضة ، مشوَّشة ، بسيطة ، ملفَّقة . الكمالُ أن يكتب الإنسانُ سيرةً لم يعشْها .

«سأخرج منها إن رسمتني ببشرة حمراء» ، قالت يادا ، الطويلة الأنف ، السوداء العينين ، بصوتها الذي حزنٌ في نبرته .

«لماذا؟» ، سألتها ، فردت كتقدير الأيزيديين لكرامة اللون الأحمر وسَعْده :

- لأبدو سعيدة .

قد أرسم يادا ببشرة حمراء ، سعيدةً بلونها ، كما تريد ، في موضع من جبل حيَّرني كيف أرسمه حزيناً . لقد اكتفيت بتلخيصٍ من التقدير لا يُلزم أيَّ رسام آخر ، وهو أن الجبل مكانٌ حزين . فهل أقتنع بتلخيص آخر لا يُلزم أحداً ، وهو أن الأحمرَ لونٌ سعيد؟

جبلٌ حزين ، وحُمرةٌ سعيدة . إنشاءان من تقدير الخيال لا يُلْزِمان أحداً . قد أستطرد في نبش تراب العبارات عن عظام العبارات بتلاخيص لا تخصُّ سواي : السهول أمكنة حزينة . السماء مكانٌ حزين . الشمال جهةٌ حزينة . أمَّا آخر التلاخيص فيجب أن يتمّ

الحَصْرَ : الحياة مكانٌ حزين .

يادا من القرية ذاتها ـ مسقط رؤوس الفتيات كلهن ـ «خانَهْ صُوْر» ، في موضع من غرب سنجار . نقلها غزاة الدولة الإسلامية ، بعد السبي ، إلى الموصل ، ثم إلى الداخل السوري . اشتراها ليبيٌّ في مدرسة جنوب الحسكة ، في عَرْضٍ من العروض الحلال لبيع الرَّقيق ، ثم انتقل بها إلى موضع من تخوم مدينة كوباني حاصرها جنود دولة الخلافة .

هي في الخامسة عشرة . متوسطة الطول . أقرب إلى نحافة ، ولصوتها نبرٌ حزين ، أو هكذا خمَّنتُ النبرَ :

- صوتك حزين .

استنكرت يادا قائلة :

- انظرْ إلى لساني .

«مابه؟ إنه لسان» ، قلت .

«لساني أحمر» ، قالت .

«ليس أحمرَ تماماً» ، قلت ، فأكَّدتْ :

- هو أكثر حمرة من أيِّ لسان آخر .

«كما تشائين» ، عقَّبتُ ، فابتسمت انتصاراً لمنطقها :

- كيف يكون صوتي حزيناً ، ولي لسان أحمر؟ .

في سردِ يادا موتَها الماضي ، تفصيلاً بعد تفصيل ، كانت الحُمرةُ سيرةَ كل جارحة من جوارحها : تمزَّقت قِطعاً من اللحم مغلَّفةً كالحلوى بقشرٍ من الدم حلواً .

تعتقد يادا أن السيارة التي قادها مالكُها الليبي الشاب ، ذو الثلاثة والعشرين عاماً ، لم تكن لها عجالٌ تمشي بها ، بل كانت تزحف

كالأفعى على بطنها الحديد، في انزلاق كما الماء على صخرٍ منحدر لم يقل لها أين يقود بها المركبة الرباعية الدفع. حضر صديقان لليبي في سيارة إلى بيتها، في الفجر المبكر، على خبرٍ مختصَر: «مولاك يريدك إلى جواره».

لم تفهم يادا معنى ذلك الاستدعاء، لكنها أطاعت. نُقلتْ إلى جوار تلّة واطئة أحيطت من إحدى جهاتها بمتاريس عالية من الرمل جنود ومَرْكَبات بأسلحة طويلة المواسير عليها. أعلامٌ، ورؤوس في خُمر سود. هواء أسود. كلمات خفيضة من التهنئة بالشهادة المرجوة القطاف. آياتٌ قِصار.

كان مالك يادا الليبيُّ في إحدى تلك المركَبات، جالساً بوجه خالٍ من أيِّ تعبير، مطوَّق الرأس بعِصابة سوداء. أُشير عليها أن تصعد المركَبة فصعدتها جالسة إلى جواره.

لم يكلمها مالكها الليبي إلاَّ حين أدار محرك المركبة. نظر إليها جانبيًا بعينين متراخيتيٍّ الأجفان: «تهيَّأيْ لجمع اللحم»، قالها قبل أن تتساقط السماءُ على الأرض هشيماً من القصف بالمدافع على الجهة الغرب من مدينة كوباني. كان جنود الخلافة يتحضَّرون، في الأرجح، لاقتحام.

قصفٌ متلاحق، عنيف، واكب حركة سيارة الليبي دار بها حول المتاريس، ثم اندفع زحفاً منزلقاً ببطنها الحديد، تتبعه، من جانبه الأيسر، مركبةٌ أخرى على بُعد أمتار.

رأت يادا بعينيها طلقات تنهمر على المركبة من متاريس حول أبنية المدينة لصدِّها من التقدم. تأرجحت المركبة متعرِّجةَ الإنزلاق في تقدُّمها. عجَّل الليبي السادر العينين في الضغط على آلة إلى جواره

انفجرت السيارة متراجعةً بحديدها ، فيما تقدَّم لحم يادا قِطعاً مقذوفةً كالطلقات ، حُمراً .

«كان مولاي انتحارياً» ، قالت يادا .

«عرفتِ بعد فوات الأوان» ، عقَّبتُ .

يادا استطاعت سردَ كلٍّ ما فاتها بعد فوات الأوان . استعرضتْ روحُها ، بعد انفجار جسدها ، سجلَّ الوقائع الماضية التي لم تشهدها بنفسها ، ودقائق حدوث الأحداث : لقد شرَّع الليبي لنفسه شَرْعاً من الرغائب باصطحاب يادا إلى انتحاره : «سأجمع شملَ اللحوم الكردية» ، قال .

سألتُ يادا مبدياً بعض الدَّهَش من تفاصيل سردها :

- أهذا ما قاله الليبي؟ .

«هذا ما قاله حرفاً بحرف» ، ردت .

«أتتنصت روحُك على ما فاتك سماعُه قبل الموت؟» ، سألتها ، فألوت فمها :

- لست أدري .

«ثم ماذا أيضاً؟» ، سألتها أستزيد منها ما يبتكره لها خيالُها ، أو يشرق عليها من غيب روحها اختراعاً من ثرثرات الأرواح .

«حاول الليبي توزيع جسدي على متاريس الكُرد» ، قالت . «لكنه استعجل التفجير . لم تبلغ أعضائي المقذوفة أول بناية من كوباني» .

«أقُتلت حقًا؟» ، تساءلتُ ، فردت :

- ألا تراني مُلْصَقةً قطعة إلى قطعة؟ .

«أين وصلت أعضاء الليبي؟» ، سألتها .

زفرت يادا :

- استردَّه جنود الحوريات في اقتحامهم بعض المتاريس . لم يمت
«ماذا؟» ، تساءلتُ ، فردَّت :
- لم يمت . فقد رجله اليمنى ، ولم يمت .
«أتخمينٌ هذا ، أمْ حصل حقًا؟» ، سألتُ ، فأمعنت يادا تحديقاً إلى
من بين أسواق القصب :
- أيُعدم شخصٌ ميت؟ .
«قد يُمَثَّل بجثَّته ، لكنه لا يُعدم . هو ميت» ، أجبت .
«لقد أُعدِم مولاي فيما بعد» ، قالت يادا . «لم يمت في التفجير
أُعدم فيما بعد» .
«كيف تعرفين؟» ، تساءلتُ ببعض الريبة من حكايتها ، فردت
بقليل من الاحتداد :
- كُنْ ميتاً مثلي تعرفْ .
«سأرسمكِ حمراء من شعرك حتى حذائك» ، قلت لها .
اقتربت نيناس زحفاً بين القصب مني :
- ارسمني حزينة ، يا سارات .
«يكفي أن أرسم سنجار حزيناً ، يا نيناس» ، عقَّبت على رغبتها .
«ما الذي ليس حزيناً؟» ، تساءلت شاهيكا وهي تنفض شعرها
المبتلَّ بيديها .
«الشكُّ هو المكان الأقلُّ حزناً» ، أجبت .
تبادلت الفتياة نظرةَ يقينٍ أنهن لم يفهمن . عقَّبت آنيشا على ما
قلت :
- تتحدث كشخص عطشان .
«كشخص عطشانٍ؟» ، تساءلتُ . «أباتت إقامتكن عند البحيرة

تُلهمكنَّ منطقَ القصب ، يا فيلسوفات سنجار؟» .

تحسَّستُ جيبي بحثاً عن علبة التبغ التي لم أجلبها معي . سألتهن :

- ما الفرق بين نيناس وشاطئ البحيرة .

تبادلن نظرات التخمين . ردت يادا :

- القصب .

«ما الفرق بيني وبين شاطئ البحيرة؟» ، سألتهن .

ألوَيْنَ أفواههن ينقِّبنَ عن جواب . ردت نيناس رداً بريئاً :

- الشرق .

أنا لم أفكر بتلفيقِ فارقٍ بيني وبين البحيرة على النحو الذي خمَّنته نيناس الصغيرة . كانت أسئلتي الخاملة ، كصعود الشمس الخاملة في الفجر ، تمريناً من منطق الفجر النعسان . لكن نيناس مسَّتني بلذع خفيفٍ من ردها . نعم . أنا من الشرق . البحيرة تقع شرق منزلي . الشرق يقع في موضعٍ من الشرق . النهايات شرقيَّة برمَّتها ، والبداياتُ احتيالٌ من الشرق على الغرب . وأول هذا الاحتيال هو طلوع الشمس من هناك .

«لنا خيام فوق مياه البحيرة» ، قالت آنيشا في تصويبٍ متأخر قليلاً لقولي إنهنَّ يُقِمْنَ على ضفاف البحيرة .

طُرُق المجازر كلها تقود إلى البحيرات ، مذ لا يعرف الإنسان طريقاً إلى مكان إلاَّ بعُمَّال المجازر يرصفونها . الطرق كلها تنتهي إلى مصبٍّ المجازر في بحيرتها . لماذا لم يخطر لي هذا قبلاً؟ أمْ أنني كنتُ أبني اقتباساً مُحوَّراً بتصرُّفٍ من الجملةِ الترديد : «كل الطرق تقود إلى روما؟» .

لا طريق إلى روما. ليست روما مكاناً لتقود الطرقُ الطرقَ إليها. الطرق تقود إلى الجحيم عادةً، أوْ كلُّها طرقٌ مسدودة بإسمنت الحماقات، والشعوبُ تنطح بجباهها تلك السدودَ الإسمنتَ مُذ نشأت الشعوبُ.

أمكنةٌ حماقات تقود إليها طُرقٌ حَمْقى. أمكنة قديمة من حماقات القِدَم. أمكنة يسميها المكتشفون بأسماء العذرية، وأسماء الفردوس، كما يسمي الأيزيديُّ يوم الأربعاء باسم الجمعة في تَلاعُبٍ بمقادير الأيام. كل أرض تُكتشف ستصير مكاناً مجزرةً لا تقود الطرق إلاّ إليها، كطرق المجازر تقود كلُّها الأرواحَ إلى بحيرة أودن.

قد تغضب البحيرة من هذا التقدير القاسي. ذلك حقُّها.

حدَّقتُ مليًّا إلى عيني يادا. لِمَ لم أنتبه إلى آثار كدماتٍ من حولهما؟ ربما الأمكنة كدماتٌ حول عيون الوجود كالكدمات حول عيني يادا. كدماتٌ حول عيون البشرية كلها. كدمات حول عيون الكواكب.

«ما هذه الكدمات؟»، سألتُ يادا.

«كنتُ كلما أخطأتُ في قراءة المصحف ضربني مولاي بعقب حذائه على عينيَّ»، ردَّت.

في الزَّعْمِ أن الأيزيديين لا يقرأون، أو يتفادون القراءة، أو يستكرهونها. هم تركوا القراءة لأهل الإختصاص من أئمتهم يستجلون المعاني من المصحف الذي يخصهم. «مصحفْ رَشْ» هو اسمه، أي: المصحف الأسود. وفي الحكايات عن سبب سواده أن أخت الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كانت تتلو صحائفَ، هي وزوجها، ذات يوم، فدخل عليهما الخليفة، فرمياها في التنُّور. اسودَّت الصحائف، لكنها

جُمعت ثانيةً ، وحُفظت في التداول لتستقرَّ كتاباً من كتب اليقين في معقل يقينِ الأيزيديٍّ .

لا توثيق في نوع الصحائف ، ومغازي امتلاك أخت الخليفة لها ، ومن أين استحصلتْها . لكن يُنْسَب ، في مصادر تُحْتَسَب ، أن الشماس الكلداني أرميا شامير هو مؤلف «مصحف رش» ، وكذلك الكتاب الآخر الذي يعتمده الأيزيديُّ مصدراً ليقينه : «كتاب الجَلْوَة» . شماسٌ مقتدر في اللغات أتقن منابتها الأوروبية . درس في دير الرهبان هرموزد للكاثوليك الكلِدان ، فتخرج برتبة شماس . أولى اهتماماً بالوثائق ، والكتب القديمة الفارسية ، والعربية ، والسريانية . غَلَتْ فيه طفاوةُ المعرفة ففاضت عن كأس خياله : ادَّعى نزول الوحي عليه . تاه في نبوَّته .

كتبُ الأيزيديين الأصول ، المفقودة ، سُرقت من خزْنة «شيخان» في مرقد شيخهم عادي بن مسافر ، بحسب توثيقهم للأصول المفقودات ، ووُضع عوضاً عنها كتب في مواضيع الجغرافيا .

بعثات تبشير ـ يُقال ـ سرقت الكتب الأصول . فهي إمَّا في تركيا ، أو في أقبية مكتبات قديمة في برلين ، أو ـ ربما ـ عند بطرك السريان اليعاقبة فباتت من مشمول احتكاره لسجلاَّت المعارف الدينية والدنيوية .

«مصحفْ رش» ، المعتمد مقدَّساً أوَّلَ من الصحائف الإلهية ، سردٌ تاريخي لأحداث غابرة ، ونثرات من سيرة الشيخ المؤسِّس للمُعتَقَد ، وتلخيص لنزول طاووس مَلَك إلى الأرض موزِّعاً مقاليدَ الأرض على ملوك الأيزيديين . وفي مصحفهم هذا ، أيضاً ، تبيينٌ لخَلْق الكونِ الدُّرَّة ، ومن ثم خَلْقِ الأرض فالطوفان .

يلي «مصحف رش» في مقام التقدير «كتابُ الجِلْوَة» ، الذي صَفْوُ معناه انجلاءُ المعارف على عقل المعتزل ، المختلي بنفسه في كون المعاني .

يادا ، التي لم تقرأ كتاب ملَّتها «مصحف رش» ، قرأت مصحفَ المسلمين . وهي كلما أخطأت في قراءة آية منه استحقَّت كدمةً حول عينيها .

شيءٌ مَّا من تلك الكدمات رأيتها حول عيون سوريين من بلدة مضايا ألقت بها آلاتُ التصوير إلى سجلٍّ المرئيات توثيقاً . لم تكن كدماتٍ من ضربٍ بحذاء جنديٍّ الحوريات الليبي ، بل من ضربٍ بحذاء الجوع على العيون . فصيل من شيعة لبنان ضربَ حصارَ الجوع على آلافٍ بشرٍ في البلدة السورية ، ليُهين الأرواحَ فتستسلم أو ترحل . أكلت الناسُ الدوابَّ والفئران ، والقطط ، والأعشاب البرية ، وعظام الإيمان بالآلهة . حصارٌ جوعٌ لا يعْدِلُه إلاَّ حصار المدن أيام النازيين . عقلٌ حصارٌ لإحقاق دِين الجوع عن يد فصيلٍ من شيعة لبنان هبَّ هاتفاً : «وَامَرَاقِداه» ، مذ سَرى نداءُ الجهاد إليه من فم وليٍّ الخراب الإيراني .

وضع أتباعُ إيران بلدةَ مضايا على درب «الدرجات الثلاث عشرة» . صاغ الغرب الأمريكي العبارة هذه كناية عن منصة الإعدام ذات الدرجات الثلاث عشرة يصعدها المحكومُ إلى حبل الشَّنق والخنق

بلدة مضايا صعدت المنصَّة اثنتي عشرة درجة على أقدامها ـ أقدام الجوع . كدماتُ اليأس الإنساني لم تُلفت بصرَ الجبابرة . استعان حسين أوباما بأكثر الألفاظ تهذيباً لعرض أكثر الأفكار وقاحةً في تبر لا أخلاقيته متفرِّجاً على آلام السوريين . استعان بوتين بأكثر الألفاظ

تهذيباً في عرض أكثر أفكاره وقاحةً عن سوريا المنكوبة . صرَّح ، بفخر الشحوب البارد على لسانه البارد : «مكَّنت الحربُ السورية روسيا من تجربة أسلحة ، وتقنيات حربية كثيرة ، لم يكن من الممكن القيام باختبارها في ظروف أخرى . كانت فرصة نادرة» .

فرصةٌ نادرة اقتطفها فصيل من شيعة لبنان ، منذ النازيين ، لتجويع بلدة . بعد الدفاع عن «المراقد» جاء الدفاعُ عن الجوع . أُعيدت إلى الجوع حقوقٌ أُهملت منذ حصارات النازيين للمدن . كدماتُ الجوع ظلَّلت عيونَ بشر في الصور بجلود على عظام . كدماتٌ على عيون الإيمان بشيء ، أو بأحد .

«هكذا إذاً ، يادا» ، عقَّبتُ على اعتراف الفتاة بكدمات استحقتها بجدارة الخطأ في قراءة المصحف . رفعتُ وجهي إلى مياه البحيرة مشرقةً بالشمس أذابت آخر الضباب في أقداح أنوارها . «ماذا يجري؟» ، تمتمتُ .

تمطَّت أجساد الفتيات الخمس في ثيابهن البليلة بعْدُ مستطلعاتٍ ، في فضول ، ذلك الأمرَ الذي أثارني . لقد فوجئن ، مثلي ، بالحشد المديد لأسطول من المراكب ظهر على مياه البحيرة .

كنتُ مواجهاً للمياه منذ بدء المحاورات في بقايا ضباب الفجر حتى ثمالة الضباب مُرْتَشَفاً ، في صعود الشمس ، من أقداح أنوارها . بغتةً ظهر حشدُ المراكب . بغتة انتشر الحشدُ على مدىً شاسع من المياه .

رُميتْ سلالمُ من حبال عن ظهور المراكب . رُميتْ أطوافٌ مطَّاطٌ . صعدَ عمالُها إلى حوافِها على عَجَل . لكن ما من صوتٍ رافقَ ظهورَ المراكب . لم نسمع محرِّكاً واحداً من المحركات الصاخبة للمراكب

عـادةً . حـتى العـمـال ، الذين كـانوا يتـبـادلون نداءاتٍ واضـحـةً في حركاتهم ، كانوا خُرُساً ، بلا أصوات .

- التفتت إليَّ الصغيرة نيناس متسائلة :

- أَهُمْ هنا من أجلنا؟

سمعتُ سؤالها ، ولم أسمعه أيضاً ، مُذْ شغلَني عنها أنني لم أرَ ، في تحديقي المدقِّقِ إلى المراكب ، انعكاساً لهياكلها الكبيرة على المياه .

الفصل العاشر

(Theodor Gericault: The Raft of the Medusa)

بعد استحمام ، وإفطار ، أحضرت مطرقة صغيرة ومسمارين . بدأتُ رحلةَ تعقُّبٍ على جدران البيت بحثاً عن موضع أنسب لتعليق بساط صغير أهدتنيه ناتالي مرةً ، فأجَّلتُ تعليقه حتى الصباح المتأخر من يومي ذاك .

بساط من ثمانين سنتيمتراً طولاً ، وخمسين عرضاً . لا تستحقُ النقوشُ البذْخ فيه أن يُطرح أرضاً ليوطأ ، بل قَدْرُه أن يُعلق معروضاً على الأبصار .

هو تركيٌّ الرَّقْن والنقش : خلفيةٌ سوادٌ كلها ، ثم مجابهات من الألوان محتشدةً في كل حيِّز . استطرادٌ من اللون لا تخفف منه انقطاعات الأشكال بعضها عن بعض ، واستئثار كل شكل بأبعادٍ من السواد حولَه . ثرثرةٌ مضبوطة على قياسٍ عذب . تجاورٌ حرٌّ . عدلٌ في توزيع التناسب والتناظر .

ثمت طائران متشاكلان ، سِيَّانِ ، منفلتين قليلاً من الإنتساب إلى نوع بعينه من الطيور : لهيئة كل منهما استطالة كببغاء الفردوس البرازيلي . منقاراهما معقوفان ككواسر الطير . عيونهما حمر كالحمام ، وذيلاهما طويلان ، متشعبان كأذيال الديَكة الحبشية . أصفرا اللون ،

بطوقين أحمرين على عنقيهما . وهُما رُسما بخطوط حمر في تحديد هيئتيهما ، وتحديد أجنحتهما ، وتحديد تشعبات ذيليهما ، وتحديد منقاريهما أيضاً ، مع سواد واحدٍ دائرتيْنِ صغيرتين من حول عيونهما .

أحد الطيرين جاثمٌ أفقيًا على غصن أصفر كلونه ، والآخر منتصب عمودياً ، برأس إلى أعلى ، وذيل إلى أسفل ، كأنه يصعد سُلَّم السواد الذي لا يُرى . وعلى الحدود السواد المحيطة بهما زهرٌ من تآليف الضرورة الهندسية في بناء الشكل بالخيوط على آلات النَّسْج .

زهور دائرية ، صفر وحمر ، بأوراق إضافية تنبثق من الأوراق الأصل بِيْضاً ، وخُضراً فاتحة ، وللأزهار مباسمُ زرقٌ في مراكزها التويجات حيث الأسدية . أوراقٌ قصار متلاصقة ، وأوراق طوال متفرقة بفواصل سودٍ بين الورقة والأخرى . زهرة واحدة ، في الأسفلِ اليسار ، تتفرَّد عن الأخريات جميعهن بزرقتها المنتشرة ، من غير تناسق في الشكل ، كأنها رأسٌ مستطيل ، بعينين حمراوين ، لكن لم يُحسن النسَّاجون تظهيره كرأسٍ تمام ، فظلَّ على قلقٍ في الهيئة ، ملتبسٍ لا هو رأس ولا هو دائرة .

حول الزهرة الزرقاء ، غير المتناسقة ، أوراقٌ صفر على بياض في الأعلى ، كل ثلاث ورقات على جهة شبيهةً بألسنة الأبقار ، وعلى جانبِيْ كل شِعبة من الثلاث الورقات زُهيرةٌ صغيرة ، حمراء بتخطيط اصفر ، منبثقة من هيكل الزهرة الأم بغصن دقيق مديد . أسفل الزهرة الرأسِ اللامتناسق استطالةٌ متشعبة ثلاثةَ تفرُّعات من ورق أحمر بعروق صُفر . أمَّا ما تبقى من الحيِّز المشمول برعاية السوادِ الخلفية فأغصانٌ على ألوان تتعاقب في سَيرها بالخطوط إلى غاياتها رسْماً على النسيج بخيوط من النسيج .

عندي ، على حائط الردهة غرباً ، بساط آخر ، فارسيُّ النقش ، لا يجاوز بألوانه ألوانَ البساط التركي . ربما تعمدت ناتالي إهدائي واحداً لا يُثقل على ميزان الألوان المتناظرة إنِ اجتمع البساطان في موضع واحد . لكنَّ ما يجمعهما من الصفرة ، والحمرة ، والسواد ، والقليل القليل من الشذرات الزُّرق ، لا يثبت للمقارنة على قياس اللون . فالبساط التركي يحفظ للأشكال فواصل من السواد بينها ، أما الفارسي فكل شكل فيه ملاصق للذي يليه ، مترابط به متلاحم . نقوشه زهورٌ أيضاً ، وأوراق ، وغصون ، كالبساط التركي الذي حوى اختلافاً طائريْنِ من أحياء المخلوقات المتحركة .

لم أخطط قبلاً أين أعلِّق البساط الجديد ، لذا بدأتُ الأمرَ بارتجال : فلْأضع البساط التركي إلى جوار الفارسي ، لأحقق لناتالي ـ من حيثُ لا تدرَي ـ شَغَباً على الجدار إنْ تخاصَم البساطان ، وتشاجرت نقوشهما من يقظة الإنتقام القديم لم تنجزه إمبراطورية الصفويين الموتورة ضد إمبراطورية بني عثمان .

حروبٌ كَثْرَةٌ مزقت نقوش الأرض والسماء بين الجارين الفارسي والتركي . لكنني واثق أنني لو جمعت البساطين على حائط واحد فلن تتخلى النقوش فيهما عن هدنة اللون الأبدية . للجمال فيهما متَّسعٌ للمعاهدات بسطور لا تُنْقَض ، أو تؤَوَّلُ ملتبسةً . لا رغبة في جمالهما إلى انتقام إلاَّ من الجدران العارية .

أنا أحب الجدران عاريةً ، على أية حال . ذلك تاريخها الأصل حتى مجيء التدوين عليها برغباتٍ من صور مؤطَّرة ، ومرايا ، وزواحف أخريات من اللواتي يعلِّقها قاطنو المنازل إلى جدران منازلهم ، وأنا منهم أيضاً . لذلك علَّقت ما قدِرتُ على تعليقه سابقاً ، ومضيتُ لاحقاً إلى

البحث عن موضع للبساط التركي .

البُسُط ، والسجاجيد ، في الشرق ، غاية من غايات الحشد والحشر على استضافة كالتصوُّر الديني ليوم القيامة : كل المخلوقات تُبعَث متجاورةً ، متزاحمة ، عرمرماً في ازدحامها ، صاخبةً تَعْرقُ من عَطْعطَتهمُ الأرضُ . صخبُ الألسنة متهيبةً ، وصخب القلوب متضرعةً ، وصخب العيون زائغاتٍ من النظر إلى ميزان الثواب والعقاب . الجموعُ ، والفلول ، والمواكب ، والأنفار ، الأبرار والأشرار معاً ، في الطريق إلى امتحان النعيم أو الجحيم بأوزانٍ من أعمالهم تحسم لهم أبديةَ الشقاء أو أبدية السَّعْد في الميزان الأعظم .

في كل حسابٍ من منتهى البعث والنُّشور ، على مخارج الأديان ومداخلها ، ميزانٌ مكيال لمعادن الخير ومعادن الشرور . النسائجُ البُسُط ، والسجاجيد ، والزربيات ، في الشرق ، قيامةٌ بالنقوش عليها من مُعادل للحشود يُساقون إلى الحساب ، ومُعادلٍ للميزان : الحشود هي الكثرة في النقش والرَّقن لا ينجو منهما فراغٌ ، أو حيِّز ، أو خلاء . حَشْرٌ نُشورٌ من الأشكال على صِغرٍ . زحامٌ كآخر ما تتخيله الأرقامُ من لا محدودها لكنَّ الميزان حاضرٌ هناك ، في كل نسيج : إنه يكيل اللونَ بعدل في المثاقيل ، ويكيل الأشكالَ بعدل في التماثُل .

النسج الشرقي توازن لا مثيل له من المتناظرات الصَّبورة كصبر النسيج واقتداره على الإحتمال . ذلك ما فيه من ضروبِ غيب الخيوط ، ويقين نُسَّاجه في الحوكِ والصوغ . لكنَّ في كل نسيج باهر من نُسُج الشرق ضروباً من نوازع القلب الأرضيِّ : الإنتقام الهادئ ، الطويل - انتقام الزمن من نفسه ومما يحويه على شكل نقوش ، وانتقام الأمكنة من نفسها كخطوط في تحديد النقوش .

فطرةُ انتقام الكائن مما يَعْرِف ، ومما لا يَعرِف ، هو السلوك الباطن للنسائج بحظوظ الهندسة اللامتسامحة ، اللامتساهلة إثباتاً للأشكال على أنساق التجاور ، والتناظر ، والتماثُل ، والتَّسْييْن ، والتَّشاكُل . انتقامٌ باطنيٌّ ، محجوب ، مستور ، مموَّه ، متنكِّر ، ملغِزٌ في وضوحه رسوماً ـ ذلك هو نَسْج الشرق .

نعم . قررت تعليق البساط المرِح أخيراً ، في صباحي المتأخر ذاك ، تحت مرآة مؤطرة بالنحاس عليه قرودٌ صِغار نافرة الصور ، على الجدار الجنوبي للردهة . إنه ليس قبالة البساط الإيراني ليتبادلا التحديق من تاريخ لا يُغتَفَر النصرُ فيه ، ولا يُغتفر الخُسران ؛ وليس إلى جواره ليتشاجرا بلسان التنافس على كسْبِ المفاضلات ؛ وليس أسفل البساط الإيراني ليختال الأعلى وينخذل الأسفل ؛ وليس أعلى البساط الإيراني لينعكسا ، معاً ، على ماء قلبيَ شرقاً لم يعد يغريني منه إلاَّ نقوش أعلِّقها تذكيراً لخيالي بالميزان المفقود .

تراجعتُ أقيس ببصري أبعاد الجدار بعد تعليق البساط . الجدارُ راضٍ . البساط راضٍ . المرآة راضية ، والقرود النافرة في نحاس إطارها راضونَ ، لاهُوْنَ بين غصون نابتة في الحقل المعدن .

أنجزتُ ، ذلك اليوم ، ما كان ينبغي إنجازه في بضع دقائق من أيام سابقة . التأجيل ، على أية حال ، طبْعٌ كالتعجيل . لا شيء وسطاً من الطباع بينهما . وهما أمران كالتفصيل في أحوال اللصوص : لصوص يبقون مبتدئين حتى مماتهم . لصوص يولدون محترفين حتى بعد مماتهم . لا تقديرَ لرتبةٍ بين بين ، مع زعم البعض أن الآلهة هي الصنف الثالث .

كان خاطري ، بعد تعليق البساط إلى الجدار ، أن أخرج من تردُّدي

عن اقتحام البياض على قماش اللوحة ، التي أزمعتُ رسمها عن «سبايا سنجار» ، بإلهام من إيحاءات الألوان الثلاثة الغالبة على البساط التركي ، والإيرانيّ . فيهما نثراتٌ قلائل جداً من الزرقة ، لكنّ ما يُحْتسب من سلطانهما هو الأصفر ، والأسود ، والأحمر . ألوانٌ غير جذّابة إن تفرّدت ، ما لم تستطع الأشكالُ المتلبِّسة لها إجراءَ تعديل مقتحِم يرفع تلاحمَها إلى نوع من ميثاقٍ ماكرٍ ماهر .

اللّوحة ، التي ظهرت علّى جلد صدريٍ في الصباح ، باستطالة جزءٍ علويٍّ منها إلى عنقي ، فجانبِ وجهي الأيمن ، كانت إبراماً من عَقد الألوان الثلاثة واتفاقها . لأول مرة يمتد رسمٌ ببعض تفصيله إلى وجهي : إنه رداءٌ يلوِّح به أحد المنكوبين بعد غرق سفينة «الميدوزا» .

الرسام الفرنسي ثيودور جيريكو كان حظٌّ جِلدي من تأمُّلي ليلا للوحته «رَمَث الميدوزا» . والميدوزا هذه سفينة باسم مخلوقة من أساطير الإغريق ، جبارة في الرشقِ بالسهام ، والرشق بالنظرات ينقلب المحدّق إليها تمثالاً صخراً .

لا أعرف عدد ضفائر المرأة النصف الأعلى الإنسان ، والنصف الأسفل العقرب . هي ليست ضفائر من شعر بل من أفاعٍ تتلوى شوقاً إلى النهش . قد يكون عددها خمس عشرة ضفيرة . لا أدريّ . سأستقر بالتقدير على أنها على عدد الناجين الخمسة عشر بحّاراً بعد غرق سفينتهم .

أبحرت سفينة «الميدوزا» الفرنسية من ميناء في الشاطئ الأفريقي إلى المحيط العظيم ، بطاقمها المائة والسبعة والأربعين نفراً . إله المياه بوسايدون اقتطف من ميدوزا الحسناء ، المتبتِّلة في معبد الإلهة أثينا لذائذَ أبهجتْه وأروتْه ، مختلياً بها في المعبد . غضبت أثينا . ثارت ...

الدَّنس أهرقتْه الحسناء البتول على جلالِ المعبد ، وقوَّضت حياءَ الحجر في هيكله الطاهر . مسختها أثينا مخلوقةً منبوذة بين الخرائب ، مشؤمة ، قاتلة . يظفر بها المحارب برسيوس ، أخيراً ، بخدعة النظر إلى انعكاسها على ترسه فيقطع رأسها بالضفائر الأفاعي .

إله البحر ـ الذي أورث النكبة الشؤمَ إلى إسم «ميدوزا» ، بتحصيله الإمتاعَ المحظورَ نَيْلُه من عذراء في معبدٍ مَصُون ، طاهر ـ خذل السفينة التي حملت اسم محظيته الملعونة . حطم الموجُ السفينة ، وتناهشها الزبدُ . هرب ضباطها على قارب نجاةٍ ، تاركين البحَّارة لأقدار المياه في المحيط الأعظم .

قطعةٌ مَّا من جدار السفينة ، أو سطحها ، استُجيرتْ كَرَمَثٍ فأجارتْ خمسة عشر ناجياً ، أثبتوا على الطَّوْف ساريةً لا يُرى مكمن قاعدتها من إحاطة الأجساد بها ، وعلَّقوا إلى السارية شراعاً أصغر من أن يتلقَّف أنفاساً كافيةً من الريح على قدْر الكفاية للإقلاع بالطَّوف . لكنَّ النجاة تلك كانت احتضاراً في المحيط المغلق بسدود الموج وقِلاعه .

يُذكَر ، على ضبْطٍ من تأريخ المشاعر وليس تأريخ الوقائع ، أن اللوحة هذه ـ عدا براعة الاقتدار فيها على الإثارة الصادمة ـ تقوم على أمثولتين : الأولى هي الخذلان الذي أغدقه الضباط على البحَّارة بهروبهم المُذلِّ ، ناجيْنَ بأنفسهم ـ هم المؤتمنون على أخلاق سفينتهم . والثانية هي اليأس : الناجون الخمسة عشر ، فوق الرَّمَث الأخشاب ، ليسوا بناجيْنَ حقًا . هم منهارون . منهَكون عطشاً ، وجوعاً أفضى إلى التهام بعضهم لحومَ بعض .

قد يكون من كَرَم المعاني اليائسة ، والمعاني المخذولة ، أن أحد المنكوبين من أهل الطَّوْف قائم بجسده القاتم بين بُنيٍّ وحمرة ، وقد ظهر

رسمه على عنقي، فيما وصلت يده الملوِّحة برداءٍ لفراغ الأفق إلى صفحة وجهي اليمنى، واضحةً، جلية، لا أستطيع إخفاءها.

- غَلَبةٌ من الوانٍ صُفر شاحبة، وحمرٍ مختلطة بالبني، وأسود، في لوحة «رَمَث الميدوزا»، كغلبتها في البساطين الفارسي والتركي. لون البحر نفسه لا ينجو من هذا كثيراً: إنه بياضٌ مُزبد على خضرة باهتة. ماء البحر يشبه معنى الماء لا صورةَ الماء.

ثمت إضاءات أيضاً على بعض الجوارح في الأجساد المُنهَكة المنهارة، من نورٍ مَّا خجول بين الغيوم، أو متردِّدٍ في القبول أن يكون نوراً. لكن لا شيء منه على الرداء يلوح به أحد المنكوبين، من فوق طَوف الميدوزا، ومن فوق جِلدي أيضاً.

لابأس أن يُرى وجهي على ذلك النحو وأنا أتسوَّق. مضيتُ إلى متاجر الضاحية في سوقها المسقوف زجاجاً. طقسٌ غائم. نسائم باردة.

للمُجمَّع المستطيل - بناءِ السوق مدخلان، غربيٌّ رئيس، وشمالي يقلُّ العبور منه إلى العَرْصة الواسعة تتقابل من حولها متاجر المأكولات والأطعمة، والحوانيت الصغار. قررت يوميَ ذاك الالتفافَ على المبنى لأدخله من بوابته الشمال، التي يتولى حفظَ الداخلين والخارجين منه هيكلان ملفوفان بغطائين سميكين اتقاءً من البرد، ولا يبرح لساناهما مردِّدَيْنِ: «هاي . هاي» مرتين في كل نطقٍ.

هما ليسا أسدين من أسود بواباتٍ المدن الممالك، أو ثيرانها المجنَّحة، أو تيوسها الضخام النحتِ الذهبية، بل رجل وامرأة شحاذان استأجرا الموضعين، على جانبيِّ البوابة، بعَقْد القوة لا يُلزِمُ الشحاذ بدفعٍ لأحد. حقُّ الشحاذ مكفول من أمراء المجتمع المدني، وأميراته

المباركاتِ خيارَ المهنة . الشحاذون ، هنا ، لا يُطردون ؛ لا يُنتهَرون ؛ لا يبلل أصحاب الحوانيت والعمارات الأرضَ التي يفترشها الشحاذ بماءٍ : ذلك تَعَدٍّ على حُرمة مهنته الحرة .

«هاي . هاي» ، طرح الشحاذان حروفَ صوتيهما المبالَغ في رقّتهما عليَّ ، فبادلتُهما همساً من حروف الترحيب بسعادتهما المكفولة ، قبل أن نلتفت معاً إلى الهرير قادماً من زاوية يحجبها الجدار الجانبي للبوابة الزجاج . هريرٌ موحش ، عميق ، زاده وحشةً بروز رأس كلب مربوط بمقوده إلى قوسٍ حديدية هي مربط الدراجات .

استنكرتِ المرأة الشحاذة : «هذا ليس كلباً» ، قالت بسويدية ركيكة . لم أوافقها بكلماتٍ ، بل بقلبي من مرأى رأس أقرب شبهاً إلى رأس سمكة سلمون ، ضخم ، لا يتناسب مع جسم الكلب الرمادي ، المتطاول من تمغيط جذعه ليبرز من وراء ضلع الجدار . تراجعتُ خطوةً أتأمله أكثر : شراسة متوثّبة تُلمح في عينيه . حقدٌ يلتمع بين شدقيه .

عدت إلى البوابة مواجهاً زجاجها فانفتحت دفّتاها بانزلاق جانبيٍّ منظوم ، كل دفة إلى جهة . إنها آليَّةٌ صناعتها بوابةً من بواباتٍ مغاور العصر الحديث . عبرتُ العتبة ، التي يقوم على جهتيها الواسعتين صيدلية ، ومحل للنظارات الطبية . استوقفني صوت من يمين البوابة : «سارات» .

كان الشاب الأسود سعدون متكئاً بكتفه إلى حائط محل النظارات ، محدّقاً إليَّ بعينيه اللتين يغلب على البياض من حول حدَقتيهما صفرةٌ قوية ، وعروق بُنية .

«سعدون؟» ، تمتمت ، فعاجلني بما لم أفهم :

- هذا الليبي لا يقنعني ، يا سارات .

تلفتُّ من حـولي لا أرى إلاَّ بعض المارَّة ليس بينهم من يشــبـه عربيًا . سألته :

- أيُّ ليبي؟

«هذا الذي يمزج اللغة العربية بالانكليزية» ، رد سعدون .

بدا لي ما يقـوله سـعـدون خلْطاً من هذيان خـفـيف ، أو نبْـراً من صوت الجنون الهادئ . كلٌّ مـجنونٌ على طريقته في سراديب العـصور ومَعابرها : مجنونٌ مملٌّ . مجنونٌ مثيرٌ . مجنونٌ حاقدٌ . مجنونٌ متسامحٍ . مـجنونٌ مبشِّر . مـجنونٌ مبتكرِ . مـجنونٌ كسَّارةُ صَخْرٍ . مجنونٌ درَّاجةٌ . مجنونٌ متحفٌ . مجنونٌ حريق . مجنونٌ حفَّارةُ أنفاقٍ . مجنونٌ معصرةٌ . مجنونٌ مجنون .

لم يكن تقـديري لنبـر صـوت سـعـدون في مـحله ، قطْعـاً . لكنَّ وجـودهُ هناك ، في المدخل الشـمـالي للسـوق مـتكئـاً على الجـدار كـأنه ينتظرني ، بَدَا نبراً من الجنون الهادئ على لسان الصباح المتأخر .

«أين الليبي؟» ، تساءلت ، فتقدم مني سعدون ليصير في مواجهة البـوابة الزجـاج . أشـار بيـده إلى الكـنيسـة المستطيلة البناء شـمـالاً بلا صليب عليـها ، بل على بابـها كوَّة بصليب ، على بعد مائتي مـتر ربما ، بينهـا وبين السـوق سـاحة واسـعة ، مـرصوفـة حـجارة رمـادية ، مربعـة ، صِغاراً ، تحطُّ عليها صيفاً خيامُ باعة الزهور ، والخضار والفاكهة ، وكذلك مناضد مستطيلة لعروض الثياب والأواني المستعملة .

رأيت الأربعـةَ أشــار إليــهم سـعــدون : الداعـيــة ، وعـدنانَ ، والشيشانيَّ ، وآخرَ جديداً معهم ، يمسك كلٌّ بمقود كلب واحد مستطيل الجسم ، ضخم الرأس مـثل الكلب الذي رأيتـه مـربوطاً على قُـرب من بوابة السوق .

«ما هذه الكلاب الغريبة؟» ، تساءلت ، فرد سعدون متجاهلاً سؤالي المحدَّد . قال :

- أترى الليبي؟ إنه لن يقنِعني بأفضليته عليَّ .

«أذلك الرابع ليبيٌّ؟» ، تساءلتُ ، فرد سعدون :

- من بريطانيا . يخلط العربية بالإنكليزية .

«لا أسمع صوته» ، عقَّبت ساخراً ، فرد سعدون :

- عفواً . ستسمعه . من أين جاء بتلك السترة الشبيهة بعباءة؟

عدت ببصري إلى سعدون . حدقت إليه مليًا :

- أهذا الكلب ، خارج المبنى ، هو لك؟

«نعم» ، رد سعدون . استدرك : «إنه من نصيبي اليوم لأرافقه ، لكنه ليس لي» .

«أيُّ فصيلٍ من الكلاب هؤلاء؟ لها رؤوس أسماك» ، تساءلتُ ، فردَّ مبتسماً :

- قد تكون كلاباً نهرية .

«لماذا لستَ مع رفاقك؟» ، سألته ، فردَّ بنبْرٍ متأفِّف :

- أفضِّل البقاء مختلياً . هذا الليبي متبجِّح .

«ما شأني في الأمر؟ ذاهب لأتسوَّق» ، قلت . استدرت مغادراً فاستوقفني سعدون :

- ألستَ سترسمه؟ .

«مَن؟» ، تساءلت ، فردَّ :

- الليبي . عبد الله الليبي .

«لماذا تظنني سأرسمه؟» ، تساءلت ، فرد سعدون :

- هو من جملة مَنْ سترسمهم .

«بي رغبــة في رسم كــلابكم» ، قلت . أردفتُ : «ألا تخــشى أن يسرقِ أحدٌ كلبك؟» .

«فليسرقْه من يشاء» ، رد سعدون . أضاف مبتسماً : «على السارق أن يكون نهريًا لا بحريًا» .

ابتعدت خطوتين وأنا مستديرٌ بعْدُ إليه :

- أستبقى مختبئاً هنا؟ .

«لستُ مختبئاً» ، رد سعدون . وسَّع بين أجفان عينيه في فضول وهو يشير بيده إلى وجهي :

- ما هذا الذي عليه؟

تحسَّستُ صفحةَ وجهي براحة يدي اليمنى . سألته :

- ماذا ترى؟

اقترب سعدون مني أكثر يستوضح ما يرى . تأملني ، فأبعدتُ طوقَ قميصي عن عنقي أكشف له بقية جسد البحَّار الملوِّح بالرداء .

«كيف رسمتَ هذا على جلدك؟» ، سألني ، فأجبته :

- لم أرسمه . إنه وحيُ الليل .

«وحيٌ؟!» ، تمتم بصوته الرنين متسائلاً .

«نعم» ، أجبته .

«ما شكل الوحي الذي يأتيك؟» ، سألني يجاريني ماظنَّه خفَّةً في كلامي . أردفَ : «أجلدُك نبيٌّ؟» .

«نبيٌّ حتى المساء ، لا أكثر» ، قلت .

«ماذا عن بقية الوقت؟» ، سألني ، فأجبت :

- يختـفي الرسمُ مسـاء . جلدي يبـقى بلا نبـوَّة حتى الصباح التالي .

قرَّب سعدون عينيه من وجهي أكثر :

- لِمن يلوِّح هذا؟

«إنه بحَّار» ، قلت معرِّفاً بالشخص النكرة في الرسم على وجهي .

«ماذا يفعل؟» ، تساءل ، فأجبت :

- يلوِّح .

«لمن يلوِّح بهذه الخرقة في يده؟» ، تساءل ، فأجبته :

- هذه الخرقة هي عَلَم سوريا .

«لا يشبه علم سوريا» ، قال متأكداً من معلوماته .

«لا عَلَمَ لسوريا الآن غير هذا العَلَم» ، عقَّبتُ .

«لمن يلوِّح بحَّارك ، يا سارات؟» ، سألني ، فأجبت :

- للخليفة البغدادي .

«حفظه الله» ، تمتم سعدون . سألني هامساً وهو يزيح ، بأنملتين من يده ، طوقَ قميصي ، في رفق ، يستجلي الشكل أكثر : «لماذا الرسم على وجهك؟» .

«أين تريده أن يكون؟ على عمامة خليفتكم؟» ، تساءلتُ ، فتمتم ثانيةً :

- حفظه الله .

تردَّدتُ برهةً أأنصرف ، أم ألقي آخر سؤال من بعض فضولي عليه؟ لم أقاوم :

- ماذا يفعل رفاقك قرب الكنيسة؟ أيخططون لخطفِ قسٍّ؟

«ينتظرونك للتعرف إلى الليبي» ، رد سعدون .

«ينتظرونني؟!» ، تساءلتُ . «سأخرج من البوابة الغربية . لن يروني» .

«ألا تراهم أين ينظرون؟» ، سألني ، فأجبت :

- إلى كلابهم .

«يعرفون أنك أيضاً تنظر إليها» ، قال سعدون . «اذهبْ إليهم . اسألْهم من أين أحضروها؟» .

«لافضول عندي» ، قلت ، فعقَّب سعدون :

- البحَّار ، على جلدك ، يلوِّح لهم . عنده فضول .

«بحَّاري يحتضَر . إنه يلوِّح لشبحه» ، قلت مبتعداً .

«إلى أين؟» ، ناداني سعدون ، فلم التفت إليه . رفعتُ صوتي :

- لأتسوَّق حوريات معلَّبة .

«سأرافقك» ، قال سعدون . فوجئتُ . سألته :

- إلى أين؟

«إلى حيث ستتسوَّق» ، ردَّ .

«لا أريد رفقةً» ، قلت وأنا أختلط ، في عَرْصة السوق ، بالمتسوِّقين .

«لماذا؟» ، سألني وقد صار إلى جواري ، فأجبت :

- أنا حرٌّ ، يا سعدون . لا أريد رفقةً .

«أأنت عنصريٌّ؟» ، سألني .

توقفتُ . باغتتني كلماته الفظَّة . تمتمت مستاءً :

- عنصري؟!! .

«الناس كلهم عنصريون» ، عقب الشاب الأسود .

«ما هذا التقدير الطائش؟» ، سألته؟ أضفتُ : «أمجتمع دولتكم الإسلامية عنصريٌّ أيضاً؟» .

تأملني سعدون جانبيًا . ألقى عليَّ تقديراً آخر من تصريف خياله :

- مَن يبالغ في حديثٍ ودودٍ معي يموِّه على عنصريةٍ فيه .

«سألتك عن مجتمع دولة خليفتك . لم تُجب» ، قلت ، فكرَّر تقديره :

- مَن يبالغ في التودُّد إليَّ هو عنصريٌّ .

توقفت قبالته :

- لقد حكمتَ أن الناس جميعاً عنصريون . ما الفرق إن بالغَ أحدٌ في التودُّد إليك ، أو تجاهلك ، أو كان فظًّا معك؟ لديك وساوس ، يا سعدون .

«الأرض مكان وساوس لأنها غير موجودة» ، قال سعدون .

«الأرض غير موجودة؟» ، تساءلت مبتسماً ، فرد :

- نعم .

«الأرض محطتك إلى الحوريات ، يا سعدون . من دونها لا قطارَ ، لا حافلة ، لا سيارة ، لا دراجة تركبها إلى الجنة» ، قلت .

رتَّب سعدون سطورَ لسانه :

- الأرض مهلةٌ زمنية لوضع قائمة بالأسئلة .

«أسئلة عمَّ؟» ، تساءلت ، فرد :

- عن مقدار إيمان الإنسان باللازمن .

تأمَّلته :

- أأنت داعية ، أم أخوكم إحسان؟

تأمَّلني بدوره . سألني سؤالاً ملتبساً :

- أتحاول الإيقاع بيني وبين أخينا إحسان؟

«وساوسك كثيرة» ، عقَّبتُ .

«ما وساوسك أنت ، يا سارات؟» ، سألني وهو يعدِّل وضع قبَّعته الأفغانية على رأسه .

«أنتم» ، أجبت .

«ألم تكن لأبيك وساوسُ كُنَّا فيها؟» ، سألني .

توَّقفتُ من جديد محدِّقاً إليه وسط روَّاد العَرْصة ماشيْنَ في كل اتجاه :

- مَن أنت؟ ما عمرك؟ تسع وعشرون سنة؟

«نعم . تسع وعشرون سنة» ، ردَّ .

«تتكلم كأنك التاريخ» ، قلت .

«ماذا أنا؟» ، تساءل سعدون .

هززت رأسي وأنا أدير عيني ، بلا تحديد ، على الناس حولنا :

- أنت الرسم الذي نفكر به جميعاً .

«أنتم جميعاً؟ مَن تعني؟» ، تساءل سعدون .

«نحن» ، أجبت غير متأكد من جوابي حقًا .

«مَنْ؟» ، تساءل من جديد ، فأجبتُ جواباً ملتفًا على الفراغ فيه :

- نحن الذين بلا ذاكرة . نحن التاريخ الضائع الذاكرة ، فإن وجد ذاكرته وجدها تلفيقاً من تواطُؤِه مع الرسوم .

«قُلْ هذا الكلام الملغز للداعية إحسان» ، قال سعدون . أردف : «معه شيء لك» .

«شيء لي؟» ، تساءلت .

أشار سعدون برأسه إلى البوابة الزجاج . تمتم :

- تعال .

«إلى أين؟» ، سألت ، فردَّ :

- إلى أخينا الداعية .

«ظننتك ستبقى مختبئاً هنا» ، عقَّبتُ ، فردَّ :

- سأعود إليهم من أجلك .

خرجنا من عَرْصة السوق . فك سعدون مقود الكلب المربوط ، جره ومشى .

مرات عدَّة نظرتُ جانبيًا إلى سعدون نظرةَ استخفاف ، في العودة إلى رفاقه بذريعة أنه يفعلها من أجلي . وإذ وصلنا ، بعد دقيقتين أو أكثر قليلاً ، إلى الجمع الصغير قرب جدار الكنيسة ، تهيَّأتُ ـ من فوري ـ لسؤال الداعية عن الشيء الذي معه لي ، لكن الشيشاني سبقني :

- ماذا على وجهك» ، يا سارات؟

«أثرُ الوحي» ، ردَّ سعدون ببعض التهكُّم الخافت .

«ماذا؟» ، تساءل الشيشاني ، فأجاب سعدون متبرِّعاً :

- ينزل الوحي على جلده بالرسوم .

هرَّت الكلاب الشبيهة الرؤوسِ الضخام برؤوس أسماك السلمون ، هريراً مُتَغيِّظاً . استرسل سعدون وهو يشد مقودَ الكلب المستثار :

- هذا عَلَم سوريا على جلد سارات .

اقترب الداعية يتفرَّس الرسمَ الرداءَ على صفحة وجهي اليمنى . غمغم :

- أأنت من تنظيمٍ هذا هو علمه ، يا سارات؟

«نعم» ، أجبت .

«ما تنظيمك؟» ، سألني جاداً ، فأجبت :

- حزبُ الطبقات المفقودة .

«أأنتم حزب شيوعي؟» ، تساءل مبتسماً ، فأجبت :

- لن أدَّعي ذلك . مهماتُ الأحزاب الشيوعية كبيرة في أيامنا هذه . إنها تكافح بقوة لصناعة حدوات الخيول .

«ماذا؟» ، تساءل الشيشاني وهو يحدق إلى الداعية مستفسِراً عن معنى ما أقول ، فأجبت :

- إنها تصنع حدوات لخيول عربة المهدي المنتَظَر .

«أذلك أمر جيد ، أم رديء؟» ،تساءل سعدون ، وهو يشد مقود الكلب منتهِراً .

نظرتُ إلى الداعية :

- كان سعدون يتحدَّث إليَّ ، في السوق ، بكلام ككلام الفقهاء ، يا إحسان . من أية أرض في أفريقيا هو؟

«لا تسمِّ الأرضَ بأسماء التلفيق» ، قال سعدون بنبرٍ مستاءٍ .

«ماذا؟» ، تساءلتُ مستغرباً ، فردَّ :

- أفريقيا . آسيا . أوروبا ، أو ما لستُ أدري ، أسماءُ تلفيق لتقسيم أرض الله على بشر حبلت بهم أمٌّ واحدة من أب واحد مسلميْنِ .

«هذه تسميةُ قارات ، يا سعدون» ، قلت ، فردَّ :

- لا قارَّات .

«ماذا إذاً؟» ، تساءلت ، فردَّ :

- أرض واحدة باسم واحد .

تنحنح عدنان سائح الكلاب ، المتكئ بكتفه إلى جدار الكنيسة ، وفي عينيه بعض الشرود :

- الحاج سعدون لا يعترف بتقسيمات الجغرافيا ، يا سارات .

نظر سعدون إلى الداعية بإمعان . سأله :

- هل من صحابيٍّ ، أو تابعيٍّ ، ذكر قارَّةً في سِيَر الصالحين؟

«التقسيم الجغرافي افتراضات ، وليست أحكاماً» ، قال الداعية ، مضيفاً : «لكن الأصل يبقى أصلاً : أفريقيا هي أوروبا . آسيا هي

أمريكا . أُستراليا هي ولاية الموصل» .

«تلطَّفْ بالكُرة الأرضية قليلاً ، يا إحسان : أستراليا هي الموصل؟» ، تساءلت مبتسماً ، فردَّ :

- ستصير أستراليا في عُهدة ولاية الموصل . السيادة ، أبداً ، للمكان الصالح على الأمكنة .

غمغمتُ مستسلماً للمنطق اليقين في صوت الداعية :

- أُستراليا تحت رعاية الموصل ، وفي عُهدتها .

تمادى الداعية تفصيلاً ليقينه :

- ستأتي أستراليا يوم القيامة إلى ميزان الحساب تجذبها ولاية الموصل بحبل في عنقها كهذه الكلاب التي معنا .

«أفهم أن يُبعث الناس يوم القيامة من قبورهم ، يا إحسان ، فهل الأمكنةُ في قبور أيضاً لتُبْعَثَ؟» ، تساءلت .

«يُبعث الإنسان ، تُبعث معه الأمكنة أيضاً» ، رد الداعية ، فسألته :

- أين موضع القيامة؟

ضرب الداعية براحة يده على صدره . هتفَ :

- هنا القيامة .

هرَّت الكلاب الملجومة كأنها إن أُفلتتْ عَقَرتْ بأنيابها ، أو عضت . اقتربتُ من عدنان :

- من أين هذه الكلاب؟ .

أدار عدنان وجهه إلى صاحبهم الجديد :

- هذا أخونا عبد الله الليبي .

«سألتُك عن الكلاب من أين هي؟» ، قلت ، فتدخل الشاب

الجديد ، المستدير الوجه بلحية رقيقة جداً كالخيط تحيط به ، على نَسَق حديث جداً في الحلاقة :

- سترسمني راقصاً ، يا سيد سارات .

«ماذا؟» ، تساءلت ، فردَّ بإنكليزية لا لَحْنَ فيها :

- أنا زجّالُ فرقة البيتلز .

تأملت عينيه السوداوين بأهدابهما الطويلة ، فاستدرك متسائلاً :

- أتعرف الانكليزية ، يا سيد سارات؟ .

لفظ الليبي كلمة «سيِّد» بالانكليزية ، فأجبته بالانكليزية :

- إلى حدٍّ معقول ، ياسيد عبد الله .

«اسمعْ هذا الزَّجَلَ مني ، ستردِّده أوروبا» ، قال ، فاستوقفه الداعية :

- ليس الآن ، يا عبد الله .

ثُلَّةٌ من جزَّاري الدولة ، الذين من مواليد أوروبا ، أنشأوا في الرقَّة فريقاً من الزَّجَّالين دعوه باسم «البيتلز» ، تيمُّناً بالفريق الموسيقي البريطاني ، الذي صرَّح أحدهم ذات يوم قائلاً» نحن أكثر شهرة من المسيح» ، فحرقت أوروبا اسطواناتهم . لكنهم عادوا أساطين في فنهم ، بعد خمود الغضب العابر ، بأغنيتهم «ليكُن» مديحاً للسيدة العذراء أم المسيح .

لا يتخذ أبناء الدولة الإسلامية لمناحي نشاطاتهم أسماءَ من رموز الغرب . خروج فرقة «البيتلز» الإسلامية بالإسم استعارته من الغرب الكافر كان استثناءً ، أو مراعاةً من مراعات الضرورة في الأحكام المخفَّفة للفقهاء . ما همَّ : جزَّارون ، أشدَّاءُ في الذبح ، طليقو الألسنة في لغات الغرب حيث وُلدوا ، استُثني لهم بعضُ الأثر ممَّا عاشوه في مجتمعات المهاجرين إلى الغرب .

عبد الله قدَّم نفسه لي كزجَّال ، باللفظة الانكليزية التي تخصُّ فنًا لا تعدِلُ سطوتَه سطوةُ الآن . «فن الرَّابْ» ارتجالٌ في النظم كالزَّجل العربي ، فقير ، لكنَّ له ذيوعَ الفقْر قويًا ، واسعاً ، بسهولته ، وسهولة استهلاكه - استهلاكِ الفنِّ فقيراً . وقد تمدَّد «الرَّاب» - بخفَّة التقليد الممكن لموسيقاه الحديثة النشأة في سبعينات القرن الماضي ، وسطحية تأليف رجزه المرتجل - إلى طرب المجتمعات كلها ، التي لم تستطع استثمار الموسيقى القويةِ ، وأشعارِ الموسيقى القويةِ من التراث الخالد لأقوياء الموسيقى والأغاني ، فظلَّت فنونها رهنَ تكرار على مزاعم الولاء لتراثها الركيك .

دِيْنُ فن «الراب» ، أغانيَ وموسيقى ، بلكَماتِ زجَّاليها على عيون الكلمات وأفواهها ، كان سهل الاعتناق ما دام بلا تشريع يُفتكَر فيه ، أو يُتدارس ، أو يُتَمحَّص . كل مجتمع أخذ من سهولَة «الراب» ، وارتجاله ، قِسْمةَ الغنيمة التي تخصُّه بجزءٍ منها . « الراب» هو أول غزوة وحَّدت أمم الأرض لتتشارك في إهانة الموسيقى ، وإهانة الأغاني . «فنٌّ» شراكةُ أمية في السطحيِّ ، على بعض الإختلاف في استخدام المفردات : شتائم عارية . ألفاظُ نكاح سوقيةٌ ، عارية . كراهيات عارية . تحريض عارٍ . غرام مباحٌ فيه تسميةً الحبيبة باسم الكلبة . أما زجَّالو دولة الخلافة فحصروا فن «الراب» ، الذي يعني القَرْع والنَّقْر ، في تمجيد غزواتهم ، ومدح الخليفة ، وتهديد الكافرين .

«ارْسمْني راقصاً» ، كرَّر الليبي عليَّ رغبتَه ، غير آبه باعتراض الداعية عليه بعينيه . أردفَ : «اسمعْ هذا الزَّجلَ منِّي : مائة بارحة هي مائة بارحة . اليوم هو اليوم» .

هززتُ رأسي لا استحساناً ولا استخفافاً . عقَّبت :

- مائة بارحة تصنع بارحةً واحدة .

تأملني الليبي . ظنَّ تعقيبي نقْداً . سألني :

- هل الأفضل أن اقول : مائة غد؟

«ستتسبب أعدادُ الغد المائة في إحداث زحام . والزحام لا يصنع مستقبلاً» ، قلت .

«لم يعجبك زَجَلي» ، قال الليبي .

«بِمَ تتكسَّب في هذه المملكة ، يا عبد الله؟» ، سألته ، فردَّ :

- كنتُ أتكسب في مملكة بريطانيا بأغاني الرَّاب . لم أعُد أحتاج إلى كَسْب .

هزَّ الداعية رأسه موافقاً :

- نعم . نتهيأ للكسْب عند الله .

«كنتَ تتكسب من ملكة بريطانيا ، إذاً ، يا عبد الله . أتعرف مصادر المداخيل التي توزع منها أوروبا معوناتها على لاجئين من أمثالنا؟» ، سألته ، فتدخَّل الشيشاني :

- إنها أموال الله .

«إنها ضرائب بيع الكحول . وضرائب مزارع بيع الخنازير . وضرائب أموال مستثمَرة في الملاهي . وضرائب بيع الأسلحة التي تَقتلون بها وتُقْتلون» ، قلت .

«تكون حلالاً ، بإذن الله ، إذ نصرفها على حلالٍ» ، قال الداعية .

«لماذا تكرهون من ألجأوكم؟» ، تساءلتُ .

قاطع الليبي مسارَ المحاورة . اقترب مني كأنه يهامسني :

- لا يهم حجمي في الرسم ، أو موضعي . لكنْ ارسمني راقصاً ، يا سارات .

«ما هذا التنازل؟ أعلَّمتْكَ ولادتك في أوروبا أن تتنازل؟» ، سألَه سعدون منفعلاً على نحو لا يستوجبه الموقفُ .

«أين تنازلتُ؟ عمَّ تنازلتُ؟» ، ردَّ الليبي مستغرباً محتدّاً . «ولدتُ في أوروبا . حملت الجهادَ ضد أوروبا تحت جلدي .ولدتم أنتم في أمكنة ليست أوروبا . قاومتُ كثيراً لأكون مَنْ أنا . لم تقاوموا أنتم . نشأتُم على ما أنتم عليه . جهادي مضاعَفٌ» .

«أخونا الليبي يدوِّخنا . كلُّ حديثه نظْمٌ على طريقة الرَّاب» ، قال الشيشاني بصوته المعتدل النَّبر .

قرَّب الشاب الأسود نفسه مني يهامسني ، غير محترس أن يسمعه الليبي . قال :

- أخونا عبد الله متبجِّح .

«ماذا قلتَ ، يا حاج سعدون؟» ، سأله الليبي ، فردَّ سعدون :

- أنت دائخ في مسائل الحقوق التي قتلتْك .

احتدم الليبي :

- كنتُ أسخر ، ولم يفهمني المبتدئون في الجهاد . كنتُ أقلِّد أوروبا هازئاً من مساخرها في صناعة الحقوق .

تداخلَ الجدال الخافت بين الليبي وسعدون عن سبب قتله . صورةٌ قُصاصاتٌ من كلماتهما كانت ممكنةَ الإلصاق لفهم الموقف : عبد الله ، البالغ الثالثة والعشرين ، ولد في ضاحية من لندن ، لأبٍ مهاجر من مدينة ترهونة الليبية ، التي تحفظ ذاكرتُها - بَعْدُ - مجاري الرياح على طرق القوافل منها وإليها ؛ وفي قلبها - بعدُ - ضجيج مَعَاصِر الزيت ؛ وعلى سفح تاريخها المائل بعدُ ، كمدن أفريقيا كلها ، آثارٌ رومانية لم تنسحب إلى روما إذِ انسحبت روما من أفريقيا . لربما لم يكن

على أهل الليبي أن يهاجروا لو بقيت قوانينُ روما في مدينتهم ترهونة . لربما لم يكن على عبد الله أن يلد في لندن لو أقامت قوانينُ روما في أفريقيا ، وغادرتْ آثارُ روما ، وحدها ، إلى روما .

فقدَ عبد الله الليبي رجله اليمنى من أصلها في انتحارٍ بتفجيرٍ فشل في نسْف جسده هو ، بل نسف جسدَ جاريته الأيزيدية التي اشتراها من سوق جنوب الحسكة . قيل إن نجاته برجْلٍ واحدة هي مِنَّة من الملائكة أجَّلتْ شهادتَه ، لأن التأجيل جعل منه شهيداً مرتين : شهيداً حيًا مرة بمعجزة من الله ، وشهيداً يوم تحين شهادته على الجبهات ثانيةً . لكنَّ مصادفات غادرة تنكَّرت لعبد الله الليبي ، فانتهى قتيلاً لا تُحسب له شهادة سابقة أو لاحقة : لقد أُعدم في ثياب برتقالية بطلقة في الرأس .

ثرثراتُه المتناكحة بألفاظ عربية وأخرى إنكليزية أخرجتْ لسانه ، بضع مرات ، عن مسلك اللسان المتعفِّف ، الصارم في إبعاد الفكاهةِ عن مجرى الجِدِّ الطاهر من أحاديث مجتمع الدولة الإسلامية : كان يتباسط مع صديق له في توليد العبارات عن مصوغاتٍ من أحكام الغرب في مجال الحقوق . سأل صديقَه : «ما العنوان الأفضل نختاره لقوانين الحريات عندنا؟» .

«لم أفهم» ، قال صاحبه ، فرد الليبي :

- أفكر في إنشاء جمعية تخص الحوريات . فما الإسم الأنسب للاختيار؟ .

عرض الليبي لصاحبه عنوانين كي يعينه على اختيار أفضلهما : «جمعية الرفق بالحوريات» ، أمْ «جمعية حقوق الحوريات؟» .

صديقه ، الذي تعود منه بعض الهَزل ، استدرجه ، عن عَمْد ـ كما

قال الليبي - إلى المزيد من تصريحاته . سأله «ما حقوق الحوريات؟» ، فرد الليبي :

- حق الإستراحة بين نكاح ونكاح . حق اختيار الذَّكر الذي يناسب الحورية .

شدَّد الليبي أن الأمر كان مزاحاً . «أيُّ غبيٍّ يعرف أن أقوالاً كهذه كانت سخرية من تصنيفات الغرب للحريات . تفاهات مثل هذه قلتها . ربما لم يعجبه أنني أضفت حقًا آخر إلى قائمة حقوق حورياتنا : أن لا يرجعن عذراوات بعد افتضاضهن» . زفر : «كان يسجِّل حديثي بهاتفه المحمول من غير أن أعرف» .

تسلَّم سعدون موقفَ قلب الليبي المحبط . سأله بنبرةِ اتهام فيها حطٌّ من قيمة وجوده بينهم :

- لماذا أنتَ معنا؟

تدخل الداعية يلجم فتنةً بينهما :

- لله حقُّ الحُكم على أخينا عبد الله .

هرَّت الكلاب متململةً . تسلَّمتُ البرهةَ الخافتةَ النبض :

- أخبرني سعدون أنك تخبئ شيئاً لي ، يا إحسان .

«نعم . كدتُ أنسى» ، قال الداعية . دسَّ يده في باطن سترته السوداء . أخرج لفافةَ قماش . بسَطَها مرفوعةً تخفق في الهواء الخافت .

فوجئتُ . تكلمتُ همساً :

- هذا عَلَم دولتكم .

«أرأيتَ مثله؟» ، سألني الداعية ، فأجبت :

- مَنْ لم يرَ عَلَمَ الرعب؟

«ألمستَ مثله؟» ، سألني ، فأجبت :

- لا .

«المْسْهُ» ، طلب مني وهو يمدُّ العَلم مبسوطاً بيديه الإثنتين إليَّ .

لمستُ العَلم . دعكتُ قماشه بأناملي كأنني أختبر نسيجه .

«ما إحساسك؟» ، سألني ، فأجبت :

- لا تسألْني إحساسيَ ، بل اسألْ ماذا سمعتُ .

«ماذا سمعتَ؟» ، تساءل بصوتٍ تصنَّعه أعمقَ من عادته ، فأجبته :

- سمعتُ نحيبَ القماش ، ونشيجَ اللون الأسود .

دقَّ الليبي بقدمه اليمنى على الأرض : «أتسمع صليل المعدن ، يا سارات؟» ، قال بتلميح إلى رجله الصناعية . «سيدخل معي هذا الصليل إلى الجنة» . نظر إلى سعدون نظرةَ إغاظةٍ : «ستدخل الخمس اللواتي اجتذبتهن معي ، من لندن ، إلى الجنة جواريَ لي» .

«مَنِ اجتذبْتَ؟» ، تساءلتُ فردَّ :

- خمس فتيات لحقن بي ، من لندن ، عبر تركيا ، إلى دولتنا . واحدة من مَتْجرٍ لبيع اللحوم .

«أكانت متخصِّصة في الذبح ، فاخترْتَها؟» ، تساءلتُ مبتسما ، فرد :

- لم أدخل المتجر مرةً إلاَّ تخيلتُ رؤوساً آدمية مغلفة ببلاستك شفاف ، معروضة على صحونٍ .

«عرضتُم الكثير من الرؤوس في متاجرِ لحوم دولتكم» ، عقبتُ .

«لم نعرض الرؤوس في متاجر اللحوم» ، قال الليبي . ابتسم مضيفاً : «عرضناها في متاجر الصور على الإنترنت» .

«أأنت قاسٍ بطبعك ، يا عبد الله؟» ، سألته ، فهز رأسه نفياً :

- قتلتُ ابنَي أيزيديٍّ وامرأتَه أمام عينيه . منحته سبع دقائق استراحةً . كنتُ رحيماً ، يا سارات .

«ماذا فعلتَ بعد السبع الدقائق؟» ، سألته ، فرد :

- طلقتان في الرأس . موتٌ رحيم .

«لا أظنه تألم في السبع الدقائق قبل مقتله . لقد استنفد الأيزيديُّ الألمَ» ، عقَّبتُ .

أدار عبد الله وجهه على أصحابه :

- لسارات لسانٌ دسَّاس .

«ما الدَّسيسةُ في كلماتي ، يا عبد الله؟» ، سألته .

بدَّل الليبي اتجاه الحديث . تباهى بمَلَكاته وهو ينظر إلى سعدون :

- أنا أول من اقترح الإعدام بالنَّشَّاب . واقترحتُ صناعة آلة مايكروويف تتسع لجسم إنسان .

«خيالك قوي» ، عقبتُ وسط هَأْهأةِ أصحابه ، فاسترسل الليبي :

- إقترحتُ الإعدام بالمنشار الكهربائي ، وتصوير ذلك لبثٍّ الهلع .

«رِفْقاً بالذبَّاح ، يا عبد الله . ستتسخ ثيابه من نثار اللحم والدم» ، قلت ساخراً ، فاسترسل :

- أتعرف ، يا سارات ، أن مطاعم في آسيا تقدم لزبائنها القرود برؤوس منزوعة الأقحاف عن أدمغتها؟ الزبائن يأكلون أدمغة القرود وهي حيَّة بعدُ .

«رأيتُ في وثائقيات المطاعم شيئاً من ذلك» ، قلت . أضفتُ : «هل اقترحتَ أكلَ أدمغة المحكومين بالإعدام وهم أحياء؟» .

«لا» ، ردَّ متقزِّزاً . «نصوِّرهم برؤوس منزوعة الأقحاف عن الأدمغة ، ونتركهم يمشون» .

«لن تكون طريقة للترهيب ، يا عبد الله ، ما دام لها مثيل في مطاعم آسيوية» ، عقَّبتُ .

«الأوربيون يأكلون في تلك المطاعم . سنرهبهم على طريقةِ ما يأكلون» ، قال الليبي .

«أنت بريطاني المولد . لحمُك من غذاءٍ وفَّره لك العيش في بريطانيا . لماذا تكرهها؟ هي آوتْ أباكَ» ، قلت .

«آوتْ أبي؟» ، تمتم مستاءً . «آوتْ بريطانيا مهاجريْنَ ، ثم ماذا؟ . ترعرعتُ ، وكبرتُ وأنا أرى ، كل يوم ، ما يُنكره الله . بريطانيا مَدِيْنةٌ لي على ما سبَّبته من إهانة لإيماني» .

«هذه طرائق حياة أهل بريطانيا ، يا عبد الله» ، قلت ، فردَّ :

- وهذه طريقتي لتصحيح أخطاء حياتهم .

التفتُّ إلى الداعية متسائلاً :

- من كلَّف عبد الله بهذا؟

رد الليبي مستبقاً ما قد يقوله الداعية :

- أنا مكلَّفُ بتصحيح المُنْكَر بعقلي ، وبلساني ، وبيدي» ، قال . رفع يده أمام عينيَّ : «أُفضِّل تصحيح المُنكَر بيدي» . زفرَ متهكماً : «حُماة حقوق الكلاب ، واللوطيين ، والشيطان» .

- أضفتُ :

- والإنسان .

«حقوق الإنسان مكفولة بجهاده» ، قال الليبي . دقَّ بيده على رأسه القصير الشعر جَعْداً : «حقوق إيمانه ، هنا» .

تجوَّلتُ بنظرة على وجوه رفاقه الهادئين إلاَّ حين يشدُّون مقاود الكلاب المتململة . أعدت بصري إلى وجه الليبي الأسمر ، الأفطس الأنف قليلاً :

- لا تتسع لكَ ألوانٌ إن رسمتُك ، يا عبد الله .

«أهي ضيقة كالسراويل الداخلية لفتيات أوروبا؟» ، تساءل مبتسماً فابتسم رفاقه إلاَّ سعدون الأسود . أردفَ : «ارسمْني راقصاً . سأكون أول مؤلِّفِيْ أغاني الرَّابْ في الجنة» .

«مُغَنُّو الرَّاب ، في الولايات الأمريكية ، خريجون من معاهد العصابات ، يا عبد الله . عصابات شوارع تتناحر بطرق أقل تهذيباً من حروب المافيا . أستأخذ معك حروبَ أهل الرَّابْ إلى الجنَّة؟» ، سألته .

قرَّب الليبي وجهه مني . تكلم من شفتيه الثخينتين :

- أعرفتَ حرباً ، يا سارات؟ .

«نعم» ، أجبته .

«أين؟» ، سألني ، فأجبته :

- في لوحاتي .

«أتمزح؟» ، تساءل مبتسماً . دار ببصره كالمستهزئ على وجوه رفاقه : «حروب سارات غير واقعية» .

«بل هي الواقعية» ، قلت مماحكاً . «أرسمُ الموتَ كما هو» .

«ما الموت كما هو؟» ، تساءل الداعية . «لك عبارات أهل الباطن الشيعة حين لا يكون عندهم ما يقولونه» .

«بل عندي كل شيء» ، قلت مماحِكاً .

«هذا الكلام لا يقوله حتى المحظوظون من المتصوفين» ، قال سعدون .

«أنا كالمحظوظين من متصوِّفيك ، يا سعدون» ، عقَّبتُ .

سألني الداعية :

- ما هذا الكلُّ شيء الذي عندك؟ عَدِّدْهُ .

«طعام جيد . شراب جيد . مَسْكن جيد . تدخين جيد . قَلَق جيد . يأس جيد» ، أجبته .

صفَّر عدنان :

- هذا الكلُّ شيء الذي عندك ، يا سارات ، لم يجاوز ستة أشياء . ينقصك الكثير .

تدخَّل الداعية مضيفاً :

- ينقص سارات الكثيرُ الكثير ليصير عنده القليل القليل من الكلِّ شيء .

هرَّتِ الكلاب . انقلب الهريرُ زمجرةً إذ برز رجل طويل من وراء الكنيسة ، في معطف أسود حتى ركبتيه ، وبنطال واسع جداً ، مغطى العنق بوشاح بني يخفي فمه ، كأنما يموِّه الجزء الأسفل من وجهه ، وعلى رأسه قبعة صوف سوداء ضيقة .

تأهب الخمسة الرفاق في وقفتهم احتراماً للقادم . صمتوا صمت التابع المطيع .

«أأنتم جاهزون؟» ، بادرهم الرجلُ ، متوقفاً على بعد خطوات ، بصوته المحتبس في الوشاح اتَّخذه لثاماً .

غمغم الخمسة بنبرٍ من الصوت تأكيداً أنهم جاهزون ، متأهبون .

حدق الرجل إليَّ بعينيه الجاحظتين ، المتفحِّصتين . سألهم :

- أهذا من سيرسمكم؟

«إنه سارات ، يا سيدي» ، ردَّ الداعية وهو يلفُّ العَلم على ذراعه اليسرى .

همهم الغريب الجديد من فمه المغطى بالوشاح كلثامٍ ، متمهِّلاً في كلماته :

- السيد سارات يلتقي جواريَ من سبايا سنجار .

«ماذا؟!!» ، غمغم الخمسة معاً مبغوتين . تحرَّك الشيشاني صوبي :

- أسترسمهن ، يا سارات؟

مال عليَّ الليبي ، الذي يقاربني طولاً ، أو يزيدني بأنملة ، هامساً :

- لا ترسمهْن .

«لا وقت» ، قال الغريب الجديد . استدار منصرفاً وهو يغمغم : «أطلقوا سراح الكلاب» .

أفلت الخمسة من أيديهم مقاود الكلاب الغريبة ، الكبيرة الرؤوس ، ومشوا في خضوع خلف الرجل الطويل .

هرولت أربعة من الكلاب كلٌّ في اتجاه من نواحي الساحة بين الكنيسة والسوق المسقوف . بقي الخامس محدِّقاً إليَّ في هريرٍ أربكني ، وأرابني .

أقفلتُ عائداً إلى بوابة السوق الشمالية ، غيرَ محيدٍ ببصري عن الكلب يتبعني متربِّصاً . أسرعتُ خطواتي فأسرعَ هرولتهُ . كدتُ أصدُم البابَ الزجاج من عجلتي قبلَ أن ينفتحَ بانزلاق دفَّتيهِ المعتاد ، يتبعُني صوتُ الشحَّاذيْنِ ترحيباً ذليلَ النَّبر .

استدرت آنَ صرتُ داخل السوق لأرى ماذا سيصنع الكلب . كان يهرُّ أكثر متململاً وقد انتصب الشحاذان واقفين إزاءه ، يلوحان له بصحنين من ورق في أيديهما ينتهرانه . اندسستُ بين ثِللِ المتسوِّقيْنَ

مثلي ، موزَّعيْنَ على عرْصة السوق الرمادية من انعكاس السماء الرمادية غائمةً على السقف الزجاج .

تسوَّقتُ حاجاتٍ لا تزيد عمَّا أتسوَّقه كل يوم - كيسيْنِ ، يحوي أحدهما مأكولات طازجة ، والآخر جعةً في علبٍ صفيح . ألقيتُ ثرثرة موجزة على عاملة المتجر ، الشابة البدينة ، وألقت عليَّ - وسط انشغالها بترتيب صناديق السكاكر الصغيرة - ثرثرةً . خرجتُ من بوابة السوق الغربية إلى الساحة الإسمنت مقسمةً بخطوط بِيْضٍ لوقوف السيارات . كان الكلب هناك برأسِه رأسِ سمكة السلمون . تجاهلته ، لكنه لم يتجاهلني . تتبَّعني بهريره .

تحيَّرت في أمر الكلب حين جاوزتُ الأرض العمرانَ إلى مطلع أجَمَة الغابة . أأنتهره لأصرفه عن ملاحقتي ، أم أتَّصل بأحدٍ؟ بمن اتصل؟ أبالنجدةِ الطوارئ معلناً عن كلب تائه له رأس سمكة سلمون؟ لا هاتف معي .

كان الكلب لا يقترب كثيراً . يستدير من حولي أنصافَ حلقات واسعة ، ثم ضيقة ، بلا توقف عن هريره الموحش ، المهدِّد . كنت في شكٍّ أن يهاجمني ، لكنني لم أستبعد ذلك أيضاً ، وأنا ألحظُ - خطوة خطوة - أن جسمه يتمغَّط ، وتغدو المسافة بين صدره وعَجُزِهِ واسعة غريبة في لا تناسُبها .

أصوات الشحارير لم تكن أنيسة كعادتها آناءَ النهار أستأنسها ، لكنني أستكره عربدتَها في باكورة الفجر . لم تكن الغابة أنيسة كعادتها أستأنسها ، فيما يطوِّقني كلب بحلقاتٍ من هرولته تتسع وتضيق ، وهريرٍ أكاد أسمع فيه نبْراً من صوت الإنسانِ اللاهث .

لأول مرةٍ في عودتي من السوق لم أشعل لفافة تبغ . كنت

أستطيع الإمساك بالكيسين في يد واحدة لو دخَّنتُ، لكنني لم أفعل. ظلت رئتاي مخذولتين من تجاهلي نداءهما على مضض. كان همي الوصول إلى البيت أولاً، لأعرف كيف أتصرَّف إن ظلَّ الكلب حائماً على قرب مني هكذا، أو من حول البيت. سأتصل بأحد، أو أتجرَّأ، بعيداً عن العيون، على رميه بشيءٍ مَّا حتى لو كان علبة دهان، أو زجاجة فارغة من زجاجات الجعة.

المرأة الكئيبة النظرة، الكئيبة الوجه، كانت وحدها من التقيتُ في مسلك الغابة، ماشيةً مشيَها المنتظم بالعَصويْنِ الشبيهين بعِصيِّ التزلج على الثلج. استوقفتُها فاستدارت إليَّ مبطئةً مشيتها من غير أن تتوقف، كأنما تتفادى أن تخسر برهةً من وقت رياضتها.

رفعت يدي اليسرى بكيس الأطعمة فيها صوب الكلب يعبر جذوع الشجر، في محاذاتنا: «أرأيتِ كلباً كهذا؟»، سألتها، فردت بصوت تستنزفه الكآبةُ:

- رأيتُ كلاباً كُثراً.

لَفَتني أنها لم تنظر صوبَ الكلب وهي تردُّ، فسألتُها ثانيةً، مستمراً في الإشارة إلى الموضع الذي يهرول فيه:

- أعْني مثل هذا الكلب.

«رأيتُ كلاباً كُثراً»، ردتْ مبتعدة، من غير نظر إلى حيث أشرت.

لم تقل إنها رأت كلباً مثل ذاك، بل رأت كلاباً كثراً. لم يكن جواباً إذاً.

الكلب الذي لاحقني، حائماً من حولي، ليس ممن رأتهم تلك المرأة الكئيبة. كان شبيهاً بنوعٍ مُختَرَعٍ في الرسوم اسمه «فِيْرَالْ» الخارج

من جحيم الرؤيا الكابوس . لن أبالغ في تصويره مِسْخاً من مسوخ
الرسم عند هيرونيموس بوش في لوحته «حديقة الملذات الأرضية»
لكنْ ارتباكي منه ، وريبتي فيه ، صوَّرا لبصري أن أقدامه ليست أقدام
كلب ، بل لها أصابع آدمية بأظفار طوال . رأسه لم يكن يشبه ،
باستطالته ، رأسَ سمكة سلمون تحديداً ، لكنَّ تفاصيلَ صغاراً قد
تتطابق بينهما : حَنَكا الكلب كانا كغَلصَمَيْ سمكة . بل أزعم ، من
ارتباكي وريبتي ، أنَّ هريره كان كلماتٍ من مُفْتَتَح لغات الكهوف
الأولى ـ كهوفِ الهمهمات للقبائل جالسةً حول النار .

لون الكلب ، الذي لحظتُه أول مرة قرب السوق رمادِيًا ، بات
يتدرج ، في عبوره الشجرَ ، بين سواد ، وصفرة ، وخُضرة كخضرة الأشـ
على الصخور . أمَّا جسمه فتطاول متمغِّطاً أكثر فأكثر ، كأنما سينسلخ
جلده عن ثعبان فيه .

لم يكن كلباً مِنْ نَبْش الأساطير عن مخلوقات رعبها في خيال
الإغريق ، بل مِنْ شقٍّ الأساطير ثيابَها عن شرق الرعب غدا كا
يتبعني . توقفتُ أحياناً . أبطأتُ ، وأسرعت أحياناً . المسافة القصـ
على عدد الدقائق من ربع الساعة ربما ، تزيد أو تنقص قليلاً ، با
متاهةَ خيالٍ في صحراء الصور التي تناوشني بمخالبها كهِرَرة مذ
محصورة . حتى السماء فوقي ، المتشققة من نهش الغصون العالية
الشجر العالي ، كانت تلهث من رئتيها الغيومِ ، وتنتفخ وتنقبض
صدر .

تملَّكني ، بضعَ مرَّات ، نازِعُ حَسْم الموقف : أغصان مكسورة كثـ
مُلْقاة هنا وهناك ، وبعض الصخور الصغار أيضاً . أسلحةٌ من هـ
الطبيعة تحصلُّها إنسان الأصل الأول مدافعةً عن جسده ، أو حر

على صَونِ مُلْكه . لم أكن لأهتمَّ حقًا إن رآني أحد أعنِّفُ الكلبَ بحجر أو غصنٍ صلب . لكنَّ حذري أوجب عليَّ احتراساً من إثارة الكلب : إنه على الحافة . قد يسقط في الجنون ويجرُّني معه .

انكشف العراء لي في خروجي من الغابة ، يسبقني الكلب عن مَبْعدة . لم يحِدْ ببصره عني . لم يوقف رشْقَ قلبي بهريره ذي المخالب . انعطف قليلاً صوب سور القصب على ضفة البحيرة . مشى هرولةً بمحاذاته ملامساً أحفة الأوراق العريضة . بلغ الجزء المفتوح من الضفة كبوابة واسعة في سور القصب تصلها بحديقة بيتي أرضٌ صخر ، ملساء . أشاح بوجهه عني ، أول مرة ، متطلعاً إلى المياه . زمجر زمجرةً لا تتقنها حنجرةُ كلب عادةً .

أسرعت أكثر وقد صرتُ على مدخل الحديقة أو أكاد . نقلتُ الكيس الذي في يمناي إلى يسراي ، وتلمستُ مفتاح البيت في جيب بنطالي ، قبل أن أتوقف مشدوهاً : كان الكلب منطلقاً صوبي في ركضٍ سريع بجسمه المتطاول ، الممغوط ، مفتوح الشدقين عن أسنانٍ منشارية ، ونابيْنِ كأنهما نبتا تواً طويلين ، معقوفين كَنابَيْ خنزير بريٍّ .

أسقطتُ الكيسين أرضاً . تدحرجت علبة جعة من أحدهما . تلقَّفتُها متهيئاً للدفاع بها عني دفاعاً تلقائيًا في البرهة المرتبكة ، المنتفخة خوفاً .

بلغَ الكلب مطلعَ الحديقة بقفزات لا أعرف أهي في الهواء أمْ زحفٌ منزلقٌ كزحف الأفعى . رفعتُ يدي بالعلبة الصفيح عالياً ، في تهديد لن يأبه له المخلوق المندفع بتلك الضراوة المكتملة عَزْماً على إنجاز دوافعه من ملاحقتي حتى البيت . لقد كنتُ على الحافة . كان المكان برمَّته على الحافة . تعطَّل المكانُ ، وتعطَّلتُ .

على بُعد ذراع مني ، لا أكثر ، انعطف الكلب المندفع انعطافة ملتوية بجذعه المتقوِّس . اتجه إلى البيت جامحاً في ركضه . ذهلتُ : أسيصدم الحائط فينتحر؟ لا . رمى بنفسه كالقذيفة إلى نافذة مشغلي . اخترق الزجاج المزدوج ، المقاوم للريح ، والرَّطْمِ والصدمات . هشمه في صخبٍ كسقوط سقف .

غاب الكلب عن بصري في جوف البيت ، لكنْ لم يغبْ عن سمعي عويل الرفوف متساقطةً ، وصراخ المعادن متصادمةً متدحرجة . هياج لا مثيل لصخبه ألقى عليَّ شظايا من جمر الرهبة : صلصةٌ ، طقطقة ، رنينٌ ، انْصِفاقٌ ، تقارُعٌ ، تهشُّمٌ ، تكسُّرٌ ، وتلاطمٌ .

جمدتُ في موضعي ملجومَ الحيلة ، أأهرب ، أم أنتظر؟ كنت معطَّلاً ، متبلبلاً .

خمد الصخبُ بغتةً . هدوءٌ خامل أعقب الصخبَ الطاحن . كل هدوء بعد صخب عنيف هو سخرية الصخب من الوقت . لا صخب عنيفاً ينسحب إلى سكونٍ بعد انتهائه ؛ يبقى صخباً عنيفاً أخر التهشيم والتحطيم . صمتُه وسكونه صاخبان ، ينجزان ما لن ينجو من التقويض .

لا صخبَ عنيفاً يُريح الذاكرةَ بانتهاء حدوثه . كنتُ معطلاً كالبرهة تعطلت في سكونٍ خمشني بصمته . لكنَّ برهة السكون تلك لم تتمغَّط كجسم الكلب تمغَّط كمطاط . انحسرت البرهة متشظيةً حين قفز الكلب من نافذة مشغلي ليستقر بجسمه على عشب الحديقة المتراجع عن نموِّه في الخريف . كان أشبه الكيان بكلب وأفعى معاً ، وله ذيلٌ زعنفةٌ كالسمكة .

قفز الكلب نطنطةً كما الجنادب ، وليس زحفاً أو ركضاً . اتجه إلى

البحيرة مندفعاً جامحاً . ألقى بنفسه في المياه . غاص فيها ، وانغلقت الدوائر عليه من موضعي الذي أرى منه الدوائرَ على سطح المياه .

ارتخت يدي عن علبة الجعة . سقطتْ فانْفَخَتَ صفيحُها على ممر الحديقة المرصوف حجراً . غَلَت الرغوةُ وساحتْ . تنفَّستُ . عادت برهة السكون إلى القبض على صخبها الصامت ، الذي لا يريح ذاكرةً بعد انتهائه .

ذاكرةُ مَشْغل الرسم في منزلي لن تنسى : لقد ثُلِمَتْ .

لم يكن خيالي في موقف يؤهله للتصورات أبعدَ من أن أرى أنقاضاً في أركان البيت . لكنه خيالٌ ككل خيال ، جدير بسمعته في عقد قرانِ المتناقضات . فهو لم ينسَ ، مثلاً ، في بلبلتي وارتباكي القويين ، أن يذكِّرني بالمحاورة جرت مساء البارحة بيني وبين صديقي الأرمني خاتشيك .

بادرني ، فورَ أن رفعتُ سماعة الهاتف إلى أذني ، سائلاً :

– لماذا لا تقتني هاتفاً محمولاً ، يا سارات؟

حقدتُ على نفسي أنني لم أقتنِ هاتفاً محمولاً حين قفز الكلب إلى داخل مشغلي . رقم النجدة سهل . لكنني أعرف ، قطعاً ، أن للهاتف المحمول طباعاً لا توافق طباعي . لقد شرحت ذلك لصديقي الأرمني :

– لماذا الهاتف المحمول ، يا خاتشيك؟ حين تقتني هاتفاً محمولاً فذلك يعني أنك لا تؤجل الأحاديث الجيدة ، والباهتة ، والتافهة ، سواء بسواء . يعني أن لا شيء تؤجله من اللقاءات المرغوبة وغير المرغوبة ، والاقتحامات ، والمخاطبات الخرقاء ، والثرثرة . يعني أنك مَشَاعٌ .

«لماذا تقتني هاتفاً منزلياً إذاً؟» ، سألني ، فأجبت بلا تركيز :

- أغيب عن البيت فلا أعرف مَن اتصل . ولا أردُّ أحياناً على رنينه فلا يعرف المتصل أسمعتُ نداءَ الآلة أم لم أسمع؟

«ألا يثير فضولك أن تعرف من يتصل بك؟» ، سألني .

«لو كان لدي فضول ، يا خاتشيك ، لاقتنيت آلة تحفظ أرقام المتصلين» ، أجبت .

حدثني خاتشيك عن نهاية العالم . ثرثرة تحتمل كل شيء ، أحياناً ، مع صديق من صباك : الوجود . الكون . الحشرات . الشرب الزائد للماء . استمرار نموِّ الأظافر في الجثث بعد الموت . فوائد الغضب قَلْيُ البَيْض على حجر في الصحراء . أثاث منازل الملائكة . الخوف من جنون حَمَام المدن ، ونهاية العالم أيضاً .

قد أزعم لخاتشيك ، في محادثة قادمة ، أن النهاية كانت على قُرب شبر من حدوثها بظهور أول مخلوقات الخوف أمام عيني ، أعني الكلبَ الذي تمغَّط جسمه كأفعى ، ونبتت له زعنفةٌ ذيلٌ كالسمكة ، وغاب في البحيرة مختفياً . ربما ستكون نهاية العالم على أقرب من شبر لو ظهر الكلب من المياه تتبعه جراءٌ بأذيالٍ زعانفَ ، ورؤوس كرؤوس أسماك السلمون .

سألني خاتشيك :

- لو أُعلن ، مثلاً ، أن غداً هو نهاية العالم ، فماذا سيفعل الناس بالساعات الباقية من أعمارهم؟

«سيخرجون إلى الشوارع» ، قلت . «سيكونون أكثر حناناً ورقة ، متسامحين ، كرماء ، يتبادلون ثيابهم ونقودهم التي لا معنى لها يتبادلون ثياباً أكثر بثيابٍ أقل ، ونقوداً أكثر بنقودٍ أقلَّ» .

«أتمزح؟» ، تساءل خاتشيك . «سيخرج الناس بأسلحتهم السكاكين ، والفؤوس ، والبنادق ، كلٌّ ينتقم لنفسه آخرَ انتقام يقْدِر عليه : انتقام بسبب نظرة لم يحبها . انتقام بسبب ضجيج أحْدَثَهُ جارٌ مرتين . انتقام من ربِّ عمل وعائلته معاً لأنه لم يكن منصِفاً . انتقام من معشوق تجاهلَ غرامَ العاشق . آخر يوم من أيام البشرية ، إنْ عرف الناس أنه آخرها ، سيكون يوم انتقام الكلِّ من الكل : الأفراد من الأفراد ؛ الشعوب من الشعوب ؛ التاريخ من التاريخ ؛ الكتب من الكتب ؛ الرسوم من الرسوم ؛ الآلهة من الآلهة . لا أحد سينجو من انتقام أحد» .

«ما هذا يا خاتشيك؟» ، تساءلتُ ، فرد :

- سيرورة الحياة كلُّها صناعةٌ مُحْكمة للرغبة في الإنتقام .

«لا بأس ، يا خاتشيك . سأوافقك قليلاً» ، قلت . «لكنْ دعني أتخيَّل مساراً آخر للأمور في آخر يوم من نهاية العالم : سينتحر الناس حتى لا يتركوا فرصة لشماتة النهاية بهم» .

«هذا التخيل ليس كافياً ، يا سارات» ، قال خاتشيك . «سينتحرون ، ربما . أُفضِّل ذلك . لكنْ أُفضِّل أكثر لو أنهم سينتقمون من النهاية القادمة بعد ساعات بنهايةٍ يصنعونها هُمْ مُعجَّلةً قبل ساعات . ذلك سيكون آخر حلمٍ مدهشٍ للإنسان في انتقامه من المصادفة التي أوقعتْه في مصيدة الوجود» .

«هذه فكرتي» ، قلت .

«فكرتك؟!» ، تساءل خاتشيك ، فأجبت :

- نعم . قلت إنهم سينتحرون لينتقموا من النهاية .

«لم أسمع جيداً . إذاً» ، قال خاتشيك .

«تسمع حين تريد . ولا تسمع حين تريد» ، عقَّبتُ . «أصِرت من
فلاسفة اليأس في فنلندا ، يا خاتشيك؟» .

«أين اليأس في هذا؟» ، تساءل خاتشيك .

«عنيتُ البؤس ، ربما» ، قلت .

«أين البؤس في هذا؟» ، تساءل خاتشيك .

«عنيتُ الشكَّ» ، قلت .

«ما بك؟» ، تساءل خاتشيك . «أنت كهاتفٍ منزليٍّ في محادثة
بين قرية من أفريقيا وقرية من الصين» .

«لم أفهم» ، قلت .

«كلماتك صدىً لا يتطابق مع صوت فكرتك» ، رد خاتشيك
«أنت خطٌّ هاتفٍ منزليٍّ مقطوع» .

نعم . كلماتي ، في الثرثرة مع صديقي الأرمني ، لم تكن تطابق
الموقف الذي تخيَّله لنهاية العالم السعيدة : الانتقام من النهاية بتعجيل
النهاية . إهانة النهاية بنهاية مثلها .

خياليْ لم يكن مؤهَّلاً لاستعادة المحادثة وأنا أفتح الباب بعد خروج
الكلب من نافذة المشْغَل ، لكنه استعادها . تقدمت تاركاً الكيس
ورائي على ممر الحديقة . تفقَّدتُ ، في حذر ، مدخل البيت ، ثم
الردهة ، ثم المطبخ : ما مِن آثارِ ضرر .

خطوتُ صوب الباب في الجدار الفاصل بين المطبخ والمشغل . لمستُ
مقبض الباب بيد باردة من اضطرابي ، ومما توقعت أن أرى . سمعتُ أنيناً
خافتاً أجفلني أكثر ، بل ارتعدَ وريدٌ في موضع من قلبي . فتحتُ الباب
متمهلاً بدفعه إلى الداخل . صَرَّ شيءٌ منزلقاً على الأرض وقد دفعه
البابَ . علبة دهان ربما ، أو فرشاة كبيرة لها ذراع من معدن .

قليلاً قليلاً ، مع اتِّساع انفتاح الباب ، انكشف لبصري حطامٌ أكثر مما توقعتُ . لا شيء ظلَّ على حاله في مشغلي . لم ينجُ شيء .

خطوتُ خطوة إلى الداخل يسبقني بصري مستعرضاً أركان المشغل المستطيل . صُعقتُ حين استقرَّت عيناي على الزاوية الجنوبية الغربية : الفتيات الخمس كُن ملتمَّات ، جاثيات ، دافنات رؤوسهن الواحدة في صدر الأخرى بوجوه منكَّسة إلى الأرض لم أستطع رؤيتها ، وقد أحاط بعضهن رقابَ بعض بأذرعهنَّ تحامياً ، واتِّقاءً .

ليس صوتي هو الذي اندفع من بين شفتيَّ متراخياً ، متقوِّضاً ، بل هواءٌ مسلوخ حين نطقَ لساني بارداً بمسٍ من الشهيق :

- ماذا تفعلن هنا؟

انفرطَ التحامُهن إذ سمعن صوتي . انقسمت كتلتُهن المتراصَّة ، المتلاصقة ، فاستعادت كل واحدة جسدَها . انتصبن واقفات قفزاً على أرجلهن كأنهن جسومٌ مطاطٌ صدمت الأرضَ فارتفعت نطًّا . ظننَّ أنني أنجدتُهن فهببْنَ إلى معانقتي ، أو كُدْنَ .

أعدتُ سؤالي على عيونهن الشاخصة إليَّ ببروقٍ من الرعب فيها :

- ماذا تفعلن هنا؟

لم تردَّ أيٌّ منهن . ألقين أبصارهن ، من دون سائر الحطام المتناثر ، إلى مشروع اللوحة المحتملة ، التي لم أهيِّئ منها غيرَ بياض وبقعتين رماديتين كبصمتَيْ إصبع . كان إطارها الخشب مهشماً ، والقماش ممزَّقاً ، ممرَّغاً في دهانٍ تناثر من العلب الصفيح المشروخة بأنيابٍ وبراثنَ حديد . صَدَر أنينٌ من حناجرهن خيوطاً رفيعة مهتزَّة . أسىً طاحن ترقرق في عيونهن .

«ماذا كان ذاك؟» ، تساءلت يادا ذات الكدمات حول عينيها ، في

إشارة إلى المخلوق الذي اجتاح مشغلي .

«كلبُ سمكة» ، تمتمت بنبرٍ فيه سخرية من ردِّي .

حَدَّقت يادا إليَّ ، ثم تطلَّعتْ إلى الأخريات بَدَوْنَ لم يفهمن الوصفَ الخامل .

«أرأيتنَّ مثله في سنجار؟» ، تساءلتُ ، واضعاً قدمي اليسرى على علبة دهان مقلوبة .

صوتٌ خافت ، متهدِّج ، خرج من بين شفتي الفتاة الصغيرة نيناس غناءً غير واضح الكلمات . تناوبت الأخريات همساً توبيخاً للفتاة الصغيرة على غنائها .

«ليس الآن ، يا نيناس» ، قالت شاهيكا .

يادا ، وكيديما ، وآنيشا جذبن نيناس جذباً خفيفاً من أطراف سترتها يُسكِتْنها .

لم تتوقف نيناس عن غنائها الخافت ، غير الواضحِ الكلمات . حملتِ القماشَ الممزق ، المتعلِّق بعْدُ بالإطار المهشم . بسطتِ المزق الملطخة دهاناً بين يديها كأنها ترثيها .

جلْتُ ببصري على علب الدهان الصفيح مثقوبة ، أو مثلومة ، من عضٍّ بالأنياب ، أو مشقوقة بمخالب استحالت سكاكينَ وفؤوساً رهيفة الشفرات . جلتُ ببصري على الفراشيِّ مكسوراتٍ عضًا في الأرجح . جلْتُ ببصري ، مع الغناء الخافت في حنجرة نيناس ، على الأريكة الصغيرة أستريح عليها أحياناً ، لصق الجدار الجنوبي ، وقد تفلَّع حشوُها القطنُ من شقوق طوال ، متوازية ، أحدثتْها أظفارٌ مقصَّات .

حالُ العارضةِ ذاتِ القوائم ، التي أسند عليها اللوحات منتصبة للرسم ، لم تكن أفضل من أيِّ متاع آخر . كانت ملقاة أرضاً بقائمتين

مكسَّرتين ، ومفاصلَ مخلَّعة . مقعدي الكرسيُّ ، الذي أجلس عليه آناء الرسم ، كان مبعثراً قِطعاً لا يُحسِن نجارٌ تفكيكَه على ذلك النحو . غير أن الحطامَ كله لم يَعْدِلِ الدِّهانَ المتناثر من العلب الصفيح على أرجاء المشغل - أرضِه وجدرانه .

يعمد بعض الرسامين إلى رشْقِ الأقمشة بالألوان رشْقاً من الفَراشيِّ كي تتدبَّر المصادفةُ حظَّها من رسم تجريد . لكنه رشْقٌ فوضىً ، اعتباطيٌّ ، يحوجه إتقانٌ بالنظر مُحْكَمٌ يتخيَّل كيفَ ينبغي للمصادفة الإعتباطية أن تلدَ ذاتَها رسماً مدروساً بمقياس التحكُّم ، والدُّرْبة على تشكيل التجريد .

القديرون في الرسم التجريد رشْقاً بالألوان على الأقمشة ، مثل الأمريكي جاكسون بولوك ، تغدو المصادفة بين أيديهم على براعة في تنسيق الفوضى ألواناً ، تماماً كالذين يرسمون بتخطيطٍ مسبق للأجساد ، والأشياء ، والطبيعة ، نقلاً عن نماذج موصوفةٍ مرئية . لقد غدا مَشْغَلي من مبتكرات رسَّامي الرشق باللون ، في لوحةٍ تجمع الجدرانَ ، والعلب المعدن الممزقة ، والحطام ، جمْعاً على براعة في تنسيق المصادفة الفوضى الاعتباطية : براعةٌ مُذْعرةٌ ، قاسية ، لكنَّ لها سطوةَ رسم من الرسوم التي يستوحيها جلدي مرسومةً عليه في الصباح ، منتقاةً من أكثر اللوحات عنفاً ، وبطشاً ، وترويعاً بالقتل ، والسلخ ، وقطع الأعناق .

كان مَشْغلي مروَّعاً ، مُنتَهكاً بالبطش الأعنف . كان مشغلي بالحطام فيه هو اللوحة التي ينبغي أن أضيفها إلى مجلَّد الرسوم مسنوداً إلى الجدار قرب سريري .

لم أكن أسمع غناء نيناس الخافت ، أو زجرَ رفيقاتها لها ، بل أسمع نبضَ اللون موزَّعاً على أركان المشغل المستطيل .

تنظيف المكان سيكون ثقيلاً جداً عليَّ .

أحسستُ باستسلام .

نظرتُ إلى الفتيات . ساءلتهن :

- كيف دخلتن البيت؟

«لم ندخل» ، تمتمت آنيشا في رد لا معنى له .

عادت الفتيات إلى انتهار نيناس على غنائها ، معانِدةً لا تتوقف .

وضعتُ يدي على كتفها . قلت بانكسارٍ هادئ :

- هذا يكفي .

توقفت نيناس عن الغناء . انحنت تعيد اللوحة المغدورة ممزّقةً ، مكسورةَ الإطار ، إلى الأرض ، في الموضع الذي رفعتها منه . أشعلتُ لفافة تبغ قدَّمتها إلى كيديا ، وأشعلتُ واحدة لي . تقدمتُ صوب النافذة المحطمة على وقعِ الزجاج المهشم تحت حذائي . ألقيتُ بصري على الأفق المياه .

تجمعت الفتيات حولي ينظرن مثلي إلى البحيرة . تمتمت يادا :

- أين ذهب ذلك الكائن؟

«إلى أعماق البحيرة» ، أجبتُ بنبرٍ كالهمس . أدرت وجهي عليهن : «أين تسكُنَّ حقًّا؟» ، سألت .

لم يُجبْنَ .

زفرتُ بلا رغبة في استنطاقهن ما دام الأمر ، برمَّة منطقه ، متداخلاً بانعكاسات الوجود على معقوله الملتبس . هو أمرٌ سواءٌ أكُنَ يسكُنَّ مشغلي مذ فكرت في رسم عن سبي القرن الحادي والعشرين ، أو كُنَّ يقْطُنَّ البياضَ وراء حجابه في لوحتي ، أو كُنَّ يسْكُنَّ البحيرة ، أو كُنَّ بعْدُ في سنجار على موعدٍ مع يقين الأيزيدي بعودة الملاك ، كل

خمسمائة عام ، لتثبيت الدُّرَّة المائلة في تاج الخَلْق .

كانت الشمس ، غير المرئية خلف بروج الغيم وقلاعه ، قد مالت إلى الجهة الأخرى من الظُّهر . أحسستُ بجوع . نقشتُ الدخانَ على الصور المتقوضة أمام بصر خيالي . سألتهن من غير نظر إليهن بل إلى المياه :

- أأنتنَّ جائعات؟

لم يتكلمن .

التفتُّ إلى نيناس :

- هلاَّ جلبتِ الكيسين المرميين على ممر الحديقة؟ .

غابت نيناس برهة ثم عادت بالكيسين . كادت تدخل المشغل من الباب بينه وبين المطبخ ، فبادرتُها :

- ضعي الكيسين على المنضدة ، هناك .

خَطَر لي أن أتصل بناتالي . لكن ماذا أقول لها؟ ستكون حكايتي مرتبكة المنطق بالرغم من آثار الحطام في المشغل . أأصفُ لها أن كلباً قفز إلى النافذة المزدوجة الزجاج فهشمها مقتحماً؟ ما من كلب فعل ذلك . لم تلفِّق الأساطير عن كلاب الآلهة على مدخل جحيمها هَادِسْ أنها صدمت الجدران مطاردةً أشباح الدخلاء من أبطال الأساطير . إنها كلاب تعضُّ أغلالَها السلاسلَ أحياناً ، وتعض الحجر من سعارها . عليها أن تفعل ذلك . عليها أن تبدو شرسة تليق بالرعب الشرس على مدخل الجحيم في أساطيرها .

لا . لن أتصل بناتالي ، بل بمالك البيت . مكلفٌ تبديل نافذة ضخمة لها زجاج مزدوج . لكن كيف أبرر له التحطيم والتهشيم؟ تصدم الطيورُ التائهة البصر الزجاجَ مراراً من غير كسْرٍ . ورقٌ متطاير ،

ثلجٌ عنيد ، ريحٌ قَرْعٌ : كله لا يكسر زجاج النوافذ الحصينة ، الصامدة في الصدمات . لا . عليَّ أن أتدبر الأمر بنفسي فأطلب من يصلحه . سأتصل بشركة تعرض خدماتها على الإنترنت . المسألة عاجلة : بات البيت مفتوحاً حتى لو أغلقتُ الباب .

عاد إليَّ السؤال الباهت ، بقليل من الفضول : «كيف دخلتن؟» ، سألت بلا تعيين ، وأنا أنتقل بقرقعة من الخُطى على الحطام إلى المطبخ . لم أنتظر جواباً : «سأصنع سَلَطَةَ تُوْنا» .

لا تاريخ للجنون يَعْدِلُ تاريخ جنون الطعام ، في الدورة الفوضى - كالرسم التجريد رشْقاً باللون على القماش - مِنْ أكلِ اللحم نيئاً ، فمطهواً سلْقاً ، فمشويًا ، فمدخَّناً ؛ ومِنْ أكلِ الفاكهة فجَّةً ، فناضجة ، فمجفَّفة ؛ ومِنْ أكل الخضار بالتفاصيل المروية من سيرة ذوق الإنسان في اكتشاف خصائصها ، وتبويب طعمها .

لا تاريخ للجنون يعادل تاريخ استمراء الإنسان للمذاقِ المرِّ ، واللاذع ، والحرِّيف ، والتبشير به رفاهةً في الطعم .

دورة جنون ، من النيء عن جهل الإنسان بالطهو في مطالع وجوده ، ثم العودة إلى النيء عن تجارب تملأ جيوبَ الوقت وحقائبه . لحومٌ حُمر تؤكل نيئةً ، الآن ، بالتوابل تُمرِّغُ الطعمَ في لذة الطعمِ ومتعة النكهة . ثمارُ بحرٍ تؤكل نيئة في فخر العقل الطاهي بمآثِر مغامراته في تاريخ المذاقات . لحومُ طيور تؤكل بعد تركها مذبوحةً أياماً بلا حفظ ، حتى يداخلَها أولُ العفن والعَطَن ، ثم تُطهى . ربما يقتبس عقلُ الطهو للحم الطيور على هذا النحو شيئاً من ذاكرة الوراثة في خلايا جسده المتصلة بأبيه الإنسان الأول ، الذي لم يعرف حفْظاً للحوم تمليحاً ، أو تدخيناً ، أو تبريداً ، فتركها وقتاً ، ثم عاد إليها عن جوع وقد أصابها

عَفَنٌ فأكلها . تسمم الكثير من آباء الإنسان الأوائل وأمهاته . ماتوا ، أو نجوا . أحفادهم الحديثون لا يتركون لمصادفات الوقت أن تتدبَّر العفن للحوم الطيور المخصصة لوجبات من هذا الصنف . هم يضبطون المقادير المطلوبة من زمن التعفن على الساعات . لهذا لن يتسمم الآكلون لحومَ طيورٍ متعفنةً . لقد غدا العفن في لحم الطير ، واستحالة رائحته إلى فسادٍ خفيف ، من جدارة الخيال الطاهي في منح العفن والفساد حظوةَ الطعامً المستطاب ، المستحسَن ، المطهوِّ في حذْق فريدٍ . وغدت جدارةُ العقل الطاهي في الإنسان مزاحمةً للآلهة في مطاعمها .

سَلَطة تُونا : خضار مفرومة مع فلفل أحمر حرِّيف ، مخلوطة بلحم السمكة معلَّباً محفوظاً في زيته المرغوب . بعض المايونيز ، والليمون ، ومعجون الخردل الفرنسي ، وزيت الزيتون . جمعت العناصر هذه ممتزجةً في وعاء مجوَّر . قسَّمتُ خبزَ الباغيت الأسطواني قِطَعاً . شققتُ القطع طولاً . حشوتها بالخليط . رتَّبتها على صحفة مستطيلة : «فليأكل من يأكل» ، قلت . فتحت علبة جعة ، وارتشفتُ الشراب من فمها الصفيح .

«لا نأكل في المنازل» ، قالت نيناس بصوت خجول .

«أين تأكلن إذاً؟ على سفوح سنجار؟» ، تساءلتُ ، ثم هرولتُ إلى الردهة : «سأتصل بالشركة لإصلاح النافذة» ، رميتُ الكلمات إليهنَّ من ورائي .

بعد استنطاق الإنترنت لدقيقتين بحثاً عن الشركة اتصلت بموظف فيها . قلت له :

- إنها حالٌ إضطرارية .

«ليس قبل ظهر الغد» ، رد .

ستبقى النافذة مفتوحة إذاً . رجعت إلى المطبخ فألفيتُ الفتيات جالسات أرضاً . جلستُ بدوري قبالتهن إلى منضدة المطبخ .

«ماذا كان ذلك الكلب؟» ، سألتني شاهيكا .

«كان كلباً» ، أجبتها .

«أرسمتَه؟» ، تساءلتْ ، فأجبتُ :

- ذلك كلبٌ لا يُرسم إلاَّ بدمٍ بشريٍّ .

«اين مضى؟» ، تساءلتْ ، فأجًبت :

- كلبٌ مائيٌّ ، عاد إلى الماء .

«ما الكلب المائي؟» ، سألتني آنيشا .

«الذي له ذيلٌ زعنفةٌ» ، أجبت .

تبادلت الفتياتُ نظرات . استفسرت آنيشا من رفيقاتها :

- أكان له ذيلٌ زعنفة؟

«بل كان عليه ريش» ، ردت يادا .

«ماذا؟ أين كان الريش؟» ، سألتها آنيشا .

«على جنبيه ، وله ذيل ديك» ، ردت يادا .

«توقفْنَ» ، قلت ، وأنا أمضغ القضمة الأولى من شطيرة الخبز محشواً بالتُّونا . « إنْ كان هذا ما رأيتنَّ من الكلب فأنتنَّ لم ترينه» .

«كيف كان الكلب ، يا سارات؟» ، سألتني شاهيكا .

«أتسألينني؟ كان الكلب معكن هنا» ، قلت .

«أخَرَجَ من لوحتك؟» ، سألتني شاهيكا مبتسمة .

«دخل من النافذة ، يا بنات سنجار . لم أرسم شيئاً بعد» ، قلت مبتسماً أقلِّدها .

«ماذا عنَّا؟» ، سألتني شاهيكا .

«ماذا عنكن؟» ، تساءلتُ بدوري .

«كيف دخلنا منزلك؟» ، سألْتني .

زفرتُ ، فتبادلن نظراتٍ لم أفهمها .

«لا تربكْنني . يكفيني ما أنا فيه اليوم» ، قلتُ . سألتهن من جديد :

- ألن تأكلن؟

عُدْنَ إلى تبادل تلك النظرات التي لم أفهمها ، وهن يطوِّقن سيقانهن المنثنية صوب الصدور بأذرعهن .

تأملتهن في جلستهن : هيئاتٌ كاجتماع نساء جالسات في ساحة بيت من قرى الشرق القديم . نهضتُ متجهاً إلى المشغل ثم استدركتُ : كنت سآتي بدفتر ورق الرسم السميك ، لكن الدفتر لن يكون على الرف هناك . مزَّقه الكلب . فلْآتي بواحد من خزْنة غرفة النوم .

جلبتُ دفتراً عريض الأوراق ، خشنةٌ مسامُّها ، وقلمَ رصاص . أبعدتُ صَحْفة شطائر التُّونا ، وفتحت الدفتر عن ورقة لم يُخدَش حياءُ بياضها .

«أسترسم الكلب؟» ، سألتني شاهيكا إذ رأت تصميماً خفيفاً في عيني ، فتدخلت كيديما :

- أغمضتُ عيني ، حين خرج الكلب من لوحتك ، فرأيت الشيخ عادي قدَّس الله سرَّه .

«أقسم بتراب لالش أنني رأيته أيضاً ، ومعه طاووس ملك إلى جواره» ، قالت آنيشا موسِّعةً بين أجفان عينيها الشهلاوين تأكيداً على ما تقول .

«أكلَّمكما؟» ، سألتهما شاهيكا .

«لا» ، ردت كيديما . أضافت : «كان يمد يده إليَّ بحبة تين حمراء ، متشقِّقة نضوجاً عن لُبِّها» .

«أتناولتِها منه؟» ، سألتها شاهيكا ، فردت كيديما :

- لا . سمعتُ صوت سارات ففتحت عينيَّ .

«ماذا عنك ، يا آنيشا؟ ما كانت هيئة الشيخ عادي؟» ، سألتها شاهيكا ، فردت آنيشا الطويلة :

- كان معصوب العينين بخرقة سوداء ، منتصباً ، تتحرك شفتاه بكلام غير مسموع . طاووس ملك كان يحمل على ظهره ، بين جناحيه ، زورقاً .

«زورقاً؟» ، تساءلت نيناس الصغيرة مستغربة .

تكلمت شاهيكا :

- آنيشا تخترع .

«أُقسم بمرقد الشيخ عادي أنني رأيتهما هكذا» ، ردت آنيشا بصوتها العميق الذي لا يناسب عمرها الفتي .

تبادلت الفتياتُ نظراتٍ مُزِج الشكُّ باليقين فيها .

رفعت يادا وجهها من مجلسها أرضاً . حدَّقت إليَّ بعينيها السوداوين يحيط بهما أثرُ كَدمات . سألتني :

- ما تأويل هذا ، يا سارات؟

مرَّرت القلمَ الرصاص خطَّيْنِ مقوَّسيْن على ورقة الرسم أمامي قبل أن أجيب :

- سيعود بكنَّ طاووس ملك إلى سنجار في زورق .

لم أنظر إليهن لأرى وقْعَ جوابي في أعينهن . كانت يدي سائرةً

بالقلم خطوطاً من وحي رسم في ذاكرتي لسفينة أنجزها البولوني جيزيستو بيكسينسكي من مطارحات خياله المعذَّب في سُرياليته الغوطيَّة، العنيفة القاسية.

سفينة هائلة الهيكل بالقلم الرصاص، أو القلم الفحم، تمخر بارتفاع صدرها عالياً عن المياه. سواريها تُلْمحُ لمحاً في الأعلى، لأن بصرَ الرسم متجه من أسفل السفينة إلى سَمْتها.

على واجهة السفينة نحتان وجهان من خشب نافر، أو مِمَّا لا يُفصح اللونان الأسود والأبيض عن معدن نحتِهما. أحدهما، في الأعلى، جمجمةٌ عظمٌ بعينين واسعتين، مجوَّفتين، مليئتين سواداً في محجريهما، وأنف عظم اهترأ لحمه وغضروفه. وللجمجمة لحية تتفرَّع عن الفم على جنبيٍّ الوجه، مغطيةً مقدَّمَ السفينة عن يمينها ويسارها.

تحت الجمجمة وجهٌ آخر، بفاصلٍ من مثلث نقشٍ نافر كأشجار السرو. وجهٌ عادي، مستدير، يعتمر صاحبه قبعة ضابطٍ بحَّار، محدِّقاً بعينيه إلى الأفق العالي.

وراء الهيكل الضخم للسفينة طيور نوارس، في بعيد السماء المتدرجة رماديةً وسواداً. وعند أسفل السفينة، بين الموج غير الهائج كثيراً، مَرْكَبٌ يكادُ يُلمحُ لضآلة حجمه، فيه أشباحُ بحَّارة.

ليس لسفينة البولوني بيكسينسكي عنوان كحال اللوحات عند الرسامين يسمُّونها. الكثير من لوحاته بلا عناوين. هو يريد الرسمَ المعروض على عينيٍّ الناظر أن يبتدع عنوانَه. كلُّ ناظر إلى رسم بلا عنوان سيمنحه عنواناً من ذوق خياله، وذوق انطباعه.

إنها سفينة موحشة البناء. سفينة أشباح. سفينة قراصنة. وأنا أجريتُ القلمَ مستوحياً بعضَ شكلها على الورقة الخشنة أمامي، برقَّة

في اللمس ، فأنجزتُ الهيكل الضخم بلا تفاصيل كالتي في الأصل ، لكن بتركيزٍ ، في الرسم ، على المركب الصغير ، الضئيل ، المتجه عبر الموج إلى السفينة .

بين قضم لشطيرة التونا ، وجرعات من الجعة ، جرى الرسم الرماديُّ ، منقولاً من ذاكرتي ، إلى غايته . نهضت نيناس مسترِقةً النظرَ فرفعت يدي اليسرى أستمهلها :

- ليس الآن .

ربما لحظتِ الفتاة الصغيرة شيئاً من الخطوط على الورقة الخشنة . نظرت إلى رفيقاتها :

- سارات لا يرسم كلباً .

«أيرسمنا؟» ، تساءلت آنيشا ، فردت نيناس :

- لا .

«ماذا ترسم ، يا سارات؟» ، سألتني شاهيكا ، فأجبت :

- انتظِرْنَ برهةً .

اكتمل هيكل السفينة برسم وجه واحد على مُقدَّمها هو الجمجمة . لا طيور نوارس . لا أمواج إلاَّ خطوطاً متعرجة توحي بالموج . مركَبٌ صغير في الأسفل ، تائه أكثر ممَّا هو في اللوحة الأصَل . رفعتُ الورقة بيديَّ أمامَ عيني . تأملتها ، ثم ادرتُها معروضةً على أبصار الفتيات .

«ما هذا؟» ، تساءلت يادا ذات الصوت الحزين النَّبر ، فأجبت :

- سأعود إلى سوريا في هذه السفينة .

«وماذا عن المركب الصغير أسفل السفينة؟» ، تساءلت شاهيكا .

«إنه مركب نجاة إن غرقت السفينة» ، أجبتها .

تبادلت الفتياتُ نظراتٍ فيها خيبة . سألتني آنيشا :

- أين نحن؟ .

«في السفينة القادمة بعد هذه» ، أجبت وأنا أُفلت الورقة العريضة من يدي ، متعمِّداً أن تنزلق عن حافة المنضدة إليهن ، فتلقَّفنها جالسات . مرَّرْنها الواحدة إلى الأخرى ، وتزاحمن برؤوسهن في الخُمرُ استطلاعاً للهيكل الرمادي الموحش ـ سفينة الأشباح .

نهضت شاهيكا بالورقة في يدها . أعادتها أمامي على المنضدة متمتمةً :

- كل ليلة نرى هذه السفينة .

تأملتُ وجهها مبتسماً :

- أين؟

«في البحيرة» ردت .

أبقيت بصري عليها صامتاً ، فنقرتْ بأناملها على طرف المنضدة :

- لماذا تحدِّق إليَّ هكذا؟ أرأيت البحيرة ليلاً؟

«أراها من النافذة كل ليلة ، معتمة صامتة» ، أجبت .

«أزرتها ليلاً؟» ، سألتني ، فأجبتها :

- أجلس على ضفتها أحياناً في الصيف ، مع أصدقائي .

«أتجوَّلت فيها ليلاً؟» ، سألتني .

«على ضفتها» ، قلت .

«على ضفتها ، أو حيث شئتَ» ، عقبت شاهيكا .

تراجعتُ بظهري إلى مسند الكرسي متمهِّلاً في النظر إليها . سألتها :

- حيث أشاء؟ ماذا تعنين؟

«حيث تشاء» ، كررت شاهيكا جوابها . «تجوَّلْ معنا في البحيرة هذه الليلة» .

«أمعكن مَرْكبٌ؟» ، سألتها مبتسماً .

لم تجب شاهيكا . أومأتْ إلى الأخريات برأسها فنهضن . اتجهن من المطبخ إلى رواق البيت مغادرات .

وقفتُ قبالة النافذة أراهنَّ على معبر الحديقة ، متجهات صوب الخلاء الصخر الأملس ممتداً لساناً حتى ضفة البحيرة . فتحتُ النافذة . ناديتُ :

- كيف دخلتنَّ بيتي ، يا شاهيكا .

ابتسمت شاهيكا . أشارت بذراعها إلى جزء الضفة العاري من القصب :

- سننتظرك هناك مساءً .

لم يغالبني إحساس بالوحدة كذاك قبلاً ، وأنا أتتبعهن ببصري متجهات إلى ضفة البحيرة ، هادئات ، لا يتكلمن ، بل يلتفتن إليَّ كلَّ بضع خطوات . أيُذكِّرْنني بالموعد مساءً؟ لماذا أردنني أن أزور البحيرة معهن ليلاً؟

اتجهت إلى المَشغل المنكوب . وقفت على العتبة أتأمل الحطام ، ثم سرَّحت بصري على الألوان مرشوقةً على الأرض ، والجدران ، من تحطيم الكلب لعُلب الدهان عضّاً ، ونهشاً ، وتمزيقاً . استَعَرَ خيالي بغتةً من المشهد ملوَّناً في فوضى قوية ، جامحة ، لكنها جذابة أيضاً .

مشيتُ بين الركام المتناثر أجمع علبَ الدهان بما تبقَّى فيها . حملتها ، ماشياً بقدميَّ المتسختين مما انسكب على أرض المشغل من ألوان ، إلى المطبخ . كوَّمتُها على المنضدة حتى امتلأ سطحها ، ثم على مسطبة مغسلة المطبخ .

علبُ كثيرة ، مستنزفة إلاَّ من بقايا فيها ، وعلب لم يندلق من خرومها وشقوقها إلاَّ بعض ما فيها . تنفَّستُ عميقاً . خلعت سترتي ، وقميصيَ الخارجي ، والداخليَّ القطنَ الرقيق . انكشف جذعي الأعلى عارياً بالرسم عليه من طَوْف سفينة الميدوزا وبحَّارتها اليائسين . رشقتُ بدهان إحدى العلب جدرانَ المطبخ ، فأرضَها ، فالبرَّادَ نفسه . أخذت عُلباً إلى رواق البيت . رشقت بالدهان الجدارين المتقابلين ، فالممشى من أرض الرواق .

ظللتُ أنتقل بالعلب الصفيح المستنفَدة إلى المطبخ لأعود منه بعلب فيها بعض الدهانِ بعْدُ . رشقتُ جدران الردهة ، والنوافذ ، والبساطيْنِ التركي والإيراني ، والأرض ، والسقف ، والأريكة ، والكراسيَّ الوثيرة . رشقت جدران الحمَّام الصغير . رشقت جدران غرفة النوم ، وخزْنة الثياب ، وغطاء السرير الشبيه بجلد الفهد الأفريقي . قطرات كبيرة من الدهان أصابت المجلدَ ذا الطول الثمانين سنتمتراً ، والعرض الخمسة والأربعين ، المُسْنَد إلى الجدار ، قرب السرير ، يستوحيه جِلدي كلَّ صباح رسْماً مُقلقاً ، كابوسيًا ، عنيفاً متوحشاً .

عدتُ أدراجي إلى المطْبخ بآخر علبة فارغة حَوَت دهاناً أسود . رميتُ بها إلى كومة العلب على الأرض . تأملت يديَّ ملطختين بألوانٍ كقوس قزح ، لكن الأبيض كان الأوفر حظًا عليهما ، وعلى جدران البيت أيضاً .

تداعى إلى خيالي شيء من النِّسبة «العنصرية» في اللون الأبيض . ساذجةً بدت خاطرتي في إسناد العنصرية إلى البياض . لكنها سذاجةُ تمرينٌ ، ككل خاطرة ، على التلاعب بتاريخ أصول الأشياء وأفكارها . أنا لم أكتشف تاريخ العنصرية في غَلَبة البياض

على السواد الذي رشقتُ به البيت . علب الدهان الأبيض ، عندي ، أضعاف علب الدهان الأخريات . ذلك ليس تفضيلاً منِّي ، بل هو من حاجات الرسم ، التي لن تبرِّر بها الآلهةُ المتخيَّلة تفضيلَها للبياض بإرغامه على اقتناء السلاح الأقوى في معركة الخير الأبدية .

كلُّ سواد حظيَ ، في تاريخ الإنسان ، بإهانةٍ . كل بياض ناصع ، مضيء ، باهر ، حظيَ ، في تاريخ الإنسان ، بمديح كالنشوة . أصل العنصرية ، برمته ، في تعبير العقل الإنساني ، هو إرغام الظلام على لعب الدَّور الشرير في مسرح المعتَقَدات ، وإرغام البياض النُّور على لعب الدَّوْرِ الخير . بعض الذين أصابهم ضيمٌ ، أو حيف ، أو إهانة ، من هذين الإرْغاميْنِ ، حاولوا قلبَ الأدوار ، في الدفاع عن شرف جلودهم ، فلم تختلف معضلة توزيع الأدوار في المسرح : ظلَّ النصُّ دينيًّا في تأويل القُدْراتِ البِيْض والقدرات السود .

ربما ـ أبْعَد من سذاجة خاطرتي ـ أن الأمرَ كله حنينُ عنصريّة شريرةٍ إلى عنصريةٍ خَيِّرة ، ما دامت العنصرية طَبْعاً من اعتراف اللون بأداءٍ سيِّئٍ في مسرح الخيال .

تجوَّلتُ على البيت مرشوقاً بالألوان فوضىً : إنها اللوحة التجريد الأولى لي ، والأخيرة ربما . ينبغي ، إذاً ، أن أغمض عينيَّ لأعرض على الظلام فيَّ انطباعَ الناقد الأعمى ، لتقدير رفاهية تلك الفوضى ، أو فقرها .

تمدَّدتُ على بساط الردهة أرضاً . أغمضتُ عينيَّ .

أنا لا أنام القيلولةَ عادةً . لقد طفوتُ رغوةً في قَدَح الظلام حين أغمضتُ عيني ، وإذْ فتحتهما كنتُ الرغوةَ ذاتها مندلقة من قدح الظلام على بساط الردهة كالجعة فائرةً .

أغمضتُ عيني بعد الظهر وفتحتهما على عتمة المساء الأكثر ثقلاً في الخريف . تلمَّستُ موضع زرِّ الكهرباء فأضأتُ مصباحاً يتدلى من السقف . أضأت ، من ثمَّ ، كلَّ مصباح كهربيٍّ في البيت ، غرفة غرفة ، ورُكناً رُكناً ، وكذلك الثلاثةَ المصابيح ، القوية الإنارة ، خارج البيت ، وعلى طرفيِّ الحديقة شمالاً وجنوباً .

جئت بمصباح يدوي يُضاء بالبطارية ، من دُرْج في المطبخ . ارتديتُ معطفاً ، وخرجت من البيت .

كان الظلام ناعمَ الملمس ، رقيقاً في مواضع ، سميكاً في مواضع . مصابيح البيت الخارجية أضاءت الحديقة بتدرج ، وكذلك بعضَ الأرض الصخر الممتدة لساناً من نهاية الحديقة حتىً ضفة البحيرة ، لكنْ من غير أن يميِّز البصرُ سورَ القصب أو حدودَ المياه .

تمهَّلتُ ماشياً ، محدِّقاً باستقصاءٍ مدقِّق ، إلى الجهة المفتوحة من البحيرة بلا قصب يحجبها ، يتقدَّمني الشعاع الواسع ، الطويل ، من المصباح اليدوي الطويل المقبض . أدرتُ نورَه على المكان بحثاً عن فتيات سنجار فلم أجدهن . بلغتُ حافة الضفة . أرسلتُ النورَ رخيًّا منسكباً على سطح المياه الهادئة شمالاً ويميناً قبل أن أوجهه إلى القصب استقرئُ سكونَه .

أرتادُ البحيرةَ صيفاً مع الأصدقاء إذ يزورونني . منعشةٌ ضفتُها . نفترش الأرض قربها حول نار في صاجٍ معدنٍ واسع . نرفدُ النارَ كلما خَبَتْ بالغصون كثيرة مرمية في تلك الأنحاء . غيري أيضاً ، من قاطنيْ ضفاف البحيرة يفعلون ذلك ، موقديْنَ النيران ، لاهيْنَ ، شاربين ، ممرَّغيْنَ في روائح الشواء وفي صخب أطفالهم .

أنيسٌ ، أحياناً ، انعكاس النيران على عيون البط والإوز متطفِّلةً ،

من بين القصب ، على مَنْ يقلِقون خلواتها ـ خلواتِ الطير متفكِّراً في أجنحة كثيرة للجسم الواحد ، كلما تعب بعضٌ خفقَ البعضُ الآخر طائراً في السماء بلا نهاية للطيران .

وجهتُ ضوءَ المصباح إلى الثغرات الكثيفة السواد بين القصب علَّني أقع على عيني طائر ، مذْ لم أجد فتيات سنجار ، اللواتي طلبنني للقاء بهن على ضفة البحيرة . ربما ينقلبن ، هُنَّ ، بطًا أو إوزاً في الليل . ربما ينقلبن أسماكاً في مياه الكون اللامرئية تسبح فيها الأرواح بزعانف من ريش الطاووس المَلَك ـ عميدِ إله الأيزيدي المتدبِّرِ طهوَ الألفيَّاتِ السنينِ بتوابلَ من مواعيد ظهوره .

لا طيور . لا أسماك ، بل صوتٌ رقيق فاجأني :

- أطفِئ المصباحَ ، يا سارات .

أطفأتُ المصباح ممتثلاً لصوت شاهيكا من فوري . بلا التفات إلى مصدره . تمتمت :

- أين أنتنَّ؟

أمسكتْ شاهيكا بكُم معطفي الأيسر ، هامسة :

- تعال .

أدرتُ وجهي في الظلام على الفتيات وقفن أشباحاً من حولي . تساءلتُ :

- إلى أين؟

«إلى البحيرة» ، ردت شاهيكا .

«أمعكن مركبٌ؟» ، تساءلت مازحاً . « أمْ تُفضِّلن السباحةَ في الخريف؟» .

«تعال» ، كررتْ شاهيكا طلبَها وهي تجذبني جذباً رقيقاً من كُم

معطفي ، متجهة إلى برزخ المياه .

طاوعتُها خطوتين ثم توقفتُ . كاد حذائي أن يلمس الماء . التفتَ إلى شاهيكا الغارقة الملامح في لونينِ رماديٍّ وأسودَ شاحبٍ . كلمتُها بنبرٍ فضول :

- أتنويْنَ إغراقي؟

«نعم» ، ردَّت كيديما من ورائي ضاحكةً في خفوت .

«تعالَ» ، كررت شاهيكا الكلمة للمرة الثالثة .

«أين تأخذينني؟» ، سألتها بصوتٍ تراجعَ نبْرُ الفضول فيه فَغَدا حَذِراً .

«ضعْ قدمك في الماء» ، قالت شاهيكا .

«ما المعنى ، يا شاهيكا؟» ، سألتها .

سبقتني نيناس الصغيرة واضعة قدمها اليمنى في المياه . لحِقتْها آنيشا ، وكيديما ، ويادا ، كلٌّ واحدة بقدم يمنى في الماء ، كأنهن يتأهبن للإنطلاق في سباق .

أضأتُ المصباحَ اليدوي موجِّهاً الضوءَ إلى أقدامهن أستجلي معنى ذلك التصرف اللامفهوم .

«أطفِئِ الضوءَ» ، أهابت بي شاهيكا بصوت فيه نبرُ الإلحاح ، فلم أطفئ المصباح . رابَني ما رأيتُ ، بل أربكني : لقد وجدتُ أقدامهن فوق الماء لا تغوص فيه .

أمسكت شاهيكا بالمصباح في يدي . قالت بنبرٍ متوسلٍ قليلاً :

- أطفِئِ المصباح .

أطفأتُ المصباح .

«تعال» ، قالت شاهيكا تجذبني إلى الماء .

وضعتُ قدمي اليمنى في الماء مثل الفتيات الأربع . لم تغُصْ قدمي فيه .

ظننتُ أنني وطئتُ حجراً ربما . نقلتُ قدمي اليسرى أماما فاستقرت على الماء لا تغوص فيه .

تقدمتِ الفتيات خطوات هادئةً ، فتقدمت مع شاهيكا الممسكة بكُم معطفي ماشياً على الماء خطوتين ، قبل أن تبهرني أنوارٌ انبثقت مشتعلة في كل مكان على سطح البحيرة ، من أقصاها إلى أدناها : خيامٌ مضاءة لا تُحصَر أو تحصى ، على امتداد تعجزُ العيون عن بلوغ نهايته . مدٌّ من الخيام . سيلٌ من الخيام . غَمْرٌ من الخيام متقابلةً ، بممرات مستقيمة بينها .

«ما هذا ، يا شاهيكا؟» ، تساءلت بصوت مستنْزَف ذهولاً .

«لاجئون» ، ردت شاهيكا . تطلَّعتْ إليَّ واضحةَ الملامح ، مبتسمة :

- ماذا ترى؟

ليس الخيام وحدها ما رأيتُ ، وأنا أتقدم ماشياً فوق سطح المياه بخطوات ليِّنة في الغَمْر اللَّيِّن : كان أمام كل خيمة شخص جالس على كرسي ، وأمامه لوحة مثبَّتة على قاعدة ، معلَّقٌ فوقها مصباح لم أعرف من أين يتدلَّى .

كلُّ شخص ، من أولئك ، كان منكبًا على رسم الخيمة وقاطنيها الجالسين فيها أرضاً .

«أهؤلاء رسَّامون ، يا شاهيكا؟» ، تساءلتُ بصوتٍ مستثارٍ ، منبهرِ النَّبْرِ .

لم تجبْ شاهيكا . جذبتْ كُمَّ معطفي لأواصل السيرَ فواصلتْ

السيرَ مع فتيات سنجار ، غير آبهٍ بالهرير الذي سمعتُه خافتاً من أعماق المياه .

غابة سكوغوس

مملكة السويد
٢٠١٥-٢٠١٦

صدر للمؤلف

⁕ كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً	(شعر)
⁕ هكذا أبعثر موسيسانا	(شعر)
⁕ للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك	(شعر)
⁕ الجمهرات	(شعر)
⁕ الجندب الحديدي (سيرة الطفولة)	(سيرة)
⁕ الكراكي	(شعر)
⁕ هاتِه عالياً ؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا)	(سيرة)
⁕ فقهاء الظلام	(رواية)
⁕ بالشِّباك ذاتها ؛ بالثعالب التي تقود الريح	(شعر)
⁕ أرواح هندسية	(رواية)
⁕ الريش	(رواية)
⁕ البازيار	(شعر)
⁕ الأعمال الشعرية	(شعر)
⁕ معسكرات الأبد	(رواية)
⁕ طيش الياقوت	(شعر)
⁕ الفلكيون في ثلثاء الموت : عبور البشروش	(رواية)
⁕ الفلكيون في ثلثاء الموت : الكون	(رواية)
⁕ الفلكيون في ثلثاء الموت : كبد ميلاؤس	(رواية)
⁕ المجابهات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها	(شعر)
⁕ أنقاض الأزل الثاني	(رواية)
⁕ الأقراباذين	(مقالات في علوم النَّظر)
⁕ المثاقيل	(شعر)

* الأختام والسديم (رواية)
* دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
* كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
* المعجم (شعر)
* ثَاذْرِيْمِيْسْ (رواية)
* موتى مبتدئون (رواية)
* السلالم الرملية (رواية)
* شعب الثالثة فجراً من الخميس الثالث (شعر)
* لوعة الأليف اللاموصوف المُحير في صوت سارماك (رواية)
* ترجمة البازلت (شعر)
* هياج الإوز (رواية)
* التعجيل في قروض النثر (نصوص)
* حوافر مهشَّمة في هايدراهوداهوس (رواية)
* السَّيل (بلغتُنَّ، أخيراً، عُمرَ الأربعاء) (شعر)
* السماء شاغرة فوق أورشليم (رواية)
* عجرفة المتجانس (شعر)
* السماء شاغرة فوق أورشليم «ج ٢» (رواية)
* آلهة (شعر)
* حورية الماء وبناتُها (رواية)
* شمال القلوب أو غربُها (عشاق لم يحسِموا أمرَهم) (شعر)
* سجناء جبل آيايانو الشرقي (رواية)
* سوريا (شعر)
* أقاليم الجن (رواية)
* الغزلية الكبرى (شعر)

نبذة مختصرة عن الكاتب سليم بركات

شاعر وروائي سوري ، كردي ، قويٌّ البناء ، فريدٌ ، نسيج وحده في وصف النقد لأعماله .

يُحسَبُ له أنه نَحَا بالرواية العربية إلى ثراء في خيالها ، وجعل اللغة في صياغة موضوعاتها لحماً على هيكل السرد والقصٍّ لا ينفصل عن جسدها ، حتى كأنَّ اللغة لم تَعُدْ وساطةً إلى السرد ، بل هي السرد لا تنفصل عن سياق بناء الحكاية .

ويُحسَب له في الشعر أنه أبُ نفسه ، مكَّنَ القصيدة من استعادة خواصها كحرية تعبير في أقصى ممكناتها .

ما من امتثال عنده لنمط أو مذهب . عنيد في نحته العبارةَ بلا خوف من المجازفات ، وكل كتاب له ، في الشعر والرواية ، موسوعةٌ مختصرة .

بركات من مواليد مدينة القامشلي ، في الشمال السوري سنة ١٩٥١ . انتقل إلى دمشق ملتحقاً بالجامعة دارساً للغة العربية سنة واحدة ، قبل أن يغادر إلى بيروت في العام ١٩٧٢ ، ومنها إلى قبرص سنة ١٩٨٢ ، ثم إلى السويد في العام ١٩٩٩ حيث يقيم .